

أنطون تشيخوف

الأعمال المختارة

المجلد الثاني

الروايات القصيرة



مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

دار الشروق



الأعمال المختارة

المجلد الثاني
الروايات القصيرة

دار الشروق

افطو تشخوف

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٢٢١٨٩

ISBN 978 - 977 - 09 - 2179 - 4

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

٨ شارع سيديييه المصرى

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزي القارئ:

في عصر يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهي من أهم أدوات النهضة المنشودة، وتؤمن المؤسسة بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، مشروع بالغ الأهمية ولا ينبغي الإمعان في تأخيرها.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، في العام الواحد، لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة في العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها.

أطلقت المؤسسة برنامج «ترجم»، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضاري للأمة عن طريق ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد.

وتأمل مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم في أن يكون هذا البرنامج الاستراتيجي تجسيدا عملياً لرسالة المؤسسة المتمثلة في تمكين الأجيال القادمة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار الخلاقة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم» والبرامج الأخرى المنضوية تحت قطاع الثقافة، يمكن زيارة موقع المؤسسة www.mbrfoundation.ae

عن المؤسسة:

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة كريمة من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، وقد أعلن صاحب السمو عن تأسيسها، لأول مرة، في كلمته أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت - الأردن في أيار/ مايو ٢٠٠٧. وتحظى هذه المؤسسة باهتمام ودعم كبيرين من سموه، وقد قام بتخصيص وقف لها قدره ٣٧ مليار درهم (١٠ مليارات دولار).

وتسعى مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، كما أراد لها مؤسسها، إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي، من امتلاك المعرفة وتوظيفها بأفضل وجه ممكن لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة مستمدة من الواقع، للتعامل مع التحديات التي تواجه مجتمعاتهم.

المحتويات

٩	الراهب الأسود
٤٩	الفلاحون
٩١	في الخور
١٤٣	كاشتانكا
١٧٣	القبلة
١٩٧	الحسنات
٢٠٩	قلادة أنا
٢٢٥	المنزل ذو العلية
٢٤٩	أيونيتش
٢٧٥	الرجل المقلب
٢٩٣	حبوبة
٣٠٩	اللعب
٣٤٣	السيدة صاحبة الكلب
٣٦٥	العروس

الراهب الأسود

١

أصيب أندريه فاسيليفتش كوفرين الماجستير فى الفلسفة بالإرهاق وانهارت أعصابه. ولكنه لم يتعالج، بل تحدث ذات مرة، بصورة عابرة، مع طبيب من أصدقائه وهما يحتسيان الخمر، فنصحته هذا بقضاء الربيع والصيف فى الريف. وبالمناسبة فقد تلقى رسالة طويلة من تانيا بيسوتسكايا، طلبت منه فيها أن يأتى إلى ضيافتهم فى بوريسوفكا. فقرر أنه بالفعل بحاجة إلى السفر.

فى البداية - وكان ذلك فى أبريل - سافر إلى ضيعة عائلتهم كوفرينكا، حيث أمضى هناك وحيداً ثلاثة أسابيع. ثم انتظر حتى أصبحت الطرق صالحة، فسافر بالخيول إلى وصيه ومربيه السابق بيسوتسكى خبير البساتين المعروف فى روسيا كلها. كانت المسافة من كوفرينكا إلى بوريسوفكا، حيث كان يعيش آل بيسوتسكى، لا تزيد على سبعين فرسخاً، وكان السفر على طريق ريعى لين، وفى عربة مريحة بزنبركات متعة حقيقية.

كان منزل بيسوتسكى ضخماً، بأعمدة وأسود تساقط منها الملاط، وبحاجب يقف فى الفراك بجوار المدخل.

وامتدت حديقة عتيقة، جهمة وصارمة، مخططة على الطريقة الإنجليزية، حوالى فرسخ كامل من المنزل حتى النهر، وانتهت هنا بشاطئ طينى جرفى منحدر بشدة، نمت فوقه صنوبرات بجذور عارية تشبه المخالب الكثة. وفى

الأسفل لمعت المياه بعزلة وخواء، وحلقت طيور البكاشين بزعيق شاك، وكان يسود هنا دائماً مزاج خاص يغرى بتأليف الأناشيد الملحمية. ولكن بجوار المنزل، فى فئاته وفى بستان الفواكه الذى كان يشغل مع المشاتل حوالى ثلاثين ديسياتينا^(١)، كان الجو مرحاً ومفعماً بالفرحة حتى فى الطقس السيئ. لم ير كوفرين فى أى مكان آخر مثل هذه الورود المدهشة والزنايق والكاميليا، مثل هذه الأقحوانات العديدة الألوان، ابتداء من الأبيض الناصع وانتهاء بالأسود كالسناج، وعموماً مثل هذه الثروة من الزهور التى كانت لدى بيسوتسكى. كان الربيع قد بدأ لتوه، وكانت الروعة الحقيقية لأحواض الزهور لا تزال مخبئة بعد فى الدفئ، ومع ذلك فقد كان ما يزدهر منها بحذاء الممرات، وهنا وهناك فى الخمائل كافياً لكى تشعر - وأنت تتجول فى البستان - بأنك فى ملكوت الألوان الرقيقة، وخاصة فى ساعات الصباح الباكر، عندما يلمع الندى على كل ورقة.

أما القسم الديكورى من البستان، والذى كان بيسوتسكى نفسه يسميه فى احتقار بالتوافه، فقد ترك فى نفس كوفرين أيام الطفولة انطباعاً خيالياً. أية شواذ ومسخ متتقة بدقة، وتشويهاً للطبيعة كانت هنا! كان هنا تكعيبات من أشجار الفواكه، وشجرة كمثرى على شكل حورهرمى، وأشجار بلوط وزيزفون على صورة كرات، ومظلة من شجرة تفاح، وأقواس وزخارف وشمعدانات، بل وحتى رقم ١٨٦٢ من أشجار البرقوق - الرقم المشير إلى السنة التى بدأ فيها بيسوتسكى يزاوّل فلاحه البساتين، وكنت ترى هنا أحياناً شجيرات جميلة بأسفة، بجذوع مستقيمة وقوية كجذوع النخل، ولكن إذا ما حدثت فيها بامعان تعرفت فى هذه الشجيرات على عنب الثعلب أو الزبيب الرومى. أما أكثر ما كان يضىء البهجة والرونق الحى على البستان، فهو الحركة الدائبة. فمن الصباح الباكر وحتى المساء كان أناس بعربات ومجارف ورشاشات ينقبون كالنمل حول الأشجار والخمائل وفى الممرات والأحواض..

(١) الديسياتينا مقياس روسى قديم لمسطح الأرض يعادل ٠,٠٩ هكتار. (المغرب).

وصل كوفرين إلى آل بيسوتسكى مساء، فى حوالى العاشرة. ووجد تانيا وأباها يجور سيميونيتش فى قلق بالغ. فقد كانت السماء الصافية النجمية والترمومتر ينبثان بصقيع فى الصباح، بينما رحل البستانى إيفان كارلنيتش إلى المدينة، ولم يكن هناك من يعتمد عليه. وأثناء العشاء دار الحديث فقط عن صقيع الصباح، وتقرر ألا تذهب تانيا إلى الفراش، وفى الساعة الواحدة تتجول فى البستان لترى هل كل شىء على ما يرام، أما يجور سيميونيتش فسيتيقظ فى الساعة الثالثة أو ربما قبل ذلك.

جلس كوفرين مع تانيا المساء كله، وبعد منتصف الليل مضى معها إلى البستان. كان الجو باردًا. وفاحت فى الفناء بشدة رائحة الدخان. ففي بستان الفواكه الكبير الذى كان يدعى بالتجارى وكان يعود على يجور سيميونيتش بدخل صاف يبلغ عدة آلاف روبل سنويًا، انتشر فوق الأرض دخان أسود كثيف خائق وغطى الأشجار لينقذ من الصقيع هذه الآلاف. كانت الأشجار موزعة هنا بنظام رقعة الشطرنج، وكانت صفوفها مستقيمة منتظمة، كأنها طوابير جنود، فأضفى هذا الانتظام الصارم الدقيق، مع كون الأشجار كلها بارتفاع واحد، وأغصان وجذوع متشابهة تمامًا، أضفى على الصورة طابع الرتابة، بل والملل. سار كوفرين وتانيا عبر صفوف الأشجار التى كانت تشتعل بجوارها أكوام من الروث والقش وشتى المخلفات، وكانا أحيانًا يقابلان عمالًا يحومون فى الدخان كالظلال. لم تكن مزهرة سوى أشجار الكرز والبرقوق وبعض أنواع التفاح، بيد أن البستان كله كان غارقًا فى الدخان، فلم يتنفس كوفرين بملء رثيه إلا بجوار المشاتل.

قال وهو يهز كتفيه:

- منذ الطفولة كنت أعطس هنا من الدخان. ولكنى حتى الآن لا أفهم كيف يستطيع الدخان أن يحمى من الصقيع.

فأجابت تانيا:

- الدخان يحل محل السحب عندما لا تكون موجودة..

- وما الحاجة إلى السحب؟

- في الجو الملبد بالسحب لا يحل الصقيع صباحًا.

- هكذا!

وضحك وأمسك يدها. كان وجهها العريض، الجاد للغاية والمقرور وذو الحاجبين الأسودين الدقيقين، وياقة معطفها المرفوعة التي كانت تعوق رأسها عن التحرك بحرية، وهي كلها، النحيلة الممشوقة، في فستانها المرفوع قليلاً حتى لا يبيله الندى، تثير فيه الدهشة والتأثر.

وقال:

- يا إلهي، لقد أصبحت كبيرة! عندما سافرت من هنا آخر مرة، منذ حوالي خمس سنوات، كنت بعد طفلة تمامًا. كنت نحيلة جدًا، طويلة الساقين، حاسرة الرأس، ترتدين فستانًا قصيرًا، وكنت أغیظك بـ «الكركي».. ماذا يفعل الزمن؟!

فتنهدت تانيا:

- نعم، خمس سنوات! كم مر منذ ذلك الحين. قل لي يا أندريوشا بصدق - قالت بحبوية وهي تحديق في وجهه -: هل نسينا؟ وعمومًا فما لي أسأل؟ أنت رجل، تحيا الآن حياتك الخاصة، الشيقة، أنت شخص بارز.. والاعتراب طبعي تمامًا! ولكن مهما كان يا أندريوشا، فإنني أود أن نعتبرنا أهلك. ولنا الحق في ذلك.

- أنا أعتبركم يا تانيا.

- أتقول الحق؟

- نعم، أقول الحق.

- أدهشك اليوم أن لدينا هذه الكثرة من صورك. ولكنك تعرف أن أبى معجب بك. وأحياناً يخیل إليّ أنه یحبك أكثر منى. إنه فخور بك. فأنت عالم، رجل فذ، وقد شققت لنفسك مستقبلاً باهراً، وهو واثق من أنك أصبحت كذلك لأنه هو الذى ربّاك. وأنا لا أصرفه عن هذا الاعتقاد. لیكن.

حل الفجر. وكان هذا ملحوظاً بصفة خاصة من ذلك الوضوح الذى أخذت تبرز به فى الهواء أعمدة الدخان وأغصان الأشجار. وصدحت البلابل، وتناهى من الحقول صياح السماء.

وقالت تانيا:

- ولكن حان الوقت لننام. ثم إن الجو بارد - وتأبطت ذراعه - شكراً يا أندريوشا على مجيئك. معارفنا هنا ليسوا ممتعين، وحتى هؤلاء قليلون. ليس لدينا سوى البستان، البستان، البستان، ولا شىء غيره - وقالت ضاحكة - شتامب، نصف شتامب، أوبورتو، رينيت، بوروفينكا^(١)، التلقيح، التطعيم.. حياتنا كلها كلها ابتلعها البستان، حتى إننى لا أحلم أبداً بشىء سوى بأشجار التفاح والكمثرى. بالطبع هذا حسن، مفيد، ولكنى أحياناً أتوق أيضاً إلى شىء آخر من أجل التنويع. أذكر عندما كنت تأتى إلينا فى الإجازات أو هكذا بلا مناسبة، كان جو المنزل يصبح أكثر انتعاشاً وإشراقاً، كما لو كانت الأغطية قد نزعّت عن النجف والأثاث. كنت أنا طفلة آنذاك، ومع ذلك كنت أفهم.

تحدثت طويلاً وبعاطفة قوية. ولسبب ما دار بذهنه أنه من الجائز خلال الصيف أن يتعلق بهذا المخلوق الصغير الضعيف الكثير الكلام، ويغرم به ويحبه.. ففى مثل وضعهما كان هذا شيئاً محتملاً جداً وطبيعياً! وفتنته هذه الفكرة وأضحكته، فمال إلى الوجه الرقيق المهموم وغنى بصوت خافت:

أنيجين، لن أخفى حى

(١) شتامب: اسم جذع الشجرة من الجذر إلى الفروع أوبورتو، رينيت، بوروفينكا: أسماء أنواع من التفاح. (المغرب).

قد هام بتاتيانا قلبي..^(١)

حينما عادا إلى المنزل كان يجور سيميو نيتش قد استيقظ. ولم يشعر كوفرين برغبة في النوم فاندمج في الحديث مع العجوز، وعاد معه إلى البستان. كان يجور سيميو نيتش طويل القامة، عريض المنكبين، بكرش كبيرة، وكان يعاني من اللهاث، ولكنه كان يسير دائمًا بسرعة إلى درجة يصعب معها اللحاق به. وكان مظهره ينم عن الفلق البالغ، يسرع دائمًا إلى مكان ما وعلى وجهه تعبير، كأنما لو تأخر دقيقة واحدة لضاع كل شيء!

- يا لها من حكاية يا أخى... - شرع يتحدث متوقفًا بين الحين والحين ليلتقط أنفاسه - على سطح الأرض صقيع كما ترى، ولو رفعت الترمومتر على عصا لمسافة ذراعين فوق الأرض فستجد الجو دافئًا.. فلماذا هكذا؟ فقال كوفرين ضاحكًا:

- لا أدري حقًا.

- أم.. طبعًا لا يمكن معرفة كل شيء.. مهما كان العقل واسعًا فلن يتسع لكل شيء.. أنت مهتم أكثر بالفلسفة، أليس كذلك؟

- بلى، أقرأ محاضرات في علم النفس، ولكني أشتغل عمومًا بالفلسفة.

- ألا تمل؟

- بالعكس، لا أحميا إلا على ذلك.

- وفقك الله.. - قال يجور سيميو نيتش وهو يمسد سالفه الأسيبين متفكرًا - وفقك الله.. أنا مسرور جدًا من أجلك.. مسرور يا أخى..

ولكنه أصاخ السمع فجأة، وأصبح وجهه رهيبًا، وركض جانبًا، وسرعان ما غاب وراء الأشجار في سحب الدخان.

(١) من أوبرا تشايكوفسكى «يفجينى أتيجين» المأخوذ عن رواية بوشكين الشعرية. وتانيا هو اسم التدليل من الاسم الكامل تاتيانا.

- من هذا الذى ربط الحصان إلى شجرة التفاح؟ - تناهت صرخته اليائسة
الملتاعة - من هذا الوغد المحتال الذى تجاسر على ربط الحصان إلى شجرة
التفاح؟ يا إلهى يا إلهى! أفسدوا البستان، دنسوه، لوثوه! ضاع البستان! هلك
البستان! يا إلهى!

وعندما عاد إلى كوفرين كان وجهه منهكًا، مهائنًا. وقال بصوت باك وهو
يشيح بيديه:

- ماذا أفعل لهؤلاء الملاعين؟ ستبوكا نقل الروث ليلاً وربط الحصان
إلى شجرة التفاح! لف عليها الوغد اللجام بشدة، حتى إن اللحاء جرح فى
ثلاثة مواضع. هل رأيت؟! أقول له وهو لا يفقه شيئًا بل يطرف بعينه: قليل
عليه الشنق!

وإذ هدأت ثورته عانق كوفرين وقبله فى خده. وددمد:

- حسنا، وفقك الله.. وفقك الله.. أنا سعيد جدًا بمجيئك. سعيد سعادة
لا توصف.. شكرًا لك.

وبعد ذلك، وبنفس المشية السريعة والوجه المهموم، طاف بالبستان كله،
وفرج ريبه السابق على المشاتل والدفينات وحظائر التربة ومنحليه اللذين
كان يسميهما أعجوبة هذا القرن.

وأثناء طوافهما أشرقت الشمس وأضاءت البستان بنور ساطع وانتشر
الدفء. وإذ توقع كوفرين يومًا طويلًا صافيًا مرحًا، تذكر أن ذلك ليس إلا بداية
مايو، وأن الصيف كله ما زال فى الأمام، صيف طويل صافٍ مثل هذا اليوم،
وفجأة تحرك فى قلبه إحساس فرح فتى كذلك الذى كان يراوده فى الطفولة
عندما كان يركض فى هذا البستان. وإذا به يعانق العجوز ويقبله برقة. ومضيا
كلاهما إلى البيت منفعلين، وشرعا يشربان الشاي من أقذاح خزفية عريقة مع
الكريم والكعك الدسم المشبع. وذكرت هذه التفاصيل كوفرين بطفولته وصباه
مرة أخرى. واتحد الحاضر الرائع بصور الماضى التى استيقظت فيه، فضاقت
بهما روحه، ولكنه أحس بالراحة..

وانتظر حتى استيقظت تانيا، فشرب معها القهوة، وتنزه، ثم ذهب إلى غرفته وجلس يعمل. كان يقرأ بإمعان، ويسجل ملاحظات، وأحياناً يرفع بصره لينظر إلى النوافذ المفتوحة أو إلى الزهور النضرة التي لا تزال مبللة بالندى والموضوعة في أصيص على الطاولة، ثم يعود ببصره إلى الكتاب، وبداله أن كل عرق في بدنه يتنفض ويرقص من المتعة.

٢

ظل في الريف يواصل نفس الحياة القلقة المضطربة التي كان يحياها في المدينة. كان يقرأ ويكتب كثيراً، ويتعلم اللغة الإيطالية، وعندما يتنزه كان يفكر بلذة في أنه سيعود ليواصل العمل قريباً. وكان ينام قليلاً جداً لدرجة أثارت دهشة الجميع. فإذا نعس في النهار صدفة لنصف ساعة فلا ينام الليل، وبعد ليلة من السهاد يشعر بالحيوية والمرح وكأن شيئاً لم يكن.

كان يتحدث كثيراً، ويحتسى النبيذ ويدخن السيجار الفاخر. وكانت أنسات من جارات تانيا يزن آل بيسوتسكى كثيراً، كل يوم تقريباً، ويعزفن مع تانيا على البيانو ويغنين. وأحياناً كان يأتي شاب جارهم، يعزف جيداً على الكمان.

وكان كوفرين يستمع إلى العزف والغناء بنهم ويرهق منهما، وكان الإحساس الأخير يتجلى بدنياً في انطباق جفنيه وميل رأسه جانباً.

وذات مرة جلس بعد شاي المساء في الشرفة يقرأ. وفي تلك الأثناء كانت تانيا في غرفة الجلوس تغني سوبرانو، وإحدى الأنسات تغني كونترالتو والشاب يعزف على الكمان، وهم يتدربون على سير نادا ابراج المعروفة. وأصغى كوفرين إلى الكلمات - وكانت بالروسية - ولم يستطع أبداً أن يفهم معناها. وأخيراً ترك الكتاب وأصاخ بإمعان ففهم: سمعت فتاة مصابة بالوهم في الحديقة ليلاً أصواتاً غامضة، رائعة وغريبة إلى درجة كان ينبغي معها أن تعتبرها هارمونياً مقدساً، ليس مفهوماً لنا - نحن الفانين - ولهذا يعود أدراجه طائراً إلى السماء.

وأخذ جفنا كوفرين ينطبقان. فنهض وتمشى فى غرفة الجلوس مرهقاً، ثم فى الصلاة. وعندما توقف الغناء تأبط ذراع تانيا وخرج معها إلى الشرفة. وقال:

- منذ الصباح تشغل بالى إحدى الأساطير. لا أذكر هل قرأتها فى كتاب ما أو سمعتها، ولكنها أسطورة غريبة، لا مثل لها. فهى قبل كل شىء لا تتميز بالوضوح. فقبل ألف عام سار راهب، يرتدى السواد، فى الصحراء، فى مكان ما فى سوريا أو الجزيرة العربية.. وعلى بعد عدة أميال من المكان الذى كان يسير فيه رأى الصيادون راهباً آخر كان يمشى ببطء على سطح البحيرة. وكان هذا الراهب الثانى سرايا. والآن انسى كل قوانين البصريات، التى يبدو أن الأسطورة لا تعترف بها، واسمعى التالى. من ذلك السراب تكون سراب آخر، ومن الآخر تكون ثالث، حتى إن صورة الراهب الأسود أصبحت تنتقل بلا نهاية من إحدى طبقات الجو إلى الأخرى. وشاهد تاره فى إفريقيا، وتارة فى أسبانيا، وتارة فى الهند، وتارة فى أقصى الشمال.. وأخيراً تجاوز نطاق الغلاف الجوى الأرضى وأصبح الآن يضرب فى الكون دون أن يصادف محيطاً تنطفئ صورته فيه. وربما يرونه الآن فى مكان ما على المريخ، أو فى إحدى نجوم الصليب الجنوبي. ولكن أهم ما فى الأمر يا عزيزتى، الشىء المحورى فى الأسطورة، هو أنه بعد ألف عام بالضبط من ذلك الزمن الذى كان الراهب فيه يقطع الصحراء، سيعود السراب ثانية إلى الغلاف الجوى الأرضى ويظهر للناس. وكما لو كانت هذه الأعوام الألف على وشك الانقضاء.. وحسب مغزى الأسطورة فعلياً أن نتوقع ظهور الراهب الأسود بين يوم وليلة.

- سراب غريب.. - قالت تانيا التى لم تعجبها الأسطورة.

فضحك كوفرين قائلاً:

- ولكن أغرب ما فى الأمر أننى لا أستطيع أبداً أن أتذكر من أين وردت هذه الأسطورة إلى رأسى؟ هل قرأتها؟ هل سمعتها؟ أم ربما رأيت الراهب الأسود فى المنام؟ أقسم أننى لا أذكر. ولكن الأسطورة تشغل بالى. إننى أفكر فيها اليوم طوال النهار.

وترك تانيا تنصرف إلى ضيوفها وخرج من المنزل وتجول متفكرًا بجوار
أحواض الزهور. كانت الشمس تغرب ولأن الزهور قد رشت لتوها بالماء
فقد تضرعت برائحة رطبة مثيرة للأعصاب. وتردد الغناء فى المنزل من جديد،
وبدا صوت الكمان من بعيد أشبه بصوت بشرى. وأجهد كوفرين فكره ليتذكر
أين قرأ أو سمع الأسطورة، ومضى على مهل إلى الحديقة فبلغ النهر دون أن
يلحظ.

وهبط إلى النهر على الدرب الممتد على الشاطئ الشديد الانحدار بجوار
الجدور العارية، فأزعج البكاشين وأفزع بطنين. وعلى ذؤابات الصنوبرات
الجهمة كانت آخر أشعة الشمس الغاربة تنعكس هنا وهناك، ولكن المساء
كان قد حل تمامًا على سطح النهر. وعبر كوفرين إلى الضفة الأخرى فوق
قنطرة. أصبح أمامه الآن حقل واسع مغطى بجودار فتى لم يزدهر بعد. ولم
يكن هناك مسكن بشرى أو روح حية على مدى البصر، وبدأ أن الدرب، لو
سرت عليه، لأفضى بك إلى ذلك المكان الغامض المجهول الذى هبطت فيه
الشمس لتوها، والذي يتوهج فيه المغيب بهذا الاتساع والعظمة.

وفكر كوفرين وهو يسير على الدرب: «يا للرحابة والحرية والهدوء هنا !
يبدو أن الدنيا كلها تنظر إلىّ، وقد كتبت أنفاسها فى انتظار أن أفهمها..»

وها هو ذا الجودار يتموج، ومس نسيم المساء الخفيف رأس كوفرين
الحاسر برقة. وبعد دقيقة هبت دفقة ريح ثانية، ولكنها أقوى، فصخب الجودار،
وتناهى من الخلف هزيم الصنوبرات المكتوم. وتوقف كوفرين مأخوذاً. فعند
الأفق تصاعد من الأرض حتى السماء عمود أسود طويل، يشبه الزويدة أو
الدوامة الهوائية. ولم تكن حدوده واضحة، ولكن كان من الممكن منذ الوهلة
الأولى إدراك أنه لم يكن ثابتاً فى مكانه، بل يتحرك بسرعة رهيبية، يتحرك إلى
هنا بالذات، نحو كوفرين مباشرة، وكلما اقترب أصبح أصغر وأوضح. وارتدى
كوفرين جانباً فى الجودار ليفسح له الطريق، وبالكاد تمكن من ذلك..

مرق بجواره، راهب فى حلة سوداء، برأس أشيب وحاجبين أسودين، وقد عقد ذراعيه على صدره.. ولم تكن قدماء الحافيتان تمسان الأرض. وبعد أن مرق إلى مسافة ثلاث أذرع التفت إلى كوفرين، وأوماً برأسه وابتسم له ابتسامه رقيقة ولكنها فى الوقت نفسه مأكرة. ولكن كم كان وجهه شاحباً، شاحباً إلى درجة فظيعة، ونحيلاً! وأخذ يكبر مرة أخرى فعبّر النهر طائرًا، وارتطم دون صوت بالشاطئ الطينى والصنوبرات، ونفذ من خلالها، ثم اختفى كالدخان. ودمدم كوفرين:

- أرايتم إذن.. وهكذا فالأسطورة صادقة.

لم يحاول أن يشرح لنفسه هذه الظاهرة الغريبة، وأرضاه فحسب أنه استطاع أن يرى بهذا القرب والوضوح لا حلة الراهب السوداء فقط، بل ووجهه وعينه أيضا، فعاد إلى المنزل وهو يشعر باضطراب لطيف.

فى الحديقة وفى البستان كان الناس يغدون ويروحون فى هدوء، وفى المنزل كانوا يعزفون، وإذن فهو وحده الذى رأى الراهب. وتملكته رغبة شديدة فى أن يخبر بذلك تانيا ويجور سيميونيتش، ولكنه أدرك أنهما، فى الغالب، سيعتبران روايته هذيانا، وسيفزعهما ذلك؛ فمن الأفضل إذن أن يصمت. وأخذ يضحك بصوت عال، ويغنى، ويرقص المازوركا، وكان يشعر بالمرح، فاعتبر الجميع - الضيوف وتانيا - أن وجهه يبدو اليوم بصورة خاصة، نورانيا، ملهما، وأنه شخص طريف للغاية.

٣

بعد العشاء، عندما انصرف الضيوف، ذهب إلى غرفته وتمدد على الكنب، فقد كان يريد أن يفكر فى الراهب. ولكن سرعان ما دخلت تانيا.

- خذ يا أندريوشا، اقرأ مقالات أبى - قالت وهى تقدم له رزمة من الكراريس والملازم المطبعية - مقالات ممتازة. إنه يكتب بصورة رائعة.

- دعيك من المبالغة! - قال يجور سيمونيتش الذى دخل فى أثرها - وهو يضحك بتصنع؛ فقد كان خجلاً - لا تصغ إليها من فضلك، لا تقرأ! وعمومًا إذا أردت أن تنعس فلتقرأها إذن، وسيلة منومة رائعة.

فقالت تانيا بيقين راسخ:

- فى رأى أنها مقالات عظيمة. اقرأها يا أندريوشا، وأقنع بابا بأن يكتب أكثر. بإمكانه أن يكتب دورة محاضرات كاملة فى فلاحه البساتين.

قهقهه يجور سيمونيتش بتوتر، وتضرج وجهه، وأخذ يقول عبارات من تلك التى يقولها المؤلفون المحرجون عادة. وأخيرًا بدأ يستسلم.

- فى هذه الحالة اقرأ أولاً مقالة جوشيه ثم هذه المقالات الروسية - دمدم وهو يقلب الكراريس بأصابع مرتعشة - وإلا فلن تكون المسائل مفهومه لك. فقبل أن تقرأ اعتراضاتى ينبغى أن تعرف علام أعترض. وعمومًا، كلام فارغ.. فى غاية الملل. ثم إن موعد النوم قد حان، كما أظن.

خرجت تانيا. وجلس يجور سيمونيتش إلى جانب كوفرين على الكنبه وزفر بعمق.

- نعم يا أخى... - شرع يقول بعد فترة صمت - هكذا يا عزيزى الماجستير. ها أناذا أكتب مقالات، وأشارك فى المعارض، وأحصل على ميداليات.. ويقولون إن التفاحة عند بيسوتسكى بحجم الرأس، ويقولون أن بيسوتسكى كَوْن لنفسه ثروة من البستان. وباختصار، كوتشوبى غنى وشهير^(١). ولكن السؤال هو: وما جدوى ذلك؟ صحيح أن البستان رائع، نموذجى.. ليس بستانًا، بل مؤسسة كاملة ذات أهمية كبرى على مستوى الدولة؛ لأنه - إذا جاز التعبير - خطوة إلى العصر الجديد للاقتصاد الروسى والصناعة الروسية. ولكن ما جدواه؟ ما الهدف؟

(١) البيت الأول من قصيدة بوشكين «بولتافا»، وكوتشوبى إحدى شخصيات هذه القصيدة (المعرب).

- عملكم يشهد لنفسه بنفسه.

- لا أقصد هذا المعنى. إننى أريد أن أسأل: ما الذى سيحدث للبستان عندما أموت؟ لن يبقى بعد وفاتى شهراً واحداً بهذه الصورة التى تراه عليها. إن سر النجاح ليس فى كون البستان كبيراً والعمال كثيرين، بل فى أننى أحب هذا العمل، أتفهم؟ أحبه ربما أكثر من نفسى. انظر إلىّ، إننى أصنع كل شىء بنفسى. إننى أعمل من الصباح إلى المساء. التطعيم كله أجريه بنفسى، والتقليم بنفسى، والشتل بنفسى، كل شىء بنفسى. وعندما يساعدنى أحد أشعر بالغيرة وأستثار إلى حد الخشونة. السر كله فى الحب، أى فى العين المدبرة اليقظة، وفى الأيدى المدبرة، وأيضاً فى ذلك الإحساس الذى يراودك عندما تذهب ضيفاً إلى أحد ما لمدة ساعة فتشعر وأنت هناك بأن قلبك فى غير مكانه، وأنت نفسك على غير طبيعتك إذ تخشى أن يحدث شىء للبستان. فمن ذا الذى سيعتنى به بعد أن أموت؟ من ذا الذى سيعمل؟ البستاني؟ العمال؟ نعم؟ إذن فلتسمع ما أقوله لك يا صديقى العزيز: إن العدو الأول لعملنا ليس الأرنب أو الخنفساء أو الصقيع، بل الشخص الغريب.

فسأله كوفرين ضاحكاً:

- وتانيا؟ لا يمكن أن تكون أكثر ضرراً من الأرانب. إنها تحب هذا العمل وتفهمه.

- نعم، إنها تحبه وتفهمه. لو أن البستان آل إليها بعد وفاتى وأصبحت صاحبتة، فليس هناك بالطبع من هو أفضل من ذلك. ولكن ماذا - لا قدر الله - لو تزوجت؟ - همس يجور سيميونيشتش، ونظر إلى كوفرين بغزع - تلك هى المسألة! ستتزوج، وتنجب أطفالاً، وعندها لا يصبح لديها وقت للتفكير فى البستان. إن أكثر ما أخشاه أن تتزوج من شاب ما، ويتملك العجشع هذا الشاب فيؤجر البستان للبايعات، فيذهب كل شىء إلى الشيطان فى أول سنة! النساء فى عملنا هذا لعنة مسلطة!

تنهد يجور سيميونيشتش وصمت قليلاً. ثم قال:

- ربما كانت هذه أناية، ولكنى أقول لك بصراحة:

أنا لا أريد لتانيا أن تتزوج. أخاف! يوجد هنا غندور يزورنا بكمان ويطنطن عليه. وأعرف أن تانيا لن تتزوجه، أعرف جيدًا، ومع ذلك لا أطيق رؤيته! وعموماً يا أختى فأنا فعلاً غريب الأطوار. أعتزف بذلك.

نهض يجور سيميونيتش، وذرع الغرفة منفعلًا، وكان واضحًا أنه يريد أن يقول شيئًا مهمًا للغاية ولكنه لا يجرؤ.

- إننى أحبك بحرارة وسوف أكون صريحًا معك - قرر أخيرًا أن يقول، وقد دس يديه عميقًا فى جيبه - أنا أنظر إلى بعض الأمور الحساسة ببساطة، وأقول مباشرة ما أفكر فيه، ولا أطيق ما يسمى بالأفكار المكنونة. أقول لك بصراحة: أنت الشخص الوحيد الذى لا أخشى أن أزوجه ابنتى. أنت رجل ذكى، ذو قلب، ولن تسمح لعملى المحبوب أن يهلك. أما السبب الرئيسى فهو أننى أحبك كابنى.. وأفخر بك. ولو نشأت بينك وبين تانيا علاقة فليكن. سأكون مسرورًا جدًا، بل وسعيدًا. أقول لك هذا بصدق، دون تكلف، كرجل شريف.

ضحك كوفرين. وفتح يجور سيميونيتش الباب ليخرج، ثم توقف على العتبة.

- لو ولد لك ولد من تانيا لجعلت منه خبير بساتين - قال بعد تفكير - وعموماً فما هى إلا أحلام فارغة.. طابت ليلتك.

عندما أصبح كوفرين وحده تمدد فى وضع مريح وتناول المقالات. كان عنوان إحداها: «حول المحصول الانتقالى»، وعنوان الأخرى: «تعليق قصير على مقال السيد (س) حول تقليب التربة لإقامة بستان جديد»، وكان عنوان الثالثة: «مرة أخرى عن التطعيم بالأكمام النائمة»، وهكذا دواليك. ولكن أية نبرة منفعله، عصبية، أى حماس يكاد يكون مرضيًا! ها هى ذى مقالة بعنوان يبدو مسالماً للغاية وبمحتوى محايد، وهى تتحدث عن تفاح أنطونوفكا

الروسى. ولكن يجوز سيميونيشتش يبدأها «*audiat altera pars*»^(١) وينهيها بـ «*sapienti sat*»^(٢) وبين هاتين العبارتين شلال دافق من الكلمات اللاذعة الموجهة إلى «الجهل العلمى للسادة خبرائنا المعترف بهم فى فلاحه البساتين الذين يراقبون الطبيعة من منابرهم الجامعية»، أو إلى السيد جوشيه «الذى أحرز نجاحه بفضل الجهالة والهواة»، ثم أسف غير مناسب، وغير صادق، على أنه لم يعد من الممكن جلد الفلاحين الذين يسرقون الفواكه ويحطمون الأشجار أثناء ذلك.

وفكر كوفرين: «قضية جميلة، لطيفة، وسليمة، ولكن حتى هنا تلتهب الغيرة وتشتعل الحرب. لا بد أن الأشخاص العقائدين هم فى كل مكان ومجال عصبيون ويتميزون بحساسية عالية. ربما كان ذلك مطلوبًا».

وتذكر تانيا التى تعجبها جدًا مقالات يجوز سيميونيشتش. قصيرة القامة، شاحبة، نحيلة إلى درجة بروز عظام الترقوة. عيناها مفتوحتان باتساع، داكتان، ذكيتان، تحدقان دائمًا بإمعان وتبحثان دائمًا عن شيء ما. ومشيتها، كمشية أبيها، دقيقة، متعجلة. وهى تتحدث كثيرًا، وتهوى الجدل، وخلال ذلك تصاحب كل عبارة، حتى التافهة بحركات الوجه واليدين. يبدو أنها عصبية إلى أقصى حد.

وواصل كوفرين القراءة، ولكنه لم يفهم شيئًا فتركها. وذلك الانفعال اللطيف، الذى رقص به المازوركا واستمع إلى الموسيقى منذ قليل، أصبح الآن يعذبه ويثير فيه أفكارًا كثيرة. فنهض، وأخذ يذرع الغرفة، وهو يفكر فى الراهب الأسود. وخطر بذهنه أنه إذا كان هو وحده الذى رأى هذا الراهب الغريب، الخارق، فهذا يعنى أنه مريض وبلغ به الأمر حد التهيزات. وأخافه هذا الخاطر، ولكن لوقت قصير.

(١) «فليسمعوا الطرف الآخر» (باللاتينية فى الأصل).

(٢) «الذكى يكفيه» (باللاتينية فى الأصل).

«ولكنى أشعر بالراحة، ولا أسبب أذى لأحد، وإذن فليس فى تهيؤاتى أى شىء سيئ» - فكر كوفرين، ومن جديد أحس بالراحة.

وجلس على الكنبه ووضع رأسه بين يديه وهو يكتفم فرحة غير مفهومة ملأت كل كيانه، ثم راح وجاء مرة أخرى، وجلس إلى المكتب ليعمل. ولكن الأفكار التى قرأها فى الكتاب لم ترضه. كان يرغب فى شىء عملاق، لا حدود له، مذهل. وقبيل الصباح نزع ملابسه وأوى مكرها إلى الفراش، فمن المفروض فى النهاية أن ينام!

وعندما سمع كوفرين وقع خطوات يجور سيميونيتش الذى خرج إلى البستان، دق الجرس وأمر الخادم أن يحضر له نبيذا. وشرب عدة كؤوس من نبيذ «لافيت» بلذة، ثم تغطى حتى رأسه. وغام وعيه، ثم نعى.

٤

كان يجور سيميونيتش وتانيا كثيرا ما يتشاجران فيكيل كل منهما للآخر كلمات مسيئة.

وفى هذا الصباح تشاجرا بسبب شىء ما. وبكت تانيا وانصرفت إلى غرفتها. ولم تخرج للغداء ولا لتناول الشاي. وفى البداية سار يجور سيميونيتش متخذاً سيماء الأهمية، عابساً، كما لو كان يريد أن يظهر أن مصالح العدالة والنظام بالنسبة له أسمى من أى شىء فى الدنيا، ولكنه لم يستطع أن يصمد طويلاً وسرعان ما انهارت معنوياته. وأخذ يتجول فى الحديقة حزيناً ويتنهد: «آه، يا إلهى، يا إلهى!»، ولم يذق فى الغداء لقمة واحدة. وأخيراً مضى مذنباً، معذب الضمير إلى الباب الموصد فطرقة ونادى بوجل:

- تانيا! تانيا!

فسمع من خلف الباب صوتاً ضعيفاً، أرهقه الدموع ولكنه فى الوقت نفسه حازم:

- دعنى أرجوك.

وانعكست كآبة السادة على البيت كله، حتى على العاملين فى البستان. وكان كوفرين منهمكا فى عمله الشيق، ولكن حتى هو، أحس فى النهاية بالملل والحر. ولكى يبدد المزاج العام السيئ بشكل ما، قرر أن يتدخل، فدخل باب غرفة تانيا قبيل المساء. وسمحت له بالدخول.

- عيب، عيب، ألا تخجلين؟ - بدأ يقول مازحا وهو ينظر بدهشة إلى وجه تانيا الباكي، الحزين، المغطى ببقع حمراء - الأمر جد هكذا؟ عيب عليك.

- آه لو تعلم كيف يعذبني! قالت تانيا وانهمرت دموع مريرة غزيرة من عينيها الواسعتين - لقد عذبني تماما! - استطردت وهى تلوى ذراعيها - أنا لم أقل له شيئا.. أبدا.. قلت فقط إنه لا داعي للاحتفاظ.. بعمال زائدين، طالما من الممكن فى أى وقت استئجار عمال مياومين. العمال.. العمال لا يفعلون شيئا طوال أسبوع.. أنا.. هذا فقط ما قلته، فصرخ فى، وانهال على بكلمات مسيئة، مهينة جدا، لماذا؟

فقال كوفرين وهو يسوى شعرها:

- كفى، كفى. تشاجرتما وبكيت فيكفى. لا يصح الزعل طويلا، هذا ليس حسنا.. وخاصة إنه يحبك بلا حدود.

فمضت تانيا تقول وهى تشهق:

- إنه.. إنه أفسد حياتي. لا أسمع منه سوى الإساءات.. و.. والإهانات. إنه يعتبرني زائدة فى بيته. حسنا، إنه على حق. سأرحل من هنا غدا، وألتحق بمكتب تليغراف.. ليكون..

- طيب، طيب، طيب.. لا داعي للبكاء يا تانيا. لا داعي يا عزيزتى.. كلاكما سريع الغضب، عصبى، وكلاكما مخطئ. هيا، هيا أصالحكما.

كان كوفرين يتكلم بلطف وإقناع، بينما واصلت تانيا البكاء وكتفاها تتفضان، وراحت تعصر يديها وكأنما حلت بها حقا فاجعة رهبة. ومما زاد

من إشفافه عليها أن مصابها كان بسيطاً بينما كانت تعاني منه بشدة. أية أشياء تافهة كانت كافية لجعل هذا المخلوق تعيشاً طول النهار، بل ربما طول العمر! وبينما كان كوفرين يهدئ تانيا، راح يفكر في أنه لن يجد في الدنيا كلها، ولو أعياء البحث - غير هذه الفتاة وأبيها أحداً يحبه كواحد منهم، كشخص عزيز قريب. ولولا هذان الشخصان لما عرف - في الغالب حتى الممات، هو الذي فقد أباه وأمه في طفولته المبكرة - معنى المودة الصادقة، وذلك الحب الساذج المسلم الذي نكنه فقط للأشخاص القريبين للغاية الذين تربطنا بهم أواصر الدم. وأحس أن أعصابه شبه المريضة، المستثارة تستجيب لأعصاب هذه الفتاة الباكية المتفضة، كالحديد إلى المغناطيس. وما عاد في وسعه أبداً أن يحب امرأة صحيحة، قوية، حمراء الخدين، ولكن تانيا الشاحبة الضعيفة، التعيسة، أعجبته.

فراح يمسد شعرها وكتفيها بسرور، ويضغط على راحتيها، ويمسح دموعها.. وأخيراً كفت عن البكاء. وظلت طويلاً تشكو من أبيها وحياتها الشاقة التي لا تحتل في هذا البيت وتتوسل إلى كوفرين أن يتفهم وضعها. ثم أخذت شيئاً فشيئاً تبسم وتنهد إذ بلاها الله بهذا الطبع السيئ، ولكنها في النهاية ضحكت بصوت عال، ووصفت نفسها بالحمقاء وانفلتت راكضة من الغرفة.

وعندما خرج كوفرين إلى البستان بعد ذلك بقليل، كان يجور سيميونيتش وتانيا يتنزهان معاً في الممر، كأن شيئاً لم يكن، وكان كلاهما يأكلان خبز الجودار بالملح، فقد كانا جائعين.

ذهب كوفرين إلى الحديقة مسروراً من أنه وفق في أن يلعب دور المصلح. وبينما كان جالساً على الأريكة يفكر سمع وقع عربات وضحكا نساءً.. لقد وصل الضيوف. وعندما ارتمت ظلال المساء على البستان، ترددت بوهن

أنغام كمان وأصوات تغنى، فذكره ذلك بالراهب الأسود. ترى أين يهيم الآن هذا اللامعقول البصرى، فى أى بلد أو فى أى كوكب؟

وما إن تذكر الأسطورة ورسم فى خياله ذلك الشبح الأسود الذى رآه فى حقل الجودار حتى خرج من وراء الصنوبرة، قبالة تماماً بدون صوت، دون أدنى حفيف، رجل متوسط القامة، برأس أشيب حاسر، متشحا بالسواد، حافى القدمين، أشبه بالشحاذ، وفى وجهه الشاحب كوجه ميت، برز بحدة حاجباه الأسودان. اقترب هذا الشحاذ أو الجوال من الأريكة دون صوت فجلس، وهو يومئ برأسه محييا، فعرف فيه كوفرين الراهب الأسود. ومضت دقيقة وهما يتبادلان النظر.. كوفرين بذهول، والراهب برقة، وكما فى المرة السابقة، بشيء من المكر، وبتعبير من يعرف شيئا ويخفيه.

وقال كوفرين:

- ولكنك سراب. فلماذا أنت هنا ولماذا أنت جالس لا تتحرك؟ إن هذا لا يتفق والأسطورة.

فأجابه الراهب بعد فترة، بصوت خافت، ملتفتا بوجهه نحوه:

- هذه سيان. الأسطورة والسراب وأنا.. كل ذلك من وحى خيالك المستثار. أنا شبح.

فسأله كوفرين:

- إذن فلست موجودا؟

- فكر كما تشاء - أجاب الراهب وابتسم بوهن - أنا موجود فى خيالك، وخيالك جزء من الطبيعة، وإذن فأنا موجود فى الطبيعة.

فقال كوفرين:

- وجهك عجوز وذكى جدا، ومعبر إلى أقصى حد، كأنك عشت بالفعل أكثر من ألف عام. لم أكن أعرف أن خيالى قادر على خلق هذه الخوارق. ولكن لماذا تنظر إلى بهذا الإعجاب؟ هل أروق لك؟

- نعم. أنت واحد من أولئك القلائل الذين يدعون بأبناء الله المختارين. أنت تخدم الحقيقة الخالدة. وأفكارك، ونواياك، وعلمك المدهش، وحياتك كلها تحمل بصمات إلهية، سماوية، لأنها مكرسة لما هو حكيم وجميل، أى لما هو خالد.

- تقول: الحقيقة الخالدة.. ولكن هل يستطيع الناس بلوغ الحقيقة الخالدة، وهل هم بحاجة إليها إذا لم تكن هناك حياة خالدة؟

فقال الراهب:

- بل هناك حياة خالدة.

- أتؤمن بخلود البشر؟

- نعم، طبعًا. إن مستقبلًا عظيمًا باهرًا ينتظركم، أنتم البشر. وكلما كثر أمثالك على الأرض، تحقق هذا المستقبل أسرع. فلولاكم، أنتم الذين تخدمون الغاية الأسمى، وتعيشون بوعى وحرية، لكانت البشرية تافهة. ولو تطورت وفق النظام المألوف لظلت طويلا تنتظر نهاية تاريخها الأرضى. أما أنتم فسوف تدخلونها ملكوت الحقيقة الخالدة قبل الأوان بوضع آلاف من السنين، وتلك هى الخدمة الجليلة التى ستقدمونها، أنتم تجسدون البركة الإلهية التى لم يحظ بها البشر.

فسأل كوفرين:

- وما هى غاية الحياة الخالدة؟

- كغاية كل حياة: المتعة. إن المتعة الحقيقية هى فى المعرفة، والحياة الخالدة ستقدم منابع عديدة لا تنفد للمعرفة، وفى هذا المعنى بالذات قيل: إن فى بيت أبى منازل كثيرة^(١).

(١) إنجيل يوحنا، الفصل الرابع عشر، الآية ٢. (المعرب).

فقال كوفرين وهو يفرك يديه من المتعة:

- آه لو تدرى كم أستمتع بهماعك!

- مسرور جدًا.

- ولكى أعرف أنك حينما تمضى سوف يؤرقنى السؤال عن طبيعتك. أنت

شبح، تهيؤات. وإذن فأنا مريض نفسيًا، مجنون؟

- حتى لو كان كذلك. فيم الخجل؟ أنت مريض لأنك عملت فوق طاقتك

وأجهدت نفسك، وهذا يعنى أنك ضحيت بصحتك فى سبيل الفكرة، وقريبًا

يحل الوقت الذى تهبها فيه حياتك أيضًا. فهل هناك ما هو أفضل؟ إن هذا هو

ما تسعى إليه عادة كل الشخصيات الموهوبة النبيلة.

- وإذا ما كنت أعرف أننى مريض نفسيًا، فهل أستطيع إذن أن أثق فى

نفسى؟

- ولماذا تعتقد أن العباقرة، الذين يثق بهم العالم أجمع، لم يروا هم أيضًا

أشباحًا؟ ألا يقول العلماء الآن أن العبقرية صنو الجنون. يا صديقى، الأصحاء

والطبيعيون هم فقط الأشخاص العاديون، أفراد القطيع. إن الاعتبار التى

تذكر بخصوص عصر القلق، والإرهاق، والانحلال... إلخ، لا يمكن أن تثير

أحدًا سوى أولئك الذين يرون غاية الحياة فى الحاضر، أى أفراد القطيع.

- ولكن الرومان قالوا: *mens sana in corpore sano*^(١).

- ليس كل ما قاله الرومان أو الإغريق حقيقة. فالمزاج العالى، والاستشارة،

والنشوة، أى كل ما يميز الأنبياء والشعراء وشهداء الفكرة عن الناس العاديين،

يتنافر مع الجانب الحيوانى فى الإنسان، أى مع صحته البدنية. أكرر: إذا أردت

أن تكون صحيحًا وطبيعيًا، فاذهب إلى القطيع.

(١) العقل السليم فى الجسم السليم (باللاتينية فى الأصل).

فقال كوفرين:

- غريب أنك تكرر ما يطوف كثيرًا بذهني. كأنك تلصصت وتنصت إلى أفكارى المكنونة. ولكن دعنا نترك الحديث عن شخصى. ما الذى تعنيه بالحقيقة الخالدة؟

لم يرد الراهب. وتطلع كوفرين إليه فلم يميز وجهه.. تضبيت ملامحه وتلاشت. ثم أخذ يختفى رأس الراهب، ويداه، واختلط بدنه بالأريكة وغسق المساء، ثم تلاشى تمامًا.

- انتهت التهيزات! - قال كوفرين ثم ضحك - يا خسارة.

وعاد أدراجه إلى البيت مرحًا وسعيًا. لم تهدد تلك الكلمات القليلة التى قالها له الراهب الأسود غروره، بل روحه كلها، وكيانه كله. أن يكون من المختارين، أن يخدم الحقيقة الخالدة، أن يكون فى عداد أولئك الذين سيجعلون البشرية جديرة بملكوت الله قبل الأوان بعدة آلاف من السنين، أى يريحون الناس من عدة آلاف سنين لا مبرر لها من النضال والذنوب والعذاب، أن يهب الفكرة كل شىء: صباه وقواه وصحته، أن يكون مستعدًا للموت فى سبيل خير الجميع.. يا له من قدر سام سعيد! ومضى فى ذاكرته ماضيه، البرىء، الطاهر، المفعم بالعمل، وتذكر ما تعلمه وما علمه هو نفسه للآخرين، فقرر أنه لم تكن هناك مبالغة فيما قاله الراهب.

كانت تانيا تسير نحوه فى الحديقة. وكانت قد غيرت فستانها. قالت:

- أنت هنا؟ ونحن نبحث عنك ونفتش.. ولكن ماذا بك؟ - قالت بدهشة وهى ترى وجهه المفعم بالإعجاب والبريق وعينييه المليئتين بالدموع - كم أنت غريب يا أندريوشا.

فقال كوفرين وهو يضع يديه على كتفيها:

- أنا مبسوط يا تانيا. بل أكثر من مبسوط، أنا سعيد! تانيا، يا تانيا العزيزة، أنت مخلوق لطيف للغاية. تانيا العزيزة، كم أنا مسرور، كم أنا مسرور!
ولثم يديها بحرارة واستطرد:

- لقد عشت منذ قليل لحظات مشرقة، خلابة، سامية. ولكنى لا أستطيع أن أروى لك كل شيء لأنك ستعتبرينى مجنوناً أو لا تصدقينى. فلتحدث عنك. تانيا العزيزة الرائعة! إننى أحبك وأصبحت ألف حبك. أصبح قربك ولقاؤنا عشر مرات فى اليوم حاجة لا غنى عنها لروحي. لا أعرف كيف سأعيش بدونك عندما أعود إلى دارى.
فضحكت تانيا:

- أوه! سوف تنسانا بعد يومين. نحن ناس صغار، وأنت رجل عظيم.
فقال كوفرين:

- كلا، فلتحدث جدياً! سوف آخذك معى يا تانيا. حسناً؟ هل تأتين معى؟
هل تريدان أن تصبحى لى؟
- أوه! - قالت تانيا وأرادت أن تضحك ثانية، ولكنها لم تفلح، وظهرت بقع حمراء على وجهها.
- وترددت أنفاسها بتلاحق، واندفعت تسير بسرعة، ولكن ليس باتجاه المنزل، بل إلى عمق الحديقة.
- أنا لم أفكر فى ذلك.. لم أفكر! - قالت وهى تعصر يديها كأنما فى يأس.

وسار كوفرين خلفها وهو يقول بنفس الوجه المشرق الطافح بالإعجاب:

- إننى أريد حبا يستولى على كل كيانى، وهذا الحب لا يستطيع أن يهبه لى إلا أنت يا تانيا. أنا سعيد! سعيد!

كانت مذهولة، فانطوت وانكمشت كأنما كبرت فجأة عشرة أعوام، أما هو فكان يراها رائعة ويعبر عن إعجابه بصوت عال:

- كم هي جميلة!

٦

عندما علم يجور سيميونيتش من كوفرين أنه لم تنشأ بينه وبين تانيا علاقة فحسب، بل سيكون عرس أيضًا، أخذ يذهب ويجيء طويلاً من ركن إلى ركن محاولاً إخفاء اضطرابه. وأصابته الرعدة يديه، وانتفخ عنقه وتضرج، فأمر بإعداد العجلة الخفيفة ورحل إلى جهة ما. وعندما رأت تانيا كيف أهوى بالسوط على الحصان، وكيف شد العمرة عميقاً على رأسه، حتى أذنيه تقريباً، أدركت كنه مزاجه، فأغلقت غرفتها على نفسها وبكت طول النهار.

في الدفنيات كان الخوخ والبرقوق قد نضجا. وكان تغليف هذه البضاعة الرقيقة والتزقة وإرسالها إلى موسكو يتطلب كثيراً من العناية والجهد والمشغل. ولما كان الصيف حاراً وجافاً، فقد كان ينبغي ري كل شجرة، الأمر الذي استهلك الكثير من الوقت والأيدى العاملة، وظهرت الديدان بكمية رهيبية، فكان العمال، وحتى يجور سيميونيتش وتانيا، يسحقونها بأصابعهم مباشرة، مما أثار نفزز كوفرين البالغ. وعلاوة على ذلك فقد حان الوقت لتلقى الطلبات لتوريد الفواكه والأشجار في الخريف والقيام بمكاتبات كثيرة. وفي إبان هذه الفترة الحرجة، حين بدا أن أحداً لا يملك دققة فراغ حل أو أن أعمال الحقول، التي انتزعت من البستان أكثر من نصف العمال. وكان يجور سيميونيتش، الذي اسمر بشدة، يركض معذباً، غاضباً، تارة إلى البستان، وتارة إلى الحقل، ويصرخ بأنهم يمزقونه إربا، وأنه سيطلق رصاصة على رأسه.

أضف إلى ذلك مشاغل جهاز العروس، الذي كان آل يسوتسكى يولونه أهمية غير قليلة. ومن رنين المقصات ودق ماكينات الخياطة، ودخان المكاوي،

ومن نزق مصممة الأزياء، تلك السيدة العصبية السريعة الغضب، دارت رؤوس كل أهل البيت. وكأنما نكاية بهم أخذ الضيوف يأتون كل يوم، فكان لا بد من تسليتهم وإطعامهم، بل وإبقائهم للمبيت أحيانًا. ولكن كل هذه الأشغال الشاقة مرت دون أن تلاحظ، وكأنما من خلال الضباب. وكانت تانيا تشعر وكأنما دهمها الحب والسعادة بغتة، رغم أنها كانت منذ الرابعة عشرة من عمرها واثقة لسبب ما بأن كوفرين سيتزوج منها بالذات. كانت تشعر بالذهول والدهشة ولم تصدق نفسها.. وتارة تغمرها فرحة بحيث تود لو حُلقت إلى عنان السماء فصلى هناك لله، وتارة تذكر فجأة أنه سيكون عليها في أغسطس أن تفارق عشها الحبيب وتترك أباه، أو تواتيها من حيث لا يعلم إلا الله فكرة أنها تافهة، ضحلة وغير جديرة برجل عظيم مثل كوفرين، فتمضى إلى غرفتها ونوصدها عليها وتبكي بحرقة لعدة ساعات. وعندما يزورهم ضيوف يخيل إليها بغتة أن كوفرين جميل بصورة غير عادية، وأن جميع النساء مغرَمات به ويحسبنها، فتمتلئ روحها بالإعجاب والفخر، كأنما انتصرت على العالم أجمع، ولكن ما إن يتسم كوفرين لأنسة ما، حتى تتابها رعشة الغيرة، فتمضى إلى غرفتها، فإلى الدموع ثانية. واستولت عليها تمامًا هذه المشاعر الجديدة، فكانت تساعد أباه بطريقة آلية ولا تلاحظ الخوخ أو الديدان أو العمال، أو مرور الوقت بهذه السرعة.

وكان نفس الشيء تقريبًا يحدث ليجور سيمونيتش. كان يعمل من الصباح إلى المساء، ودائمًا يقصد على عجل جهة ما، ويفقد أعصابه ويتوتر، ولكن ذلك كله كان يجرى في شبه حلم مسحور. وكأنما كان يستقر داخله شخصان: أحدهما يجور سيمونيتش الحقيقي، الذي كان، وهو يصغى إلى تقرير البستاني إيفان كارليتش عن المخالفات، يغلى غضبًا ويمسك رأسه بيديه في يأس، والثاني شخص آخر، غير حقيقي، كأنما شبه ثمل، يقطع فجأة حديث العمل، ويربت عى كتف البستاني ويشرع يدمدم:

- أيا ما كان الأمر، فالدم يعني الكثير. لقد كانت أمه امرأة مدهشة، في غاية

النبيل والذكاء. كان من الممتع أن تنظر إلى وجهها الطيب الصبح الصافي كوجه ملاك. كانت ترسم بروعة، وتنظم الأشعار، وتحدث بخمس لغات أجنبية، وتغنى.. المسكينة، عليها الرحمة، ماتت بالسل..

ويتنهد يجور سيميونيتش غير الحقيقي، ويصمت قليلاً، ثم يستطرد:

- عندما كان صغيراً يترى عندي كان له مثل ذلك الوجه الملائكي الصبح الطيب. ونظراته وحركاته وحديثه رقيقة ورشيقة مثلما لدى أمه. وذكاءه؟ كان دائماً يذهلنا بذكائه. يكفي أنه أصبح ماجستير ليس صدفه! ليس صدفه! انتظر يا إيفان كارلوتش وسترى كيف سيصبح بعد عشر سنوات! لن تبلغه يدك! ولكن يجور سيميونيتش الحقيقي يستدرك فجأة، فيصبح وجهه رهيباً، ويمسك برأسه ويصيح:

- الشياطين! أفسدوا البستان، دنسوه، لوثوه! ضاع البستان! هلك البستان!

أما كوفرين فكان يعمل بدأبه السابق ولم يلاحظ الهرج. وصب الحب المزيد من الزيت على النار. وبعد كل لقاء مع تانيا كان يعود إلى غرفته سعيداً، معجباً، وبنفس الهيام الذي قبل به تانيا منذ قليل وباح لها بحبه، ينكب على كتاب أو على مخطوطه. كان ما قاله الراهب الأسود عن أبناء الله المختارين، عن الحقيقة الخالدة، عن مستقبل البشرية الباهر وغير ذلك، يضيء على عمله أهمية خاصة، غير عادية، ويملاً روحه بالاعتزاز والإدراك لسموه. وكان يلتقي بالراهب الأسود مرة أو مرتين أسبوعياً، في الحديقة أو في المنزل، فيتحدث معه طويلاً، ولكن ذلك لم يخفه، بل بالعكس، أثار إعجابه، لأنه أصبح على ثقة تامة بأن مثل هذه الرؤى لا تراود إلا المختارين، البارزين، الذين وهبوا حياتهم لخدمة الفكرة.

وذات مرة جاء الراهب أثناء الغداء فجلس بجوار النافذة في غرفة الطعام. وفرح كوفرين، وأدار حديثاً مع يجور سيميونيتش وتانيا بمهارة كبيرة عما يمكن أن يكون شيقاً للراهب.

وأصغى الضيف الأسود وهو يهز رأسه ببشاشة، وأصغى يجور سيميونيتش وتانيا أيضًا وهما يتسلمان بمرح، دون أن يفتنا إلى أن كوفرين لا يتحدث إليهما، بل إلى تهيؤاته.

لم يلاحظوا كيف اقترب صيام الرفع، وسرعان ما تبعه يوم العرس الذي احتفلوا به، حسب رغبة يجور سيميونيتش الملحمة، «بفرقة»، أى بازدهام مشوش استمر يومين. وأكلوا وشربوا بحوالى ثلاثة آلاف روبل، ولكنهم بسبب الفرقة الموسيقية المؤجرة السيئة، والأنخاب الزاعقة، وهرولة الخدم، بسبب الصخب والزحام لم يقدروا مذاق النبيذ الفاخر أو الميزات المدهشة المجلوبة من موسكو.

٧

ذات ليلة طويلة من ليالى الشتاء كان كوفرين راقدا فى الفراش يقرأ رواية فرنسية. وكانت تانيا المسكينة، التى كانت تعاني من الصداع كل مساء لعدم تعودها على المعيشة فى المدينة، نائمة منذ وقت طويل، وأحيانا تنفوه هاذية بعبارات ما غير مترابطة.

ودقت الساعة الثالثة. فأطفأ كوفرين الشمعة ورقد. وظل ممدداً فترة طويلة بعينين مغمضتين، ولكنه لم يستطع أن ينام لأن الجو فى غرفة النوم، كما خيل إليه، كان حاراً، وكانت تانيا تهذى. وفى الرابعة والنصف أشعل الشمعة ثانية وفى تلك اللحظة رأى الراهب الأسود جالساً فى المقعد قرب السرير.

- مرحباً - قال الراهب، ثم صمت قليلاً وسأله - فيم تفكر الآن؟

فقال كوفرين:

- فى الصيت. فى الرواية الفرنسية، التى كنت أقرأها لتوى يصور المؤلف شخصاً، عالمًا شاباً، يرتكب الحماقات ويذوى من الحنين إلى الصيت. هذا الحنين غير مفهوم لى.

- لأنك ذكى. أنت تنظر إلى الصيت بلا مبالاة، كدمية لا تثير اهتمامك.

- نعم، هذا صحيح.

- والشهرة لا تروق لك. فما هو الأمر المغرى، أو المسلى، أو ذو العبرة فى أن ينقشوا اسمك على تمثال القبر، ثم يمحو الزمن هذه الكتابة مع طلائها المذهب؟ ثم إنكم، ولحسن الحظ، أكثر من أن تحتفظ الذاكرة البشرية الضعيفة باسمائكم.

فقال كوفرين موافقًا:

- مفهوم، ثم ما الداعى لتذكرها؟ لكن هيا نتحدث عن شىء آخر. عن السعادة مثلاً. ما هى السعادة؟

عندما دقت الساعة الخامسة، كان جالسًا فى السرير، مدليًا ساقية على البساط، يتحدث مخاطبًا الراهب:

- فى الماضى أحس أحد السعداء فى نهاية الأمر بالخوف من سعادته لفرط ما كانت عظيمة! ولكى يتقى غضب الآلهة ضحى لهم بخاتمه الأثير. أتدرى؟ أنا أيضًا، مثل بوليقرط، بدأت أفلق نوعًا ما من سعادتي. إذ يبدو لى غريبًا أننى لا أشعر من الصباح إلى المساء إلا بالفرحة فقط، وهى تملأ كل كيانى، وتطفى على كل المشاعر الأخرى. أنا لا أعرف ما الحزن أو الأسى أو الملل. هاأناذا لا أنام، ويتتابنى الأرق، ولكنى لا أشعر بالملل. أقول لك بجدية، لقد بدأت أستغرب.

فذهل الراهب وقال:

- فلماذا؟ هل الفرحة شعور خارق؟ أليس من المفروض أن تكون هى الحالة الطبيعية للإنسان؟ وكلما ارتقى الإنسان فى تطوره الذهنى والخلقى، وكلما أصبح أكثر تحرراً، أصبحت الحياة تجلب له المزيد من المتعة. إن

سقراط وديوجين ومرفس أوريليوس كانوا يشعرون بالفرحة لا بالحزن. كما أن الرسول قال: افرحوا كل حين. فلتفرح إذن ولتكن سعيدًا.

- ولكن قد تغضب الآلهة؟ - قال كوفرين مازحا ثم ضحك - لو أنهم حرموني من الرفاهية واضطروني إلى حياة البرد والجوع فلا أظن أن ذلك سيروق لى.

وفى تلك الأثناء كانت تانيا قد استيقظت وأخذت تنظر إلى زوجها بذهول ورعب. كان يتحدث مخاطبًا المقعد، وهو بشيح بيديه ويضحك. وكانت عيناه تلمعان وكان فى ضحكه شىء ما غريب.

- أندريوشا مع من تتحدث؟ - سأله تانيا وهى تشد يده التى مدها نحو الراهب - أندريوشا! مع من تتحدث؟ فقال كوفرين محرجا:

- أه؟ مع من؟ معه.. ها هو ذا جالس - قال مشيرًا إلى الراهب الأسود.

- لا أحد هنا.. لا أحد! أندريوشا، أنت مريض!

وعانقت تانيا زوجها والتصفت به كأنما تحميه من الرؤى وأغمضت عينيه بيدها.

وانتجبت وبدنها كله يرتجف:

- أنت مريض! سامحنى يا حبيبى، يا عزيزى، ولكنى لا حظت من وقت طويل أن روحك مضطربة.. أنت مريض نفسيًا يا أندريوشا..

وانتقل ارتجافها إليه. ونظر مرة أخرى إلى المقعد، الذى أصبح الآن خاويًا، فأحس فجأة بضعف فى يديه وقدميه، وتملكه الخوف، وراح يرتدى ملابسه.

ودمدم وهو يرتعش:

- هذا لاشىء يا تانيا.. لا شىء. فعلا أنا معتل قليلاً.. ينبغى أن أعترف بذلك.

فقال تانيا وهي تحاول كتمان النحيب:

- أنا لاحظت منذ وقت طويل.. وبابا أيضًا لاحظ. أنت تكلم نفسك، وتبتسم ابتسامات غريبة.. ولا تنام. أوه يا إلهي، يا إلهي أنقذنا! - قالت برعب - لكن لا تخف يا أندريوشا، لا تخف، بالله عليك لا تخف..

وراحت هي الأخرى ترتدى ثيابها. الآن فقط، عندما نظر كوفرين إليها، أدرك كل خطورة وضعه، أدرك ما الذى يعنيه الراهب الأسود وأحادثة معه. لقد أصبح واضحًا له الآن أنه مجنون.

لبسا ملابسهما وهما لا يدریان لماذا وخرجا إلى الصلاة، هي فى المقدمة وهو خلفها. وهنا أيضًا كان يقف يجور سيميونيتش، الذى نزل ضيفًا عليهما، فى الروب، حاملًا شمعة بعد أن أيقظه النحيب.

وقالت تانيا وهي ترتعش كالمحمومة:

- لا تخف يا أندريوشا، لا تخف.. بابا، هذا سيزول.. كل شيء سيزول..

ولم يستطع كوفرين أن يتحدث من شدة الانفعال. وأراد أن يقول لحبيه بلهجة مازحة:

- هنتى، يبدو أننى جنت. - ولكنه حرك شفثيه فقط وابتسم بمرارة.

وفى التاسعة صباحًا ألبسوه المعطف الصوفى ومعطف الفراء، ولفعوه بشال، ونقلوه فى عربة إلى الطيب. وبدأ يتعالج.

٨

حل الصيف من جديد، ونصح الطيب بالانتقال إلى الريف. وكان كوفرين قد شفى، ولم يعد يرى الراهب الأسود، ولم يبق إلا أن يعزز قواه البدنية. وأثناء

إقامته لدى حميه فى الريف أخذ يشرب اللبن بكثرة، ويعمل ساعتين فقط فى اليوم، وامتنع عن شرب الخمر وعن التدخين.

وعشية عيد القديس إيليا أقاموا فى المنزل صلاة المساء. وعندما أعطى الشماس المبخرة للقس فاحت فى الصلاة العتيقة الضخمة رائحة كرائحة القبور، فأحس كوفرين بالملل. وخرج إلى البستان. ودون أن يلاحظ الزهور الفاخرة، تجول فى البستان، وجلس على الأريكة، ثم تمشى فى الحديقة. وعندما بلغ النهر هبط إلى أسفل، ووقف هناك متفكرًا وهو يحدق فى المياه. لم تعد الصنوبرات الجهمة ذات الجذور الكثة، والتي شهدت فى العام الماضى شابًا، فرحًا، نشيطًا، تهمس الآن، بل انتصبت جامدة خرساء، كأنما لم تتعرف عليه. وبالفعل، فقد كان رأسه حليقًا، ولم يعد لديه ذلك الشعر الطويل الجميل، وأصبحت مشيته ذابلة، وسمن وجهه، بالمقارنة مع العام الماضى، وشحب.

وعبر إلى الضفة الأخرى فوق القنطرة. وفى المكان الذى كان يغطيه الجودار فى العام الماضى امتدت الآن صفوف شعير محصود. وكانت الشمس قد غربت، وتوهج عند الأفق شفق أحمر عريض، منبثًا بطقس ريحى فى الغد. وساد الهدوء. وحدق كوفرين فى الجهة التى ظهر منها الراهب الأسود لأول مرة فى العام الماضى، ووقف حوالى عشرين دقيقة، إلى أن بدأ شفق المغيب يعتم..

وعندما عاد إلى البيت ذابلًا غير راضٍ، كانت الصلاة قد انتهت. وكان يجور سيميونيتش وتانيا جالسين على درجات الشرفة يشربان الشاي. كانا يتحدثان عن شىء ما، ولكنهما صمتا فجأة عندما شاهدا كوفرين فقرر من تعبير وجهيهما أنهما كانا يتحدثان عنه.

وقالت تانيا لزوجها:

- أظن أن الوقت قد حان لتشرب اللبن.

- لا، لم يحن... قال وهو يجلس على آخر درجة فى أسفل السلم - اشربيه أنت. أنا لا أريد.

تبادلت تانيا مع أبيها نظرة قلقة وقالت بنبرة ذنب:

- أنت نفسك تلاحظ أن اللبن مفيد لك.

فضحك كوفرين بسخرية:

- نعم، مفيد جداً! أهتكم؛ منذ يوم الجمعة ازداد وزنى رطلاً آخر - وضغط رأسه بيديه بقوة وقال بأسى - لماذا، لماذا عالجتومنى؟ محاليل البروم، والبطالة، والحمامات الدافئة، والرقابة، والخوف الجبان من كل رشفة، من كل خطوة.. كل هذا سيؤدى بى فى النهاية إلى البله. نعم، لقد جننت، كنت مريضاً بجنون العظمة، ولكنى كنت مرحاً، نشيطاً، بل سعيداً. كنت طريفاً وأصيلاً. والآن أصبحت أعقل وأرصن، ولكنى صرت مثل الجميع، أنا عادى، سئمت الحياة.. أوه، كم قسوتم على! كنت أرى تهيؤات، ولكن من ذا الذى كان يزعجه ذلك؟ إننى أسأل: من ذا الذى كان يزعجه ذلك؟

فتنهذ يجور سيميونيتش وقال:

- الله يعلم ما هذا الذى تقول! حتى سماع هذا ممل.

- إذن لا تسمع.

كان وجود الآخرين، وبخاصة يجور سيميونيتش، يثير الآن كوفرين، فكان يرد عليه بجفاف وبرود، بل وحتى بغلظة، ولم يكن يعامله إلا بسخرية وكرهية، أما يجور سيميونيتش فكان يرتبك ويسعل بذنب، رغم أنه لم يكن يحس بأنه ارتكب أى ذنب. ولما لم تكن تانيا تفهم لماذا تغيرت بحدة علاقات الود والبشاشة بينهما، فقد التصقت بأبيها وأخذت تحديق فى عينيه بقلق. كانت تريد أن تفهم ولا تستطيع، وأصبح واضحاً لها شيء واحد، وهو أن علاقاتهما تتدهور من يوم إلى يوم، وأن أباهما هرم بشدة فى الآونة الأخيرة، وأصبح زوجها عصيياً، نزقاً، متمحكاً وغير طريف. ولم يعد فى وسعها أن تضحك أو تغنى،

ولم تكن تذوق شيئاً فى الغداء، ولا تنام لىالى كاملة وهى تتوقع شيئاً رهيباً،
وأنهكت إلى درجة أنها ظلت ذات مرة فى حالة إغماء من الغداء إلى المساء.
وخيل إليها أثناء صلاة المساء أن أباهـا كان يبكى، أما الآن، وهـم جالسـون
ثلاثهم فى الشرفة، فقد جاهدت لكى لا تفكر فى ذلك.

وقال كوفرين:

- ما كان أسعد بوذا ومحمدٌ وشكسبير لأن أقاربهم الطيبين والأطباء لم
يعالجوهم من النشوة والوحى! لو أن محمدًا كان يتناول بروميد البوتاسيوم
من الأعصاب، ويعمل ساعتين فقط فى اليوم ويشرب اللبن لما تبقى بعد هذا
الإنسان الرائع أكثر مما تبقى بعد كلبه. سيتمكن الأطباء والأقارب الطيبون
فى نهاية الأمر من جعل البشرية تتبلد، وسوف تعتبر العادية عبقرية وستهلك
الحضارة - وقال كوفرين بأسى - آه لو تعلمون كم أنا ممتن لكم!

أحس بضيق شديد، ولكى لا يتفوه بما لا داعى له نهض بسرعة ودخل
المنزل. كان الهدوء يشمل المنزل، ومن النوافذ المفتوحة تناهت من البستان
رائحة الطبايق ونبات الحلبة. وفى الصالة الضخمة المظلمة انتشرت على
الأرض والبيانو بقع خضراء من ضوء القمر. وتذكر كوفرين لحظات إعجابه
فى العام الماضى، عندما توضع شذى الحلبة أيضًا مثلما الآن ولاح ضوء القمر
من النوافذ. ولكى يستعيد مزاج العام الماضى توجه بسرعة إلى غرفة المكتب،
ودخن سيجاراً قوياً وأمر الخادم أن يحضر له نبيذاً. ولكنه أحس بطعم السيجار
مرا وكريها فى فمه، ولم يكن النبيذ لذيذاً كما فى العام الماضى. ما أكثر ما يعنى
نسيان العادة! فمن سيجار وجرعتى نبيذ دار رأسه وتلاحقت نبضات قلبه، فكان
لا بد من تناول بروميد البوتاسيوم.

وقبل أن يأوياً إلى الفراش قالت له تانيا:

- أبى يعبك. وأنت غاضب منه لسبب ما، وهذا يكاد يقتله غماً. انظر كيف

يهرم كل ساعة لا كل يوم. أتوسل إليك يا أندريوشا، أستحلفك بالله، أن تكون لطيفاً معه من أجل راحتي ومن أجل أبيك الراحل!

- لا أستطيع ولا أريد.

- ولكن لماذا؟ - سألته تانيا وبدأ بدنّها كله يرتجف - خبرني، لماذا؟

- لأنه لا يروق لي، وهذا كل ما هنالك - قال كوفرين باستخفاف وهز كتفيه - ولكن دعينا لا نتحدث عنه. إنه أبوك.

فقالت تانيا وهي تضغط على صدغيها وتحقق في نقطة واحدة:

- لا أستطيع، لا أستطيع أن أفهم! هناك شيء رهيب، لا يمكن إدراكه، يجري في منزلنا. أنت تغيرت، لم تعد كما كنت.. أنت الشخص العاقل، غير العادي، أصبحت تنزعج لأشياء بسيطة وتدخل في المشاحنات.. تثيرك أشياء في غاية التفاهة لدرجة أنني أحياناً أدعش ولا أصدق: أهذا أنت؟ حسناً، حسناً، لا تغضب - استطردت تانيا ومضت تلثم يديه وقد خافت من كلماتها - أنت ذكي، طيب، نبيل. فلتكن عادلاً مع أبي. إنه لطيف جداً!

- ليس لطيفاً بل ملاطفاً. إن الأعمام الهزليين، أمثال أبيك، ذوى الوجوه الشبعانة البشوشة، الكرماء للغاية والغريبى الأطوار، كانوا في وقت ما يشيرون إعجابي وضحكي سواء في القصص أم في الهزليات أم في الحياة، أما الآن فيشيرون نفوري. إنهم أناثيون حتى النخاع. وأكثر ما ينفرني منهم هو شعبهم، وذلك التفاؤل الثيراني أو الخنازيري البحت النابع من معداتهم.

جلست تانيا في الفراش ووضعت رأسها على الوسادة.

- هذا عذاب - قالت، وكان واضحاً من صوتها أنها أصبحت مرهقة لأقصى حد وأنه من الصعب عليها أن تتكلم - من الشتاء لم أعرف دقيقة راحة.. ما أفضع هذا يا إلهي! إنني أتعذب..

نعم، أنا طبعًا هيرودس، وأنت وباباك صبيان مصر^(١). طبعًا!

بدا وجهه لتانيا قبيحًا ومنفّرًا. ولم تكن الكراهية والسخرية تنسجمان معه. وقد لاحظت من قبل أن شيئًا ما ينقص وجهه، كما لو أن ملامحه أيضًا قد تغيرت منذ أن خلق شعره. وشعرت بالرغبة في أن تقول له شيئًا مهينًا، ولكنها انتبهت على الفور إلى هذا الإحساس الكريه فخافت، وغادرت الغرفة.

٩

حصل كوفرين على كرسي أستاذ مستقل. وتحدد موعد محاضراته الافتتاحية في الثاني من ديسمبر، وعلّق إعلان بذلك في ممر الجامعة. ولكنه في اليوم المحدد أرسل إلى مسئول الطلاب برقية يعتذر فيها عن عدم استطاعته إلقاء المحاضرة لمرضه.

نزف دما من حلقه. كان قبلها يبصق دما، ومرتين في الشهر يتزف بغزارة، وعندئذ كان يتأبه ضعف شديد وميل إلى النوم. ولم يكن هذا المرض يسبب له خوفا كبيرا لأنه كان يعرف أن المرحومة أمه عاشت بنفس هذا المرض عشر سنوات بل وأكثر، وأكد له الأطباء أن ذلك ليس خطيرا، ونصحوه فقط بالآلا يفعل، وأن يتبع نظامًا سليمًا للمعيشة، ويقلل من الكلام.

وفي يناير ألغيت المحاضرة لنفس السبب، أما في فبراير فكان الوقت متأخرا للبدء في الدورة. فاضطروا للتأجيل إلى العام القادم.

لم يعد يعيش مع تانيا، بل مع امرأة أخرى كانت تكبره بعامين وتعتنى به كما يعتنى بطفل. وكان مزاجه مسالما، مستكينًا: فقد كان يطيعها عن طيب

(١) الإشارة إلى ما جاء بإنجيل متى (الفصل الثاني) عن قيام الملك هيرودس بقتل جميع صبيان بيت لحم بعد هروب يوسف ومريم ويسوع الوليد إلى مصر خوفا من بطشه. (المعرب).

خاطر، وعندما عزمت فارفارا نيكولايفنا - هكذا كانت تدعى رفيقته - على السفر به إلى القرم، وافق رغم أنه كان يحدث بأن هذه الرحلة لن تسفر عن أى شىء طيب.

وصلا إلى سيفاستوبول مساء ونزلا فى فندق لكى يستريحان ثم يسافران غدا إلى بالطا. وارهقهما السفر كليهما. وشربت فارفارا نيكولايفنا الشاي، وأوت إلى الفراش، وسرعان ما نامت. ولكن كوفرين لم يذهب إلى الفراش. فقد تلقى وهو بعد فى المنزل، قبل التوجه إلى المحطة بساعة، رسالة من تانيا، ولم يجرؤ على قضاها، وها هى ذى الآن ترقد فى جيبه الجانبي، وأثار التفكير فيها اضطرابا كريها فى نفسه. كان الآن يعتبر فى قرارة نفسه وبإخلاص أن زواجه بتانيا كان خطأ، وكان راضيا لأنه انفصل عنها نهائيا، ولم تثر ذكرياته عن هذه المرأة التى تحولت فى نهاية الأمر إلى مومياء حية، والتى بدا أن كل شىء فيها مات، اللهم إلا عينيها الواسعتين الذكيتين الثابتتي النظرة، لم تثر ذكرياته عنها إلا الحسرة والأسى على نفسه. وذكره خطها على المظروف كم كان ظالما وقاسيا منذ عامين، وكم صب نغمته لخواء روحه وملله ووحدته وبرمه بالحياة على أناس أبرياء. وتذكر بالمناسبة كيف مزق ذات مرة رسالة الدكتوراه ومقالاته التى كتبها أثناء مرضه مزقا صغيرة، وألقى بها من النافذة، فطارت المزق مع الريح وهى تتعلق بالأشجار والأزهار. لقد رأى فى كل سطر من سطورها ادعاءات غريبة لا أساس لها، وهراء عابثا ووقاحة وجنون عظيمة، فترك هذا فى نفسه انطبعا، كأنما كان يقرأ وصفا لردائله. ولكن عندما مزق آخر دفتر وألقى به من النافذة شعر فجأة بالأسى والمرارة، فذهب إلى زوجته وأسمعها الكثير من الإساءات. يا إلهي كم كان يتلف أعصابها! ذات مرة، وقد أراد أن يؤلمها، قال لها إن أباهما لعب فى قصة غرامهما دورا مشينا، لأنه رجاء أن يتزوج منها. وسمع يجور سيميونيتش ذلك عرضا فاندفع إلى الغرفة، ولم يستطع من شدة الإساءة أن يقول كلمة واحدة، بل ظل فقط يراوح فى مكانه، ويخور بصورة غريبة، كما لو كان لسانه قد شل، أما تانيا فنظرت إلى أبيها وصرخت صرخة تمزق القلب وسقطت مغشيا عليها. كان ذلك شيئا فظيحا.

ورد كل هذا على خاطره عندما تطلع إلى الخط المعروف. وخرج إلى الشرفة. كان الجو هادئاً دافئاً، وفاحت رائحة البحر. وعكس الخليج الرائع صورة القمر والأضواء، واكتسى بلون يصعب أن تجد له اسماً. كان ذلك خليطاً رقيقاً وناعماً من اللونين الأزرق والأخضر. وفي بعض الأماكن كان لون المياه يشبه الزجاج الأزرق، وفي أماكن أخرى بدا أن ضوء القمر تكثف فملاً الخليج بدلاً من المياه، وعموماً، فبالله من توافق ألوان، وبالله من مزاج مسالم، مستكين، سام!

يبدو أن النوافذ في الطابق الأدنى، تحت الشرفة، كانت مفتوحة، فقد تنهات بوضوح أصوات نسائية وضحك. الظاهر أنه كانت هناك حفلة.

وتحامل كوفرين على نفسه وفض الرسالة، وذهب إلى غرفته وقرأ:

«مات أبى لتوه. وأنا مدينة لك بذلك، لأنك أنت الذى قتلته. وبستاننا يهلك، وأصبح الغرباء يديرونه، أى يحدث بالضبط ما كان يخشاه أبى المسكين وأنا مدينة بذلك لك أيضاً. إننى أمقتك من صميم قلبى وأتمنى أن تهلك فى أقرب وقت. أوه، كم أعانى! روحى يحرقها ألم لا يطاق.. عليك اللعنة. لقد ظننتك إنساناً فذاً، عبقرياً، وأحببتك، ولكن ظهر أنك مجنون...».

لم يستطع كوفرين أن يواصل القراءة فمزق الرسالة وألقى بها. وتملكه قلق يشبه الخوف. وكانت فارغارا نيكولا يفنا نائمة خلف الحاجز، وتردد صوت أنفاسها. ومن الطابق الأسفل تنهات الأصوات النسائية والضحك، ولكن تملكه إحساس بأنه لا يوجد فى الفندق كله أحد غيره. ولأن تانيا التعيسة، التى حطمتها البلوى لعنته فى رسالتها وتمنت له الهلاك، فقد أحس بالرب، ونظر إلى الباب لمحا، كأنما كان يخشى أن تدخل الغرفة وتحكم فيه ثانية تلك القوة المجهولة التى ألحقت بحياته وحياة أقربائه فى غضون ما لا يزيد عن سنتين كل هذا الدمار.

كان يعرف من واقع التجربة أنه إذا ما أفلتت الأعصاب فإن أفضل وسيلة

لكبح جماحها هي العمل. ينبغي أن يجلس إلى الطاولة ويرغم نفسه، مهما كلف الأمر، أن يركز انتباهه على فكرة ما. وأخرج من حقيبته الحمراء دفترًا سجل فيه ملخصًا سريعًا لمؤلف تصنيفي صغير، كان قد أعدّه ليشغل به نفسه فيما لو بدت له الإقامة في القرم مملة بدون عمل. وجلس إلى الطاولة وانكب على هذا الملخص، فبدا له أنه يستعيد مزاجه الهادئ المستكين اللامبالي. بل إن هذا الدفتر قد أوحى إليه بأفكار عن باطل الحياة الدنيا. وفكر في أن الحياة تأخذ الكثير لقاء تلك النعم الضئيلة، أو العادية للغاية، التي يمكن أن تقدمها للإنسان. وعلى سبيل المثال، فلكى يحصل على كرسي أستاذ وهو يناهز الأربعين، ولكى يكون أستاذًا عاديًا، يصوغ بلغة ذابلة مملة ثقيلة أفكارًا عادية، هي فوق ذلك أفكار الآخرين.. وباختصار فلكى يبلغ منزلة العالم المتوسط، كان عليه، هو كوفرين، أن يدرس خمسة عشر عامًا، ويعمل ليل نهار، ويصاب بمرض نفسى عضال، ويخوض تجربة زواج فاشل، ويرتكب الكثير من الحماقات والمظالم التي يسعده ألا يتذكرها. كان كوفرين يدرك الآن بوضوح أنه شخص عادى، وقع بذلك عن طيب خاطر، لأن كل إنسان، حسب رأيه، ينبغي أن يرضى بما هو عليه.

كان الملخص يهدئه تمامًا، بيد أن الرسالة الممزقة الملقاة على الأرض كانت تلوح لناظريه فتعوقه عن التركيز. فنهض من أمام الطاولة، وجمع مزق الرسالة وألقى بها فى النافذة، ولكن نسيما خفيفا هب من البحر فتناثرت المزق على حافة النافذة. ومن جديد تملكه قلق يشبه الخوف، وعاوده الإحساس بأنه لا يوجد فى الفندق كله أحد غيره.. وخرج إلى الشرفة. كان الخليج، كمخلوق حى، يحدق فيه بأعين زرقاء وسماوية وفيروزية ونارية عديدة ويشده إليه. وبالفعل كان الجو حارًا وخائفًا يغرى بالاستحمام.

وفجأة تردد من الطابق الأدنى تحت الشرفة عزف كمان، وغنى صوتان نسائيان رقيقان. وبدا ذلك شيئًا مألوفًا. كانت الأغنية التي غناها فى الأسفل تتحدث عن فتاة ماء، مصابة بالوهم، سمعت ليلاً فى الحديقة أصواتًا غامضة

فاعتبرتها هارموني مقدسا، ليس مفهوماً لنا - نحن الفانين - واحتبست أنفاس كوفرين، وعصر الحزن قلبه، ورفرفت في صدره فرحة رائعة حلوة منسية منذ زمن بعيد.

وعلى ضفة الخليج الأخرى ظهر عمود أسود طويل، يشبه الزوينة أو الدوامة الهوائية. وتحرك فوق الخليج بسرعة رهيبية متجهًا نحو الفندق وهو يزداد انكماشًا وقتامة، فلم يتمكن كوفرين من التنحي إلا بالكاد ليفسح له الطريق.. ومرت الراهب الأسود، برأسه الأشيب الحاسر، وحاجبيه الأسودين، وقدميه الحافيتين وبديه المعقودتين على صدره، بجوار كوفرين وتوقف في وسط الغرفة.

وسأل بعتاب وهو ينظر إلى كوفرين برقة:

- لماذا لم تصدقني؟ لو صدقت ما قلته لك آنذاك بأنك عبقرى، لما قضيت هذين العامين بهذا الحزن والجذب.

أصبح كوفرين الآن يؤمن بأنه من أبناء الله المختارين وعبقرى، وتذكر على الفور كل أحاديثة السابقة مع الراهب الأسود، وأراد أن يتكلم، ولكن الدم سال من حلقه على صدره مباشرة، فأخذ، وهو لا يدري ماذا يفعل، يمسح بيديه على صدره، فتبللت أساوره بالدم. وأراد أن يدعو فارفارًا نيكولا يفنا التي كانت نائمة خلف الحاجز، فتحامل على نفسه وتمتم:

- تانيا!

وسقط على الأرض، ثم نهض على ذراعيه ونادى ثانية:

- تانيا!

كان ينادى تانيا، ينادى البستان الكبير بأزهاره الفاخرة المبللة بالندى، ينادى الحديقة، وأشجار الصنوبر ذات الجذور الكثية، وحقل الجودار، وعلمه البديع، وشبابه، وجسارته، وفرحته، كان ينادى الحياة التي كانت جد رائعة. ورأى

بجوار وجهه على الأرض بركة دم كبيرة، ولم يعد بوسعه من شدة الضعف أن ينطق بكلمة واحدة، ولكن سعادة لا نهائية لا توصف ملأت كل كيانه. وفي الأسفل تحت الشرفة كانوا يعزفون سيرنادا، بينما راح الراهب الأسود يهمس له بأنه عبقرى وبأنه لا يموت إلا لأن جسده البشرى الضعيف قد فقد توازنه ولم يعد قادراً على أن يكون غلاماً يحفظ العبقريّة.

عندما استيقظت فارفارا نيكولا يفنا وخرجت من وراء الحاجز، كان كوفرين قد فارق الحياة، وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة عذبة.

الفلاحون

١

مرض نيكولاى تشيكيلىديف الخادم بفندق « سلافيانسكى بازار » بموسكو. نملت ساقاه وتغيرت مشيته، حتى إنه تعثر ذات مرة وهو يسير فى الممر فوق الصينية التى كانت عليها شرائح خنزير بالبازلاء. واضطر إلى ترك العمل. وأنفق كل ما كان لديه من نقوده ونقود زوجته على العلاج، ولم يعد هناك ما ينفق على الطعام، ومُلَّ البطالة فقرر أنه ربما كان عليه أن يرحل إلى بيتهم فى الريف. فالمرض فى البيت أخف والحياة أرخص؛ وليس عبثاً أن يقال: فى البيت الجدران تساعد.

وصل إلى قريته جوكونوفو قبيل المساء. وكان مسقط رأسه يبدو له فى ذكريات الطفولة مشرقاً، حميماً، مريحاً، أما الآن، وعندما دخل الدار، فقد شعر حتى بالخوف؛ فكم كان المكان مظلماً وضيقاً وقذراً. ونظرت زوجته أولجا وابنته ساشا، اللتان جاءتا معه، باستغراب إلى الفرن الكبير المنفر، الذى كاد أن يشغل نصف الدار، والمسود من الهباب والذباب. ما أكثر الذباب! كان الفرن مائلاً، وجذوع الأشجار التى شيدت منها الجدران معوجة، فبدأ أن الدار ستنهار تَوّاً. وفى الركن الأمامى، بجوار الأيقونات، ألصقت رقع ماركات الزجاجات ومزق من الصحف، وذلك بدلاً من الصور. يا للفقر! لم يكن أحد من الكبار فى المنزل، إذ كانوا كلهم يحصدون.. وعلى الفرن جلست طفلة فى حوالى

الثامنة، بيضاء الرأس، قدرة الوجه، لا مبالية. لم تنظر حتى إلى القادمين. وفي الأسفل تمسحت قطعة بيضاء بالشكور.

ودعتها ساشا إليها:

- بس، بس!

فقالت الطفلة:

- إنها لا تسمع. طرشت.

- مم؟

- هكذا. من الضرب.

أدرك نيكولاى وأولجا منذ الوهلة الأولى أية حياة هنا، ولكن أحداً منهما لم يقل للآخر شيئاً. أنزلا الصرر فى صمت، وخرجا فى صمت. كانت دارهم الثالثة من الطرف، وبدت أفقر الدور وأقدمها. ولم تكن الدار الثانية أفضل، ولكن الثالثة كانت بسقف معدنى وستائر على النوافذ. هذه الدار، التى لم تكن مسيجة، لاحت قائمة بذاتها، وكان بها حانة. وامتدت الدور صفًا واحدًا، وبدت القرية كلها، الهادئة المستقرّة، بأشجار الصفصاف والبلسان والغبراء المطلة من الأفنية، لطيفة المنظر.

وبعد دور الفلاحين يبدأ منحدر نحو النهر، شديد الانحدار وجرفى، وظهرت أحجار ضخمة وسط الطين هنا وهناك. وعلى السفح، بجوار هذه الأحجار والحفر التى حفرها الفخارون، تعرجت دروب، وتكدست أكوام من شقف الأوانى المكسرة، بعضها بنى وبعضها أحمر، وفى الأسفل امتد مرج أخضر ساطع واسع مستو، حصد عشبه، فأصبحت ماشية الفلاحين ترعى فيه الآن بحرية. وكان النهر على بعد فرسخ من القرية، نهر متعرج، بشطآن رائعة متموجة الخماثل، ومن بعده مرج واسع آخر، وماشية وطواير طويلة من الأوز الأبيض، ثم طريق منحدر بشدة - كما فى هذا الشاطئ - صاعد إلى

التل، وفي الأعلى، على التل، قرية بكنيسة ذات خمس قباب ومنزل السادة على مقربة منها.

وقالت أولجا وهي ترسم على صدرها علامة الصليب في مواجهة الكنيسة:

- ناحيتكم جميلة! يا إلهي، يا للرحابة!

وفي هذه اللحظة دوت أجراس صلاة المساء (كانت عشية الأحد) وتطلعت فتاتان صغيرتان كانتا تنقلان الماء في دلو في الأسفل إلى الكنيسة لتسمعا الرنين.

ودمدن نيكولاى حالما:

- في هذا الوقت يقدمون العشاء في «سلافيانسكى بازار»..

ورأى نيكولاى وأولجا وهما جالسان على الجرف كيف راحت الشمس تغرب، وكيف انعكست السماء الذهبية القرمزية في النهر وفي نوافذ الكنيسة وفي الهواء كله، الرقيق الساكن، النقي بصورة لا توصف، والذي لا مثيل له في موسكو أبدا. وعندما غربت الشمس مر قطيع الماشية وهو يخور ويزأر، وأقبل الأوز طائرا من تلك الناحية، ثم صمت كل شيء، وخبا الضوء الخافت في الهواء، وزحف ظلام المساء بسرعة.

وفي تلك الأثناء عاد العجوزان، والد نيكولاى وأمه، هزيلين، محنين، بلا أسنان، كلاهما من طول واحد. وجاءت النساء: زوجتا الأخوين ماريا وفيكلا اللتان كانتا تعملان وراء النهر لدى الإقطاعى. كان لدى ماريا، زوجة الأخ كيرياك، ستة أطفال، ولدى فيكلا، زوجة الأخ دينيس الذى جند في الجيش، طفلان. وعندما دخل نيكولاى الدار ورأى العائلة كلها، كل هذه الأجساد الكبيرة والصغيرة التى كانت تتحرك على ألواح النوم وفي المهود وفي جميع الأركان، وعندما رأى بأية شراهة كان العجوز والنسوة يأكلون الخبز الأسود

وهم يغمسونه فى الماء، أدرك أنه عبثًا جاء إلى هنا مريضًا، بلا مال، وفوق ذلك مع أسرته، عبثًا!

وسأل بعد أن سلم عليهم:

- وأين أخى كيرياك؟

فأجابه أبوه:

- يعيش عند التاجر حارسا، فى الغابة. فلاح لا بأس به، لكنه يفرط فى الشراب.

قدمدمت العجوز دامعة:

- ليس مُطعمًا! رجالنا بلايا، لا يحملون إلى البيت بل يسحبون من البيت. كيرياك يشرب، والعجوز أيضًا، ولا داعى للتستر، إنه يعرف الطريق إلى الحانة. غضبت علينا السيدة العذراء.

وبمناسبة مجيء الضيوف أشعلوا السماور. وفاحت من الشاى رائحة السمك، وكان السكر مقروضًا ورماديًا، وتراكضت الصراصير فوق الخبز والأوعية. كان الشرب كريها، والحديث أيضًا كريها.. كله عن الفاقة والأمراض. وما إن شربوا أول كوب شاى حتى تناهت من الفناء صبيحة عالية طويلة ثملة:

- ...أ.. ريا!

فقال العجوز:

- يبدو أنه كيرياك قد جاء. تذكرنا القط..

صمت الجميع. وبعد قليل ترددت نفس الصبيحة الفظة الطويلة كأنها من تحت الأرض:

- ...أ.. ريا!

شحبت ماريّا، زوجة الابن الأكبر والتصقت بالفرن، وكان غريبًا أن ترى

على وجه هذه المرأة القوية، العريضة الكتفين، القبيحة، تعبير الرعب. وفجأة
بكت ابتتها بصوت عال، تلك الفتاة التي كانت جالسة على الفرن وبدت لا
مبالية.

فصاحت بها فيكلا، وهي امرأة جميلة وأيضًا قوية وعريضة الكتفين:

- وأنت، أينها المطعونة، مالك؟ لن يقتلك!

علم نيكولاى من العجوز أن ماريا كانت تخاف العيش مع زوجها فى
الغابة، وأنه عندما يكون ثملا يأتى دائماً ليأخذها، ويشير أثناء ذلك صخبًا
ويضربها بلا رحمة.

ودوت الصرخة عند الباب تمامًا:

- م...ا...ريا!

فتمتت ماريا وهي تنفس كشخص أنزلوه فى ماء بارد للغاية:

- احمونى بحق المسيح يا أحبابى، احمونى يا أحبابى..

ويكى كل من كان فى الدار من أطفال، وبكت ساشا أيضًا وهي تحذو
حذوهم. وتناهى سعال ثمل، ودلف إلى الدار فلاح طويل، أسود اللحية،
فى طاقة شتوية، ولما لم يكن وجهه ظاهرًا فى ضوء المصباح الكابى فقد بدا
رهيبًا. كان ذلك كيرياك. اقترب من زوجته فطوح بيده إلى الوراء وسدذ إليها
لكمة فى وجهها فلم يند عنها صوت وقد أصمتها اللكمة. أقعت فحسب،
وعلى الفور تدفق الدم من أنفها.

ودمدم العجوز وهو يصعد إلى سطح الفرن:

- يا للعار، أمام الضيوف! حرام عليك!

أما الجدة فجلست صامته، متكورة، وهي تفكر فى شيء ما. وكانت فيكلا
تهز المهد.. ويبدو أن كيرياك كان يدرك أنه رهيب ويشعر بالرضى لذلك،
فأمسك بذراع ماريا وجرها إلى الباب، وزأر كوحش ليبدو أكثر رهبة، ولكنه
رأى الضيوف فى تلك اللحظة فتوقف.

ودمدم وهو يخلى سبيل زوجته:

- آه، وصلتم!.. أخى الحبيب وأسرته..

وصل أمام الأيقونة مترنحا وقد فتح عينيه الحمراروين الشملتين واسعا، واستطرد:

- أخى وأسرته جاءوا إلى بيت الوالدين.. من موسكو يعنى. من العاصمة الأولى يعنى، أم المدن.. اعذرونى..

وانحط على الأريكة بجوار السماور وراح يشرب الشاي من الطبق وهو يرشفه بصوت عال، بينما خيم الصمت.. شرب حوالى عشرة فناجين، ثم مال على الأريكة وارتفع شخيره.

وبدأوا يستعدون للنوم. وضعوا نيكولاى باعتباره مريضاً على الفرن مع العجوز. ورفدت ساشا على الأرض، بينما مضت أولجا مع النساء إلى المحظيرة.

وقالت وهى ترقد على الدريس بجوار ماريا:

- إيه يا حلوة، الدموع لن تخفف البلوى. اصبرى وهذا كل شىء. فقد جاء فى الكتاب: من ضربك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر.. إيه يا حلوة! ثم تحدثت بصوت شبه هامس ناغم عن موسكو، وعن حيانها، وكيف كانت تعمل خادماً فى البنسيونات.

قالت:

البيوت فى موسكو كبيرة، حجرية، والكنائس كثيرة جداً، بالمتات، وأصحاب البيوت سادة، كلهم جميلون، كلهم مهذبون.

وقالت ماريا أنها لم تذهب أبداً لا إلى موسكو فحسب بل حتى إلى مدينة إقليمهم. كانت أمية، لا تعرف أية صلاة، ولا حتى «أبانا الذى». كانت هى وزوجة الأخ الآخر، فيكلا، التى كانت جالسة الآن غير بعيد وتستمع، كانتا كلتاها متخلفتين جداً ولم يكن بوسعهما فهم شىء. وكلتاها لم تكونا

تجبان زوجيهما. كانت ماريّا تخشى كيرياك، وعندما يبقى معها كانت ترتعد من الخوف، ودائمًا ما تختنق وهي بقربه فقد كانت تتصاعد منه بشدة رائحة الفودكا والتبغ. أما فيكلا فردت على السؤال عما إذا كانت تشعر بالملل بدون زوجها، قائلة بأسى:

- فليذهب في داهية!

وبعد أن تحدثن صمتن..

كان المكان باردًا، وبجوار الحظيرة صاح ديك بأعلى صوته فعاقهن عن النوم. وعندما تسرب ضوء الفجر الأزرق الشاحب عبر جميع الشقوق، نهضت فيكلا بهدوء وخرجت، ثم تردد وقع قدميها العاريتين وهي تركض إلى مكان ما.

٢

ذهبت أولجا إلى الكنيسة واصطحبت معها ماريّا. وعندما هبطتا على الدرب إلى المرح شعرتا كلتاهما بالمرح. كانت أولجا معجبة بالرحابة، أما ماريّا فأحست في عديلتها بإنسان قريب حبيب. وأشرقت الشمس. وحلق صقر ناعس على ارتفاع منخفض فوق المرح، وكان النهر غائبًا، وفي بعض الأماكن هوم الضباب، أما على الشاطئ الآخر، فوق التل، فقد امتد شريط ضوء، ولمعت الكنيسة، وفي بستان السادة صاحت الغريان بضراوة.

وتحدثت ماريّا:

- العجوز لا بأس به أما الجدة فقاسية، تتشاجر دائمًا. قمحنا كفانا حتى أيام المرافع فقط، والآن نشترى الدقيق من الحانة، ولهذا فهي حانقة، تقول إننا نأكل كثيرًا.

- إيه يا حلوة، اصبري وهذا كل شيء. فقد جاء في الكتاب: تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والمثقلين وأنا أريحكم.

كانت أولجا تتحدث بوقار وبصوت ناغم، وكانت مشيتها مثل مشية المتعبدة، سريعة ومضطربة. وكانت تقرأ الإنجيل كل يوم، بصوت مسموع، كقراءة الشماس، ولا تفهم منه الكثير ولكن الكلمات المقدسة كانت تبعث فيها التأثير حتى تدمع عيناها. كانت تؤمن بالله، وبالسيدة العذراء، وبالقديسين، وتؤمن بأنه لا يجوز إيذاء أحد في الدنيا سواء البسطاء، أم الألمان، أم الفجر، أم اليهود، والويل لأولئك الذين لا يشفقون على الحيوانات، تؤمن بأن ذلك مكتوب في الكتب السماوية، ولذلك فعندما كانت تلفظ كلمات من الكتاب المقدس، حتى ولو لم تكن مفهومة، يرسم على وجهها الشفقة والحنان والإشراق.

وسألته ماريًا: - من أين أصلك؟

- أنا من فلاديمير. لكنهم أخذوني إلى موسكو من زمان، وعمرى ثمانية. وبلغنا النهر. وعلى الشاطئ الآخر، قرب الماء تمامًا، وقفت امرأة وهي تنزع ثيابها.

وعرفتها ماريًا فقالت:

- هذه فيكلا، كانت في بيت السادة وراء النهر، عند الوكلاء. أنها شقية وعيابة جدًا!

وقفت فيكلا، سوداء الحاجبين، مسدلة الشعر، صبية بعد وقوية كفتاة، وألقت بنفسها من الشاطئ، وضربت في الماء بساقيها، فامتدت الأمواج منها إلى جميع الاتجاهات.

وكررت ماريًا:

- شقية جدًا!

عبر النهر امتدت قنطرة متهالكة من جذوع الأشجار، وتحتها بالضبط مرت أسراب من السمك العريض الرأس في الماء الصافي الشفاف. ولمعت قطرات

الندى على الخمائل الخضراء المطلة فى الماء. وهبت نسيمات دافئة فبعثت السرور. يا له من صباح رائع! وما أجمل الحياة التى كان يمكن أن تكون فى هذه الدنيا على الأرجح لولا الفقر، الفقر الفظيع المحقق، الذى لا مهرب منه! وما إن تنظر إلى القرية حتى تذكر على الفور كل ما حدث بالأمس، وفى التو واللحظة يتلاشى سحر السعادة الذى لاح فى الأجواء.

ووصلتا إلى الكنيسة. توقفت ماريا عند المدخل ولم تجرؤ على التقدم خطوة واحدة. ولم تجرؤ أيضا على الجلوس رغم أنهم لم يدعوا إلى القداس إلا فى الساعة التاسعة. وهكذا ظلت واقفة طوال الوقت.

وأثناء تلاوة الإنجيل دبت الحركة فجأة فى جمهور المصلين وأفسحوا الطريق لأسرة الإقطاعى. دخلت فتاتان فى فستانين أبيضين، وقبعتين عريضتين، ومعهما صبي بدين، متورد الخدين فى بدلة بحار. وتأثرت أولجا لى ظهورهم، وقررت من الوهلة الأولى أنهم أناس مستقيمون مهذبون جميلون. أما ماريا فنظرت إليهم شزرا، بتجهم وكآبة، كأنما لم يكونوا بشرا، بل وحوشا كادت أن تسحقها لولا أنها تنحت جانبا.

وكلما كان الشماس يرتل بصوت غليظ كان يتراءى لها أنها تسمع صيحة م... ريا!! فيتلفظ بدنها.

٣

علم أهل القرية بمجىء الضيوف فاجتمع فى الدار بعد القداس عدد كبير منهم. جاء آل ليونيتش ومانتيفيتش وإيليتش ليعرفوا أخبار أقربائهم العاملين بموسكو. كان جميع صبيان قرية جوكونو الذين يعرفون القراءة والكتابة يرسلون إلى موسكو ليعملوا خدام مطاعم أو فنادق فقط (كذلك كانوا يرسلون الصبيان من القرية الواقعة على الضفة الأخرى للنهر إلى موسكو للعمل فى المخابز فقط). وكان ذلك معمولا به منذ القدم، منذ عهد القنانة، عندما كان

شخص يدعى لوقا إيفانيتش، وهو فلاح من جوكوفو، أصبح الآن أسطوريا، يعمل عامل بوفيه فى أحد نوادى موسكو، وكان لا يستخدم عنده إلا أبناء قرينته فقط، وعندما يستقر هؤلاء فى وظائفهم كانوا يجلبون أقرباءهم ويساعدونهم فى الحصول على عمل فى الحانات والمطاعم. ومنذ ذلك الحين وأهالى المناطق المجاورة لجوكوفو لا يسمونها إلا بـ «الوقحة» و«الخادمة». وقد أرسلوا نيكولاى إلى موسكو وهو فى الحادية عشرة، وساعده فى الحصول على عمل إيفان مكاريتش من آل ماتيفيتش، الذى كان يعمل آنذاك حاجبا فى حديقة «أرميتاج». وها هو ذا نيكولاى الآن يخاطب آل ماتيفيتش بلهجة الواعظ:

- إيفان مكاريتش هو ولى نعمتى، ومن واجبى أن أصلى لله من أجله ليل نهار، فمن طريقه أصبحت رجلا طيبا.

فقلت عجوز طويلة، هى أخت إيفان مكاريتش، بصوت باك:

- آه يا بنى، لم نعد نسمع عنه شيئا.

- فى الشتاء كان يعمل لدى أومون، أما فى الموسم الحالى فأشيع أنه يعمل فى البساتين، خارج المدينة.. لقد شاخ! كان من قبل، وخاصة فى الصيف، يكسب عشرة روبلات فى اليوم، ولكن العمل الآن كسد فى جميع الأماكن، والعجوز يشقى.

تطلعت العجوز والنسوة إلى ساقى نيكولاى اللتين كان يضعهما فى حذاء من اللباد، وإلى وجهه الشاحب، وقلن بأسى:

- لست مطعما يا نيكولاى أوسيتش، لست مطعما! لا حول لك!

وتودد الجميع إلى ساشا. كانت قد تجاوزت العاشرة، ولكنها كانت قصيرة، نحيلة جدا، وكانت هيتها توحى بأنها فى السابعة لا أكثر. ووسط الفتيات الأخريات، السمرات، ذوات الشعر المقصوص بصورة سيئة، المرتديات جلابيب طويلة باهتة، بدت هى ببشرتها البيضاء، وعينيها الواسعتين الداكنتين،

والشريط الأحمر فى شعرها، مضحكة، كأنما حيوان صغير أمسكوا به فى الحقل وجاءوا به إلى الدار.

وقالت أولجا بفخر وهى تتطلع إلى ابنتها بركة:

- إنها تجيد القراءة! اقترئى يا بنيتى - قالت وهى تستخرج الإنجيل من الصرة - اقترئى وسيصغى إليك المسيحيون.

كان الإنجيل قديما، ثقيلا، فى غلاف جلدى، مهترئ الزوايا، وفاحت منه رائحة وكأنما دخل الدار زهبان. ورفعت ساشا حاجبيها وبدأت تقرأ بصوت عال ناغم:

- «ولما انصرفوا إذا بملاك الرب.. تراءى ليوسف فى الحلم قائلا: قم فخذ الصبى وأمه...».

- الصبى وأمه... - رددت أولجا وتضرج وجهها كله من الانفعال.

- «واهرب إلى مصر.. وكن هناك حتى أقول لك...».

وعندما سمعت أولجا الكلمات المقدسة لم تتمالك نفسها فبكت. وخذت ماريا حذوها فشبهت، وتبعثها أخت إيفان مكاريتش. أما العجوز فسعل وتململ باحثا عن هدية يقدمها لحفيده، ولما لم يجد شيئا أشاح بيده. وعندما انتهت التلاوة تفرق الجيران إلى بيوتهم متأثرين ومسرورين جدا من أولجا وساشا.

وبمناسبة العيد ظلت الأسرة فى البيت طول النهار. وكانت العجوز التى كان زوجها، وزوجات أبنائها، وأحفادها، جميعا يناددونها بالجددة، نحاول أن نقوم بنفسها بكل الأعمال. إذ أشعلت الفرن، هيأت السماور بنفسها، بل ذهبت بنفسها لحلب البقرة، ثم راحت تشكو من أنهم أرهقوها بالعمل. وكانت طوال الوقت تخشى أن يأكل أحدهم قطعة خبز زائدة، أو أن يجلس العجوز وزوجات الأبناء بلا عمل. وتارة كان يخيل إليها أن أوزات صاحب الحانة

تسلل من الفناء الخلفى إلى مزرعتها، فتنتلقى من الدار ومعها عصا طويلة، ثم تظل بعد ذلك لنصف ساعة تصرخ بصوت حاد بجوار كرنبها الهزيل مثلها. وتارة يترأى لها أن الحدأة تتربص بأفراخها، فتتقض بالسباب على الحدأة. كانت تغضب وتذمر من الصباح إلى المساء، وكثيرا ما تصيح صياحا شديدا يجعل المارة يتوقفون.

ولم تكن تعامل عجوزها برقة، وتنتعه تارة بالتنبل وتارة بالمطعون. لم يكن رجلا قديرا يعتمد عليه، وربما لولا حثها المستمر له لما عمل إطلاقا، بل لجلس على الفرن فقط وتحدث. ظل يحدث ابنه طويلا عن أعداء ما، ويشكو له من الإهانات التى ادعى أنه يتحملها كل يوم من جيرانه، وكان سماعه يبعث الملل.

كان يتحدث ممسكا بخصرة.

- نعم، نعم.. بعد عيد نصب الصليب بأسبوع بعث الدريس بثلاثين كويكا للبود، طواعية.. نعم.. حسنا.. وبينما أنا أنقل، يعنى، الدريس صباحا طواعية، ولا أتحرش بأحد، وفى ساعة نحس، نظرت فإذا بالعمدة أنتيب سيديلنيكوف خارج من الحانة: «إلى أين تحمله يا ابن كذا وكذا؟» وضربنى على أذنى.

أما كيرياك فكان الصداق يعذبه عندما أفاق، وكان يشعر بالخجل من أخيه.

ودمدم وهو يهز رأسه المصدع:

- انظر ماذا تفعل الفودكا، آه يا إلهى! اعذرني يا أخى، وأنت يا أختى بحق المسيح، أنا نفسى مستاء.

وبمناسبة العيد اشتروا من الحانة فسيخا مملحا وطبخوا حساء من رؤوس الفسيخ. وفى منتصف النهار جلسوا إلى المائدة ليشربوا الشاي، وشربوه طويلا، حتى سال عرقهم، وبدا كأنما انتفخوا من الشاي، وبعدها فقط بدأوا يتناولون الحساء من صحيفة واحدة. أما الفسيخ نفسه فقد أخفته الجدة.

فى المساء أحرق الفخار الآنية على جرف النهر. وعلى المرج فى الأسفل
رقصت الفتيات فى دائرة وغنين. وعزفوا على الأكورديون. وعلى الشاطئ
الآخر أيضا اشتعل فرن وغنت الفتيات، وبدأ هذا الغناء من بعيد متسقا ورفيقا.
وفى الحانة وحولها تعالى صخب الفلاحين، وغنوا بأصوات مخمورة متضاربة،
وسبوا سبابا فاحشا حتى إن أولجا كانت تنتفض وتتمتم:

- آه، يا إلهى..

أدهشها أن السباب كان لا ينقطع، وأن الشيوخ الذين آن لهم أن يموتوا، كانوا
هم أكثر الجميع سبابا وأعلاهم صوتا. أما الأطفال والفتيات فكانوا يسمعون
هذا السباب دون أدنى خجل، وبدأ أنهم ألفوه منذ المهد.

ومر منتصف الليل، وانطفأت الأفران على هذا الشاطئ وذاك، لكن
الاحتفال المعربد استمر فى المرج وفى الحانة. وسار العجوز وكيرياك،
مخمورين، ممسكين بأيدي بعضهما البعض، متدافعين بالأكتاف، واقتربا من
الحظيرة التى كانت ترقد فيها أولجا وماريا.

ومضى العجوز يقنعه:

- دعها.. إنها امرأة مسالمة.. حرام..

فصاح كيرياك:

- م... ل... ريا!

- دعها.. حرام.. إنها امرأة طيبة..

ووقفا حوالى دقيقة بجوار الحظيرة ثم انصرفا.

وفجأة غنى العجوز بصوت «تينور» عال ثاقب:

- أحب زهور الحقول، أحب قطاف المروج!

ثم بصق وأطلق سبابا قدرا ودخل الدار:

وضعت الجدة ساشا بجوار مزرعتها وأمرتها أن تحرسها من الأوز. كان يومًا حارًا من شهر أغسطس. وكان بوسع أوزات صاحب الحانة أن تتسلل إلى المزرعة عبر الفناء الخلفي، لكنها كانت مشغولة الآن بالتقاط الشعر بجوار الحانة وتحدث فيما بينها بسلام، ما عدا ذكر الأوز الذي كان يرفع رأسه عاليًا، كأنما ليعرف ما إذا كانت العجوز قادمة والعصا في يدها أم لا. وكان بوسع الأوزات الأخريات أن تتسلل من أسفل، ولكنها كانت ترعى الآن بعيدا وراء النهر وقد امتدت شريطا طويلا أبيض فوق المرج. وقفت ساشا قليلا، وعندما ملت ورأت أن الأوزات لا تتسلل، ذهبت إلى جرف النهر.

وهناك رأت موتكا، ابنة ماريا الكبرى، واقفة بلا حراك فوق صخرة ضخمة تحديق في الكنيسة. أنجبت ماريا ثلاث عشرة مرة، ولكن لم يبق على قيد الحياة سوى ستة أطفال، وكلهم فتيات، أكبرهن في الثامنة، ولا صبي واحد. وقفت موتكا حافية، في جلباب طويل، في اللظى، وكانت الشمس تلهب يافوخها مباشرة، ولكنها لم تلاحظ ذلك، وكأنما تجمدت. ووقفت ساشا بجوارها وقالت وهي تتطلع إلى الكنيسة:

- الرب يعيش في الكنيسة. وعند البشر تشتعل المصابيح والشموع، أما عند الرب فتشتعل القناديل الحمراء والخضراء والرزقاء كالعيون. وفي الليل يسير الرب في الكنيسة ومعه العذراء المقدسة والقديس نيكولاى ويخطون: دب.. دب.. دب.. والحارس يخاف، يخاف جدًا! - واستطردت مقلدة أمها - إيه يا حلوة. وعندما تقوم القيامة ستطير كل الكنائس إلى السماء.

وسألت موتكا بصوت غليظ وهي تمط المقاطع:

- مع أجراسها؟

- مع أجراسها. وفي يوم القيامة يذهب الطييون إلى الجنة، أما الأشرار

فيحترقون في النار إلى الأبد ودون انطفاء يا حلوة. وسيقول الرب لأمي ولعماري أيضًا: أنتم لم تؤذيا أحدا، ولذلك اذهبا إلى اليمين، إلى الجنة. وسيقول لكيريالك والجددة: أما أنتما فاذهبا إلى الشمال، إلى النار. ومن أفطر في الصيام فسيذهب أيضًا إلى النار.

ونظرت إلى أعلى، إلى السماء، وقد فتحت عينيها واسعا وقالت:

- انظري إلى السماء ولا ترمشي، وسترين الملائكة.

فنظرت موتكا أيضًا إلى السماء، ومرت دقيقة صمت.

فسألته ساشا:

- أترين؟

فتمتعت موتكا بصوت غليظ:

- لا أرى.

- أما أنا فأراهم. ملائكة صغارًا يطيطون في السماء ويضربون بأجنحتهم: سيك.. سيك.. سيك، كالبعوض.

وفكرت موتكا قليلاً، ثم سألت وهي تحديق في الأرض:

- هل ستحترق جدتي.

- ستحترق يا حلوة.

من الصخرة حتى الأسفل تماماً امتد منحدر بائلل مستو، مغطى بعشب أخضر طرى يبعث في النفس الرغبة في لمسه باليد أو الرقاد عليه. فرقدت ساشا وتدحرجت إلى أسفل. ورقدت موتكا أيضًا، بوجه جاد صارم، وهي ترحر، وتدحرجت، وأثناء ذلك انحسر جلبابها حتى كتفيها.

وقالت ساشا بإعجاب:

- كم شعرت بالمرح!

وصعدتا معا إلى أعلى لتندحرجا مرة أخرى، وفي تلك اللحظة تناهى إلى سمعهما الصوت الرفيع المألوف. أوه ما أفضح ذلك! كانت الجدة، المعروفة، الحدياء، بقم خال من الأسنان، وشعر قصير أبيض يتطاير فى الريح، تطارد الأوز من المزرعة بعصا طويلة وتصرخ:

- داسوا الكرب كله، الملاعين، فلتأخذكم مصيبة، عليكم ألف لعنة، فليهلككم طاعون!

ورأت الفتاتين فألقت بالعصا والتقطت غصنا جافا، وأمسكت ساشا من رقبتهما بأصابعها الجافة الصلبة كأسنان المذراة وراحت تجلدها. وبكت ساشا من الألم والخوف، وفي تلك اللحظة اقترب ذكر الأوز من الجدة وهو يتمايل من جنب إلى جنب وقد مط عنقه، وفح بشيء ما، وعندما عاد إلى السرب صاحت الأوزات محيية ومشجعة: قو.. قو.. قو! ثم شرعت الجدة فى جلد موتكا، وأثناء ذلك انحسر جلاب موتكا ثانية. وذهبت ساشا إلى الدار لكى تشكو وهى تشعر بالحنق وتبكي عالياً. وتبعته موتكا التى كانت تبكى أيضاً، ولكن بصوت غليظ، ولا تمسح دموعها، فأصبح وجهها مبللا حتى بدا كأنها غمرته فى الماء.

- يا إلهى! - ذهلت أولجا عندما دخلت الفتاتان إلى الدار - أيتها السيدة العذراء!

وبدأت ساشا تروى لها ما حدث، وفي تلك الأثناء دخلت الجدة وهى تصرخ بصوت ثاقب وتسب، وغضبت فيكلا، وارتفع الصخب فى الدار.

وقالت أولجا الشاحبة الحزينة وهى تطيب خاطر ساشا وتمسد رأسها:

- لا بأس، لا بأس، إنها جدتك. حرام أن تغضبى منها. لا بأس يا بنيتى.

أما نيكولاى الذى عذبه هذا الصراخ المستمر، والجوع الدائم والاختناق، والرائحة الكريهة، والذى أصبح يمقت الفقر ويزدريه، والذى كان يشعر

بالخجل أمام زوجته وابنته من أمه وأبيه، فقد دلى ساقيه من فوق الفرن، ودمدم بصوت متزعج باك مخاطبًا أمه:

- ليس لك أن تضربيه! ليس لك أى حق فى ضربها!

فصاحت فيه فيكلا.. بغل:

- فلتزهق روحك هناك على الفرن. أية مصيبة جاءت بكم إلى هنا يا عالة!

واختبأت ساشا وموتكا وكل الفتيات الموجودات على الفرن خلف ظهر نيكولاى وسمعن من هناك كل ذلك فى صمت وخوف، وترددت مسموعة دقات قلوبهن الصغيرة. عندما يوجد فى الأسرة شخص مريض منذ أمد طويل مرضًا ميثوسًا منه، تمر أحيانًا لحظات صعبة يتمنى فيها أقاربه موته فى أعماق قلوبهم بوجل وخفية. ولكن الأطفال وحدهم هم الذين يخشون موت القريب، ويشعرون بالرعب كلما خطر لهم ذلك. وها قد حبست الفتيات أنفاسهن ونظرن بتعبير حزن على وجوههن إلى نيكولاى، وفكرن فى أنه سيموت قريبًا، فشعن بالرغبة فى البكاء وفى أن يقلن له بضع كلمات رقيقة مشفقة.

والتصق نيكولاى بأولجا، وكأنما يبحث فيها عن حماية، وقال لها بصوت خافت متهدج:

- أوليا يا عزيزتى، لا أستطيع أن أبقى هنا. لم أعد أحتمل. بحق الله، بحق المسيح فى السماء، اكثبى لأختك كلافديا أبراموفنا، فلتبع ولترهن كل شيء لديها، ولترسل لنا نقودًا لترحل من هنا. أوه يا إلهى - استطرد يقول بكآبة - لو ألقى نظرة واحدة على موسكوا لو أراها، مدينتى العزيزة، ولو فى الحلم!

عندما حل المساء وأظلمت الدار، غشيت الوحشة النفوس حتى أصبح من الصعب التفوه بكلمة. وبللت الجدة الغاضبة كسرا من خبز الجودار فى كوب ومضت تمصها فترة طويلة، ساعة كاملة. وبعد أن فرغت ماريا من حلب البقرة، جاءت بدلو اللبن ووضعت على الأريكة. ثم صبته الجدة من الدلو فى أباريق، وأيضًا فترة طويلة، على مهل، ويبدو أنها كانت مسرورة من أن أحدا

لن يشرب اللبن الآن، فى صياح رفع العذراء، سيبقى دون مساس. ولم تصب منه إلا قليلاً جداً فى طبق صغير لطفل فيكلا. وعندما حملت مع ماريا اللبن إلى القبو قفزت موتكا فجأة، وهبطت من فوق الفرن، واقتربت من الأريكة التى كان عليها الكوب الخشبى بالخبز المبلل، وصبت فيه قليلاً من اللبن من الطبق.

وعادت الجدة إلى الدار ومضت تمص خبزها ثانية، ونظرت ساشا وموتكا إليها وهما جالستان على الفرن، وشعرتا بالسرور لأن الجدة أفطرت وسوف تدخل النار بالتأكيد. وسرى ذلك عنهما فأوتا إلى النوم، وتخيلت ساشا وهى تنعس يوم الحساب الرهيب: كان هناك فرن كبير مشتعل، مثل فرن الفخار، وراح عفريت بقرون كقرون البقرة، أسود كله، يطارد الجدة إلى النار بعصا طويلة كما كانت تطارد الأوز منذ وقت قريب.

٥

فى عيد الرفع، وفى الساعة الحادية عشرة مساءً، أطلق الفتيات والفنيان المتزهون فى المرحج فى الأسفل فجأة صراخاً وعويلًا، وركضوا نحو القرية. أما أولئك الجالسون فى الأعلى، على حافة الجرف، فلم يدركوا اللوهلة الأولى سبب ذلك.

وترددت فى الأسفل صرخة يائسة:

- حريق! حريق! إننا نحترق!

والتفت الجالسون فى الأعلى فتبدت لهم صورة رهيبة عجيبة. ففوق إحدى الدور المتطرفة، وعلى سطحها القشى، انتصب عمود من النيران بارتفاع مترين، كان يتلوى ويطلق الشرر فى جميع الجهات وكأنه نافورة. وعلى الفور اشتعل السطح كله بلهب ساطع، وسمعت قرعة النيران.

وخبأ ضوء القمر، وأصبحت القرية كلها مغمورة بضوء أحمر مرتعش.
وعلى الأرض تحركت ظلال سوداء وانتشرت رائحة الحريق. ولهث الراكضون
من أسفل ولم يستطيعوا أن يتكلموا من الرجفة، وتدافعوا، وتساقطوا، ولعدم
التعود على الضوء الساطع لم يروا جيداً ولم يميز بعضهم بعضاً. وسيطر
الرعب. وكان مرعباً بصفة خاصة أن الحمام كان يطير فوق النيران وسط
الدخان، وفي الحانة، حيث لم يعلموا بعد بالحريق، استمر الغناء والعزف
على الأكورديون كأنما لم يحدث شيء.

وصاح شخص ما بصوت عال غليظ:

- دار العم سيميون تحترق!

وتراكضت ماريا أمام دارها وهي تبكى وتلوى ذراعيها، وأسنانها تصطك،
رغم أن الحريق كان بعيداً، في الطرف الآخر للقرية. وخرج نيكولاى فى
حذائه اللباد، وتقاطر الأولاد إلى الخارج فى قمصانهم القصيرة. وبجوار دار
الخفير دقوا على لوح حديدى فتردد فى الجو: بم.. بم.. بم.. وبسبب هذا
الرنين المتكرر الملحاح تولد إحساس بالبرودة يعصر القلب. ووقفت النساء
العجائز حاملات الأيقونات.

ومن الأفنية أخرجوا الغنم والعجول والبقر، وحملوا الصناديق وجلود
الخراف والبراميل. وكان ثمة مهر أسود لم يضموه للقطيع لأنه كان يرفس
ويجرح الخيول، وقد أطلق الآن سراحه فركض عبر القرية مرة وأخرى وهو
يدق بقوائمه ويصهل، ثم توقف فجأة بجوار عربة وأخذ يضربها بقائمتيه
الخلفيتين.

وعلى الضفة الأخرى من النهر دوت أجراس الكنيسة. كان الصهد شديداً
بجوار الدار المشتعلة. وكان المكان مضيئاً إلى درجة ظهرت فيها واضحة
كل عشة على الأرض. وعلى أحد الصناديق التى تمكنوا من إخراجها جلس
سيميون، فلاح أحمر الشعر، بأنف كبير، وفى عمرة أغمدها فى رأسه عميقاً،

حتى أذنيه، وفي ستره. ورقدت زوجته على وجهها في حالة إغماء، وراحت تن. وكان هناك عجز ما، في حوالى الثمانين، قصير القامة، بلحية طويلة، يشبه القمر، ليس من أهل الناحية ولكن يبدو أن له صلة بالحريق، أخذ يروح ويجى بلا طاقة وفي يديه صرة بيضاء. وانعكس اللهب على صلته. واقترب العمدة أنتيب سيديلنيكوف، الأسمر والأسود الشعر، والذي يشبه الغجرى، اقترب من الدار بالفأس وحطم النوافذ، الواحدة تلو الأخرى، لسبب غير معلوم، ثم راح يحطم الدرج.

وصاح:

- الماء يا نساء! الماكينة! أسرعوا!

وسحب أولئك الفلاحون، الذين كانوا يمرحون لتوهم في الحانة، ماكينة الإطفاء. كانوا جميعًا سكارى، فراحوا يتعشرون ويسقطون، وظهر على وجوههم جميعًا تعبير عجز، وترقرقت الدموع في أعينهم.

وصاح العمدة الذى كان أيضًا مخمورًا:

- الماء يا بنات! بسرعة يا بنات!

وركضت النساء والفتيات إلى أسفل، حيث يوجد النبع، وحملن إلى أعلى الدلاء والطسوت المملوءة، وبعد أن يفرغنها فى الماكينة كن يركضن ثانية. ونقلت الماء أولجا وماريا وساشا وموتكا أيضًا. وقامت النساء والصبيان بضخ الماء، وفتح الخرطوم، وصوبه العمدة تارة إلى الباب وتارة إلى النوافذ وهو يضغط التيار بإصبعه فكان يصدر عنه فحيح أشد.

وترددت أصوات استحسان:

- شاطر يا أنتيب! اجتهد!

أما أنتيب فاقتحم المدخل وسط اللهب، وصاح من هناك:

- ضخوا! اجتهدوا أيها المسيحيون بمناسبة هذا الحادث الأليم!

وتجمهر الفلاحون بجوار الدار وهم لا يفعلون شيئًا، وأخذوا يتطلعون إلى

النار. ولم يكن أحد يعرف ماذا يفعل، ولا أحد يجيد شيئاً، بينما من حولهم أكوام القمح والدريس، والحظائر والحطب الجاف. وهنا أيضاً وقف كيرياك وأبوه العجوز أوسيب، وكانا كلاهما ثملين. وقال العجوز مخاطباً المرأة الملقاة على الأرض، وكأنما يريد أن يبرر وقوفه بلا عمل:

- ما الداعي للنواح يا أشبينة! الدار مؤمنة، فماذا تريدن!

وأخذ سيميون يروى كيف شب الحريق مخاطباً تارة هذا الشخص وتارة ذلك:

- هذا العجوز ذو الصرة، من خدم الجنرال جوكونوف.. كان يعمل طباًخاً عند جنرالنا، عليه الرحمة.. جاء مساء وقال: «دعنى أبيت..»، وطبعاً شربنا قليلاً، معلوم.. وقامت زوجتى تشعل السماور لتسقى العجوز شاياً، ولسوء الحظ وضعت السماور فى المدخل، وهكذا طار اللهب من مدخته إلى السقف مباشرة، إلى القش فاشتعل يعنى. نحن أنفسنا كدنا نحترق. وطاقيّة العجوز احترقت، يا حرام.

واستمر الطرق على اللوح الحديدى بلا كلل، ودقت أجراس الكنيسة كثيراً وراء النهر. ونظرت أولجا برعب، وقد غمرها الضوء، وهى تختنق، إلى الشياه الحمراء والحمامات الوردية المحلقة فى الدخان، وركضت تارة إلى أسفل وتارة إلى أعلى. وخيل إليها أن هذا الرنين قد انغرز فى قلبها شوكة حادة، وأن الحريق لن ينتهى أبداً، وأن ساشا فقدت.. وعندما انهار سقف الدار بصخب أصابها الخور من فكرة أن القرية سوف تحترق الآن كلها حتماً، ولم يعد بوسعها أن تجلب الماء، فجلست على الجرف ووضعت الدلاء بجوارها. وجلست النساء بقربها وأعولن كأنما يندبن ميتاً.

ولكن ها هم الوكلاء والعاملون قد جاءوا من الضفة الأخرى، من ضيعة الإقطاعى، فى عربيتين، وأتوا معهم بماكينه إطفاء. وجاء طالب فى ستره بيضاء مسدلة، شاب جداً، على ظهر حصان. وتعالى طرق الفؤوس، ووضعوا سلماً

على الجدار المشتعل، وتسلفه خمسة أشخاص دفعه واحدة، وفي مقدمتهم الطالب الذي كان محمراً، يصرخ بصوت حاد أبج. ويلهجة توحى وكأن إطفاء الحرائق كان عملاً معتاداً بالنسبة له. وفككوا جذوع الدار، ونقلوا المعلق والسيار وأقرب كوم دريس.

وترددت أصوات حازمة من الحشد:

- امنعوه من تحطيم الدار! امنعوه!

فتوجه كيرياك نحو الدار في هيئة حازمة، كأنما ينبغي منع القادمين من تحطيمها، ولكن أحد العمال أداره إلى الخلف وضربه على قفاه. وسمعت ضحكات، وضربه العامل مرة أخرى فسقط كيرياك وزحف على أربع عائداً إلى الحشد.

وجاءت من الضفة الأخرى فتاتان جميلتان ترتديان قبعيتين، يبدو أنهما شقيقتا الطالب. ووقتا عن بعد نظران إلى الحريق. ولم تعد الجذوع المفككة تشتعل لكنها نفثت دخاناً كثيفاً. وكان الطالب الممسك بالخرطوم يواجه تارة إلى الجذوع وتارة إلى الفلاحين، وتارة إلى النسوة جالبات الماء.

وصاحت به الفتاتان بعتاب وقلق:

- جورج! جورج!

وانتهى الحريق. وعند الانصراف فقط لاحظوا أن الفجر حل، وأن الجميع شاحبون وسمروا إلى حد ما.. هكذا يبدو دائماً في الصباح الباكر عندما تنطفئ آخر نجوم السماء. وضحك الفلاحون وهم ينفضون وسخروا من طاهي الجنرال وطاقيته التي احترقت. كانوا يرغبون الآن في تحويل الحريق إلى مزحة، وكأنما حتى كانوا يأسفون على انتهاء الحريق بهذه السرعة.

وقالت أولجا للطالب:

- لقد أطفأتم الحريق جيداً يا سيدى. حبذا لو جئتم إلينا فى موسكو. فهناك كل يوم حريق.

فسألتهما إحدى الفتاتين:

- وهل أنت من موسكو؟

- هو كذلك. كان زوجي يعمل فى «سلافيانسكى بازار». وهذه ابنتى -
وأشارت إلى ساشا المقرورة الملتصقة بها: وهى أيضًا موسكوفية.

وقالت الفتاتان شيئًا ما بالفرنسية للطالب فأعطى هذا لساشا قطعة نقدية
بعشرين كوبيكا. ورأى العجوز أوسيب ذلك فأشرق وجهه بالأمل فجاء.

وقال مخاطبًا الطالب:

- الحمد لله يا صاحب المعالى إنه لم تكن هناك ريح، وإلا لاحترقنا فى
الحال. - ثم أضاف بحرج وبشيرة أخفض - يا صاحب المعالى، أيها السادة
الطيون، الفجر بارد، لو نتدفأ.. لو تكرمتم بثمان نصف زجاجة.

فلم يعطوه شيئًا فسعل وجر ساقه إلى البيت. أما أولجا فوقفت على الجرف
وتطلعت إلى العربتين وهما تعبران النهر خوَصًا، وإلى السادة وهم يسرون فى
المرج. وعلى الشاطئ الآخر كانت هناك عربة فى انتظارهم. وعندما عادت
أولجا إلى الدار قصت لزوجها بإعجاب:

- ما أطيهم! ما أجملهم! أما الآنستان فمثل ملاكين.

ودمدت فيكلا الناعسة بغل:

- فلتمزقهم مصيبة!

كانت ماريًا تعتبر نفسها تعيسة وتقول إنها تود بشدة لو ماتت. أما فيكلا فعلى
العكس، كانت تروق لها كل هذه الحياة: الفقر، والقذارة، والسباب الجامح.

كانت تأكل ما يقدم لها دون تمييز، وتنام حيثما كان وعلى أى شيء. وكانت تلقى بالقاذورات بجوار المدخل مباشرة. تقذف بها من العتبة ثم تخوض بقدميها الحافيتين فى البركة القذرة. ومنذ اليوم الأول مقتت أولجا ونيكولاى بالذات لأن هذه الحياة لم تعجبهما.

وكانت تقول بتشف:

- سأرى ماذا ستأكلون هنا أيها النبلاء الموسكوفيون! سأرى!

وذا صبح - وكان ذلك فى بداية سبتمبر - أتت فيكلا من أسفل بدلوى مياه. وكانت وردية من البرد، عفية وجميلة. وفى تلك الأثناء كانت ماريا وأولجا جالستين إلى المائدة تشربان الشاى.

فدمدمت فيكلا بسخرية وهى تضع الدلوين:

- الشاى والسكر! يا لهما من سيدتين، أصبحت موضة عندهما أن تشربا الشاى كل يوم. احترسا وإلا انتفختما من الشاى! - استطردت وهى تنظر إلى أولجا بحقد - سمنت فى موسكو سحنة ممثلة يا كثيرة اللحم!

ورفعت المغرفة وضربت أولجا على كتفها حتى أن كلتا الزوجتين أشاحتا بأيديهما ودمدمتا:

- آه، يا إلهى.

ثم ذهبت فيكلا إلى النهر لتغسل الملابس. وظلت طوال الطريق تسب بصوت عال كان يسمع فى الدار.

ومر النهار. وحل مساء خريفى طويل. وكانوا يلفون خيوط الحرير فى الدار. كانوا يلفون جميعا ما عدا فيكلا التى ذهبت إلى ما وراء النهر. كانوا يأخذون الحرير من مصنع قريب فتكسب منه الأسرة كلها قليلا، حوالى عشرين كوبيكا فى الأسبوع.

وقال العجوز وهو يلف الحرير:

- كان الحال أفضل أيام السادة. تعمل، وتأكل، وتنام، وكل شيء بنظام. في الغداء تتناول حساء الكرنب والعصيدة، وفي العشاء الكرنب والعصيدة. وما أكثر الخيار والكرنب، كُل طوعية قدر ما تشاء. والحزم كان أكثر. كل واحد يعرف قدره.

لم يشتعل سوى مصباح صغير كان يرسل ضوءًا كافيًا ودخانًا. وعندما يحجب أحد ما الضوء فيسقط ظل كبير على النافذة، يلوح نور القمر الساطع. وكان المعجوز أوسيب يتحدث على مهل عن الحياة قبل التحرر^(١). وكيف أنه في نفس هذه الأماكن التي يعيشون فيها الآن بملل وفقر كان السادة يصطادون بكلاب الصيد والكلاب السلوقية وكلاب بسكوف، وكانوا أثناء المطاردة يقدمون الفودكا للفلاحين، وكيف كانت تمضي إلى موسكو العربات المحملة بالطيور البرية من أجل السادة الشبان، وكيف كانوا يعاقبون الأشرار بالجلد أو بالنفي قرب ضيعة تفير، ويكافئون الأخيار. وروت الجدة أيضًا شيئًا ما. كانت تذكر كل شيء، كل شيء بحذافيره. وتحدثت عن سيدتها السابقة، تلك المرأة الطيبة الثقية، التي كان زوجها عربيًا وفاسقًا والتي تزوجت بناتها جميعًا بصورة سيئة ما بعدها سوء، فقد تزوجت واحدة من سكير، والأخرى من شخص متوسط الحال، والثالثة هربت سرًا (وساعدت الجدة نفسها، التي كانت فتاة آنذاك، في عملية الهرب) ثم سرعان ما متن جميعًا، مثل أمهن، من الأسى. وبكت الجدة قليلًا إذ تذكرت ذلك.

وفجأة دق الباب فانتفضوا جميعًا.

- يا عم أوسيب، اسمح لي بالمبيت!

ودخل عجوز صغير أصلع، طاهي الجنرال جوكوف، ذلك الذي احترقت طاقيته. وجلس يصغى ثم راح هو الآخر يتذكر ويروي مختلف الحكايات.

(١) في عام ١٨٦١ ألغى نظام القنانة في روسيا وتحرر الفلاحون من العبودية المباشرة للإقطاعيين. (المغرب).

وكان نيكولاى، الجالس على الفرن مدليًا ساقيه، يصفى ويسأل عن الأظعمه التى كانوا يطبخونها أيام السادة. فتحدثوا عن اللحم المحمر والكستلينة ومختلف ألوان الحساء والصلصة، وكان الطاهى، الذى يذكر أيضًا كل شىء، يسمى أنواع المأكولات التى لم يعد لها وجود الآن. كانت هناك مثلاً أكله تجهز من عيون الثيران وتسمى «صباحًا بعد الاستيقاظ».

وسأل نيكولاى:

- وهل كنتم تعدون كستلينة ماريشال؟

- كلا.

فhez نيكولاى رأسه بعتاب وقال:

- إيه، طهاة خائبون!

وحدثت الفتيات الراقدات والجالسات على الفرن إلى أسفل دون أن تطرف عيونهن. وبدا أنهن كثيرات جدًا، كالملائكة فى السحب. وأعجبتهن القصص، فرحن يتنهeden ويتفصن ويشجن تارة من الإعجاب وتارة من الخوف. وأصغين إلى الجدة التى كان حديثها أمتع من حديث الآخرين بأنفاس مبهورة محاذرات ألا تند عنهن حركة.

وأووا إلى النوم فى صمت. وفكر العجائز المنفعلون الذين أثارتهن الحكايات فى روعة الصبا الذى لا يبقى بعده، مهما كان، إلا ما هو حى ومفرح ومؤثر، وما أُرهب برودة هذا الموت غير البعيد.. من الأفضل ألا تفكر فيه! وانطفأ المصباح ولسبب ما ذكرهم الظلام والنافذتان، المضاءتان بنور القمر الساطع، والهدوء، وصرير المهد بأن الحياة قد انقضت، ولا يمكن استرجاعها بأى حال.. ما إن تنعس وتغيب حتى يلمس أحد ما كتفك، وينفخ فى خدك، فيطير النوم، وتشعر بجسدك كأنما هرس هرسًا، ولا ترد إلى الذهن إلا الأفكار عن الموت. وتستدير إلى الجنب الآخر، فتنسى الموت ولكن

تجوس فى رأسك الأفكار القديمة المملة المقبضة عن الفاقة والعلف، عن ارتفاع أسعار الدقيق، وبعد قليل تتذكر ثانية أن الحياة قد انقضت، ولا يمكن استرجاعها..

وتنهذ الطاهى:

- أوه، يا إلهى.

وطرق أحدهم على النافذة طرقات خافته. يبدو أنها فيكلا قد عادت. ونهضت أولجا وهى تتشاءب وتهمس بالصلوات، وفتحت الباب، ثم نرعت مزلاج المدخل.

ولكن لم يدخل أحد بل هبت برودة من الخارج وانتشر الضوء فجأة من القمر. ومن الباب المفتوح ظهر الشارع الهادئ المقفر، والقمر ذاته الذى كان يسبح فى السماء.

وهتفت أولجا:

- من هناك؟

- أنا - تنهى الرد - هذه أنا.

وقفت فيكلا بجوار الباب، ملتصقة بالحائط، عارية تمامًا. كانت ترتعش من البرد وأسنانها تصطك، ولاحت فى ضوء القمر الساطع شاحبة للغاية وجميلة وغريبة. وبدت الظلال الساقطة عليها ولمعان القمر على جلدها ملفتة للأنظار بشدة، وبرز بشكل خاص حاجباها الأسودان ونهداها الفتیان القويان.

وتمتمت:

- نزع الأشقياء فى الضفة الأخرى ثيابى وتركونى هكذا.. جئت إلى البيت بلا ملابس.. كما ولدتنى أمى. هاتى شيئًا ألبسه.

فقالت أولجا وقد بدأت هى أيضًا ترتعش:

- ادخلي إذن!

أخشى أن يرانى العجوزان.

وبالفعل كانت الجدة تتململ وتتذمر والعجوز يسأل:

« من هناك؟ » وجاءت أولجا إليها بقميصها وجونلتها، وألبستها، ثم دخلت
كلتاهما بهدوء محاذرتين ألا تصطفق الأبواب.

ودمدمت الجدة بغضب وقد خمنت من القادم:

- أهى أنت يا ناعمة؟ آه يا صايعة فاء.. لتأخذك داهية.

فهمست أولجا وهى تدثر فيكلا:

- لا بأس، لا بأس، لا بأس يا حلوة.

وعاد الهدوء. كان النوم فى الدار سيئًا دائمًا. فقد كان لدى كل منهم شيء
لزع ملحاح يمنعه من النوم: الألم فى الظهر لدى العجوز، والهموم
والحقد لدى الجدة، والخوف لدى ماريّا، والجرب والجوع لدى الأطفال.
والآن أيضًا كان نومهم قلقًا، يتقلبون من جنب إلى جنب، ويهذون، وينهضون
ليشربوا.

وفجأة أجهشت فيكلا بصوت عال غليظ، ولكنها كتمت بكاءها على الفور،
ثم أخذت تشهق أقل وأخفت إلى أن سكنت. وأحيانًا كان رنين الساعة يتناهى
من الضفة الأخرى من وراء النهر. ولكنها كانت ساعة غريبة، إذ دقت فى البداية
خمس دقائق ثم بعد ذلك ثلاث.

وتنهذ الطاهى:

- أوه، يا إلهى!

بالنظر إلى التوافد كان من الصعب معرفة ما إذا كان ذلك ضوء القمر أم
أن الفجر حل. ونهضت ماريّا وخرجت، وسمع صوتها وهى تحلب البقرة فى

الفناء وتقول لها: «قفى!» وخرجت الجدة أيضًا. وكان الظلام لا يزال منتشرًا في الدار ولكن معالم الأشياء أصبحت واضحة.

وهبط نيكولاي، الذي لم ينم طوال الليل، من فوق الفرن. واستخرج من الصندوق الأخضر فراكه، ولبسه، واقترب من النافذة فمسح كمية وشد أطرافه وابتنس. ثم نزعه بحرص، ودسه في الصندوق، وعاد فرقد.

عادت ماريا وبدأت تشعل الفرن. ويبدو أنها لم تفق تمامًا من النوم وها هي ذى الآن تفيق أثناء الحركة. وربما تراهي لها شيء في الحلم أو تذكرت حكايات الأمس، إذ إنها تمطت أمام الفرن بتلذذ وقالت:

- كلا، التحرر أفضل!

٧

وصل السيد - هكذا كانوا في القرية يسمون وكيل مأمور الشرطة. كانوا يعرفون منذ أسبوع، متى، ولماذا سيأتي. فرغم أن جوكونو لم تكن تضم سوى أربعين دارا فإن متأخرات الضرائب، الحكومية والإقليمية، بلغت أكثر من ألفي روبل.

نزل وكيل المأمور في الحانة. و«أكل» هنا كوين من الشاي، ثم توجه مشيًا إلى دار العمدة، حيث كان ينتظر حشد من المتخلفين عن السداد. وبالرغم من صغر سن العمدة إتيب سيديلنيكوف - كان يجاوز الثلاثين بقليل.

- فقد كان صارما ويقف دائمًا في صف الرؤساء، وإن كان هو نفسه فقيرًا ولا يسدد الضرائب بانتظام. يبدو أنه كان يسليه أنه عمدة، ويعجبه الإحساس بالسلطة التي لم يكن يستطيع إظهارها إلا بالصرامة. وكانوا في الاجتماعات يخشونه ويطيعونه. كان يحدث أحيانًا أن ينقض فجأة على أحد السكارى في الشارع أو بجوار الحانة، فيوثق يديه خلف ظهره ويودعه

فى غرفة الحبس. بل إنه أودع الجدة غرفة الحبس ذات مرة لأنها، إذ جاءت إلى الاجتماع بدلاً من أوسيب، أخذت تسب، فأبقاها هناك يومًا كاملاً. ولم يعيش فى المدينة، ولم يقرأ الكتب أبداً، لكنه جمع من مكان ما شتى الكلمات الذكية وكان يهوى استخدامها فى حديثه، ولهذا احتراموه رغم أنهم لم يكونوا يفهمونه دائماً.

عندما دخل أوسيب دار العمدة ومعه بطاقة الضرائب، كان وكيل المأمور، وهو عجوز نحيف، بسالفين طويلين أشيبين وفى سترة رمادية ثقيلة، جالساً إلى طاولة فى الركن تحت الأيقونات يسجل شيئاً ما. كانت الدار نظيفة، والجدران كلها مبرقشة بالصور المتزوعة من المجلات، وفى أبرز مكان، بجوار الأيقونات، علقت صورة باتنرج، الأمير البلغارى السابق. وبجوار الطاولة وقف أنتيب سيديلنيكوف، عاقداً يديه على صدره.

وقال عندما جاء دور أوسيب:

- عليه يا صاحب المعالى مائة وتسعة عشر روبلا. منذ أن دفع روبلا قبيل عيد الفصح لم يدفع بعدها كوبىكا.

فرفع وكيل المأمور بصره إلى أوسيب وسأله:

- لم هكذا يا صاحبى؟

فشرع أوسيب يقول مضطرباً:

- اصنعوا معروفاً لله يا صاحب المعالى، اسمحوا لى بأن أقول، فى السنة الماضية قال لى سيد من ضيعة لوتريتش: «يا أوسيب بع لى الدريس.. هيا بعه لى»، ولم لا؟ كان لدى حوالى مائة بود للبيع حصدها النساء فى المروج قرب النهر.. حسناً، اتفقنا.. كل شىء تمام، طواعية..

اشتكى من العمدة وهو يستدير بين الحين والحين نحو الفلاحين كأنما يدعوهم شهوذاً. واحمر وجهه وتفصد عرقاً، وأصبحت عيناه حادتين، شريرتين.

فقال وكيل الأمور:

- لست أفهم لماذا تحكى لى كل هذا؟ إننى أسألك.. أسألك أنت، لماذا لا تدفع المتأخرات؟ أنتم جميعاً لا تدفعون وتريدون أن أتحمّل أنا المسؤولية؟

- لا قدرة عندى!

فقال العمدة:

- هذه الكلمات لا أثر لها يا صاحب المعالى. صحيح آل تشيكيلديف من طبقة غير ميسورة، ولكن تفضلوا واسألوا الآخرين، السبب واحد: الفودكا، وهم عابثون جداً. بدون أدنى مفهومية.

وسجل وكيل الأمور شيئاً ما ثم قال لأوسيب بسكينة وبنغمة هادئة وكأنه يطلب كوب ماء:

- اغرب من هنا.

وسرعان ما رحل. وعندما جلس فى عربته الرخيصة وسعل، بدا واضحاً حتى من منظر ظهره الطويل، أنه لم يعد يذكر شيئاً عن أوسيب أو العمدة أو عن متأخرات جو كوفو، بل كان يفكر فى أموره الخاصة. وما أن ابتعد فرسخاً واحداً حتى كان إنتيب سيديلنيكوف يخرج من دار آل تشيكيلديف حاملاً السماور، بينما سارت الجدة خلفه وهى تصيح بصوت رفيع، نافخة صدرها:

- لن أعطيه! لن أعطيه لك يا ملعون!

كان أنتيب يسير بسرعة، بخطوات واسعة، أما هى فركضت خلفه وهى تختنق وتكاد تسقط، حذاء، شرسة. وسقط منديل رأسها على كتفيها، وتطاير شعرها الأشيب المائل إلى الخضرة فى الريح. وفجأة توقفت، وكمتمردة حقيقية، أخذت تضرب صدرها بقبضتيها وتصيح أعلى من ذى قبل بصوت ناغم وكأنها تعول:

- أيها المسيحيون، يا عباد الله! يا ويلي، أهانوني! يا أحبابي ظلموني!
أغيثوني يا أعزائي!

فقال العمدة بصرامة:

- يا جدة، يا جدة، ضعي عقلا في رأسك.

أصبحت دار آل تشيكيلديف بدون السماور مملة تماما. وكان ثمة شيء
مذل، مهين في هذا الحرمان، كما لو أن الدار جردت فجأة من كرامتها. كان
الأفضل لو أن العمدة أخذ الطاولة، وجميع الأرائك وجميع الأباريق، إذن لما
بدا المكان بهذا الخواء. وكانت الجدة تصرخ، وماريا تبكي، والبنات يكيبن
أيضا اقتداء بها. وأحس العجوز بالذنب فجلس في الركن مطرقا صامتا.
وصمت نيكولاى أيضا. كانت الجدة تحبه وتشفق عليه، أما الآن فنسيت
الشفقة، وانهالت عليه فجأة بالسباب واللوم وهى تلوح بقبضتها أمام وجهه
تماما. كانت تصرخ قائلة أنه المذنب فى كل ما جرى. وبالفعل فلماذا كان يرسل
نقودا قليلة بينما كان هو نفسه يفاخر فى رسائله بأنه يكسب فى «سلافيانسكى
بازار» حوالى ٥٠ روبلا فى الشهر؟ ولماذا جاء إلى هنا، وفوق ذلك مع أسرته؟
وإذا مات، فبأى نقود سيدفونه؟.. وكان منظر نيكولاى وأولجا وساشا يبعث
على الرثاء.

وزحر العجوز وتناول طاقيته ومضى إلى العمدة. كان الظلام قد حل.
وكان أنتيب سيديلنيكوف يلحم شيئا ما بجوار الفرن، نافخا شدقيه. وكان
الجو خانقا. وعلى الأرض كان يلهو أطفاله النحفاء القذرون الذين ليسوا
بأفضل من أطفال تشيكيلديف. وكانت زوجته القبيحة، النمشاء، ذات البطن
الكبير، تلف خيوط الحرير. كانت عائلة بائسة تعيسة، وإنتيب وحده هو الذى
كان يبدو يافعا وجميلا. واصطف على الأريكة خمسة سماورات. وصلى
العجوز لصورة باتنبرج وقال:

- أنتيب، اصنع معروفًا لله ورد السماور! بحق المسيح!

- هات ثلاثة روبلات وعندها خذه.

- لا قدرة عندي!

ونفخ أنابيب شذقيه، وأز اللهب وفح وهو ينعكس على السماورات. وعصر
العجوز طاقيته في يديه وفكر قليلا ثم قال:

- رد السماورا!

أصبح العمدة الأسمر يبدو الآن أسود تماما، أشبه بساحر. والتفت إلى
أوسيب وقال بصرامة وسرعة:

- كل شيء متوقف على رئيس الإقليم. يمكنك أن تتقدم إلى الاجتماع
الإداري في السادس والعشرين من الشهر بمبررات عدم رضاك شفويا أو
على الورق.

لم يفهم أوسيب شيئا لكنه قنع بذلك وعاد إلى الدار.

وبعد حوالي عشرة أيام جاء وكيل المأمور فمكث ساعة ثم رحل. وكان
الجو آنذاك شديد الريح، باردا، وقد تجمد النهر منذ فترة طويلة، بينما لم يهبط
الثلج بعد، فتعذب الناس لانعدام الطرق. وذات مساء، في العيد، جاء الجيران
إلى أوسيب ليجلسوا قليلا ويتبادلوا الأحاديث. تحدثوا في الظلام فقد كان من
الحرام العمل فلم يشعلوا الضوء. وكانت هناك بعض الأخبار السيئة. ففي دارين
أو ثلاثة استولوا على الدجاج سدا للمتاعرات، وبعثوا به إلى إدارة الإقليم،
فنفق هناك لأن أحدا لم يطعمه. واستولوا على الغنم، وأثناء نقلها، ووضعها،
مربوطة، من عربة إلى عربة أخرى في كل قرية، نفقت إحداها. والآن راحوا
يبحثون: من المذنب؟

وقال أوسيب:

- المجلس المحلي! من غيره!

- معلوم، المجلس.

كانوا يهتمون المجلس المحلى بكل شىء: بمتأخرات الضرائب وبالظلم والجذب، على الرغم من أن أحدا منهم لم يعرف ما هو المجلس المحلى. وقد بدأ ذلك منذ أن دخل الفلاحون الأغنياء، الذين كانوا يملكون الفبارك والمتاجر والإنزال، فى عضوية المجالس المحلية فلم تحز رضاهم، ومن بعدها أصبحوا يسبون المجالس المحلية فى فباركهم وحاناتهم.

وتحدثوا فقالوا إن الله لا يمنحهم ثلجا، ولا بد من نقل الحطب ولكن يستحيل السير أو الجر فوق الحفر والتواءات. وفى الماضى، منذ حوالى خمسة عشر أو عشرين عاما، وقبل ذلك كانت الأحاديث فى جوكونو أكثر إمتاعا. كان كل عجوز آنذاك يبدو كأنه يحفظ سرا ما ويعرف شيئا، ويتوقع شيئا ما وتحدثوا عن الشهادة ذات الختم الذهبى، وعن تقسيم الأرض، وعن الأراضى الجديدة، وعن الكنوز، ولمحوا إلى شىء ما. أما الآن فلم يعد لدى أهالى جوكونو أية أسرار، وكانت حياتهم كلها مكشوفة ظاهرة للعيان، ولم يكن بوسعهم أن يتحدثوا إلا عن الفاقة وعن العلف وعن أن الثلج لن يهبط..

وصمتوا. ثم عادوا يتذكرون الدجاج والغنم، وراحوا يبحثون عن المذنب.

فقال أوسيب بكآبة:

- المجلس المحلى! ومن غيره!

٨

كانت كنيسة الأبرشية تقع فى كوسوجوروفو، على بعد ستة فراسخ، ولم يكونوا يزورونها إلا للضرورة القصوى، عند التعميد، أو عقد القران، أو لإقامة قداس الموتى. أما للصلاة فكانوا يذهبون إلى ما وراء النهر. وفى أيام الأعياد، فى الطقس الجيد تنزين الفتيات ويذهبن حشدا لصلاة الغداء، وكان منظرهن يبعث بالبهجة وهن يسرن عبر المرج فى فساتينهن الحمراء والصفراء

والخضراء. وفي الطقس السيئ يبقى الجميع فى بيوتهم. أما صلوات الصيام فكانوا يؤدونها فى الأبرشية. وكان القسيس يطوف بالصليب على الدور فى عيد الفصح فىأخذ ١٥ كوبيكا ممن لم يؤد الفروض فى الصيام الكبير.

لم يكن العجوز يؤمن بالله لأنه لم يفكر فيه أبدا تقريبا. كان يعترف بالخوارق، ولكنه كان يعتقد أن ذلك لا يحدث إلا للنساء وحدهن، وعندما كانوا يتحدثون أمامه عن الدين أو المعجزات ويوجهون إليه سؤالاً ما، كان يرد كارها، وهو يحك جلده:

- ما أدرانى!

وكانت الجدة تؤمن ولكنه كان إيمانا كاييا، فقد اختلط كل شىء فى ذهنها، وما إن تبدأ فى التفكير بالذنوب والموت وتخليص الروح حتى تستولى الفاقة والهموم على أفكارها فتتنسى على الفور ما كانت تفكر فيه. ولم تكن تذكر الصلوات، وفى الأمسيات، قبل النوم، كانت تقف عادة أمام الأيقونات وتهمس:

- يا عذراء قازان، يا عذراء سمولنسك، أيتها العذراء الشفيعة..

وكانت ماريا وفيكلا تصليان وتصومان كل عام، ولكنهما لم تفهما شيئا. ولم يعلموا الأولاد الصلاة، ولم يذكروا لهم شيئا عن الله ولم ييثوا فى نفوسهم أية قواعد، بل حرموا عليهم فقط الإفطار فى الصيام. وكان الحال هكذا تقريبا فى الأسر الأخرى، فقليلون هم الذين آمنوا وقليلون هم الذين فهموا. وفى الوقت نفسه كانوا جميعا يحبون الكتاب المقدس، يحبونه برقة، بإجلال، بيد أنه لم تكن لديهم كتب، ولم يكن هناك من يقرأ أو يشرح، ولأن أولجا كانت تقرأ الإنجيل أحيانا فقد احترموها، وكانوا جميعا يخاطبونها هى وساشا بصيغة الجمع.

كانت أولجا تذهب كثيرا لحضور الأعياد والصلوات الكنسية فى القرى المجاورة وفى مدينة مركز الإقليم التى كان بها ديران وسبع وعشرون كنيسة.

كانت أولجا شاردة، وأثناء تردها على الكنائس كانت تنسى أسرتها تماما، وعندما تعود إلى المنزل تكتشف فجأة بفرح أن لديها زوجا وابنة، وعندئذ تقول مبتسمة منهلة:

- من الله على بنعمة!

بدا لها ما يحدث في القرية بغیضا وكان يعذبها. وكانوا في عيد إيليا يشربون، وفي عيد رفع العذراء يشربون، وفي عيد نصب الصليب يشربون. وفي عيد التجلي، عيد كنيسة جوكونو، شرب الفلاحون ثلاثة أيام، وبددوا على الشراب خمسين روبلا من الأموال العامة، فضلا عن ذلك جمعوا نقودا من جميع الدور لشراء الفودكا. وفي اليوم الأول ذبح آل تشيكيلديف خروفا وأكلوه في الصباح وفي الغداء والعشاء، أكلوا كثيرا، وفي الليل أيضا نهض الأطفال ليأكلوا. وكان كيرياك طوال الأيام الثلاثة ثملا إلى درجة فظيعة، وباع كل شيء ليشرّب بثمانه، حتى الطاقة والحذاء، وضرب ماريا حتى إنهم كانوا يصبون عليها الماء لتفريق، وبعد ذلك شعر الجميع بالخجل والتقرّض.

ولكن حتى في جوكونو، في «قرية الخدم» هذه جرى ذات مرة مهرجان ديني حقيقي. كان ذلك في أغسطس، عندما طافوا بالإقليم كله، من قرية إلى قرية، حاملين أيقونة المخلّصة. وفي اليوم الذي انتظروها فيه، في جوكونو كان الطقس هادئا وغائما، وانطلقت الفتيات منذ الصباح لاستقبال الأيقونة في فساتينهن الزاهية العيدية، وجئن بها قبيل المساء في مسيرة دينية بالأناشيد، وفي تلك اللحظة دوت الأجراس وراء النهر. وامتلا الشارع بحشد هائل من الأهالي والغرباء، وارتفع الصخب والغبار واشتد الزحام.. ومد العجوز والجدّة وكيرياك أياديهم نحو الأيقونة، وتطلّعوا إليها بنهم وقالوا وهم يبيكون:

- يا مخلصتنا، يا أمنا العذراء، يا مخلصّة!

وكانما أدرك الجميع فجأة أن ما بين الأرض والسماء ليس فراغا، وأن الأغنياء والأقوياء لم يستولوا بعد على كل شيء، وأنه ما زالت ثمة حماية من

الإهانات والاستعباد، من الفاقة غير المحتملة ومن الفودكا الرهيبة.

وانتجت ماريا وهي تقول:

ـ يا مخلصه، يا أمنا! يا مخلصه!

ولكن ها هو ذا القديس قد انتهى، وحملوا الأيقونة، وعاد كل شيء إلى سابق عهده، ومن جديد ترددت من الحانة أصوات فظة مخمورة.

ولم يكن يخشى الموت سوى الفلاحين الأغنياء الذين كلما ازدادوا ثراء قل إيمانهم بالله وبخلاص الأرواح، وبسبب الخوف وحده من نهاية العالم، وتحوطا، كانوا يضعون الشموع ويطبقون القداسات، أما الفلاحون الفقراء فلم يكونوا يخشون الموت. كان يقال للعجوز والجدة في حضورهما إنهما عاشا طويلا وأن لهما أن يموتا، فلا يعبان. وفي حضور نيكولاى لم يكونوا يخجلون من القول ليفيكلا بأنه عندما يموت نيكولاى، فسيستفيد زوجها دينيس، إذ سيرحونه من الخدمة العسكرية. أما ماريا فلم تكن لا تخشى الموت فحسب بل كانت تأسف لأنه تأخر إلى هذا الحد، وكانت تشعر بالسرور عندما يموت أطفالها.

لم يكونوا يخشون الموت لكنهم كانوا ينظرون إلى الأمراض بخوف مبالغ فيه. كانت تكفى أية إصابة تافهة ـ كاضطراب في المعدة، أو حرارة بسيطة ـ حتى ترقد الجدة على الفرن وتندثر وتبدأ فى التأوة بصوت عال وبلا توقف: «آه، أموت!» ويسرع العجوز باستدعاء القس لمناولتها ومسحها بالزيت. وكثيرا ما كانوا يتحدثون عن نزلة البرد، وعن الديدان، وعن الأورام المتحركة فى البطن والواصله إلى القلب. وكانت نزلة البرد أكثر ما يخشونه، ولذلك كانوا يلبسون الملابس الثقيلة حتى فى الصيف ويتدفأون على الفرن. وكانت الجدة تهوى العلاج، وكثيرا ما تسافر إلى المستشفى، حيث تقول إن عمرها ليس سبعين سنة بل ثمانية وخمسين. وكانت تعتقد أنه لو عرف الطبيب عمرها الحقيقى فلن يعالجها بل سيقول إنه آن لها أن تموت لا أن تتعالج. وكانت

ترحل إلى المستشفى عادة في الصباح الباكر، وتأخذ معها صبيتين أو ثلاثا، وتعود في المساء جوعى وغاضبة بقطرات لها ومراهم للصبيات. وذات مرة أخذت نيكولاى، الذى ظل بعدها أسبوعين يتناول القطرات ويقول إنه يشعر بتحسن.

كانت الجدة تعرف جميع الأطباء والحكماء والمطبيين لمدى ثلاثين فرسخا، ولم يعجبها واحد منهم. وفي عيد التجلى، عندما طاف القسيس بالصليب على الدور، قال لها الشماس إن هناك عجوزا، حكيما عسكريا سابقا، يعيش فى المدينة قرب السجن، يعالج جيدا جدا، ونصحها باللجوء إليه. وعملت الجدة بنصيحته. وعندما هبط الثلج لأول مرة سافرت إلى المدينة وجاءت بعجوز متنصر، بلحية وفى ثوب طويل الذيل، وكان وجهه مغطى بعروق زرقاء. وفى تلك الأثناء كان يعمل فى الدار عمال مياومة، كان خياط عجوز يضع نظارة رهيبة يفصل من بعض الأسماك صديريا، وشابان يلبدان الصوف ويصنعان أحذية اللباد. وكان كيرياك الذى طردوه من العمل بسبب السكر وأصبح يعيش الآن فى المنزل، جالسا بجوار الخياط يصلح النير. وكانت الدار ضيقة، خائفة، كريهة الرائحة. وفحص العجوز المتنصر نيكولاى وقال إنه بحاجة إلى كاسات هواء.

وأخذ يضع كاسات الهواء بينما وقف العجوز الخياط وكيرياك والفتيات ينظرون، وخيل إليهم أنهم يرون كيف يخرج المرض من جسد نيكولاى. ونظر نيكولاى أيضا إلى الكاسات وهى تلتصق بصدرة فتمتلئ شيئا فشيئا بدم داكن، ف شعر كما لو كان شىء ما يخرج بالفعل من جسده، فابتسم مستمتعا.

وقال الخياط:

- هذا حسن، جعل الله فيه الشفاء.

وضع المتنصر اثنتى عشرة كأسا، ثم اثنتى عشرة أخرى، وشرب الشاى ثم رحل. وأخذ نيكولاى يرتجف، وهزل وجهه، وكما قالت النساء، تضاعف

بحجم القبضة، وازرقت أصابعه، وتدثر بالبطانية وبمعطف جلد الخروف، ولكنه شعر بازدياد البرودة. وبحلول المساء تملكته الوحشة، وطلب أن يضعوه على الأرض، ورجا الخياط ألا يدخن، ثم سكن تحت المعطف، وفي الصباح توفي.

٩

أوه، يا له من شتاء قاس، طويل!

منذ أعياد الميلاد لم يعد لديهم قمح، فابتاعوا الدقيق. وكان كيرياك، الذى أصبح يعيش الآن فى المنزل، يشور كل مساء فيلقى الرعب فى قلوب الجميع، وفى الصباح يتعذب من الصداق والخجل فكان منظره يبعث على الرثاء. وفى المعلف كان يتردد ليل نهار خوار البقرة الجائعة فيمزق نياط قلبى الجدة وماريا. وكأنما عن عمد ظل الصقيع قارسا طوال الوقت، وتراكم الثلج أكواما، وامتد الشتاء، وفى عيد البشارة هبت عاصفة شتائية حقيقية، وفى أسبوع الفصح هطل الثلج.

ولكن أيا ما كان الحال فقد انتهى الشتاء. وفى بداية أبريل حلت أيام دافئة بينما كانت الليالى قارسة، ولم يتراجع الشتاء، ولكن يوما دافئا تغلب عليه أخيرا، فسالت الجداول، وصدحت الطيور. وغرق المريج كله والخمائل بقرب النهر فى مياه الربيع، وتحولت المساحة الواقعة بين جوكوفو والشاطئ الآخر من النهر إلى خليج كبير رفرت فوقه هنا وهناك أسراب من البط البرى. وكان الغروب الربيعي المتلهب، بسحبه المنقوشة، يقدم كل مساء شيئا عجيبا، جديدا خياليا، ذلك الشيء الذى لا تصدقه عندما ترى فيما بعد نفس هذه الألوان ونفس هذه السحب على قماش لوحة.

وطارت اللقالق بسرعة كبيرة وصاحت بحزن، كأنما كانت تدعو للذهاب معها. ووقفت أولجا على حافة الجرف ونظرت طويلا إلى الفيضان، وإلى

الشمس، وإلى الكنيسة المشرقة التي بدت كأنما تجدد شبابها، وسالت الدموع من عينيها واختنقت أنفاسها من الرغبة الجارفة في الرحيل إلى مكان ما، إلى حيث يمتد البصر، ولو إلى آخر الدنيا. وكانوا قد قرروا أن تعود ثانية إلى موسكو لتعمل خادما، وسيضى معها كيرياك ليعمل بوابا أو أى عمل آخر. آه، كم تود لو ترحل بسرعة!

وعندما جفت الأرض وأصبح الجو دافئا استعدادا للرحيل. خرجت أولجا وساشا، بالصرر على ظهريهما، وفي نعلين فرويين ما أن لاح الفجر. وخرجت ماريا لكى تودعهما. وكان كيرياك مريضا فتأجل رحيله أسبوعا. وصلت أولجا لآخر مرة في اتجاه الكنيسة وهى تفكر فى زوجها، ولم تبك لكن وجهها تغضن وصار قبيحا كوجه عجوز. لقد هزلت خلال الشتاء وقبحت وشابت قليلا، وبدلا من ملاحظتها السابقة وإبتسامتها اللطيفة الودود ظهر على وجهها تعبير حزين مسالم بالأسى الذى عاشته، وظهر فى نظرتها شىء جامد بليد كأنما كانت لا تسمع. كانت آسفة على فراق القرية والفلاحين. وتذكرت كيف حملوا نيكولاى وبجوار كل دار كانوا يقيمون الصلاة وكيف بكى الجميع مشاركين لها بلواها. وأثناء الصيف والشتاء كانت تمر بها ساعات يبدو لها فيها أن هؤلاء الناس يعيشون أسوأ من الحيوانات، وكانت الحياة بينهم مرعبة. فهم أفظاظ، غير شرفاء، قذرون، مخمورون، لا يعيشون فى وفاق، يتشاجرون دائما لأنهم لا يحترمون بعضهم بعضا ويخافون ويرتابون. من يفتح الحانات ويُسكر الناس؟ الفلاح. ومن يبدد الأموال العامة وأموال المدارس والكنائس وينفقها على الشراب؟ الفلاح. ومن سرق جاره، وأحرق، وشهد زورا فى المحكمة مقابل زجاجة فودكا؟ من أول من يهاجم الفلاحين فى اجتماعات المجلس المحلى وغيرها؟ الفلاح. نعم، كانت الحياة بينهم مرعبة، ومع ذلك فهم بشر، يعانون وي يكون كالبشر، وليس فى حياتهم شىء لا يمكن إلا تجد له مبررا. العمل الشاق الذى يش منه الجسد تعباً فى الليالى، وفصول الشتاء القاسية، والمحاصيل الشحيحة، وضيق المسكن، ولا مساعدة، وليس من جهة تتوقعها منها. فالأغنى والأقوى منهم لا يستطيعون مساعدتهم لأنهم هم

أنفسهم أفظاظ، غير شرفاء، مخمورون، ويسبون نفس السباب الكريه. وأصغر موظف أو وكيل يعامل الفلاحين معاملة المتشردين ويخاطب حتى الشيوخ ورؤساء الكنائس بصيغة المفرد ويعتقد أن له الحق في ذلك. وهل يمكن أن يكون ثمة أى عون أو مثال طيب من أناس مغرضين، جشعين، فاسقين، كسالى، لا يذهبون إلى القرى إلا لكي يهينوا وينهبوا ويرهبوا؟ وتذكرت أولجا كيف كان منظر العجوزين بائسا ذليلا عندما سبق كيرياك شتاء لمعاقبته بالجلد.. وهى الآن تشعر بالرتاء والألم لكل هؤلاء الناس، وراحت طوال سيرها تلتفت نحو الدور.

وبعد أن سارت ماريا معهما حوالى ثلاثة فراسخ ودعتهما، ثم جثت على ركبتيها وأعولت وهى تسقط بوجهها على الأرض وتصيح:
- عدت وحيدة يا ماريا! آه يا نعيسة يا بائسة..

وظلت تعول هكذا طويلا، وظلت أولجا وساشا يريانها طويلا وهى جاثية على ركبتيها تسجد جانبا لشخص ما وقد أمسكت رأسها بيديها، وفوقها حلقت الغريبان.

ارتفعت الشمس عاليا واشتد الحر. وبقيت جوكونو بعيدا فى الورا. وكان السير محببا، فسرعان ما نسيت أولجا وساشا القرية وماريا، وأحستا بالمرح وكان كل شىء يبدو مسليا. تارة تل، وتارة صف أعمدة البرق التى يمضى كل منها وراء الآخر إلى جهة غير معلومة، وتختفى فى الأفق، والأسلاك تنزr بألغاز. وتارة تبدو على البعد عزبة، غارقة فى الخضرة، تهب منها الرطوبة ورائحة القنب، ولسبب ما يخیل إليهما أن قاطنيتها أناس سعداء. وتارة يلوح هيكل عظمى لحصان، أبيض وحيد فى الحقل. والقبرات تصدح بلا توقف، وتتصايح السماعات. ويصرخ طائر الدراج بصوت متحشرج يشبه بالفعل صوت درج حديدى صدى يسحب.

بلغت أولجا وساشا فى الظهر قرية كبيرة. وهناك قابلتا فى شارع واسع

طاهى الجنرال جوكوف، ذلك العجوز. كان حران، ولمعت فى الشمس صلته
العرقانة الحمراء. ولم تعرفه أولجا ولا هو أيضا عرفها، ثم نظر كل منهما إلى
الآخر فى نفس اللحظة فعرفا بعضهما البعض، ودون أن يتفوها بكلمة، مضى
كل منهما فى سبيله. وتوقفت أولجا بجوار دار بدت أكثر ثراء وجدة، وانحنى
أمام النوافذ المفتوحة وقالت بصوت عال رفيع ناغم:

- حسنة لله أيها المسيحيون الأتقياء، حسنة بحق المسيح، رحمة وسلاما
على أرواح موتاكم.

وغنت ساشا:

- حسنة لله أيها المسيحيون الأتقياء، حسنة بحق المسيح، رحمة
وسلاما..

فى الآخور

١

كانت قرية أوكليفو تقع فى خور، ولذلك، لم يكن يبدو منها للناظر من الطريق ومن محطة السكة الحديدية سوى برج الكنيسة ومدخن فبارك صباغة الشيت. وعندما كان العابرون يسألون أیه قرية هذه يقال لهم:

- إنها تلك القرية التى أكل فيها الشماس فى المأتم كل الكافيار.

ف ذات مرة، أثناء وليمة التأبين عند الصناعى كوستيوكوف، رأى الشماس العجوز بين أطباق المزة كافيارا أسود فراح يلتهمه بشراهة. وأخذوا يدفعونه، ويشدونه من كفه، إلا أنه بدا كأنما فقد الإحساس من شدة المتعة، فلم يعد يشعر بشىء، بل مضى يأكل فقط. والتهم علبة الكافيار كلها، وكان فيها حوالى أربعة أرطال. وقد مضى على ذلك اليوم زمن طويل، ومات الشماس منذ فترة بعيدة، لكن الناس ظلوا يذكرون قصة الكافيار. وسواء كانت الحياة هنا فقيرة إلى هذه الدرجة، أم أن الناس لم يكونوا قادرين على ملاحظة أى شىء غير هذه الحادثة التافهة التى وقعت منذ عشرة أعوام، فإنهم لم يرووا أى شىء آخر عن قرية أوكليفو.

لم تكن الحمى تختفى منها، وحتى فى الصيف كان فيها وحل كوحل المستنقعات، وخاصة تحت الأسيجة التى تنحني فوقها أشجار الصفصاف العتيقة بظلالها الوارفة. وكانت نفوخ هنا دائما رائحة المخلفات الصناعية

وحامض الخل الذى كانوا يستخدمونه فى معالجة الشيت الملون. ولم تكن الفبارك - ثلاث لصباغة الشيت وواحدة للجلود - تقع فى القرية، بل فى طرفها وقربا منها. كانت تلك فبارك صغيرة، وكان يعمل فيها جميعا حوالى أربعمائة عامل لا أكثر. وبسبب فابريكة الجلود كانت مياه النهر كثيرا ما تصبح نتنة. ولوثت المخلفات المرح، فأصيبت ماشية الفلاحين بالقرحة السييرية، وصدر أمر بإغلاق الفابريكة. واعتبرت مغلقة، لكنها كانت تعمل سرا، بعلم وكيل المأمور وطبيب الناحية اللذين كان صاحبها يدفع لكل منهما عشرة روبلات فى الشهر. ولم يكن فى القرية كلها سوى منزلين محترمين، مشيدين من الحجر، ويسقف معدنى. كان أحدهما مقرا لإدارة الناحية، وفى الثانى، ذى الطابقين، والمواجه مباشرة للكنيسة، عاش جريجورى بتروف تسيوكين، البرجوازي الصغير.

كان جريجورى يملك دكان بقالة، ولكن ذلك كان ستارا، أما فى الحقيقة فكان يتاجر فى الفودكا، والماشية، والجلود، والحبوب، والخنازير.. كان يتاجر فى كل ما يتسنى له، وحينما كانوا فى الخارج مثلا، يحتاجون إلى ريش العققى للقبعات النسائية، كان يكسب من كل زوج ثلاثين كوبىكا. وكان يشتري الأشجار لتقطيعها خشبا، ويقرض بفائدة، وعموما كان عجوزا ماهرا فى الأعمال.

وكان لديه ولدان. الأبن الأكبر، أنيسيم، كان يعمل فى الشرطة، فى قسم المباحث، ونادرا ما يأتى إلى البيت. أما الابن الأصغر، ستيان، فسار على درب التجارة، وكان يساعد أباه، وإن لم ينتظروا منه مساعدة حقيقية لأنه كان معتل الصحة وأطرش. وكانت زوجته أكسينيا، وهى امرأة جميلة، ممشوقة، ترتدى فى الأعياد قبعة وتحمل مظلة، تستيقظ مبكرا وتنام متأخرا، وتركض طول النهار، مشمة جونلاتها، وهى تصلصل بالمفاتيح، تارة إلى المخزن، وتارة إلى القبو، وتارة إلى الدكان، فكان العجوز تسيوكين ينظر إليها بمرح، وتتوقد عيناه، وفى تلك اللحظات كان يأسف أنها ليست متزوجة من ابنه الأكبر، بل من الأصغر، الأطرش، الذى لم يكن، فيما يبدو، يفقه كثيرا فى جمال النساء.

كان العجوز ميالا دوما إلى الحياة العائلية، فكان يحب أسرته أكثر من أى شىء فى الدنيا، وخاصة ابنه الأكبر المخبر وزوجة ابنه الأصغر. وما أن تزوجت أكسينيا من الأطرش حتى كشفت عن مهارة عملية فائقة، وأصبحت تعرف من الذى يمكن أن تباع له بالدين ومن الذى لا يمكن، واحتفظت بالمفاتيح فلم تأتمن عليها حتى زوجها، وكانت تعد على العداد الخشبي، وتفحص أسنان الخيول مثل الفلاحين. وطول الوقت تضحك أو تصيح. وكلما عملت أو قالت شيئا كان العجوز ينظر بتأثر ويدمدم:

- عفارم ياكّة! عفارم يا حلوة!..

كان أرملا، ولكن بعد زواج ابنه بسنة، لم يتمالك نفسه فتزوج هو الآخر. وجدوا له على بعد ثلاثين فرسخا من أوكلييفو فتاة تدعى فارفارا نيكولايفنا، من أسرة طيبة، تقدمت بها السن ولكنها جميلة، حسنة الهيئة. وما أن سكنت الغرفة الصغيرة، فى الطابق العلوى، حتى أشرق كل شىء فى البيت، كأنما وضع زجاج جديد فى جميع النوافذ. وسطعت القناديل، وفرشت على الطاولات مفارش بيضاء كالثلج، وظهرت على النوافذ وفى الحديقة أزهار بأكمام حمراء، ولم يعودوا يتناولون الغداء من صحفة واحدة بل وضعت الأطباق أمام كل شخص. وكانت فارفارا نيكولايفنا تبسم برقة ولطف فبدا أن كل ما فى البيت يتسم. وأخذ الشحاذون والجوالون والمتعبدات يعرجون على فناء الدار، الأمر الذى لم يحدث أبدا من قبل، وترددت تحت النوافذ أصوات فلاحات أوكلييفو الشاكية الناعمة، وسعال خجل للفلاحين المنهكين المفصولين من الفابريكة بسبب السكر. كانت فارفارا تساعدهم بالنقود والخبز والملابس القديمة، وبعد أن ألقت البيت راحت تختلس لهم من الدكان. وذات مرة لمحها الأطرش وهى تسرق تُمنى شاي فتملكه الحرج.

وفيما بعد قال لايه:

- نينة أخذت تُمنى شاي. على أى حساب أسجلهما؟

فلم يجب العجوز بشيء، ووقف قليلا وفكر وهو يلعب حاجبيه، ثم صعد إلى زوجته.

وقال لها برقة:

- يا فارفاروشكا! يا روحى! إذا ما احتجت إلى شيء من الدكان فخذيه. خذى كما تشائين ولا تهتمى.

وفى اليوم التالى صاح لها الأطرش وهو يجرى عبر الفناء:

- يا نينة، إذا احتجت لشيء، خذيه!

كانت تصدق، وكان فى ذلك شيء جديد، وشيء مرح وخفيف، كما فى القناديل والأزهار الحمراء. وحينما كانوا ليلة الصيام أو فى عيد راعى الكنيسة الذى كان يستمر ثلاثة أيام، يبيعون للفلاحين اللحم المملح العفن ذا الرائحة الفظيعة حتى ليصعب الوقوف بجوار البرميل، يأخذون من السكارى المناجل والطواقى ومناديل زوجاتهم رهنا، وحينما كان عمال الفبارك يتمرغون فى الأوحال وقد أفقدتهم الفودكا السيئة صوابهم، ويبدو أن الحرام قد تكاثف وأصبح معلقا فى الجو كالضباب، عندها يداعب النفس شعور بالراحة من فكرة أن هناك فى البيت امرأة هادئة، لطيفة، لا شأن لها باللحم المملح ولا بالفودكا. كان لصدقاتها فى تلك الأيام الممضة المضنية مفعول صمام الأمان فى الآلة.

كانت الأيام فى منزل تسيبوكين تمضى فى المشاغل. فقبل أن تبزغ الشمس تردد زفرات أكسينيا وهى تغتسل فى المدخل، بينما يغلى السماور فى المطبخ ويتر منذرا بشيء شرير. وكان العجوز جريجورى بتروف، وقد ارتدى سترة سوداء طويلة وسروالا من الشيت، وحذاء عاليا لامعا، يتجول فى الغرف نظيفا، صغيرا، ويدق بكعبيه كوالد الزوج فى الأغنية المعروفة. ثم يفتحون الدكان. وعندما ينتشر الضوء يأتون بالعربة إلى درج المدخل فيقفز إليها العجوز بفتوة، ويغمد عمرته الكبيرة حتى أذنيه، فإذا نظرت إليه لا يمكن أن تقول

أنه فى السادسة والخمسين. وتودعه زوجته وكنته. وفى تلك اللحظة، عندما يكون مرتديا سترة جيدة نظيفة، وقد شد إلى العربية حصان أسود ضخيم، ثمنه ثلاثمائة روبل، لا يحب المعجوز أن يقصده الفلاحون بطلباتهم وشكاواهم. كان يمقت الفلاحين ويتفرز منهم، وعندما يرى أحدهم واقفا ينتظر بجوار البوابة، يصبح فيه بغضب:

- ما لك واقفا هناك؟ سر فى طريقك!

أو يصرخ إذا كان ذلك شحاذا:

- الله يسهل لك!

كان يرحل لقضاء أعماله. وكانت زوجته تنظف الغرف أو تساعد فى المطبخ، مرتديه ثيابا داكنة ومريلة سوداء. وتاجر أكسينيا فى الدكان، وكان يسمع فى الفناء رنين الزجاجات والنقود وضحكها أو صياحها وكلمات الزبائن الغاضبة الذين أهانتهم. وفى الوقت نفسه كان واضحا أن التجارة السرية فى الفودكا قد بدأت فى الدكان. وكان الأطرش يجلس أيضا فى الدكان، أو يسير فى الشارع بلا طاقة، وقد دس يديه فى جيبه، ويتطلع شاردا إلى الدور أو إلى السماء. وكانوا يشربون الشاي فى البيت حوالى ست مرات فى اليوم، ويجلسون إلى المائدة لتناول الطعام أربع مرات. وفى المساء يحسبون الدخل ويسجلونه، ثم يخلدون إلى نوم عميق.

كانت فبارك الشيت الثلاث فى أوكليفو، وكذلك بيوت الصناعيين آل خريمين الأكبر وآل خريمين الأصغر وكوستيوكوف مجهزة بالتليفون. ومدوا التليفون أيضا إلى إدارة الناحية ولكنه سرعان ما تعطل هناك إذ عتش فيه البق والصراصير. وكان شيخ الناحية ضعيف التعليم، يبدأ كل كلمة فى الأوراق الرسمية بحرف كبير، ولكنه قال عندما تعطل التليفون:

- نعم، ستكون أحوالنا أصعب بلا تليفون.

وكان آل خريمين الأكبر يقاضون دائما آل خريمين الأصغر، وأحيانا كان

آل خريمين الأصغر يتشاجرون، هم أيضا، فيما بينهم ويلجأون إلى المحاكم، وعندئذ تتوقف فابريكتهم شهرا وشهرين إلى أن يتصالحوا، وكان ذلك يسلى أهالي أوكلييفو، إذ كان كل شجار يثير الكثير من الأحاديث والقبل والقال. وفي أيام الأعياد كان كوستيوكوف وآل خريمين الأصغر ينظمون ترحلًا بالزحافات، فيمرقون في أوكلييفو ويدوسون العجول. وكانت أكسينيا تنزه في الشارع قرب دكانها، في كامل زيتنها وهي تخرخش بجونلاتها المنشأة، فكان آل خريمين الأصغر يلتقطونها ويحملونها معهم كأنما عنوة. وفي ذلك الحين كان العجوز تسيوكين يتزحلق أيضا لكي يظهر حصانه الجديد، ويصطحب معه فارارا.

وفي المساء، بعد الترحلق وقيل النوم، كانوا يعزفون في فناء آل خريمين الأصغر على أكورديون ثمين، وعندما يكون هناك قمر تبعث هذه الألحان القلق والبهجة في القلب، ولا تعود أوكلييفو تبدو كالحفرة.

٢

كان الابن الأكبر أنيسيم لا يأتي إلى البيت إلا نادرا، في الأعياد الكبيرة فقط، ولكنه كان كثيرا ما يرسل مع بلديه الهدايا والرسائل، المكتوبة بخط شخص غريب، جميل للغاية، وفي كل مرة على فرخ ورق في صورة التماس. وكانت الرسائل ممثلة بتعبيرات لم يستخدمها أنيسيم أبدا في حديثه: «بابا وماما العزيزين. أبعث إليكما برطل من شاي الزهور لتلبية احتياجاتكما البدنية».

وفي أسفل كل رسالة توقيع مخربش، كأنما كتب بريشة مكسورة: «إنيسيم تسيوكين» وتحت هذا كتب بنفس الخط الرائع السابق: «المخبر».

كانت الرسائل تقرأ جهرا عدة مرات، فيقول العجوز المتأثر المتضرج من شدة الانفعال:

- لم يشأ أن يبقى معنا، وقرر أن يسلك طريق العلم طيب، ليكن. كل واحد وله وظيفته.

وذات مرة، قبل أيام المرافع، هطل مطر غزير ببرد، واقترب العجوز وفارفارا من النافذة ليتفرجا، فإذا بهما يريان أنيسيم قادما من المحطة فى زحافة. لم يكونوا يتوقعون مجيئة أبدا. دخل الغرفة قلقا ومنزعجا من شيء ما، وظل هكذا طوال فترة بقاءه. وكان يتصرف بشيء من الاستهتار. ولم يتعجل الرحيل، وبدا الأمر وكأنما فصلوه من عمله. وكانت فارفارا مسرورة بمجيئه، وكانت تنظر إليه بمكر، وتتنهد وتهز رأسها. وتقول:

- يا إلهى، كيف ذلك؟ الشاب أصبح فى الثامنة والعشرين وما زال يتسكع أعزب، أوه!، هوه!، هو..

من الغرفة الأخرى كان حديثها الهادئ الخافت يسمع هكذا: «أو، هوه!، هوه!، هو». وأخذت تتهامس مع العجوز وأكسينيا، فارتسم على وجهيهما أيضا تعبير ماكر غامض، كما على وجوه المتأمرين.

وقرروا تزويج أنيسيم.

وقالت فارفارا:

- أوه!، هوه!، هو.. الأخ الأصغر زوجوه من زمان، وأنت لا تزال بلا شريكة كالديك فى السوق. فى أى شرع هذا؟ أوه - هوه، بعد أن تتزوج إن شاء الله، افعل كما تشاء، اذهب إلى العمل، لكن زوجتك ستبقى فى البيت، لتساعدنا. إنك تعيش بلا ترتيب يا شاب، وقد نسيت كل القواعد كما أرى. أوه!، هوه!، هو، ما العمل معكم يا أهل المدينة؟

عندما كان آل تسيبو كين يتزوجون، كانوا يختارون لهم أجمل العرائس باعتبارهم أغنياء. وقد وجدوا لأنيسيم أيضا عروسا جميلة. أما أنيسيم نفسه فلم تكن هيئته جذابة، ولا ملفتة. فمع بنيانه الضعيف المريض وقامته القصيرة، كان له خدان ممثلثان متنفخان كأنما نفخهما عمدا. وعيناه لا تطرفان. ونظرتة حادة، ولحيته حمراء، خفيفة الشعر، وعندما يستغرق فى

التفكير كان يدسها فى فمه ويعضاها. وعلاوة على ذلك كان يسكر كثيرا، وبدا ذلك واضحا على وجهه ومشيته. ولكن عندما أخبروه أنهم وجدوا له عروسا جميلة جدا، قال:

- حسنا، أنا أيضا لست أحول. نحن آل تسيوكين، كلنا جميلون.

كانت قرية تورجويفو بجوار المدينة مباشرة. وقد ضم أحد شطريها مؤخرًا إلى المدينة، وظل الشطر الآخر قرية. وفى الشطر الأول كانت تعيش إحدى الأرمال، فى دار ملكها. وكانت لديها أخت، فقيرة تماما، تعمل فى المنازل بالمياومة. وكان لدى هذه الأخت ابنة تدعى لييا، تعمل أيضا بالمياومة. وكانت الألسنة فى تورجويفو تتحدث عن جمال لييا، لكن الشيء الوحيد الذى كان يشير حرج الجميع هو فقرها المدقع. وكانوا يقولون إنه ربما تزوجها كهل أو أرمل غير عايب بفقرها، أو ربما أخذها لنفسه «هكذا»، وعندئذ تعيش أمها معها فتجد لقمة العيش. وعلمت فارفارا عن لييا من الخاطبات فسافرت إلى تورجويفو.

ثم أقيم فى بيت الخالة حفل عرض، حسب الأصول، بطعام وشراب، وكانت لييا فى فستان وردي جديد، حاكوه خصيصا لحفل العرض، وتوهج فى شعرها شريط أحمر كالنار. كانت نحيلة، ضعيفة، شاحبة، وقسماتها دقيقة رقيقة، سمراء من العمل فى الهواء الطلق. ولم تفارق وجهها ابتسامة حزينة وجلة، وأطلت من عينيها نظرة أطفال، بريئة وفضولية.

كانت صبية، طفلة بعد، بصدر لا يكاد يبين، ولكن كان بوسعها أن تتزوج، إذ بلغت السن القانونية. وكانت جميلة بالفعل، ولكن كان فيها شيء واحد ربما لا يحوز الإعجاب: يداها الكبيرتان الرجاليتان، اللتان كانتا تتدليان الآن بلا عمل مثل مخلبين طويلين.

وقال المعجوز للخالة:

- ليس لديكم مال، ونحن لن نشغل البال. لقد أخذنا لابنتا ستيان عروسا

من أسرة فقيرة أيضا، وهى الآن موضع فخرنا. وسواء فى الدار أم فى العمل فلها يدان من الذهب.

كانت ليا واقفة بجوار الباب وكأنما تريد أن تقول: «اصنعوا بى ما تريدون، أنا أثق بكم»، أما أمها، المياومة براسكوفيا، فاختبأت فى المطبخ وقد تجمدت من الوجع. فى زمن ما وأيام شبابها، غضب منها تاجر كانت تمسح الأرضية لديه، فدفق الأرض بقدميه نائرا فيها فارتعبت بشدة واعتراها الذهول، وبقي الخوف فى نفسها طوال العمر. ومن الخوف كانت يداها وساقاها ترتعش دائما، وكذلك خذاها. جلست فى المطبخ وهى تحاول أن تسمع ما يقوله الضيوف، وترسم طوال الوقت علامة الصليب وهى تلتصق أصابعها بجهتها وتنظر إلى الأيقونة. وشد إنيسيم، الذى ثمل قليلا، باب المطبخ وقال باستهتار:

.. لماذا تجلسين هنا يا نينة الغالية؟ نحن نشعر بالوحشة بدونك.

أما براسكوفيا التى اشتد وجلها فقد أجابته وهى تضغط بيديها على صدرها الهزيل النحيل:

.. ماذا تقول، العفو العفو.. بارك الله فيكم.

وبعد العرض حددوا يوم الزفاف. وعندما عادوا إلى البيت راح إنيسيم يجوس بالغرف مصفرا، أو يتذكر فجأة شيئا ما فيستغرق فى التفكير، محدقا فى الأرض بنظرة جامدة ثابتة، كأنما كان يريد بنظرته أن ينفذ عميقا فى الأرض. ولم يعرب لا عن رضاه بأنه سيتزوج، سيتزوج قريبا، وفى نهاية عيد الفصح، ولا عن رغبته فى رؤية عروسه، بل كان يصفر فقط. وكان واضحا أنه لا يتزوج إلا لأن تلك كانت رغبة أبيه وزوجة أبيه، ولأن العادة جرت هكذا فى الريف: أن يتزوج الابن لكى يأتى إلى البيت بمساعدة. وعندما استعد للرحيل لم يتعجل، وعموما كانت تصرفاته لا تشبه تصرفاته السابقة.. كان مستهترا بشدة، ولم يكن يتحدث كما ينبغى.

كانت تعيش فى قرية شيكالوفا خياطتان شقيقتان، من طائفة «الخليست». وقد أوصيتا بتجهيز ثياب جديدة بمناسبة العرس، فجاءتا لقياس الملابس، وظلتا طويلاً تشربان الشاي. حاكتا لفارافارا فستاناً بنياً بدانتلا سوداء وخرزات زجاجية، وحاكتا لأكسينيا فستاناً أخضر فاتحاً، بصدر أصفر وذيل طويل. وبعد أن أنهت الخياطتان عملهما لم يدفع لهما نسيوكين أجرهما نقداً بل سلعا من دكانه، فانصرفتا من عنده حزيتين، وفى أيديهما صرر بها شموع وسردين ليستا بحاجة إليها أبداً، وحينما غادرتا القرية وأصبحتا فى الحقل، جلسنا على تلة صغيرة وراحتا تبكيان.

وجاء أنيسيم قبل العرس بثلاثة أيام، وكان كل ما عليه جديداً. كان يتعل خفاً لامعا من المطاط، ويضع بدلاً من رابطة العنق خيطاً أحمر بكريات، وعلى كتفيه تدلى معطف وكان أيضاً جديداً.

وصلى بوقار ثم سلك على أبيه وأعطاه عشرة روبلات فضية وعشر قطع من فئة النصف روبل. وأعطى لفارافارا نفس المبلغ، ولأكسينيا عشرين قطعة من فئة الربع روبل وكان أروع ما فى هذه الهدايا أن جميع القطع النقدية كانت جديدة كلها وتلمع فى الشمس. ولكى يظهر أنيسيم وقوراً وجاداً شد عضلات وجهه ونفخ شدقيه، وفاحت منه رائحة الخمر، إذ يبدو أنه كان يخرج من العربة فى كل محطة ويشرب فى البوفيه. ومن جديد كان فيه نوع من الاستهتار وشيء زائد. وفيما بعد شرب أنيسيم والعجوز الشاي وأكلا، أما فارافارا فراحت تقلب الروبلات الجديدة فى يديها وتسأل عن بلديهم القاطنين فى المدينة.

وقال أنيسيم:

- لا بأس، يعيشون بخير والحمد لله. ولكن وقعت لإيفان بجوروف حادثة فى حياته العائلية.. ماتت عجوزه صوفيا نيكيفروفنا، بالسل. أو صوا على غداء

التأبين عند الحلواني، بروبلين ونصف للشخص. وكان هناك خمر غنب. وحتى لقاء غداء الفلاحين - بلدينا - دفعوا أيضًا روبلين ونصف للشخص. ولكنهم لم يأكلوا شيئًا. وهل يفقه الفلاح في المأكولات المرفهة!

فقال العجوز وهو يهز رأسه:

- روبلان ونصف!

- ولم لا؟ هناك مدينة لا قرية. تدخل المطعم لتأكل، فتطلب هذا وذاك، وتجتمع الشلة، فتشرب، وإذا بالفجر حل، وتفضل، ادفع ثلاثة أو أربعة روبلات للشخص. أما مع سامورودوف، فإنه يحب بعد كل ذلك أن يشرب القهوة بالكونياك، وكأس الكونياك وحده بستين كوبيكا.

فدمدم العجوز معجبًا:

- ياله من كذاب! ياله من كذاب!

- أنا الآن مع سامورودوف دائمًا. إنه هو الذى يكتب لكم رسائلنى. رائع فى الكتابة، واستطرد أنيسيم يقول بمرح لفارفارا - لو حكيت لك يا نينة أى رجل سامورودوف هذا لما صدقت. إننا جميعًا ندعوه «مختار» لأنه أسود تمامًا، مثل الأرمن. إننى أعرف خباياه، أعرف كل أعماله كمعرفتى لأصابعى الخمس، وهو يشعر بذلك يا نينة. ولهذا يسير دائمًا ورائى ولا يتركنى، ولا يفرقنا الآن شىء. ويبدو أنه يشعر بالرهبة منى، ولكنه لا يستطيع العيش بدونى. أينما ذهبت ذهب ورائى. إن لى يا نينة عينا صائبة صادقة. عندما أكون فى السوق أنظر، فإذا فلاح يبيع قميصًا.. قف! القميص مسروق! وبالفعل، يتضح أن القميص مسروق.

فسألت فارفارا:

- وكيف تعرف؟

- هكذا، عيني هكذا. أنا لا أعرف ما هذا القميص ولكنى أجد نفسى لسبب ما مشدودا نحوه: قميص مسروق وانتهى الأمر. عندنا فى قسم المباحث

يقولون: «ذهب أنيسيم لاصطياد دجاج الغابة» ومعنى ذلك: ذهب للبحث عن المسروقات. نعم.. كل واحد يستطيع أن يسرق. ولكن كيف تخبئ المسروق! الأرض واسعة ولكن لا مكان تخبئ المسروق فيه!

- فى قرينتا سرقوا من آل جونتوريف فى الأسبوع الماضى خروفاً ونعجين - قالت فارفارا ثم تنهدت - وليس هناك من يبحث عنها.. أوه.. هوه.. هو.. - لم؟ البحث ممكن.. بسيطة، ممكن.

وحل يوم الزفاف. كان يومًا باردًا من شهر أبريل ولكنه صحو وبهيج. ومنذ الصباح الباكر أخذت عربات الثرويكَا وعربات الجوادين المزينة بالأشرطة الملونة على أقواسها وأعراف خيولها تطوف بأوكليفو وهى تصلصل بأجراسها. وصاحت الغربان فى أشجار الصفصاف وقد أزعجها مرور العربات، وصدحت الزرازير بلا توقف وبإجهاد، وكأنما أسعدها أن لدى آل تسيوكين عرسًا.

وفى المنزل مُدت على الطاولات الأسماك الطويلة ولحم فخذ الخنزير والطيور المحشوة وعلب السردين وشتى المملحات والمخللات وعدد كبير من زجاجات الفودكا والخمر، وفاحت رائحة السجق المدخن والكركد البحرى الفاسد. وكان العجوز يتمشى بجوار الموائد وهو يدق بكعبيه ويشحذ سكينًا بسكين. وكانوا ينادون على فارفارا كل حين طالبين منها شيئًا ما فتركض شاردة لاهثة إلى المطبخ حيث يعمل منذ الفجر طاه من عند آل كوستيوكوف وطاهية ماهرة من عند آل خريمين الأصغر. وكانت أكسينيا تركض فى الفناء كالأعصار، مجمدة الشعر، بدون فستان بل فى الكورسيه فقط، وفى حذاء جديد ذى صرير، فلا تلمح منها سوى ركبتيها العاريتين وصدرها العارى. وعلا الضجيج وتردد السباب والأيمان، وتوقف المارة أمام البوابة المفتوحة على مصراعها، وبدا محسوسًا فى الجو كله أنه سوف يحدث شيء غير عادى.

- ذهبوا لإحضار العروس!

ودوت الأجراس ثم صمتت بعيدًا خلف القرية.. وفى الساعة الثالثة

ركض الناس، فقد ترددت الأجراس ثانية، لقد أحضروا العروس! كانت الكنيسة غاصة، واشتعلت ثريا الكنيسة، وغنى المنشدون على النوت الموسيقية حسب رغبة العجوز تسيبوكين. وبهر بريق الأضواء والفساتين الساطعة عيني ليلى، وخيل إليها أن المنشدين يدقون بأصواتهم العالية كالمطارق على رأسها. وضغط عليها الكورسيه، الذى ارتدته لأول مرة فى حياتها، وكذلك الحذاء، وارتسم على وجهها تعبير، كأنما أفاقت لتوها من إغماءة.. كانت تحديق ولا تفهم. أما أنيسيم، الذى كان فى حلة سوداء وخط أحمر بدلاً من رباط العنق، فقد استغرق فى التفكير وهو يحديق فى نقطة واحدة، وعندما يصرخ المنشدون عاليًا كان يرسم علامة الصليب بسرعة. كان يشعر بالتأثر وبالرغبة فى البكاء. كانت هذه الكنيسة مألوفة لديه منذ الصغر. وفى وقت ما جاءت به المرحومة أمه لمناولته، وفى وقت ما غنى مع الصبيان فى جوقة المنشدين. إنه يذكر جيدًا كل ركن هنا وكل أيقونة. وها هم أولاء يزفونه، ها هم يزوجونه كما تقتضى الأصول، ولكنه لم يعد يفكر فى ذلك أو يذكر بل نسي العرس تمامًا. كانت دموعه تعوقه عن تأمل الأيقونات، وثمة شيء كان يضغط على قلبه. راح يصلى ويدعو الله أن يجنبه المصائب المحتومة المتأهبة للانقضاض عليه اليوم أو غدا، أن تتخطاه بصورة ما كما تتخطى العواصف الممطرة القرية فى وقت الجفاف دون أن تلقى إليها بقطرة مطر واحدة. وما أكثر الذنوب التى ارتكبت فى الماضى، ما أكثر الذنوب، وما أعمق التردى والتخبط حتى ليدو طلب الغفران غير مناسب. لكنه طلب الغفران بل أفلتت منه شهقة عالية، إلا أن أحدا لم يلتفت إلى ذلك، إذ ظنوا أنه سكران.

وتردد بكاء طفل مضطرب:

- خذنى من هنا يا أمى يا حبيبتى!

فصاح القس:

- صمتا هناك!

عند عودتهم من الكنيسة جرى الناس خلف موكب العرس. ويجوار الدكان،

وحول البوابة وفي الفناء تحت النوافذ تجمهر حشد. وجاءت المادحات لتحية العروسين. وما أن عبر العروسان العتبة حتى رفع المغنون عقيرتهم بالغناء وكانوا واقفين في المدخل مع نوتهم الموسيقية، وعزفت الفرقة الموسيقية المستأجرة خصيصاً من المدينة. وحملوا خمر الدون الفوارة في كؤوس طويلة، وقال المقاتل النجار يلزاروف، وهو عجوز طويل نحيف، بحاجين غزيرين حتى لا تكاد عيناه تظهران، مخاطباً العروسين:

- أنت يا أنيسيم وأنت يا بنيتي، تحابا، عيشا يا أبنائي بما يرضى الله، وستر عاكما السيدة العذراء- ومال على كتف العجوز وانتحب- يا جويجوري بتروف، هيا نبكي، لنبك من السعادة!- قال بصوت رفيع وعلى الفور قهقهة فجأة واستطرد بصوت عال غليظ: ها.. ها.. ها! وهذه العروس أيضاً حلوة! كل شيء فيها، يعنى، فى محله، كل شيء فيها ناعم، لن يقرقع، كل عددها سليمة مضبوطة، والبراغي كثيرة.

كان أصله من إقليم يجوريفسك، ولكنه عمل منذ الصبا فى فبارك أو كليفو وفى الإقليم واستقر هنا. وعرفوه منذ زمن طويل عجوزاً هكذا ونحيفاً وطويلاً على هذا النحو، ومنذ زمن طويل سموه بالعكاز. وربما لأنه ظل يعمل فى الفبارك أكثر من أربعين عاماً فى تصليح الآلات فقط، لذلك كان يحكم على كل إنسان أو جماد من زاوية متانته فحسب: ألا يحتاج إلى تصليح؟ وقبل أن يجلس إلى المائدة جرّب عدة مقاعد، هل هى متينة، وجس السمك المملح أيضاً.

بعد تناول الخمر الفوارة بدأوا يجلسون وأخذ الضيوف يتحدثون ويحركون المقاعد. وفى المدخل غنى المغنون وعزفت الموسيقى، وفى تلك الأثناء غنت المادحات فى الفناء بصوت واحد، وتعالى خليط أصوات فظيع رهيب يصدع الرؤوس. كان العكاز يتلوى على مقعده ويدفع جيرانه بمرفقيه ويشوش على الكلام، وتارة يبكي وتارة يقهقه.

ودمدم بسرعة:

- يا أبنائى، يا أبنائى، يا أبنائى.. أكسينيوشكا يا عزيزتى، يا فارفاروشكا،
سنعيش جميعاً فى وئام وسلام، يا فؤوسى الغالية..

كان قليلاً ما يشرب فسكر الآن من كأس فودكا إنجليزية واحدة. أدارت
هذه الفودكا الفظيعة، التى لا يُعرف من أى شىء صنعت، رؤوس كل من شربها
كأنما أموت عليها بضربة. وتلعثمت الألسنة.

خضر الحفل رجال الدين والوكلاء فى الفبارك مع زوجاتهم، والتجار،
وأصحاب الحانات من القرى الأخرى. وجلس شيخ الناحية وكاتب الناحية
اللذان يعملان معاً منذ أربعة عشر عاماً ولم يوقعا طوال هذه المدة ورقة
واحدة، ولم يتركا أحداً يخرج من مقر إدارة الناحية دون أن يخدعاه ويهيناه،
جلسا الآن متجاورين، كلاهما بدينان، شعبانان، وبدا أنهما تشبعا بالكذب إلى
درجة أن بشرة وجهيهما كانت من طينة خاصة، بشرة نضابة. وجاءت زوجة
الكاتب، وكانت امرأة هزيلة، حواء، بجميع أولادها معها، وأخذت تنظر
شزراً، كالطير الجارح، إلى الأطباق وتخطف كل ما تقع عليه يدها، وتدسه
فى جيوبها وجيوب الأطفال.

جلست ليا جامدة، بنفس التعبير الذى ارتسم على وجهها فى الكنيسة.
ومنذ أن تعرف بها أنيسيم لم يتبادل معها كلمة واحدة، حتى إنه لم يعرف
إلى الآن ما صوتها. وقد جلس الآن بجوارها صامتاً أيضاً، يشرب الفودكا
الإنجليزية، وعندما ثمل تحدث مخاطباً خالتها الجالسة قبالة:

- لددى صديق اسمه سامورودوف. رجل مخصوص. مواطن فخري خاص
ويستطيع أن يتحدث. ولكنى يا خالة أعرف خباياه، وهو يشعر بذلك. اسمحى
لى أن أشرب معك فى صحة سامورودوف يا خالة!

ودارت فارفارا حول الموائد وهى تضيف المدعوين. مرهقة، شاردة،
وكانت فيما يبدو سعيدة لكثرة المأكولات وفخامة المائدة، إذن فلن يعتب أحد
الآن. وغربت الشمس ولكن الغداء استمر، ولم يعد أحد يدرك ماذا يأكل أو

يشرب، ولم يعد مسموعًا ماذا يقال. وأحيانًا، وفقط عندما تصمت الموسيقى، كان يسمع بوضوح صوت امرأة تصيح في الفناء:

- مصوا دماءنا الملاعين، فلتبلعكم جهنم!

وفي المساء رقصوا بمصاحبة الموسيقى. وجاء آل خريمين الأصغر بخمورهم، ورقص أحدهم الكادريل ممسكا في كل يد بزجاجة وبكأس في فمه فأضحك ذلك الجميع. وفي أثناء رقصة الكادريل بدأوا فجأة يرقصون قرفصاء وكانت أكسينيا الخضراء تمرق فقط فثير الهواء بذيل فستانها. وداس أحد ما على كورنيش ذيلها الأسفل فصاح العكاز:

- هيه، خلعوا لك الأفريز! يا أبنائي!

كانت عينا أكسينيا رماديتين، ساذجتين، نادرًا ما تطرفان، وارتسمت على وجهها دائمًا ابتسامة ساذجة. وكان في هاتين العينين اللتين لا تطرفان، وفي رأسها الصغير فوق عنقها الطويل، وفي قدها الرشيقة كله ثمة شيء ثعبانى. كانت تنظر، بجسمها الأخضر وصدرها الأصفر وابتسامتها، كما تنظر الأفعى في حقل الجودار الفتى في الربيع إلى شخص عابر، وقد تمددت ورفعت رأسها. وكان الإخوة خريمين يعاملونها بلا تحفظ، وظهر واضحًا تمامًا أنها على علاقة غرامية بأخيهم الأكبر منذ فترة طويلة. ولكن الأطرش لم يفهم شيئًا ولم ينظر إليها. كان جالسًا، وقد وضع ساقًا على ساق، يأكل الجوز ويكسره بفرقة عالية، حتى بدا كأنه يطلق النار من مسدس.

وها هو ذا العجوز تسيوكين نفسه يخرج إلى وسط الحلبة ويلوح بمنديله مشيرًا إلى أنه هو أيضًا يريد أن يرقص الرقصة الروسية، فانداح في المنزل كله وفي الفناء وسط الحشد هدير استحسان:

- هو ذاته خرج! ذاته!

فارفارا هي التي رقصت، أما العجوز فكان يلوح بالمنديل فحسب ويحرك كعبه، ولكن أولئك الذين جثم بعضهم فوق بعض في الفناء وهم يطلون في

النوافذ كانوا فى غاية الإعجاب، وللحظة غفروا له كل شىء: ثراءه وإهاناته لهم.

وسمعت أصوات فى الجشد:

- جدع يا جريجورى بتروف! هكذا، اجتهد! إذن فما زلت قادرًا بعد! ها.. ها!

وانتهى كل ذلك فى وقت متأخر، والساعة تدور فى الثانية. وقر أنيسيم على المنشدين والعازفين مودعا وهو يترنح وأهدى كلا منهم نصف روبل جديدًا. أما العجوز فلم يكن يترنح، ولكنه كان يخطو على ساق واحدة وهو يودع الضيوف ويقول لكل منهم:

- العرس تكلف ألفين.

وبينما كانوا ينصرفون أخذ شخص ما معطف صاحب حانة شيكالوفوف الجديد وترك له معطفه القديم فانفجر أنيسيم فجأة وراح يصرخ:

- قف! سأجده حلالاً! أنا أعرف من سرق! قف!

واندفع إلى الخارج وطارد شخصًا ما. ولكنهم أمسكوا به واقتادوه من إبطيه إلى المنزل ودفعوه ثملًا، متضرجا من الغضب، مبللا، إلى الغرفة التى كانت الخالة تنزع فيها الثياب عن لييا، وأوصدوا الباب.

٤

مرت خمسة أيام. وصعد أنيسيم، الذى كان يستعد للسفر، إلى غرفة فارفارا لكى يودعها. كانت جميع القناديل لديها مشتعلة، وفاحت رائحة البخور، أما هى فكانت جالسة بجوار النافذة تحوك جوربا من صوف أحمر.

وقالت:

- لم تبق معنا كثيرًا. تراك مللت؟ أوه.. هوه.. هوه.. إننا نعيش عيشة طيبة، كل شيء لدينا كثير، وأقمنا عرسك كما يجب، مضبوط. قال العجوز تكلف ألفين. وباختصار نعيش كالتجار لكن الحياة مملة عندنا. وكم نوذى الناس. قلبى يؤلمنى يا صاحبى، من أذيتنا للناس، يا إلهى! وسواء استبدلنا حصانًا، أو اشترينا شيئًا، أو استأجرنا عاملاً.. فكله قائم على الخداع. الخداع ثم الخداع. الزيت فى الدكان مر، عطن، حتى القطران عند الناس أفضل منه. هلا قلت لى من فضلك، ألا يمكن أن نبيع زيتنا جيدًا؟

- كل واحد وله وظيفته يا نينة.

- ولكن الموت قريب! آه، آه! هلا تحدثت مع أهلك!

- هلا تحدثت أنت معه.

- طيب، طيب. أقول له ذلك فيجيبني مثلما تقول بالحرف: كل واحد وله وظيفته. أنتظن أنهم سيبحثون يوم القيامة فى وظيفة كل واحد؟ إن حساب الله عادل.

- بالطبع لن يبحث أحد فى شيء قال أنيسيم وتنهذ - الله على أى حال غير موجود يا نينة. فأى بحث إذن!

تطلعت إليه فارفارا بدهشة، ثم ضحكت وأشاحت بيديها. ولأنها أبدت هذه الدهشة الصادقة من كلماته وتطلعت إليه وكأنه شاذ الأطوار، فقد أحس بالخجل.

وقال:

- ربما كان الله موجودًا، ولكن ليس هناك إيمان. عندما كللوني فى الكنيسة تملكنى انقباض شديد. مثلما تمد يدك أحيانًا لتأخذ بيضة من تحت الدجاجة فإذا فيها كتكوت يصيح، هكذا صاح ضميرى فجأة، وطوال فترة التكليل كنت أفكر: الله موجود! ثم خرجت من الكنيسة وإذا لا شيء. ومن أين لى أن أعرف هل الله موجود أو لا؟ علمونا غير ذلك منذ الصغر. الصغير وهو لا

يزال يرضع أمه يعلمونه شيئًا واحدًا: كل واحد وله وظيفته. أبى أيضًا لا يؤمن بالله. لقد قلت لى ذات مرة أنهم سرقوا خرفان آل جونتوريف.. لقد وجدت السارق. سرقها فلاح من شيكالوفو. الفلاح سرقها أما جلودها فعند أبى.. أرايت إذن الإيمان!

غمز أنيسيم بعينه وهز رأسه. ومضى يقول:

- وشيخ الناحية أيضًا لا يؤمن بالله، والكاتب أيضًا، والشماس أيضًا. وإذا كانوا يترددون على الكنيسة ويصومون فما ذلك إلا لكى لا يقول عليهم الناس بسوء، وتحوطا، إذ ربما يأتى حقا يوم الحساب. والآن يقال إن يوم القيامة قد جاء لأن الناس ضعفوا ولا يحترمون آباءهم وخلافه. هذا كلام فارغ. أما أنا، يا نينة، فأرى أن البلوى كلها سببها قلة الضمير عند الناس. أنا أرى خبايا الأمور، يا نينة، وأفهم. إذا كان الشخص يرتدى قميصًا مسروقًا، أرى ذلك. يجلس الشخص فى الحانة فيخيل إليك أنه يشرب الشاي فقط، أما أنا فأرى، غير الشاي، إنه عديم الضمير. وهكذا تسير طوال اليوم فلا ترى إنسانًا ذا ضمير. والسبب كله أنهم لا يعرفون هل الله موجود أو لا.. حسنًا يا نينة، الوداع. عيشى طويلًا وفى عافية. ولا تذكرينى بسوء.

وانحنى أنيسيم لفارفار حتى الأرض. وقال:

- نشكرك على كل شيء. أنت تعودين على أسرتنا بفائدة كبيرة. أنت امرأة محترمة جدًا. أنا ممتن لك كثيرًا. وخرج أنيسيم المتأثر، ولكنه عاد ثانية وقال:

- لقد ورطنى سامورودوف فى أحد الأعمال، فإما أن أصبح غنيًا وإما أن أهلك. فإذا حدث لى شيء فأرجوك يا نينة أن تعزى أبى.

- لا تقل ذلك! ما هذا! أوه!، هوه!، هو.. رحمة الله عليك. ولكن هلا لاطفت زوجتك يا أنيسيم، أوه!، هو، فإنى أراكما دائمًا عابسين. حقا، اضحكا مرة على الأقل.

فقال أنيسيم متنهداً:

- نعم، إنها غريبة.. لا تفهم شيئاً وتصمت طول الوقت. ما زالت صغيرة جداً، فلتكبر.

إلى جوار الدرج كان يقف مهر عال، شبعان، أبيض، مشدود إلى العربة. وركض العجوز تسيوكين وقفز بفتوة وأمسك باللجام. وتبادل أنيسيم القبلات مع فارفارا وأكسينيا وأخيه. وعلى الدرج وقفت ليا أيضاً، وقفت جامدة، تحديق جانباً، كأنما لم تخرج للوداع بل هكذا لسبب غير معروف. اقترب منها أنيسيم ومس بشفتيه خدها مساً خفيفاً. وقال:

- وداعاً.

فابتسمت ابتسامة غريبة دون أن تنظر إليه. وارتعش وجهها، ولسبب ما أحس الجميع بالراء لها. وقفز أنيسيم أيضاً إلى العربة وذراعه في خصره إذ كان يعتبر نفسه جميلاً.

حين صعدا من الخور إلى أعلى كان أنيسيم يتلفت إلى الوراء، إلى القرية. كان يوماً دافئاً صحواً. ولأول مرة بعد الشتاء أخرجوا الماشية من الحظائر، فسارت الفتيات والنساء بجوار القطيع مرتديات ثياب العيد. وخار ثور بنى فرحاً بالحرية وحفر الأرض بقائمتيه الأماميتين. وفي كل مكان، في الأعلى وفي الأسفل، صدحت القبرات. وتطلع أنيسيم إلى الكنيسة الممشوقة البيضاء. فقد بيضوها حديثاً. وتذكر كيف صلى فيها منذ خمسة أيام. وتطلع إلى المدرسة ذات السطح الأخضر، وإلى النهر، الذي سبغ فيه في وقت ما واصطاد السمك، فتحركت الفرحة في قلبه، وود لو برز حائط من سطح الأرض فجأة ومنعه من المضي قدماً، فبقى مع الماضي وحده.

في المحطة ذهباً إلى البوفيه وشرب كل منهما كأس «خيريس». ومد العجوز يده في جيبه ليخرج المحفظة كي يدفع الحساب.

فقال أنيسيم:

- أنت ضيفي!

فربت العجوز على كتفه بتأثر وغمز بعينه لعامل البوفيه:

انظر أى ابن لذى!

وقال له:

- لو بقيت يا أنيسيم لدينا تمارس عملنا لما كان لك نظير! ولأغرقتك ذهبًا من رأسك إلى قدميك.

- مستحيل يا أبت.

كان النبيذ حامضًا قليلًا وفاحت منه رائحة شمع التغليف، ولكنهما شربا كأسًا أخرى.

عندما عاد العجوز من المحطة لم يتعرف للوهلة الأولى على كتته الصغرى. فما إن رحل أنيسيم عن الفناء حتى تغيرت لييا، وأصبحت فجأة مرحة. كانت تغسل درج المدخل، حافية، فى جولة قديمة، مشمرة عن ساعديها، وهى تغنى بصوت فضى رفيع، وعندما حملت وعاء الماء القذر الكبير إلى الخارج ونظرت إلى الشمس وهى تبسم ابتسامتها الطفولية بدا وكأنها هى أيضًا قبرة.

وهز عامل عجوز كان مارًا بجوار الدرج رأسه وتنحنح، وقال:

- يا لهن من كنات رزقك الله بهن يا جريجورى بتروف! لسن نساء بل كنوزًا حقيقية!

٥

فى الثامن من يوليو، يوم الجمعة، كان بليزاروف، الشهير بالعكاز، ولييا عائدتين من قرية كازانسكويه، التى ذهبا إليها للزيارة بمناسبة عيد راعية المعبد

عذراء كازان. وعلى مسافة بعيدة خلفهما سارت براسكوفيا، أم ليليا، التي كانت تتخلف دائمًا لمرضها ولهاثها. كان الوقت يقترب من المساء.

وقال العكاز بدهشة وهو يستمع إلى ليليا:

- آه! .. آ-آ.. وبعدين؟

فمضت ليليا تقول:

- إننى يا إيليا مكاريتش أحب المربى جدًا. أجلس وحدى فى الركن وأظل أشرب الشاي بالمربى. أو أشرب مع فارفارا نيكولايفنا وهى تحكى لى شيئًا مؤثرًا. عندها مربى كثيرة، أربعة برطمانات. تقول لى: «كلى يا ليليا ولا يهلك».

- آه! .. أربعة برطمانات!

- يعيشون فى رغد. شاي بالخبز الأبيض. ولحم البقر أيضًا بقدر ما تريد. يعيشون فى رغد، ولكن الحياة مخيفة بينهم يا إيليا مكاريتش، مخيفة جدًا!

- ما الذى يخيفك يا بنيتى؟

- سأل العكاز ونظر إلى الوراء ليرى هل تخلفت براسكوفيا كثيرًا.

- فى البداية، بعد حفلة العرس، خفت من أنيسيم جريجوريتش. لم يفعل بى شيئًا، لم يؤذنى، ولكن ما إن يقترب منى حتى يقشعر جلدى، وعظامى كلها تقشعر. لم أنم ليلة واحدة، كنت طوال الوقت أرتعش وأصلى للرب. والآن أخاف من أكسينيا يا إيليا مكاريتش. لم تفعل بى شيئًا، فقط تضحك منى، ولكن أحيانًا تطل من النافذة، وعيناها غاضبتان، خضراوان تلمعان، كعيني النعجة فى المعلف. آل خريمين الأصغر يغفونها. يقولون لها: «عند عجوزكم قطعة أرض فى بوتويكينو، حوالى أربعين ديساتينا، فيها رمل وماء، هيا يا أكسيوشا ابنى لك مصنع طوب وسنشارك فيه». الطوب الآن الألف بعشرين روبلا. عمل رائج. وبالأمر قالت أكسينيا للعجوز أثناء الغداء: «أنا أريد أن أبنى مصنع

طوب فى بوتيو كينو، أريد أن أصبح تاجرة مستقلة». قالت ذلك وضحكت.
أما جريجورى بتروفتش فقد اريد وجهه، يبدو أن ذلك لم يعجبه. وقال لها:
«طالما أنا حى فلا يصح أن نفرق، ينبغي أن نكون معاً».

فلمعت عيناها كالبرق، وصرت أسنانها.. وعندما قدموا الرقيق المقلى
لم تأكل!

.. آه! ..

- دهش العكاز.

- لم تأكل!

فاستطردت ليلاً:

- وهل تقول لى لو تكرمت متى تنام! تنام نصف ساعة ثم تقفز ناهضة،
وتروح وتجىء، وتتلصص: ألم يحرق الفلاحون شيئاً؟ ألم يسرقوا شيئاً..
العيشة معها رهية يا إيليا مكاريتش! أما آك خريمين الأصغر فلم يناموا بعد
العرس، بل ذهبوا إلى المدينة ليتقاضوا. والناس يثرثرون بأن ذلك من تحت
رأس أكسينيا. اثنان من الإخوة وعداها ببناء المصنع، ولكن الثالث غضب.
والفابريكة توقفت شهراً، وخاليروخور، المتعطل عن العمل، كان يجمع
الفتات من الأفنية. أقول له هلا ذهبت يا خالى فحرثت الأرض أو قطعت
الحطب مؤقتاً، لا داعى للفضيحة! فيقول لى: «بعدت أنا عن العمل الفلاحى،
لم أعد أجيد شيئاً يا لينكا!..»

وتوقفا بجوار غيضة حور رجراج فنى ليستريحا وينتظرا براسكوفيا. كان
يليزاروف مقاولاً منذ زمن طويل، ولكن لم يكن لديه حصان فكان يجوب
الإقليم سيراً على الأقدام وليس معه إلا كيس فيه خبز وبصل. فكان يسير
بخطوات واسعة ويلوح بذراعيه. وكان من الصعب مجاراته فى السير.

عند مدخل الغيضة انتصب عمود حدود الأراضى. فتحسسه يليزاروف

ليختبر متانته. وجاءت براسكوفيا وهى تلهث. وتهلل بالسعادة وجهها المغضن، المذعور دومًا: لقد كانت اليوم فى الكنيسة مثل الناس، ثم ذهبت إلى السوق، وشربت هناك منقوع الكمثرى! كان نادرًا ما يقع لها ذلك حتى إنه خيل إليها الآن أنها تستمتع بحياتها لأول مرة هذا اليوم. ونهضوا ثلاثتهم بعد أن استراحوا وساروا متجاورين. كانت الشمس قد أوشكت على الغروب، وتسلفت أشعتها عبر الغيضة وأضاءت جذوع الأشجار. وفى الأمام ترددت أصوات داوية. كانت فتيات أو كليفو قد سبقن منذ وقت طويل ولكنهن توقفن هنا فى الغيضة، يبدو لجمع الفطر.

وصاح يلزاروف:

- هيه يا بنـ... ات! هيه يا حلوات!

وسمعوا ضحكًا:

- العكاز قادم! العكاز! الشيطان العجوز!

وضحك الصدى أيضًا. وها هى ذى الغيضة قد أصبحت خلفهم. وظهرت قمم مداخن الفبارك، ولمع الصليب على برج الكنيسة. كانت تلك هى القرية، «نفس القرية التى أكل فيها الشماس فى المأتم كل الكافيار». هاهم أولاء قد وصلوا تقريبًا.. لم يبق إلا النزول إلى ذلك الخور الكبير. جلست ليا وبراسكوفيا، اللتان كانتا تسيران حافيتين، على العشب لارتداء الأحذية. وجلس معهما المقاول. ولو نظرت من أعلى لبدت أو كليفو بصفافها وكنيستها البيضاء ونهرها جميلة هادئة لا يفسدها إلا أسقف الفبارك المطلية بلون قاتم فظيع من باب التوفير. وعلى الجانب الآخر، عند المنحدر ظهر الجودار أكواما وأجرانا هنا وهناك، وكأنما بعثرته العاصفة، وكذلك الجودار المحصور لتوه صفوفًا. ونضج الشوفان أيضًا فأصبح الآن يتموج بالألوان فى ضوء الشمس كالصدف. كان أوان موسم الحصاد. اليوم عيد، وغدًا، السبت سيجمعون الجودار وينقلون الدريس، وبعد ذلك الأحد، سيكون عيد مرة

أخرى. كان الرعد البعيد يقرع كل يوم، وكان الجو حارًا رطبًا، وبدأ أن المطر سيسقط، وكان كل من ينظر إلى الحقل الآن يفكر في أن يهبهم الله الفرصة لجمع المحصول، وكانت النفوس مبتهجة فرحة بل وقلقة.

وقالت براسكوفيا:

- الحصادون الآن أسعارهم عالية. بروبل وأربعين كويكا في اليوم!

وكان الناس يتقاطرون بلا انقطاع قادمين من سوق كازانسكويه. نساء، وعمال مصانع في عمرات جديدة، وشحاذون وأطفال.. وتارة تمر عربة مثيرة الغبار، ومن خلفها يجرى حصان لم يُبع وكأنه سعيد لأنهم لم يبيعوه، وتارة يسحبون بقرة من قرونها، بينما تحرن، وتارة عربة أخرى وفيها فلاحون سكارى يدلون منها سيقانهم. وقادت امرأة عجوز صبيًا في طاقة كبيرة وحذاء كبير. وكان الصبي مرهقًا من الحر والحذاء الثقيل الذي كان يمنع ساقه من الانثناء عند الركبتين، ولكنه سار، وهو ينفخ بكل قواه ودون انقطاع في بوق صغير. وهبطوا إلى أسفل وانعطفوا إلى الشارع بينما كان صوت البوق لا يزال مسموعًا.

وقال يليزاروف:

- صناعونا ناثرون لسبب ما. يا للمصيبة! غضب كوستيو كوف منى. قال: «استهلكتم ألواحًا كثيرة في عمل الأفاريز». ما معنى كثيرة؟ - قلت له - استهلكنا يا فاسيلي دانيليتش بالقدر المطلوب. إننى لا أكلها مع العصيدة، هذه الألواح. فقال: «كيف تجرؤ على توجيه هذه الكلمات لى؟ يا مغفل، يا بليد! اعرف قدرك! - وصرخ - أنا الذى جعلت منك مقاولاً» فقلت له: يا سلام، شئ عظيم! عندما لم أكن مقاولاً كنت مع ذلك أشرب الشاي كل يوم. فقال: «كلكم محتالون».. فسكت. وقلت لنفسى: نحن محتالون فى هذه الدنيا، وأنتم ستكونون محتالين فى الآخرة. ها.. ها.. ها! وفى اليوم التالى هدأت ناثرتة. قال لى: «لا تغضب منى يا مكاريتش على ما قلته لك. لو كنت

قلت شيئًا زائدًا فلا بأس، أنا تاجر من الطبقة الأولى، أكبر منك، ومن واجبك أن نسكت». فقلت له: أنت تاجر من الطبقة الأولى وأنا نجار، هذا مضبوط. ويوسف القديس كان أيضًا نجارًا. إن عملنا ورع، يرضى عنه الله، أما إذا كنت تريد أن تكون أكبر فتفضل يا فاسيلي دانييلتش. وبعد ذلك، بعد هذا الحديث يعني فكرت:

من الأكبر؟ التاجر من الطبقة الأولى أم النجار؟ هو النجار يا أبنائي!
وفكر العكاز ثم أضاف:

- هو كذلك يا أبنائي. من يعمل، من يتحمل فهو الأكبر.

غربت الشمس، وتصاعد ضباب كثيف أبيض كاللبن فوق النهر وفي باحة الكنيسة وفي الفسحات المحيطة بالفبارك. والآن، عندما زحفت الظلمة بسرعة، وومضت الأضواء في الأسفل، وعندما بدا أن الضباب يخفى تحته هوة سحيقة، ربما خيل للبا وأمه، اللتين ولدتا شحاذتين وكانتا على استعداد للعيش هكذا حتى النهاية، ولتقديم كل ما لديهما للغير ما عدا روحيهما المذعورتين الوديعتين.. ربما خيل إليهما للحظة أنهما هما أيضًا قوة في هذا العالم الهائل الغامض، ضمن الأعداد اللانهائية من الأرواح، وأنهما أكبر من أشخاص ما. كانتا تشعران بالراحة وهما جالستان هنا في الأعلى، وابتسمتا بسعادة، ونسيتا أنه لا بد مع ذلك من العودة إلى أسفل.

وأخيرًا عادوا إلى البيت. كان الحصادون جالسين على الأرض عند البوابة وقرب الدكان. وفي العادة لم يكن حصادو أوكليفو يذهبون للعمل عند تسيبوكين، فيضطر إلى استئجار الغرباء، فبدا الآن في العتمة أن الجالسين مجرد أشخاص ذوي لحى طويلة سوداء. كان الدكان مفتوحًا وظهر الأطرش من الباب وهو يلعب صبيًا الضامة. وغنى الحصادون بصوت خافت لا يكاد يسمع أو كانوا يبالغون عاليًا بنقدهم أجرهم عن يوم الأمس ولكن لم يدفعوا لهم حتى لا ينصرفوا قبل الغد. وكان العجوز تسيبوكين بلا سترة، في

الصديري، يشرب الشاي مع أكسينيا قرب المدخل تحت شجرة بتولا. وعلى المائدة اشتعل مصباح.

ونادي حصاد من وراء البوابة وكأنه يشاكسه:

- يا جدو. ادفع ولو النصف. يا جدو.

وعلى الفور تردد ضحكك، ثم عادوا يغنون بصوت لا يكاد يسمع.. وجلس العكاز ليشرب الشاي أيضًا.

وشرع يتحدث:

- ذهبنا إذن للسوق. تفسحنا يا أبنائي، تفسحنا جيدًا جدًا، الحمد لك يا رب. ووقعت حادثة سيئة. اشترى الحداد ساشكا تبغًا وأعطى للتاجر نصف روبل. وإذا بنصف الروبل مزيف - قال العكاز وتلفت حوله. كان يريد أن يتحدث همسًا ولكنه تحدث بصوت مكتوم مبحوح سمعه الجميع: وإذا بنصف الروبل مزيف. سألوه: من أين أخذته؟ فقال: أعطاه لي أنيسيم تسيبوكين. عندما حضرت حفل زواجه.. واستدعوا الشرطي، وأخذوه.. احذروا بتروفيتش وإلا وقع سوء..

وتردد ثانية نفس الصوت المشاكس:

- يا جدو! يا جدو!

وساد الصمت.

- آه يا أبنائي، يا أبنائي، يا أبنائي.. - دمدم العكاز بسرعة ثم نهض، فقد تملكه النعاس.. طيب، شكرًا على الشاي والسكر يا أبنائي. حان وقت النوم. أصبحت خائراً، نخر السوس كل عوارضي. ها.. ها.. ها!

وقال وهو ينصرف:

- يبدو أنه آن أن أموت!

وشهق. أما العجوز تسيو كين فلم يكمل شرب الشاي، ولكنه ظل جالسًا يفكر. وبدأ على وجهه كأنما كان ينصت لخطوات العكاز الذي أصبح بعيدًا. وقالت أكسينيا وقد فطنت إلى ما يفكر فيه:

- ربما كان ساشكا الحداد كاذبًا.

دخل العجوز الدار ثم عاد بعد قليل بصرة. وعندما فكها برقت روبلات جديدة تمامًا. وأخذ واحدًا منها واختبره بأسنانه ثم ألقاه على الصينية. ثم ألقى بآخر..

- الروبلات فعلاً مزيفة - دمدم وهو ينظر إلى أكسينيا كأنما متعجبًا - إنها تلك.. التي أحضرها أنيسيم آنذاك، هديته - ثم قال هامسًا وهو يدس الصرة في يديها - خذوها يا بنتي، خذوها وارميها في البثر.. في داهية! واحذري أن يعلم أحد. وإلا وقع سوء.. احملي السماور، أطفئي النور..

رأت ليا وبراسكوفيا الجالستان في الحظيرة كيف انطفأت الأنوار واحدًا تلو الآخر، ولم تشتعل إلا القناديل الزرقاء والحمراء عند فارفارا في الطابق العلوي، وتناهدت من هناك السكينة والرضا واللامعرفة. لم تستطع براسكوفيا أبداً أن تتعود على فكرة أن ابنتها متزوجة من غني، وعندما كانت تأتي لزيارتها تنكمش بوجل في المدخل وتبتسم باستجداء فيرسلون إليها الشاي والسكر. ولم تستطع ليا أيضًا أن تتعود، وبعد أن سافر زوجها لم تعد تنام في سريرها بل حيثما كان، في المطبخ أو في الحظيرة، وكل يوم تمسح الأرضية أو تغسل الملابس، وخيل إليها أنها تعمل بالمياومة. والآن، بعد عودتهما من الزيارة جلستا في المطبخ تشربان الشاي مع الطاهية، ثم ذهبتا إلى الحظيرة ورقدتا على الأرض بين الزحافة والحائط. كان المكان هنا مظلمًا وفاحت رائحة النيور. وانطفأت الأنوار بقرب المنزل، ثم ترددت جلبة الأطرش وهو يغلق الدكان وهسيس الحصادين وهم يستعدون للنوم على

أرض الفناء. وبعيداً عند آل خريمين الأصغر عزفوا على أكورديون ثمين..
ونعست براسكوفيا وليا..

وعندما أيقظتهما خطوات ما كان المكان مضيئاً من نور القمر. كانت أكسينيا
واقفة في الباب وفي يديها فراش.

- أظن هنا أبرد... - دمدت ثم دخلت فرقدت قرب العتبة تماماً، وأضاءها
القمر كلها -

لم تنم وظلت تزفر زفرات ثقيلة وهي تتلململ من الحر، وطوحت عن
جسدها كل شيء تقريباً.. وفي ضوء القمر الساحر كم كان جميلاً وأيضاً هذا
الحيوان! ومر بعض الوقت ثم ترددت خطوات مرة أخرى. كان العجوز يقف
في الباب، أبيض كله.

ونادى:

- أكسينيا، هل أنت هنا؟

فأجابت بغضب:

- وماذا؟

- لقد قلت لك من فترة أن ترمى النقود في البئر. هل رميتها؟

- وهل تريدني أن أرمى الخير في الماء! لقد أعطيتها للحصادين..

- يا إلهي، يا إلهي! - دمد العجوز في ذهول ورعب - يا لك من امرأة
شقية.. آه يا إلهي!

أشاح يديه وانصرف وظل طوال ابتعاده يدمدم بشيء ما. وبعد ذلك بفترة
نهضت أكسينيا فجلست وزفرت زفرة ثقيلة وبأسى، ثم قامت وجمعت الفراش
تحت إبطها وذهبت.

وتمتمت ليا:

- لماذا زوجتني هنا يا أماء!

- الزواج ضرورى يا بنتى. ولسنا نحن الذين ابتدعنا هذه الأمور.

كان الإحساس بالأسى الذى لا عزاء له على وشك أن يستولى عليهما. ولكن خيل إليهما أن أحداً ينظر إليهما من علياء السماء، من زرقتهما، من هناك حيث النجوم، ويرى كل ما يحدث فى أو كليفو ويراقب. ومهما كان الشر عظيمًا فالليلة مع ذلك هادئة رائعة، والحقيقة فى دنیا الله رغم ذلك موجودة وستبقى موجودة، بهذا الهدوء والجمال، وكل ما على الأرض فى انتظار أن يتحد بالحقيقة كما تتحد أشعة القمر بالليل.

وإذ هدا أنا نامتا، وقد التصقت إحداهما بالأخرى.

٦

علموا منذ فترة طويلة بنأ القبض على أنيسيم وسجنه بتهمة تزيف النقود وترويج العملات المزيفة. ومرت أشهر، مر أكثر من نصف عام، وانقضى الشتاء الطويل وحل الربيع وتعود الجميع، فى المنزل وفى القرية على وجود أنيسيم فى السجن. وعندما كان أحد ما يمر ليلاً بجوار المنزل أو الدكان كانوا يتذكرون أن أنيسيم فى السجن. وعندما يتردد رنين الأجراس عند المدافن كانوا أيضًا لسبب ما يتذكرون أنه فى السجن ينتظر المحاكمة.

وبدا كأن ظلاً ارتمى على الدار. فقد أصبح المنزل داكناً، وصدئ السطح، أما باب الدكان المصفح بالحديد الثقيل والمطلى باللون الأخضر فقد تجعد أو كما قال الأطرش: «تكرمش». وحتى المعجوز تسيو كين نفسه بدا كأنما أصبح داكناً. كف منذ وقت طويل عن قص شعره ولحيته فاستطالت، ولم يعد يجلس فى العربة قفراً، ولا يصرخ بالشحاذين:

«الله يسهل لك!» وأخذت قوته تتدهور، وظهر ذلك واضحاً فى كل شىء.

وأصبح الناس يخشونه أقل من ذي قبل، وحرر له الشرطى محضراً فى الدكان رغم أنه كان يتلقى نصيبه كما فى السابق. واستدعوه ثلاث مرات إلى المدينة لمحاكمته على الاتجار سراً فى الخمور، فكانت القضية تتأجل باستمرار لعدم حضور الشهود، وأرهب العجوز.

كان يسافر إلى ابنه كثيراً، ويستأجر أشخاصاً ما، ويرفع التماسات لأشخاص ما، وتبرع بقماش بيرق لكنيسة ما. وقدم لحارس السجن الذى كان فيه أنيسيم حاملاً فضياً لكوب منقوشاً عليه «الروح تعرف حدودها» وملعقة طويلة. وكانت فارفارا تقول:

- لا يوجد من يسعى من أجله بحق، أوه.. هوه.. هو.. لو تطلب من أحد السادة أن يكتب إلى المسؤولين الكبار.. لو يطلقوا سراحه لحين المحاكمة على الأقل!

ما الداعى لتعذيب الفتى!

كانت هى أيضاً حزينة، لكنها سمنت وابتضت، وكانت تشعل القناديل فى غرفتها كما فى السابق وتراعى أن يكون كل شىء فى المنزل نظيفاً، وتقدم للضيوف المربى وباستيليا التفاح. وكان الأطرش وأكسينيا يعملان فى الدكان. وافتحوا مشروعاً جديداً - مصنعاً للطوب فى بوتيو كينو، فكانت أكسينيا تسافر إلى هناك كل يوم تقريباً بالعربة. كانت تقودها بنفسها، وعندما تقابل أحد المعارف تمط عنقها، كالأفعى فى الجودار الفتى، وتبتسم بسذاجة وغموض، أما ليا فكانت تلعب طول الوقت مع ابنها الذى ولد قبيل الصيام. كان طفلاً صغيراً، هزلاً، يثير الشفقة، وكان من الغريب أنه يصرخ وينظر وأنهم يعتبرونه إنساناً، بل يسمونه نيكيفور. كان يرقد فى مهده، بينما تمضى ليا إلى الباب ثم تقول من هناك وهى تنحنى:

- مرحباً يا نيكيفور أنيسيميتش!

ثم تركض نحوه باندفاع وتقبله. وتعود إلى الباب وتنحنى وتقول مرة أخرى:

- مرحبًا يا نيكيفور أنيسيميتش!

فكان يرفع ساقيه الحمراءوين ويختلط بكأؤه بالضحك مثل النجار يليزاروف.

وأخيرًا تحدد يوم المحاكمة. وسافر العجوز قبل ذلك بخمسة أيام. ثم قيل إن الفلاحين قد سيقوا من القرية للإدلاء بالشهادة. ورحل أيضًا العامل العجوز الذى تلقى هو الآخر استدعاء.

كانت المحاكمة يوم الخميس، ولكن مر الأحد ولم يعد العجوز ولم تصلهم عنه أية أخبار. وفى يوم الثلاثاء، قبيل المساء، جلست فارفارا أمام النافذة المفتوحة تصيح إذ ربما يأتى العجوز. وفى الغرفة المجاورة كانت ليا تلعب مع ابنها. كانت تقذف به وتلقاه على ذراعها وتقول بإعجاب:

- ستكبر وتصبح كبيرًا كبيرًا. وستصبح فلاحًا ونذهب معًا للمياومة! سنذهب للمياومة!

فقالت فارفارا باحتجاج:

- إخص! ما هذه المياومة التى تفكرين فيها يا مغفلة؟ سيصبح ابننا تاجرًا!..

وغنّت ليا بصوت خافت، ولكنها نسيت نفسها بعد قليل وقالت ثانية:

- ستكبر وتصبح كبيرًا كبيرًا، ستصبح فلاحًا، وسنذهب معًا إلى المياومة.
- إخص، كفاك!

فوقفت ليا فى الباب ونيكيفور على ذراعها وسألت:

- لماذا أحبه هكذا يا نينة؟ لماذا أشفق عليه هكذا؟ - واستطردت تقول

بصوت متهدج واغرورقت عيناها بالدموع - من هو؟ وكيف يبدو؟ إنه خفيف كالريشة، كالوبرة، ولكنى أحبه، أحبه كأنه إنسان حقيقى. ها هو ذا لا يقدر على شيء، ولا يتكلم، ولكنى أفهم من عينيه الصغيرتين كل ما يريد.

وأصاغت فارفارا السمع، فقد تناهى دوى قطار المساء القادم إلى المحطة. ألم يصل العجوز؟ ولم تعد تسمع أو تفهم ما تقوله لييا، ولا تذكر كيف يمضى الوقت، بل كانت ترتعش كلها، لا بسبب الخوف بل من شدة الفضول. ورأت عربة تمر بسرعة وجلبة، محملة بالفلاحين. كانوا الشهود العائدين من المحطة. وعندما مرت العربة أمام الدكان قفز منها العامل العجوز وتوجه إلى الدار. وتناهت من الفناء أصوات تسلم عليه وتسأله عن شيء ما..

فقال بصوت عال: - مصادرة الحقوق وجميع الأملاك، ثم النفى إلى سيبيريا، أشغال شاقة لست سنوات.

وظهرت أكسينيا وهى تخرج من الباب الخلفى للدكان. فرغت لثوها من صب الكيروسين فكانت ممسكة فى إحدى يديها بزجاجة وفى الأخرى بقمع، وفى فمها بنقود فضية.

وسألت بثأثة:

- وأين بابا؟

فأجاب العامل:

- فى المحطة. قال: «سأعود عندما تظلم الدنيا». وعندما علموا فى الدار أن أنيسيم قد حكم عليه بالأشغال الشاقة أعولت الطاهية فى المطبخ فجأة كأنما على ميت، معتقدة أن ذلك ما تقتضيه الأصول:

- لمن تركتنا يا أنيسيم جريجوريتش، يا صقرنا الغالى..

ونبحت الكلاب المتزعجة. وهرعت فارفارا إلى النافذة وقد تملكتهما الوحشة وأخذت تصرخ فى الطاهية مستجمعة صوتهما بكل قواها:

- كفاك يا ستيانيدا، كفاك! لا تعذيني بحق المسيح!

ونسوا إشعال السماور، ولم تعد لديهم قدرة على التفكير. لييا وحدها هي التي لم تستطع أبدا أن تفهم ماذا حدث وواصلت لهوها مع الطفل.

وعندما جاء العجوز من المحطة لم يسأله أحد عن شيء. سلم، ثم طاف بجميع الغرف في صمت، ولم يتناول العشاء.

ولما جلسا معا بدأت فارفارا تقول:

- ليس هناك من يسعى.. ألم أقل لك أن تطلب من السادة، ولكنك لم تطاوعني؟.. لو التماس..

- بل سعيت! - قال العجوز ثم أشاح بيده - ما إن حكموا على أنيسيم حتى هرعت إلى ذلك السيد الذي كان يحامى عنه، فقال: «لا أستطيع أن أفعل شيئا الآن، تأخرت». وأنيسيم أيضا قال: تأخرت. ومع ذلك فما إن خرجت من المحكمة حتى اتفقت مع أحد المحامين، وأعطيته عربونًا.. سأنتظر أسبوعًا ثم أسافر ثانية. الله على كل شيء قدير.

وطاف العجوز ثانية بجميع الغرف في صمت، وعندما عاد إلى فارفارا قال:

- يبدو أنني مريض. في رأسي هذا ضباب. أفكارى مشوشة.

وأغلق الباب حتى لا تسمعه لييا واستطرد بصوت خافت:

- أموري سيئة مع النقود. أتذكرين عندما أعطاني أنيسيم قبيل العرس، في عيد الفصح، روبلات وأنصاف روبلات جديدة؟ ساعتها خبأت صرة، أما بقية النقود فخلطتها بنقودي.. عندما كان عمى دميتري فيلاتيتش، عليه الرحمة، على قيد الحياة، كان يسافر كثيرًا تارة إلى موسكو وتارة إلى القرم لشراء البضائع. وكانت لديه زوجته، وعندما كان يسافر لشراء البضائع كانت هذه الزوجة يعني، تخونه مع الآخرين.

وأنجبت ستة أبناء. وحين يسكر عمى كان يضحك ويقول:

«لا أعرف أبدا أين أبنائي فى هؤلاء وأين أبناء الآخرين». كان دمث الطباع
يعنى. وهكذا أنا الآن لا أعرف أى نقودى الحقيقى وأيها المزيف. ويخيل لى
أنها كلها مزيفة.

- لماذا تقول، اتق الله!

- وأنا أشتري التذكرة فى المحطة دفعت ثلاثة روبلات، وخيل إالى أنها
مزيفة. كم شعرت بالرعب. يبدو أننى مريض - ما العمل، الأعمار بيد الله..
أوه.. هوه.. هو.. - دمدمت فارفارا وهزت رأسها - ينبغى أن تفكر فى ذلك يا
بتروتش.. قد يحدث شىء بين يوم وليلة، فأنت لست شابًا. وإذا مت فربما آذوا
حفيدك من بعدك. أه كم أخشى أن يؤذوا نيكيفور! طبعًا، أبوه اعتبره انتهى، وأمه
صغيرة، عبيطة.. سجل له ولو قطعة الأرض فى بوتوكينو يا بتروتش حقًا..
سجلها باسمه. فكر فى ذلك - مضت فارفارا تقنعه - الصبى لطيف، مسكين!
اذهب غدًا واكتب الورقة. فيم الانتظار؟

فقال تسيوكين:

- حقًا لقد نسيت الحفيد.. ينبغى أن أسلم عليه. تقولين إنه صبى لا بأس
به؟ حسنًا، فليكبّر. على بركة الله.

وفتح الباب وثنى أصبعه داعيًا ليا. فاقتربت منه والصبى على ذراعيها.

وقال لها:

- إذا احتجت شيئًا يا ليا قولى. كلّى ما تشائين، نحن لا نبخل بشىء، المهم
أن تكونى بخير.. ورسم علامة الصليب على الصبى - حافظى على الحفيد.
لم يعد لدى ابن، فليبق لى الحفيد.

وانحدرت الدموع على خديه. وشهق وابتعد. وبعد ذلك بقليل أوى إلى
الفراش فنام نوما عميقًا بعد سبع ليال من السهاد.

سافر العجوز إلى المدينة لمدة قصيرة وعاد. وأخبر شخص ما أكسينيا أنه ذهب إلى مكتب التسجيل ليكتب وصية، وأنه أوصى لحفيده نيكيفور بيوتوكينو، التي كانت أكسينيا تصنع فيها قوالب الطوب المحروق. أخبروها بذلك صباحاً، عندما كان العجوز وفارفارا جالسين قرب الدرج، تحت شجرة البتولا، يشربان الشاي. فأوصدت الدكان من جهة الشارع ومن جهة الفناء، وجمعت كل ما كان لديها من مفاتيح، وقذفت بها تحت قدمي العجوز.

- لن أعمل بعد الآن في خدمتكم! - صاحت بصوت عال وانفجرت في البكاء فجأة - وإذن فأنا لست كنت عندكم بل عاملة! الناس كلهم يضحكون مني. يقولون «انظروا أية عاملة وجدها آل تسيو كين!» أنتم لم تستأجروني! أنا لست شحاذاً ولا وضيعة الأصل، أنا بنت ناس.

ودون أن تمسح دموعها سددت إلى العجوز عيني مليتين بالدموع، حاقدتين، حولوين من الغضب. وكان وجهها ورقبتها أحمرين متوترين إذ كانت تصرخ بكل قواها.

ومضت تقول:

- لا أريد أن أخدمكم أكثر! انهذ حيلى! العمل، والجلوس في الدكان طول النهار، والخروج لبيع الفودكا.. هذا لى، أما إهداء الأرض.. فلهذه الشقية زوجة المجرم وشيطانها الصغير! هى هنا السيدة، المالكة، وأنا خادمتها! أعطها كل شيء، زوجة المجرم هذه، فلتغص به، أما أنا فساذهب إلى بيتنا! هاتوا لكم حمقاء غيرى أيها السفاحون الملاعين!

لم يحدث أبداً أن سب العجوز في حياته أو عاقب أولاده، بل لم تخطر حتى بذهنه فكرة أن يجرؤ أحد من أفراد أسرته على توجيه هذه الكلمات النابية إليه أو معاملته بعدم احترام. ولذلك قد خاف جداً، وهرول إلى الدار، واختبأ

خلف الصوان. أما فارفارا فاستولى عليها الذهول حتى إنها لم تستطع أن تنهض من مكانها، بل أخذت تشيح بكلتا يديها كأنما تحمي نفسها من نحلة ستلدغها.

ودمدمت فى رعب:

- آى، يا ربى ما هذا؟ ما لها تصرخ؟ أوه.. هوه.. هو.. سيسمع الناس! اخفضى صوتك.. اخفضى صوتك!

وواصلت أكسينيا صياحها:

- أعطيتم زوجة المجرم بوتوكينو، ولتعطوها إذن كل شىء، لا أريد منكم شيئاً! فلتذهبوا فى داهية! كلكم عصاية واحدة. كفانى ما رأيته عندكم! نهبتم السائرين والراكبين أيها الأشقياء، نهبتم الصغير والكبير! ومن الذى كان يبيع الفودكا بدون ترخيص؟ والنقود المزيفة؟

ملأنم صناديقكم نقوداً مزيفة، والآن لم تعودوا بحاجة إلى!

تجمع حشد من الناس أمام البوابة المفتوحة على مصراعها وأخذوا يطلون فى الفناء.

وصاحت أكسينيا:

- فلينظر الناس! سأفضحكم! سأجعلكم تحرقون خبزياً! ستركون تحت قدمى - ونادت الأطرش - اسمع يا ستيان! لنذهب حالاً إلى دارنا! لنذهب إلى أبى وأمى، لا أريد أن أعيش مع المجرمين! هيا!

كان الغسيل معلقاً على جبال مشدودة فى الفناء. فراحت تنزع جونلاتها وبلوزاتها، المبللة بعد، وتلقى بها إلى يدي الأطرش. ثم جن جنونها فأخذت تدور فى الفناء حول الغسيل وتنزع كل شىء، وتلقى بما ليس لها على الأرض وتدوسه بقدميها.

وتأوهت فارفارا:

- آه يا ربى ، أمسكوها! ما هذا الذى تفعله؟ أعطوها بوتيو كينو، أعطوها بحق المسيح فى السماء!

وقال الواقفون عند البوابة:

- يا لها من امرأة! أيما امرأة! ما أعنف ثورتها!

واندفعت أكسينيا إلى المطبخ حيث كانوا يغسلون فى تلك اللحظة. كانت لييا هى التى تغسل وحدها، أما الطاهية فذهبت إلى النهر لتشطف الغسيل. وتصادد البخار من الطست والقدر بجوار الموقد، وكان الجو فى المطبخ خائفاً وكابيا من الضباب. وكانت كومة من الملابس القذرة ما تزال على الأرض، ووقد نيكيفور رافعا ساقية الحمرارين على أريكة بجوارها حتى لا يصاب بسوء لو وقع. وفى اللحظة التى دخلت فيها أكسينيا كانت لييا قد استخرجت من الكومة قميص أكسينيا ووضعت فى الطست، ومدت يدها إلى الإبريق الكبير الموضوع على الطاولة والذى كان به ماء يغلى..

- هاتى! - قالت أكسينيا وهى تنظر إليها بكراهية، وشدت القميص من الطست: لا شأن لك بملابسى حتى تلمسيها! أنت زوجة مجرم ويجب أن تعرفى مكانك ومركزك!

نظرت إليها لييا بذهول وعدم فهم، ولكنها لمحت فجأة تلك النظرة التى صوبتها أكسينيا إلى الطفل، وأدركت على الفور معناها فشجبت وتثلجت أطرافها..

- أخذت أَرْضى، فلنأخذى جزاءك!

قالت أكسينيا ذلك والتقطت الإبريق بالماء المغلى ورمت بالماء على نيكيفور.

دوت أثر ذلك صرخة لم تسمع أو كليفو لها مثيلاً من قبل، وكان أمراً لا

يصدق أن مخلوقاً صغيراً وضعيفاً مثل لييا يمكن أن يصرخ هكذا. وفجأة شمل
السكون الغناء.

وذهبت أكسينيا إلى البيت في صمت، بنفس ابتسامتها الساذجة المعهودة..
وظل الأطرش يتمشى في الغناء ضامًا الغسيل إلى صدره، ثم أخذ يعلقه ثانية
في صمت وعلى مهل. وإلى أن عادت الطاهية من النهر لم يجرؤ أحد على
دخول المطبخ لمعرفة ماذا هناك.

٨

ذهبوا بنيكيفور إلى مستشفى الإقليم، وفي المساء توفي هناك. ولم تنتظر
لييا حتى يحضروا ليأخذوها، بل لفت الميت في بطانية صغيرة وحملته عائدة
إلى البيت.

كان المستشفى، الجديد، المبنى مؤخرًا، بنوافذ كبيرة، يقوم فوق تل عال.
ولمعت نوافذه كلها في ضوء الشمس الغاربة فبدأ كأنه يشتعل في الداخل. وفي
الأسفل كانت قرية. هبطت لييا على الطريق، وقبل أن تبلغ القرية جلست عند
بركة صغيرة. وجاءت امرأة ما بحصان لتسقيه، ولكنه لم يشرب.

فقالت المرأة بصوت خافت مستغربة:

- ماذا تريد أيضًا؟ ماذا تريد؟

وجلس صبي في قميص أحمر قرب الماء يغسل حذاء أبيه. ولم يظهر سواه
أحد بتاتا لا في القرية ولا على التل.

وقالت لييا وهي تنظر إلى الحصان:

- لا يشرب..

وهاهي ذى المرأة والصبي بالحذاء في يديه قد انصرفا ولم يعد يرى أحد.

وأوت الشمس إلى النوم وتغطت بوشاح أحمر موشى بالذهب، وامتدت في السماء سحب طويلة، حمراء وبنفسجية تحرس سكينتها. وفي جهة بعيدة، غير معروفة، صاحت واقة بصوت كتيب أصم مثل بقرة محبوسة في حظيرة. كان صياح هذا الطائر الغامض يسمع كل ربيع، ولكن أحدًا لم يعرف كيف يبدو وأين يعيش. وصدحت البلابل عند المستشفى في الأعلى، وفي الخمائل بجوار البركة تمامًا ووراء القرية وفي جميع أنحاء الحقل. ونقنق الوقوق وهو يعد سنوات عمر شخص ما ويخطئ في الحساب فيبدأ من جديد. ونقت الضفادع في البركة بغضب وجهه وهي تتنادى، بل كان يمكن تمييز كلمات: «أنت كذلك! أنت كذلك!» في نقيقتها. يا لها من ضجة! بدا أن كل هذه الدواب تصرخ وتصدح عمداً، لكي لا ينام أحد في هذا المساء الربيعي، يتشبث الجميع، حتى الضفادع الغاضبة، ويستمتعون بكل دقيقة: فالحياة لا تعطى إلا مرة واحدة!

وأضاء في السماء هلال فضي، وكان هناك الكثير من النجوم ولم تذكر ليبا كم من الزمن جلست بجوار البركة، ولكن عندما نهضت ومضت كان الجميع نياماً في القرية ولم يلح ضوء واحد. كانت المسافة إلى الدار حوالي اثني عشر فرسخاً في الغالب، ولكن قواها خارت ولم تعرف إلى أين تمضي. وكان الهلال يلوح نارة أمامها وتارة إلى يمينها، وصاح ذلك الوقوق ولكن بصوت أصبح مبجوحاً وضاحكاً وكأنه يغيظها: احذري، ستضلين الطريق! سارت ليبا بسرعة، وفقدت مندبل رأسها.. وتطلعت إلى السماء وفكرت: ترى أين روح ابنها الآن؟ هل تتبعها أم تحلق هناك في الأعلى، قرب النجوم ولا تفكر بعد في أمها؟ أوه، ما أشد الوحدة في الحقل ليلاً، وسط هذا الغناء! بينما لا تستطيع أن تغني، وسط صيحات الفرح المتصلة، بينما لا تستطيع أن تفرح، وبينما يظل الهلال من السماء، وأيضاً وحيداً، سيان لديه أربيع الآن أم شتاء، وأحياء الناس أم أموات.. عندما تحل بالنفس فاجعة يصبح الأمر قاسياً بدون الناس. لو كانت معها أمها براسكوفيا، أو العكاز، أو الطاهية، أو أي فلاح!

وصاحت الواقة:

- بو..و..بو..و..و..

وفجأة ترددت بوضوح كلمات بشرية:

- سرج يا فافيل!

فى الأمام، بجوار الطريق تمامًا اشتعلت نار.. لم يعد هناك لهب بل أضواء
الجمرات الحمراء وحدها. وتردد مضغ خيول. وفى الظلام لاحت عربتان،
واحدة تحمل برميلًا، والأخرى أقل ارتفاعًا، عليها زكائب، وظهر شخصان:
أحدهما ساق حصانًا ليسرجه، بينما وقف الآخر بجوار النار جامدًا، عاقدًا يديه
خلف ظهره. وزمجر كلب بجوار العربية، فتوقف الذى كان يسوق الحصان
وقال:

- يبدو أن أحدا يسير على الطريق.

وصاح الآخر بالكلب:

- اسكت يا «شاريك»!

ومن الصوت كان من الممكن إدراك أن هذا الشخص الآخر كان عجوزًا.
وتوقفت ليلى وقالت:

- الله يساعد.

فاقترب منها العجوز وأجاب بعد فترة:

- مرحبًا.

- ألن يعضنى كلبك يا جدى؟

- لا تخافى، مرى، لن يمسك.

فصمت ليلى قليلًا ثم قالت:

- أنا كنت فى المستشفى. ولدى مات هناك. وها أنا ذا أعود به إلى البيت.

يبدو أن العجوز انزعج من سماع ذلك فقد ابتعد عنها وتمتم بمجلة:

- لا بأس يا بنيتى. مشيئة الله - وقال ملتفتاً إلى رفيقه - تنبأ يا فتى، هيا أسرع!

فقال الفتى:

- قوس عربتك غير موجود. لا آراه.

- ما أقل حيلتك يا فافىلا!

ورفع العجوز جمرة ونفخ فيها فلم تضى إلا عينيه وأنفه، وبعد أن وجدا القوس اقترب بالنار من ليلى وتطلع إليها. وكانت نظراته تعبر عن الشفقة والرقّة.

وقال لها:

- أنت أم، وكل أم يعز عليها ولدها.

وزفر وهز رأسه إذ قال ذلك. وألقى فافىلا بشيء ما على النار وداسها بقدميه، وعلى الفور أطبقت ظلمة حالكة. اختفت المرثيات، ولم يعد هناك إلا الحقل والسماء كما فى السابق، وضجت الطيور وهى تعوق بعضها بعضاً عن النوم. وبدا كأن السمان يصيح فى ذلك المكان الذى كانت فيه النار.

ولم تمر دقيقة إلا وأصبح من الممكن رؤية العربتين والعجوز وفافىلا الطويل. وصرت العربتان وهما تصعدان إلى الطريق.

وسألت ليلى العجوز:

- هل أنتم قديسون؟

- كلا. نحن من فرسانوفو.

- عندما نظرت إلى منذ قليل لان قلبى . والفتى هادئ. ولهذا فكرت: لابد أنكم قديسون.

- هل تقصدين بعيدا؟

- إلى أوكلينفو.

- اركبى، سنوصلك إلى كوزمنكى. من هناك تمضين إلى الأمام، أما نحن فإلى الشمال.

وجلس فافىلا فى العربة ذات البرميل، وجلس العجوز وليا فى العربة الأخرى. وسارت الخيول بالخطوة العادية وفافىلا فى المقدمة.

وقالت ليا:

- ولدى تعذب طول النهار، كان يحرق بعينه صامتا، يريد أن يتكلم ولا يستطيع. يا إلهى، أيتها العذراء! كنت أسقط وأسقط على الأرض من الفجعة. أقف بجوار سريرى وإذا بى أسقط. هلا قلت لى يا جدى لماذا يتعذب طفل صغير قبيل الموت؟ عندما يتعذب رجل كبير، فلاح أو امرأة، فذلك تكفيراً عن ذنوبه، فلماذا يتعذب الصغير وهو بلا ذنوب؟ لماذا؟

فأجاب العجوز:

- من ذا يعلم!

وساروا نصف ساعة فى صمت. ثم قال العجوز:

- لا يمكن معرفة كل شىء، وكيف ولماذا. الطير مسموح له بجناحين، لا أربعة، لأنه يستطيع أن يطير بانطلاق بجناحين اثنين. وكذلك الإنسان، مسموح له أن يعرف ولكن ليس كل شىء، بل فقط النصف أو الربع. يعرف بالقدر الذى يكفيه لكى يعيش.

- من الأفضل لى يا جدى أن أسير على قدمى. قلبى الآن يتهز.

- لا بأس، ابقي راكبة.

وتثائب العجوز ورسم علامة الصليب على فمه وردد:

- لا بأس.. بلواك نصف بلواى. الحياة طويلة وسيكون فيها الطيب والخبيث، سيكون كل شيء. أمنا روسيا واسعة! - قال العجوز وتلفت إلى كلا الجانبين - أنا كنت فى كل مكان فى روسيا، ورأيت كل شيء فيها، فصدقتى ما أقول يا عزيزتى. سيكون الطيب وسيكون الخبيث. أنا ذهبت إلى سيبيريا سيرا على الأقدام وكنت على ضفاف أمور، وفى الطائى، وهاجرت إلى سيبيريا، وحرثت الأرض هناك، ثم أوحشتنى أمنا روسيا فعدت أدراجى إلى قريتنا. عدنا إلى روسيا سيرا على الأقدام. وأذكر، كنا نركب المعدية، وكنت نحيل، ممزق الملابس تماما حافى القدمين، أرتعش من البرد وأمضغ كسرة. وكان فى المعدية أيضا سيد عابر - عليه الرحمة إن كان قد مات - كان ينظر إلى برثاء ودموعه تسيل. وقال لى: «إيه، خبزك أسود، وأيامك سوداء..». وعندما رجعت إلى البيت كنت كما يقولون «على الحديد». كانت عندى زوجة فبقيت فى سيبيريا، دفناها هناك. وهكذا أعيش أجيرا. وماذا؟ سأقول ذلك: بعد ذلك كان هناك الخبيث وكان هناك الطيب. والآن لا أريد يا عزيزتى أن أموت أود لو عشت عشرين عاما أخرى. وإذن فالطيب كان أكثر. ما أوسع أمنا روسيا! - قال ونظر مرة أخرى إلى كلا الجانبين والتفت إلى الوراء.

فسألته ليا:

- يا جدى، عندما يموت الإنسان، كم يوما تظل روحه تسير على الأرض؟

- ومن ذا يعلم! لنسأل فافىلا، فهو قد تعلم فى المدرسة. الآن يعلمونهم كل شيء - ونادى العجوز - يا فافىلا!

- آه!

- عندما يموت الإنسان، كم يوما تظل روحه تسير على الأرض؟

أوقف فافيل الحسان وبعد ذلك فقط قال:

- تسعة أيام. عندما مات عمى كيريل عاشت روحه عندنا فى الدار بعد موته
ثلاثة عشر يوما.

- وكيف عرفت؟

- طوال ثلاثة عشر يوما كنا نسمع طرقا فى الفرن.

- طيب، تحرك - قال العجوز وكان واضحا أنه لا يصدق شيئا من ذلك.

بالقرب من كوزمكى انعطفت العربتان إلى الطريق الرئيسى، بينما مضت
ليبا إلى الأمام. كان الضوء لاح. وعندما أخذت تهبط إلى الخور اختفت دور
أوكليفو وكنستها فى الضباب. وكان الجو باردا، وخيل إليها أن ذلك الوقوق
ما زال يصيح.

وعندما عادت ليبا لم تكن الماشية قد أخرجت من الحظائر بعد. كان
الجميع نياما. فجلست على الدرج تنتظر. وكان العجوز أول من خرج. وأدرك
على الفور ومن أول نظرة ماذا حدث، فوقف مدة طويلة عاجزا عن التفوه بكلمة
وهو يقطع فقط بشفتيه.

وأخيرا تتم:

- إيه يا ليبا، لم تحافظى على الحفيد..

وأيقظوا فارفارا، فلوت ذراعها وأجهشت بالبكاء وشرعت على الفور
تكفن الطفل.

ومضت تقول:

- كم كان صبيّا طيبا.. أه.. هو.. هو.. صبي واحد، ومع ذلك لم تحافظى
عليه يا عبيطة..

وأقاموا صلاة التائبين صباحا ومساء، وفي اليوم التالي دفنوه، وبعد الدفن أكل الضيوف ورجال الكنيسة كثيرا وبشراهة، كأنما لم يأكلوا منذ زمن طويل. وقامت لييا بخدمة الضيوف، وقال لها القس وقد رفع شوكة عليها فطر مملح:

- لا تحزنى على الوليد. أمثاله فى ملكوت السماوات.

لم تدرك لييا جيدا، إلا بعد انصراف الجميع، أن نيكيفور لم يعد موجودا ولن يعود، وإذا أدركت ذلك أجهشت بالبكاء. ولم تدرك إلى أية غرفة تذهب لكي تتحجب، فقد أحست أنه لم يعد لها مكان فى هذا المنزل بعد وفاة الصبي، وأنها هنا بلا داع، زائدة على الحاجة. وأحس الآخرون بذلك أيضا.

- ما لك تجأرين هناك؟ - صاحت أكسينيا فجأة وقد ظهرت فى الباب. وكانت ترتدى ثيابا جديدة بمناسبة الجنازة وقد وضعت البودرة - اخرسى!

أرادت لييا أن تكف عن البكاء فلم تستطع، بل أعولت بصوت أعلى.

- أسمعين؟ - صاحت أكسينيا فى ثورة الغضب ودقت بقدمها - لمن أقول؟ غورى من هنا، وإياك أن تخطو قدمك هنا ثانية! غورى!

فقال العجوز مضطربا:

- طيب، طيب، طيب، اهدئى يا أكسيوتا، يا بنيتى.. إنها تبكى، شىء مفهوم.. وليدها مات..

- شىء مفهوم.. - قلده أكسينيا مشاكسة - فلتب الليلة هنا، ولكن إياك أن أراها غدا! شىء مفهوم! - قلده مرة أخرى ثم ضحكت وذهبت إلى الدكان.

وفى صباح اليوم التالى مبكرا رحلت لييا إلى أمها فى تورجوفو.

أصبح سقف الدكان وبابه الآن مطلين يلمعان كأنهما جديدان، وعلى النوافذ تزهر كما فى السابق زهور الجيران يوم المرحه، وأصبح ما حدث منذ ثلاث سنوات فى منزل فناء تسيوكين منسيا تقريبا.

وما زال العجوز جريجورى بتروفتش يعتبر هو السيد كما فى السابق لكن كل شىء فى الواقع انتقل إلى يدى أكسينيا. فهى التى تبيع وتشترى، وبدون موافقتها لا يمكن عمل شىء. ومصنع الطوب يعمل جيدا، ونظرا لازدياد الطلب على الطوب فى السكة الحديدية فقد بلغ ثمنه أربعة وعشرين روبلا للألف. وتقوم النساء والفتيات بنقل الطوب إلى المحطة ثم شحنه فى العربات، وتصل الواحدة منهن لقاء ذلك على ربع روبل فى اليوم.

وشاركت أكسينيا آل خريمين، فأصبحت الفابريكة تسمى الآن: «آل خريمين الأصغر وشركاه». وافتتحوا حانة جديدة بقرب المحطة، ولم يعد العزف على الأكورديون الثمين يسمع فى الفابريكة، بل فى هذه الحانة، وكثيرا ما يتردد عليها رئيس قسم البريد، الذى أصبحت لديه هو أيضا تجارة ما، وكذلك رئيس المحطة. وأهدى آل خريمين الأصغر إلى الأطرش ساعة ذهبية، فصار يخرجها من جيبه بين الحين والحين ويقربها من أذنه.

ويقولون عن أكسينيا فى القرية إنها اكتسبت قوة كبيرة. وبالفعل، فعندما تركب العربة فى الصباح ذاهبة إلى المصنع، جميلة، سعيدة، بابتسامتها الساذجة، وعندما تصدر تعليماتها هناك فى المصنع، تحس فيها بقوة كبيرة. ويخشأها الجميع فى البيت وفى القرية وفى المصنع. وحين تذهب إلى البريد يقفز رئيس قسم البريد ناهضا ويقول لها:

- أرجو أن تتكرمى بالجلوس يا أكسينيا أبراموفنا!

وذات مرة كان أحد الإقطاعيين، وهو رجل غندور، كهل، فى معطف من

الجوخ الخفيف، وفي حذاء عال لامع، يبيعها حصانا، فجذبه الحديث معها حتى أنه تنازل لها في الثمن بقدر ما شاءت. وظل ممسكا بيدها فترة طويلة قائلا وهو يحدق في عينيها المشرقتين الماكرتين الساذجتين:

- لامرأة مثلك يا أكسينيا أبراموفنا أنا مستعد أن أفعل كل ما يسر.. فقط قولى متى نستطيع أن نتقابل بحيث لا يزعجنا أحد؟

- فى أى وقت تشاء!

وبعد ذلك أصبح الغندور الكهل يأتى إلى الدكان كل يوم تقريبا ليشرب البيرة. وهى بيرة فظيعة، مرة كالحنظل. وينفض الإقطاعى رأسه بشدة، ولكنه يشرب.

لم يعد العجوز تسيبوكين يتدخل فى الأعمال. ولا يحتفظ لديه بنقود لأنه لا يستطيع أبدا أن يميز النقود الحقيقية عن المزيفة، ولكنه ساكت، لا يخبر أحدا بعجزه هذا. أصبح ضعيف الذاكرة بصفة خاصة، وإذا لم يطعموه فلن يطلب من تلقاء نفسه. وقد تعودوا على الغداء بدونه. وكثيرا ما تقول فارفارا:

- عجوزنا نام أمس ثانية دون عشاء.

تقول ذلك بعدم اكتراث لأنها تعودت. ولسبب ما يرتدى المعطف الثقيل صيفا وشتاء. وفى الأيام الحارة جدا فقط لا يخرج ويبقى فى البيت. وفى العادة، وبعد أن يرتدى المعطف الثقيل ويرفع ياقته ويزرر كل الأزرار، يتجول فى القرية، وفى طريق المحطة، أو يجلس من الصباح إلى المساء على أريكة بجوار بوابة الكنيسة. يجلس بلا حراك. ويحييه المارة برؤوسهم ولكنه لا يرد لأنه، كسابق العهد، لا يحب الفلاحين. وعندما يسألونه عن شىء ما فإنه يجيب إجابة عاقلة تماما، وبلهجة مهذبة، ولكن باقتضاب.

وتتردد الأقاويل فى القرية بأن كتته طردته من بيته وتحرمه من الطعام، وأنه يأكل من الصدقات. والبعض سعيد لذلك والبعض الآخر يرثى له.

وازدادت فارفارا امتلاء وبياضا، وما زالت تقوم بأعمال الخير كما فى السابق، وأكسينيا لا تمنعها من ذلك. وأصبحت المربى الآن كثيرة إلى درجة أنهم لا يتمكنون من أكلها كلها حتى موسم الثمار التالى، ولذلك تتكلس فتكاد فارفارا تبكى ولا تعرف ماذا تفعل بها.

وأخذوا ينسون أنيسيم. وذات مرة وصلتهم رسالة منه مكتوبة شعرا، على ورقة كبيرة فى صورة التماس، بنفس ذلك الخط الرائع. الظاهر أن صديقه سامورودوف كان يقضى فترة العقوبة معه. وتحت الأشعار كتب سطر واحد بخط قبيح غير واضح: «أنا هنا مريض دائما، حالتى صعبة، ساعدونى بحق المسيح».

وذات مرة - وكان ذلك قبيل المساء فى يوم خريفى صحو - كان العجوز تسيوكين جالسا بجوار بوابة الكنيسة، وقد رفع ياقة معطفه، فلم يُرى إلا أنفه ومقدمة عمرته. وعلى طرف الأريكة الطويلة الآخر جلس المقاول يلزاروف وبجواره حارس المدرسة ياكوف، وهو عجوز فى حوالى السبعين، بقم خال من الأسنان. وكان العكاز والحارس يتحدثان.

قال ياكوف بعصية:

- الأولاد ينبغي أن يطعموا آباءهم.. احترم أباك وأمك. أما وهى، الكنة أقصد، فقد طردت حماها من بيته المملك. والعجوز لا يجد الطعام والشراب، فإلى أين يذهب؟ لليوم الثالث لم يأكل.

- لليوم الثالث! - دهش العكاز.

- يجلس هكذا ويصمت. ضعف. ولماذا الصمت؟ فليرفع قضية، وفى المحكمة لن يمتدحوها.

فسأل العكاز إذ لم يسمع جيدا:

- من الذى امتدحوه فى المحكمة؟

- ماذا؟

- إنها امرأة لا بأس بها، مجتهدة. بدون ذلك لا تسير أمورهن.. أقصد بدون الحرام..

فاستطرد ياكوف بعصبية:

- من بيته الملك. حسنا، اقتنى لك بيتا أولا، ثم اطرديه. انظر أية سيدة.. الملعونة!

كان تسيو كين يسمع ولا يتحرك.

- بيت ملك أم بيت غيرك، سيان، المهم أن يكون دافئا وألا تتشاجر فيه النساء.. قال العكاز وضحك - عندما كنت شابا كنت أشفق على زوجتي ناستاسيا جدا. كانت امرأة هادئة. وكانت تقول لى دائما: «اشتر بيتا يا مكاريتش! اشتر بيتا يا مكاريتش! اشتر حصانا يا مكاريتش» حتى وهى تموت قالت: «اشتر يا مكاريتش عربة حتى لا تسير على قدميك». أما أنا فلم أكن اشترى لها غير الكعك، ولا شيء أكثر.

ومضى ياكوف يقول وهو لا يصفى إلى العكاز:

- زوجها الأطرش غبى، أحرق تماما مثل ذكر الوز. فهل هو يستطيع أن يفهم؟ لو ضربت ذكر الوز على رأسه بالعصى فلن يفهم.

ونهض العكاز ليعود إلى البيت. ونهض ياكوف أيضا، وسار الاثنان معا وواصلوا الحديث. وعندما ابتعدا حوالى خمسين خطوة نهض العجوز تسيو كين أيضا وجر ساقيه فى أثرهما بتردد وكأنه يخطو فوق جليد زلق.

غرقت القرية فى غسق المغيب، ولم تلمع الشمس إلا فى الأعلى على الطريق الذى كان يصعد من أسفل متلويا كالثعبان. وكانت العجائز عائدات من الغابة ومعهن الأولاد يحملون سلالا مملوءة بالفطر. وسار جمع من النساء والفتيات العائدات من المحطة حيث كن يشحنّ العربات بالطوب، وكانت

أنوفهن وخدودهن تحت عيونهن مغطاة بطبقة رقيقة حمراء من غبار الطوب.
كن يغنين. وفي مقدمة الجميع سارت لييا وهي تنظر إلى السماء وتغنى بصوت
رفيع رنان، كأنما تشعر بالفرحة والظفر لأن النهار انتهى والحمد لله، وأصبح
من الممكن أن تستريح. وسارت في الجمع أمها، المياومة براسكوفيا، ومعها
صرة في يدها، وكانت تلهث كالعادة.

- مرحبا يا مكاريتش! - قالت لييا عندما رأت العكاز - مرحبا يا عمى!

ففرح العكاز وقال:

- مرحبا يا ليينكا! يا نسوان، يا بنات، أحبين نجارا غنيا! ها - ها! يا أبناى،
يا أبناى (وشهق العكاز باكيا). يا فؤوسى الغالية.

ومضى العكاز وياكوف في طريقهما، وسمع صوتهما وهما يتحدثان. ومن
بعدهما التقى الجمع بالعجوز نسيوكين، وفجأة ساد السكون. تخلفت لييا
وبراسكوفيا قليلا، وعندما حاذاهما العجوز انحنت لييا بشدة وقالت:

- مرحبا يا جريجورى بتروفتش!

وانحنت أمها أيضا. فتوقف العجوز ونظر إليهما دون أن ينطق بكلمة. كانت
شفتاه ترتعشان وعيناه مليتان بالدموع. وأخرجت لييا من صرة أمها قطعة فطيرة
بالعصيدة ومدتها إليه، فأخذها وراح يأكل.

غربت الشمس تماما. وانطفاً بريقها في الأعلى، على الطريق. وأصبح
الجو مظلمًا وباردا. ومضت لييا وبراسكوفيا في طريقهما، ولفترة طويلة ظلنا
ترسمان علامة الصليب.

كاشتانكا

الفصل الأول

سلوك مشين

أخذت كلبة حمراء شابة - خليط من فصيلة الهجين والدشهند - ساحتها قريبة الشبه جدًا بسحنة الثعلب، تجرى إلى الأمام وإلى الخلف على الرصيف وتلتفت حولها بقلق، وأحيانًا كانت تتوقف، وترفع باكية تارة هذه الكف المقرورة وتارة تلك، وهي تحاول أن تفهم: كيف حدث أن ضلت الطريق؟

كانت تذكر جيدًا كيف قضت النهار، وكيف أصبحت أخيرًا على هذا الرصيف المجهول.

بدأ النهار بأن ارتدى سيدها، صانع الأثاث لوقا ألكسندريتش، الطاقة الفراء، وأخذ تحت إبطه قطعة خشبية ما، ملفوفة في منديل أحمر، وصاح:
- كاشتانكا، هيا!

وعندما سمعت الكلبة الخليط من فصيلة الهجين والدشهند اسمها، خرجت من تحت نضد النجارة حيث كانت ترقد على نشارة الخشب، وتمطت بتلذذ وركضت خلف سيدها. كان زبائن لوقا ألكسندريتش يعيشون بعيدًا جدًا، حتى إنه كان على صانع الأثاث قبل أن يصل إليهم، أن يعرج عدة مرات على الحانة ليتناول ما ينعش به نفسه. وكانت كاشتانكا تذكر أن سلوكها أثناء الطريق كان

غير لائق أبدا. فقد راحت تقفز، إذ سرها أن سيدها أخذها للتريض، وتنقض على عربات ترام الخيول بالنباح، وتعرج على الأفنية وتطارد الكلاب. وكانت بين الحين والحين تغيب عن أنظار صانع الأثاث فيتوقف ويصرخ فيها بغضب.. بل إنه ذات مرة ضم أذنها الثعلبية في قبضته بينما ارتسم على وجهه تعبير نهم، وهزها وقال وهو يشدد على مقاطع الكلمات:

- إن شا - الله - تأ.. خذك بلوى.. يا.. ملعو.. نة!

وبعد أن زار لوقا ألكسندريتش زبائنه، عرج لحظة على أخته حيث شرب عندها وأكل. ومن أخته توجه إلى عامل تجليد من معارفه، ومن عامل التجليد إلى الحانة، ومن الحانة إلى الأشبين وهكذا.. وباختصار، عندما أصبحت كاشتانكا على هذا الرصيف المجهول كان المساء قد حل، وأصبح عامل الأثاث ثملاً كحودى. وأخذ يلوح بذراعيه، ويزفر بعق، ويدمدم:

- ولدتنى أمى فى رحم الذنوب! آه، الذنوب، الذنوب! اليوم نسير فى الشوارع وننظر إلى المصاييح، فإذا متنا فسنصلى عذاب السعير..

أو كانت تداهمه نوبة طيبة، فيدعو إليه كاشتانكا ويقول لها:

- أنت يا كاشتانكا لست سوى حشرة وليس أكثر من ذلك. أنت بالمقارنة مع الإنسان مثلك مثل النجار بالمقارنة مع صانع الأثاث..

وبينما كان يتكلم معها بهذه الطريقة دوت الموسيقى فجأة. والتفتت كاشتانكا فرأت فوج جنود يسير فى الشارع نحوها مباشرة. ولما كانت لا تطيق سماع الموسيقى التى تثير أعصابها، فقد اندفعت جانباً وهى تعوى. ولدهشتها البالغة رأت صانع الأثاث، بدلاً من أن يفرع ويصرخ وينبح، يتسم ابتسامة عريضة، ويتنصب شادا قامته، ويرفع أصابعه الخمس مؤدياً التحية. وعندما رأت كاشتانكا أن سيدها لا يحتج، عوت بصوت أعلى، وانطلقت عبر الشارع إلى الرصيف الآخر وهى لا تعي شيئاً.

وعندما أفاقت لم تعد الموسيقى تصدح، واختفى الفوج. فركضت عبر الطريق إلى المكان الذي تركت فيه سيدها، ولكن هيهات! لم يكن صانع الأثاث هناك. فاندفعت إلى الأمام، ثم إلى الخلف، وعبرت الطريق ثانية، ولكن لم يكن هناك أثر لصانع الأثاث، وكأنما ابتلعت الأرض.. وأخذت كاشتانكا تشمم الرصيف، على أمل أن تعثر على سيدها عن طريق آثاره، ولكن أحد الأوغاد كان قد مر في خف جديد من المطاط، فاختلطت الآن كل الروائح الرقيقة برائحة الكاوتشوك القوية الكريهة، بحيث لم يعد من الممكن تمييز شيء.

ركضت كاشتانكا إلى الامام وإلى الخلف دون أن تعثر على سيدها، وفي تلك الأثناء أظلمت الدنيا. وعلى جانبي الشارع أضيئت المصابيح، وظهرت الأنوار في نوافذ المنازل. وتساقط الثلج ندفا كبيرة زغبية، فطلى باللون الأبيض أرض الشارع وظهور الخيول وطواقى الحوزية، وكلما ازداد الجو ظلامًا تبدت الأشياء أكثر بياضًا. ومر بجوار كاشتانكا بلا توقف، إلى الأمام وإلى الخلف، زبائن مجهولون، وهم يحجبون عنها الرؤية ويدفعونها بأقدامهم. (كانت كاشتانكا تقسم البشر إلى قسمين غير متساويين أبدا: إلى سادة وزبائن. وكان هناك فرق جوهري بين هؤلاء وأولئك: فقد كان من حق الفريق الأول أن يضربوها، أما الفريق الثاني فكان من حقها هي أن تطبق على سمات سيقانهم). وكان الزبائن يسرعون إلى جهة ما، دون أن يعيروها أى انتباه.

وعندما أطبق الظلام تمامًا استولى اليأس والرعب على كاشتانكا. فانزوت عند مدخل أحد المنازل وراحت تبكى بمرارة. لقد هدها التعب من التجوال مع لوقا ألكسندريتش طول النهار، وبردت أذناها وأكفها، وعلاوة على ذلك كانت جائعة إلى درجة رهيبية. فلم تمضغ طوال النهار سوى مرتين: عند عامل التجليد أكلت قليلاً من الصمغ، وفي إحدى الحانات وجدت بجوار النضد قشر سحوق.. وهذا كل ما هناك. ولو كانت إنسانًا لفكرت على الأرجح:

«كلا، هذه حياة لا تطاق! ينبغي أن أنتحرا!»

الفصل الثانى

الرجل الغريب الغامض

ولكنها لم تفكر فى شىء بل كانت تبكى فحسب. وعندما غطى الثلج الزغبى الناعم ظهرها ورأسها تمامًا وغابت فى نعاس ثقيل بسبب الإرهاق فرقع باب المدخل فجأة وتحسرج ولطمها فى جنبها، فقفزت. ومن الباب المفتوح خرج رجل ما، ينتمى إلى فريق الزبائن. ولما كانت كاشتانكا قد عوت واصطدمت بقدمه فلم يكن من الممكن إلا أن تلتفت انتباهه. فانحنى عليها وسألها:

- من أين أنت أيتها الكلبة؟ هل أذيتك؟ آه يا مسكينة.. حسنًا، لا تغضبى، لا تغضبى.. أنا آسف.

ونظرت كاشتانكا إلى الرجل الغريب من خلال ندف الثلج العالقة برموشها، فرأت أمامها رجلًا قصيرًا وبدينًا، بوجه حليق مكتنز، وبقبة أسطوانية ومعطف فراء مفتوح.

ومضى يقول وهو ينفض الثلج عن ظهرها بإصبعه:

- لماذا تعولين؟ أين سيدك؟ يبدو أنك فقدت؟ آه، يا للكلب المسكين! وماذا سنفعل الآن؟

وعندما أحست كاشتانكا فى صوت الرجل الغريب بنبرة دافئة قلبية، لعقت يده، وأعولت بصوت أكثر شكاية.

فقال الرجل الغريب:

- ولكنك لطيفة، مضحكة! كالثعلب تمامًا! طيب، ما العمل، هيا معي! ربما تنفعين في شيء ما.. هيا، فويت!

ومصمص بشفتيه ولوح لكاشتانكا بذراعه بحركة لا يمكن إلا أن تعنى شيئًا واحدًا: «هيا!». فمضت كاشتانكا. ولم يمر أكثر من نصف ساعة حتى كانت جالسة على الأرض في غرفة كبيرة مضيئة، تنظر بتأثر وفضول، وقد أمالت رأسها جانبًا، إلى هذا الرجل الغريب، الذي كان جالسًا إلى الطاولة يتناول طعامه. كان يأكل ويلقى إليها بقطع.. في البداية أعطاها قطعة خبز وقشرة جبن خضراء، ثم قطعة لحم، ونصف شطيرة، وعظام دجاج، فأكلت من الجوع كل ذلك بسرعة حتى إنها لم تتمكن من معرفة طعامه. وكلما أكلت أكثر ازداد إحساسها بالجوع.

وقال الغريب وهو يرى بأى نهم وحشى تزدرد القطع دون مضغ:

- ولكن أصحابك يطعمونك بصورة سيئة! يا لك من نحيلة! جلد على عظم..

أكلت كاشتانكا كثيرًا ولكنها لم تشبع، بل ثملت فقط من الطعام. وبعد الأكل تمددت في وسط الغرفة ومدت قوائمها، وهزت ذيلها وقد أحست بضعف لذيق في جسدها كله. وبينما كان سيدها الجديد مضطجعًا في الفتيل يدخن السيجار، مضت تهز ذيلها وتقرر مسألة: أين الأفضل، عند الرجل الغريب أم عند صانع الأثاث؟ كان الفرش عند الرجل الغريب فقيرًا وقبيحًا. فبخلاف الفتيلات والكنبة والمصباح والسجاجيد لم يكن لديه شيء وبدت الغرفة خاوية. أما لدى صانع الأثاث فالشقة كلها غاصة بالأشياء. فلديه طاولة، ونضد نجارة وكوم من النشارة، ومساحيق وأزاميل ومناشير وقفص به عصفور، وبرميل.. ولا تنبعث لدى الغريب أية روائح، أما لدى صانع الأثاث فالضباب يملأ دائمًا شقته وتفوح رائحة رائعة من الصمغ وورنيش اللك والنشارة. ولكن لدى الغريب ميزة مهمة للغاية، فهو يقدم طعامًا كثيرًا، وهو وللإنصاف، عندما

كانت كاشتانكا جالسة أمام الطاولة تتطلع إليه بتأثر، لم يركلها مرة واحدة، ولم يدق بقدمه مرة ولم يصرخ: «غورى من هنا يا ملعونة!».

وبعد أن فرغ السيد الجديد من تدخين سيجارة خرج، ثم عاد بعد دقيقة ممسكاً فى يده بفرشة.

وقال وهو يضع الفرشة فى الركن بجوار الكنبة:

- تعال هنا يا كلب. ارقد هنا ونم!

ثم أطفأ المصباح وخرج. وتمددت كاشتانكا على الفرشة وأغمضت عينيها. وتناهى نباح من الشارع فأرادت أن ترد عليه، ولكن الحزن داهمها فجأة. تذكرت لوقا ألكسندريتش وابنه فيدوشكا، ومكانها المريح تحت نضد النجارة.. وتذكرت أنه فى أمسيات الشتاء الطويلة، عندما كان سيدها ينجر أو يقرأ الصحف بصوت مسموع، كان فيدوشكا يلعب معها عادة.. كان يسحبها من قائمتيها الخلفيتين من تحت النضد ويصنع بها من الألعاب ما يجعل عينيها تغيمان ومفاصلها كلها تؤلمها. كان يجعلها تسير على قائمتيها الخلفيتين، ويلعب بها لعبة الناقوس، أى يشدها بقوة من ذيلها فتصرخ لذلك وتنبج، ويدس فى أنفها التبغ.. وكانت اللعبة التالية أشدها تعذيباً: كان فيدوشكا يربط قطعة لحم بخيط ويلقى بها إلى كاشتانكا، وبعد أن تبتلعها يسحب القطعة فيخرجها من معدتها وهو يقهقه عاليًا. وكلما توهجت الذكريات ازداد نحيب كاشتانكا ارتفاعاً ووحشة.

ولكن سرعان ما تغلب الإرهاق والدفء على الحزن.. وبدأت تنعس. وفى خيالها ركضت كلاب. وركض بالمناسبة ذلك البودل المعجوز الأشعث الذى رآته اليوم فى الشارع، ذو السحابة على عينه وخصل الشعر حول أنفه. وطارد فيدوشكا البودل بمعول فى يده، وفجأة اكتسى هو بشعر أشعث، ونبح بمرح وظهر بجوار كاشتانكا. وتشمم كل منهما أنف الآخر بمودة وركضا إلى الشارع..

الفصل الثالث

تعارف جديد سار جدا

عندما استيقظت كاشتانكا كان النور قد انتشر، وتناهى من الشارع ضجيج النهار المميز. ولم يكن هناك أحد فى الغرفة. وتمطت كاشتانكا وتشاءبت وأخذت تطوف بالغرفة غاضبة متجهمة. وتشممت الأركان والأثاث وأطلت فى المدخل، فلم تجد أى شىء طريف. وكان هناك باب آخر بخلاف الباب المفضى إلى المدخل. وفكرت كاشتانكا قليلاً ثم مضت تخمسه بأظافر كفيها دفعة واحدة ففتحته، ودلفت إلى الغرفة التالية. وهنا، على السرير، كان الزبون، ذلك الرجل الغريب الذى رآته بالأمس نائماً وقد تغطى ببطانية.

- هر... ر... ر...، زمجرت، ثم تذكرت غداء الأمس فهزت ذيلها وبدأت تشممه.

تشممت ملابس الرجل الغريب وحذاءه، فوجدت أنه تفوح منها بشدة رائحة خيول. وفى غرفة النوم أيضاً كان ثمة باب يفضى إلى مكان ما، وكان أيضاً مغلقاً. وخمشت كاشتانكا هذا الباب، واثكأت عليه بصدرها ففتحته، وعلى الفور أحست برائحة غريبة جداً. وتوقعت كاشتانكا لقاء غير سار فزمجرت وتلفتت وهى تدلف إلى غرفة صغيرة، بورق جدران قذر، ثم تقهقرت مذعورة. فقد رأت شيئاً غير متوقع ومخيفاً. فنحوها مباشرة تقدم ذكر أوز رمادى وهو بفتح، وقد أمال رأسه وعنقه إلى الأرض ونشر جناحيه. وغير بعيد عنه تمدد قط أبيض على فرشاة. وعندما رأى كاشتانكا قفز من مكانه، وقوس ظهره،

ورفع ذيله ونفث شعره وفح هو الآخر. وخافت الكلبة عن حق، ولكنها لم تشأ أن تفصح عن خوفها فنبحت بصوت عال وانقضت على القط.. وقوس القط ظهره أكثر وفح، وضرب كاشتانكا بكفه على رأسها. وقفزت كاشتانكا مرتدة، وجلست على أكفها الأربع، ومدت بوزها نحو القط وانفجرت في نباح عال حاد. وفي تلك الأثناء اقترب ذكر الأوز من الخلف، ونقرها بمنقاره في ظهرها بقوة. فهبت كاشتانكا وانقضت على ذكر الأوز..

- ما هذا؟ - تردد صوت عال غاضب، ودخل الرجل الغريب إلى الغرفة مرتدياً روباً وبين أسنانه سيجار. - ما معنى هذا؟ الزم مكانك!

اقترب من القط، ولكره في ظهره المقوس قائلاً:

- ما معنى هذا يا فيودور تيموفيتش؟ تثيرون شجاراً؟ يا لك من محتال عجوز! نم!

واستدار نحو ذكر الأوز وصاح:

- إيفان إيفانيتش، الزم مكانك!

رقد القط بإذعان على فرشته وأغمض عينه. وبدأ من تعبير سخته وشواربه أنه هو نفسه لم يكن راضياً عن احتداده واشتراكه في المشاجرة. وعوت كاشتانكا بإحساس بالإهانة، أما ذكر الأوز فقد مد عنقه وانطلق متحدثاً عن شيء ما بسرعة وحرارة ووضوح، ولكن بصورة غير مفهومة أبداً. فقال رب الدار مثائباً:

- حسناً، حسناً! ينبغي أن تعيشوا في سلام ومودة، وربت ظهر كاشتانكا واستطرد: أما أنت أيتها الحمراء فلا تخافى.. هذه جماعة طيبة، لن تمسك بسوء. ولكن مهلاً، كيف سنسميك؟ لا يليق أن تظلى بلا اسم يا أختاه.

وفكر الغريب قليلاً ثم قال:

- اسمعى.. سيكون اسمك: خالة.. مفهوم؟ خالة!

وبعد أن كرر كلمة «خالة» عدة مرات خرج. وجلست كاشتانكا وراحت تراقب الموقف. كان القط جالسًا على الفرشة بلا حراك، متظاهرًا بالنوم. ومضى ذكر الأوز يتحدث عن شيء ما بسرعة وحرارة، وهو يمد عنقه ويرأوح في مكانه.

ويبدو أنه كان ذكر أوز ذكيًا جدًا. فبعد كل عبارة من عباراته الطويلة كان يتراجع إلى الخلف بدهشة، ويتظاهر أنه يعجب بكلامه.. وبعد أن استمعت كاشتانكا إليه وأجابته بـ «هر.. ر.. ر» أخذت تشمم الأركان. كان في أحد الأركان طست صغير رأّت فيه حمصًا منقوعًا وكسرات مبلولة من خبز الجودار. وتذوقت الحمص فلم تجده لذيذًا، وتذوقت الكسرات وبدأت تأكل. ولم يغضب ذكر الأوز على الإطلاق من أن كلبة غريبة تأكل طعامه، بالعكس، تحدث بحرارة أكثر، ولكي يظهر لها ثقته، تقدم إلى الطست وأكل عدة حمصات.

الفصل الرابع

عجائب مذهلة

بعد فترة قصيرة عاد رب الدار حاملاً معه شيئاً غريباً يشبه البوابة أو حرف II. وتدلّى من عارضة هذا الحرف الخشبى السيئ الصنع ناقوس وشد إليها مسدس. ومن لسان الناقوس وحرك المسدس امتدت خيوط. وضع الغريب حرف II فى وسط الغرفة، وأمضى وقتاً طويلاً فى فك وربط أشياء ما، ثم نظر إلى ذكر الأوز وقال:

- تفضل يا إيفان إيفانيتش!

فاقترب منه ذكر الأوز ووقف فى وضع ترقب.

فقال الغريب:

- حسنًا.. فلنبداً من البداية. قبل كل شيء يجب أن تحيى الجمهور وتنحنى احتراماً. بسرعة!

فمد إيفان إيفانيتش عنقه، وأوماً فى جميع الجهات، وحك الأرض بساقه.

- حسنًا، شاطر.. والآن مُت!

فرقد ذكر الأوز على ظهره ورفع ساقيه عاليًا. وبعد أن قام الغريب بعدة نمر تافهة كهذه، أمسك برأسه فجأة، راسماً على وجهه الرعب، وصاح:

- النجدة! حريق! النار!

فركض إيفان إيفانيتش نحو حرف II، وأمسك بمنقاره الخيط وقرع الناقوس.

وأحس الغريب بالرضى تمامًا، فمسد عنق ذكر الأوز وقال:

- شاطر يا إيفان إيفانيتش! والآن تصور أنك مجوهراتى تباع الذهب والماسات. وتصور الآن أنك ذهبت إلى متجر فوجدت فيه لصوصًا. فكيف تتصرف فى هذه الحالة؟

فأمسك ذكر الأوز فى منقاره بخيط آخر وشده، فدوت على الفور طلقة تصم الأذان. وأعجبت كاشتانكا جدا بالرنين، أما الطلقة فسلبت لبها حتى أنها دارت حول حرف II ونبحت. فصاح بها الرجل الغريب:

- يا خالة، الزمى مكانك! صمتا!

ولم ينته عمل إيفان إيفانيتش عند حد إطلاق النار.

فقد ظل الرجل الغريب يديره حوله ساعة كاملة وقد ربطه إليه بحبل، وهو يفرقع بالسوط، وكان على ذكر الأوز أثناء ذلك أن يقفز فوق حاجز وعبر حلقة، ويشب على أطرافه، أى يقعى على مؤخرته ويلوح بساقيه. ولم تحول كاشتانكا نظرها عن إيفان إيفانيتش، وعوت من شدة الإعجاب، وركضت خلفه عدة مرات وهى تطلق نباحًا رنانًا. وبعد أن أرهق الغريب ذكر الأوز وأرهق نفسه، مسح العرق عن جبينه وصاح:

- يا ماريّا، هاتى خفرونيا إيفانوفنا إلى هنا!

وبعد لحظات تردد نخير.. فزمجرت كاشتانكا، واتخذت مظهر الشجاعة الفائقة، وتحوطا للأمر، اقتربت أكثر من الرجل الغريب. وفتح الباب، وأطلت امرأة عجوز، وقالت شيئًا ما، ثم دفعت إلى الداخل بخنزيرة سوداء قبيحة للغاية. ودون أن تعير الخنزيرة أى اهتمام لزمجرة كاشتانكا، رفعت نخرتها إلى

أعلى ونخرت بصوت مرح. يبدو أنها كانت مسرورة جدًا برؤية سيدها والقط وإيفان إيفانيتش. وعندما اقتربت من القط ودفعته بنخرتها برفق في بطنه، ثم تحدثت عن شيء ما مع ذكر الأوز، تجلى في حركاتها وصوتها وفي ارتعاش ذيلها الكثير من الطيبة. وأدركت كاشتانكا على الفور أنه لا جدوى من النباح والزمجرة مع مخلوقات كهذه.

ونحى السيد حرف II وصاح:

- تفضل يا فيودور تيموفيتش.

فنهض القط، وتمطى بكسل، واقترب من الخنزيرة بلا رغبة كأنما يصنع معروفًا.

وقال السيد:

- فلنبداً بالهرم المصري.

ومضى يوضح شيئًا ما مدة طويلة، ثم أمر: «واحد.. اثنان.. ثلاثة!». ولدى سماع إيفان إيفانيتش كلمة «ثلاثة» خفق بجناحيه وقفز على ظهر الخنزيرة.. وعندما استقر على الظهر الأهلبي وهو يحفظ توازنه بجناحيه وعنقه، صعد فيودور تيموفيتش إلى ظهر الخنزيرة بترأخ وكسل، وباستهتار واضح، وبدأ كأنما يحتقر فنه ولا يكن له أدنى تقدير، ثم تسلق بلا رغبة ظهر ذكر الأوز ووقف على قائمته الخلفيتين. وتكوّن ما سماه الرجل الغريب بالهرم المصري. وعوت كاشتانكا من شدة الإعجاب، ولكن في تلك اللحظة تئأب القط العجوز فاختل توازنه وسقط من فوق ظهر ذكر الأوز. وترنح إيفان إيفانيتش وسقط هو الآخر. وصرخ الرجل الغريب، ولوح يديه، وعاد يشرح شيئًا ما. وبعد أن أنفق ساعة كاملة في نمرة الهرم، بدأ رب الدار الذي لا يكل في تعليم إيفان إيفانيتش كيف يمتطى صهوة القط، ثم بدأ في تعليم القط كيف يدخن وما إلى ذلك.

وانتهى التعليم بأن مسح الرجل الغريب العرق عن جبينه وخرج. ونفخ
فيودور تيموفيتش بأنفه في اشمزاز، ووقد على الفرشة وأغمض عينيه، وتوجه
إيفان إيفانيتش إلى الطست، أما الخنزيرة فساقتها المرأة العجوز. وبفضل هذه
الكثرة من الانطباعات الجديدة انقضى النهار بسرعة بالنسبة لكاشتانكا، وفي
المساء أنزلت مع فرشتها في الغرفة ذات ورق الجدران القذر، وباتت في صحبة
فيودور تيموفيتش وذكر الأوز.

الفصل الخامس

موهبة! موهبة!

ومر شهر.

وتعودت كاشتانكا على أنهم كل مساء يطعمونها عشاءً لذيذاً وينادونها بـ «الخالة». وتعودت أيضاً على الرجل الغريب وعلى شركائها فى المسكن. ومضت الحياة فى يسر وسهولة.

كانت الأيام كلها تبدأ بدايةً متشابهة. وكان إيفان إيفانيتش يستيقظ عادة قبل الجميع، وعلى الفور يتوجه إلى الخالة أو إلى القط، ويلوى عنقه ويبدأ فى الحديث عن شيء ما بحرارة ويقين، ولكن بصورة غير مفهومة كما فى السابق.

وأحياناً كان يرفع رأسه ويلقى منولوجات طويلة. وفى الأيام الأولى لتعارفهما ظنت كاشتانكا أنه يتحدث كثيراً لأنه ذكى جداً، ولكن ما إن مرت فترة قصيرة حتى فقدت كل احترام له وعندما كان يتوجه إليها بحديثه الطويل لم تعد تهز ذيلها، بل كانت تردده باعتباره ثرثاراً مملاً يزعج نوم الآخرين، ودون أدنى كلفة كانت تجيبه بـ «هر... ر... ر...».

أما فيودور تيموفيتش فكان سيداً من طراز آخر. فعندما يستيقظ لا يصدر أى صوت، ولا يتحرك، بل حتى لم يكن يفتح عينيه. ولو كان بمسقطاه لما استيقظ، لأنه كما يبدو لم يكن يحب الحياة. لم يكن ثمة ما يثير اهتمامه، وكان

ينظر إلى كل شيء بتراف واستخفاف ويحتقر كل شيء، وحتى حينما يتناول طعامه اللذيذ ينفخ بأنفه في اشمزاز. وكانت كاشتانكا عندما تستيقظ تبدأ في الطواف على الغرف وتشمم الأركان. ولم يكن مسموحًا إلا لها وللقط فقط بالطواف في الشقة، أما ذكر الأوز فلم يكن يحق له أن يتخطى عتبة الغرفة ذات ورق الجدران القذر، بينما كانت خفرونيا إيفانوفنا تقطن حظيرة في مكان ما في الفناء ولا تظهر إلا فترة التدريب. وكان السيد يستيقظ متأخرا، وما إن يشرب الشاي حتى يشرع على الفور في شعوزته. وكل يوم يحمل إلى الغرفة حرف II والسوط، والحلقات، وكل يوم تجرى نفس التدريبات تقريبا. كان التدريب يستمر ثلاث أو أربع ساعات، حتى أن فيودور تيموفيتش كان يترنح أحيانا كالشم من شدة الإرهاق، ويفتح إيفان إيفانيتش منقاره لاهثا، أما السيد فيصبح أحمر الوجه ولا يتمكن أبدا من مسح العرق عن جبينه.

كان التدريب والطعام بجعلان أوقات النهار شيقة جدا، ولكن الأمسيات كانت تمضي في ملل. وفي العادة كان رب الدار يرحل كل مساء الى مكان ما ويأخذ معه ذكر الأوز والقط. وحينما تصبح الخالة وحدها ترقد على الفرشة ويتولاها الحزن.. كان الحزن يتسلل إليها بصورة لا تلاحظ، ويشملها تدريجيا، كما تشمل العتمة الغرفة. ويبدأ ذلك بأن تفقد الكلبة أية رغبة في النباح أو الأكل أو الركض في الغرف أو حتى التطلع، ثم تلوح في مخيلتها صورتان غير واضحتين لكلاب أو بشر، بوجهين لطيفين رقيقين ولكن غير مفهومين. وعند ظهورهما تهز الخالة ذبلها، ويخيل إليها أنها رأتهما في وقت ما وفي مكان ما وأحبتهما.. وعندما يداعبها النعاس كانت تشعر برائحة الصمغ ونشارة الخشب وورنيش الملك تفوح من هاتين الصورتين.

وعندما ألقت تماما حياتها الجديدة وتحولت من كلبة نحيلة معروفة إلى كلبة شبعانة معتنى بها، ربت السيد على ظهرها ذات مرة قبل بدء التدريب وقال:

- آن الأوان يا خالة أن تزاولى عملاً. كفاك تسكعاً. أريد أن أجعل منك فنانة.. أتريدين أن تصبحي فنانة؟

ويدأ يعلمها شتى العلوم. فى الدرس الأول تعلمت كيف تقف وتمشى على قائمتيها الخلفيتين، الأمر الذى أعجبها للغاية. وفى الدرس الثانى كان عليها أن تقفز على قائمتيها الخلفيتين وتخطف السكر الذى كان معلمها يمسك به عالياً فوق رأسها. وفى الدروس التالية رقصت، ودارت وهى مربوطة بحبل، وعوت على أنغام الموسيقى، وقرعت الناقوس وأطلقت النار، وبعد شهر أصبح بوسعها أن تحل باقتدار محل فيودور تيموفيتش فى «الهرم المصرى». كانت تقبل على التعليم عن طيب خاطر، وأرضاهما نجاحها. أما الدوران بالحبل بلسان مدلى، والقفز عبر الحلقة، وامتناء صهوة فيودور تيموفيتش العجوز، فكان يجلب لها متعة عظيمة. وكانت تصاحب كل نمرة ناجحة بنباح رنان حماسى، أما المعلم فيدهش، ويتولاه الحماس هو أيضاً فيفرك راحتيه قائلاً:

- موهبة! موهبة! موهبة حقيقية! بالتأكيد ستحظين بالنجاح!

وتعودت الخالة على كلمة «موهبة» حتى أنها كانت تقفز، كلما سمعت السيد يرددّها وتتلفّت حولها، كأنما كانت هذه الكلمة اسمها.

الفصل السادس

ليلة مزعجة

رأت الخالة فى المنام حلمًا كلابيًا، إذ طاردها البواب بمكنسة، فاستيقظت من الخوف.

كانت الغرفة مظلمة، ساكنة وخائفة جدًا. وكانت البراغيث تلدغ. ولم يسبق للخالة أن شعرت بالخوف من الظلام ولكنها الآن أحست لسبب ما بالرعب وأرادت أن تنبح. وفى الغرفة المجاورة زفر رب الدار عاليًا. وبعد ذلك بقليل نخرت الخنزيرة فى حظيرتها، ثم لف الصمت كل شىء. عندما تفكر فى الطعام تشعر فى نفسك بالراحة، ومن ثم أخذت الخالة تفكر فى أنها سرقت من فيودور تيموفيتش اليوم ورك دجاجة وخبأتها فى غرفة الجلوس بين الصوان والحائط، حيث تتراكم خيوط عنكبوت وغبار كثير جدًا. ولا بأس لو مضت الآن لتنظر هل هذا الورك بخير أو لا؟ من المحتمل جدًا أن يكون رب الدار قد عثر عليها وأكلها. ولكنها، حسب القواعد، لا تستطيع الخروج من الغرفة قبل الصباح. وأغمضت الخالة عينها لتنعس بسرعة، إذ كانت تعرف بخبرتها أنه كلما أسرع فى النوم أسرع الصباح بالمجىء. ولكن دوت فجأة بجوارها صرخة غريبة جعلتها تنتفض وتقفز واقفة على سيقانها الأربع. كانت تلك صرخة إيفان إيفانيتش، ولم تكن صرخته ثرثرة ومقنعة كالعادة، بل رهيبة، ثاقبة غير طبيعية، تشبه صرير بوابة تفتح. وعندما لم تميز الخالة أو تفقه شيئًا فى الظلام، أحست بمزيد من الخوف فزمجرت:

ومر بعض الوقت، بقدر ما يكفى للعلق عظمة طيبة.

ولم تكرر الصرخة، وشيئاً فشيئاً هدأت الخالة وأدركها النعاس. ورأت فى المنام كلبين أسودين كبيرين بخصائل من شعر العام الماضى على أفخاذهما وأجنابهما. كانا يأكلان بشرهة من برميل كبير فضلات طعام تصاعد منها بخار أبيض ورائحة لذیذة جداً. وأحياناً يتطلعان إلى الخالة ويكشران عن أنيابهما ويزمجران: «لن نعطيك شيئاً!». ولكن رجلاً ارتدى معطف فراء خرج من البيت ركضاً وطردهما بالسوط. عندئذ ذهبت الخالة إلى البرميل وشرعت تأكل. ولكن ما إن غاب الرجل وراء البوابة حتى انقض الكلبان الأسودان على الخالة وهما يزاران، وفجأة دوت من جديد الصرخة الثاقبة.

صرخ إيفان إيفانيتش:

- كيك.. كيكى.. ى.. ى!

واستيقظت الخالة وقفزت واقفة، ودون أن تغادر الفرشة انفجرت فى نباح معول. أصبح يخيل إليها أن من يصرخ ليس إيفان إيفانيتش بل أحد آخر غريب. ولسبب ما نخرت الخنزيرة مرة أخرى فى الحظيرة.

ولكن ها هى ذى تتردد خشخشة حذاء، ودلف السيد إلى الغرفة مرتدياً روبا وفى يده شمعة. وتراقص النور المتذبذب على ورق الجدران القذر وعلى السقف وطرده الظلمة. ورأت الخالة أنه لا يوجد أحد غريب فى الغرفة. كان إيفان إيفانيتش جالساً على الأرض، ولم يكن نائماً. وكان جناحه ممدودين ومتقاربه مفتوحاً، وعموماً بدا كأنه متعب جداً ويريد أن يشرب. ولم يكن فيودور تيموفيتش العجوز نائماً هو الآخر. يبدو أن الصرخة أيقظته هو أيضاً.

وسأل السيد ذكر الأوز:

- إيفان إيفانيتش، ماذا بك؟ لماذا تصرخ؟ هل أنت مريض؟

وصمت ذكر الأوز. وتحسس السيد عنقه، وربت على ظهره وقال:

- بالك من غريب الأطوار. لا تنام ولا تدع الآخرين ينامون.

وعندما خرج السيد وأخذ معه الضوء حل الظلام ثانية. وأحست الخالة بالخوف. ولم يصرخ ذكر الأوز، ولكن عاد يخيل إليها أن أحدًا غريبًا يقف في الظلام. وكان أفزع شيء أنها لا تستطيع أن تعض هذا الغريب، لأنه لم يكن مرئيًا وليس له شكل محدد. ولسبب ما فكرت أنه في هذه الليلة حتما سيحدث شيء ما سيئ جدًا.

وكان فيودور تيموفيتش هو الآخر قلقًا. فقد سمعته الخالة يتقلب في مرقده ويتثائب وينفض رأسه.

وفي مكان ما في الخارج تردد طرق على بوابة، ونخرت الخنزيرة في الحظيرة. وعوت الخالة، ومدت قائمتيها الأماميتين وأسندت إليهما رأسها. وخيل إليها أن ثمة في الطرق على البوابة، وفي نخير الخنزيرة المستيقظة لسبب ما، وفي الظلام والسكون، شيئًا موحشًا ورهيًا كما في صرخة إيفان إيفانيتش. كان كل شيء في اضطراب وقلق، ولكن ما السبب؟ ومن هو ذلك الغريب الذي لم يكن مرئيًا؟ وما هي ذى تومض بجوار الخالة للحظة شرارتان خضراوان كايبتان. كانت تلك أول مرة يقترب منها فيودور تيموفيتش طوال فترة تعارفهما. ترى ماذا يريد؟ ولعقت الخالة كفه، ودون أن تسأله عن سبب مجيئه، أعولت بصوت خافت وبنغمات متنوعة.

وصرخ إيفان إيفانيتش:

- كيكي.. ي! كيكي.. كي!

وفتح الباب مرة أخرى ودخل السيد بالشمعة. كان ذكر الأوز جالسًا في وضعه السابق بمنقار مفتوح وجناحين ممدودين. وكانت عيناه مغمضتين.

وناداه السيد:

- إيفان إيفانيتش!

فلم يتحرك ذكر الأوز. وجلس السيد أمامه على الأرض، ونظر إليه دقيقة في صمت ثم قال:

- يا إيفان إيفانيتش! ماذا جرى لك؟ هل نويت أن تموت؟ - وصاح وأمسك رأسه بيديه - آه، الآن تذكرت، تذكرت! عرفت السبب! هذا لأن الحصان اليوم داسك! يا إلهي، يا إلهي!

لم تفهم الخالة ما قاله سيدها، ولكنها رأت في وجهه أنه يتوقع شيئاً رهيباً. فمدت بوزها نحو النافذة المظلمة التي خيل إليها أن شخصاً غريباً يطل منها، وأعولت.

وقال السيد وهو يشيح بيديه:

- إنه يحتضر يا خالة! نعم، نعم، يحتضر!

الموت جاء إلى غرفتكم، فما العمل؟

وعاد السيد الشاحب المزعج إلى غرفة نومه وهو يتنهد ويهز رأسه. وأحست الخالة بالرعب من البقاء في الظلام، فتبعته. وجلس على السرير وردد عدة مرات:

- يا إلهي، ما العمل؟

ودارت الخالة حول ساقيه وهي لا تفهم سر هذه الوحشة التي تحس بها، ولماذا يسيطر الانزعاج على الجميع، ولكي تفهم راحت تراقب كل حركة تصدر عنه. أما فيودور تيموفيتش، الذي كان نادراً ما يغادر فرشته، فقد جاء هو الآخر إلى غرفة السيد، وأخذ يتمسح بقدميه. وراح ينفض رأسه، كأنما كان يريد أن ينفض منها الأفكار المزعجة، ويتطلع تحت السرير بارتياح.

وتناول السيد طبقًا صغيرًا وصب فيه ماء من صنبور المغسل، وذهب إلى ذكر الأوز مرة أخرى.

وقال برقة وهو يضع الطبق أمامه:

- اشرب يا إيفان إيفانيتش! اشرب يا عزيزى.

ولكن إيفان إيفانيتش لم يتحرك ولم يفتح عينيه. وأحنى السيد رأس ذكر الأوز إلى الطبق ووضع منقاره فى الماء ولكنه لم يشرب، بل بسط جناحيه أكثر، وبقي رأسه ممدًا فى الطبق.

فتنهد السيد قائلاً:

- كلا، لم يعد من الممكن عمل شيء! كل شيء انتهى. هلك إيفان إيفانيتش!

وانحدرت على خديه قطرات بראה كتلك التى تسيل على النوافذ أثناء المطر. والتصقت الخالة وفيدور تيموفيتش بسيدهما وهما لا يفهمان شيئاً، وتطلعا إلى ذكر الأوز برعب.

وقال السيد وهو يتنهد بأسى:

- مسكين يا إيفان إيفانيتش! كنت أحلم بأن آخذك فى الربيع إلى الدار الريفية وأتجول معك عل العشب الأخضر.

أيها الحيوان العزيز، يا رفيقى الطيب، لقد فقدتك! كيف سأعمل الآن بدونك؟

وخيل للخالة أنه سيحدث لها نفس الشيء، أى أنها هى أيضًا ستغمض عينيها هكذا، لسبب غير معروف، وتمد قوائمها، وتكشر عن أنيابها، وسوف ينظر إليها الجميع برعب.

ويبدو أن مثل هذه الأفكار جالت بخاطر فيدور تيموفيتش أيضًا. ولم

يسبق أن كان القط العجوز مكفهرًا وعبوسًا كما هو الآن..

وبدأ الفجر يلوح، ولم يعد موجودًا في الغرفة ذلك الغريب الذي أربع الخالة إلى تلك الدرجة. وعندما طلع الفجر تمامًا جاء الباب فرفع ذكر الأوز من ساقه وحمله إلى مكان ما. وبعده بقليل جاءت العجوز فحملت الطست.

وذهبت الخالة إلى غرفة الجلوس وأطلت وراء الصوان:

لم يأكل السيد ورك الدجاجة، وكانت في مكانها وسط الغبار وخبوط العنكبوت. ولكن الخالة كانت تشعر بالوحشة والحزن وبرغبة في البكاء. ودخلت تحت الكنبه حتى دون أن تشم الورك، وأخذت تعول هناك بصوت خافت رفيع:

- عو عو، ..

الفصل السابع

بداية غير موفقة

ذات مساء دلف السيد إلى الغرفة ذات ورق الجدران القذر وقال وهو يفرك يديه:

- حسنًا..

كان يريد أن يقول شيئًا آخر ولكنه لم يقل وخرج. وخمنت الخالة، التي درست جيدًا وجهه ونبراته أثناء التدريبات، أنه منفعل ومهموم، بل على ما يبدو، غاضب. وعاد بعد قليل وقال:

- اليوم سأخذ معي الخالة وفيودور تيموفيتش. أنت يا خالة ستحلين اليوم محل المرحوم إيفان إيفانيتش في الهرم المصرى. الشيطان يعلم ما هذا! لم نستعد أبداً، ولم نحفظ شيئاً، والتدريبات كانت قليلة! سنتفصح ونفشل! ثم خرج مرة أخرى وعاد بعد دقيقة في معطف الفراء والقبعة الأسطوانية. واقترب من القط فرفعه من ساقيه الأماميتين وخبأه في صدره تحت المعطف، بينما بدا فيودور تيموفيتش غير مبالي أبداً، وحتى لم يكلف نفسه عناء فتح عينيه. والظاهر أنه كان يستوى عنده تمامًا سواء رقد أو رفع من ساقيه، أو تمدد على الفرشة، أو استقر على صدر سيده تحت المعطف..

وقال السيد:

- يا خالة، هيا بنا.

وسارت الخالة خلفه وهى لا تفهم شيئًا وتهز ذيلها. وبعد دقيقة كانت جالسة فى الزحافة عند قدمي سيدها تصغى إلى دمدمته وهو ينكمش من البرد والقلق:

- سنفضح! سنفضل!

توقفت الزحافة أمام بيت كبير غريب، يشبه قصعة حساء مقلوبة. وكان المدخل الطويل لهذا المنزل، ذو الأبواب الزجاجية الثلاثة، مضاء بدسته مصابيح قوية. وكانت الأبواب تفتح برنين، وكالأشداق تبتلع الناس الذين كانوا يتزاحمون عند المدخل. كان الناس كثيرين جدًا، والخيول أيضًا كثيرًا ما كانت تفد راكضة إلى المدخل، ولكن لم يبد أثر للكلاب.

وحمل السيد الخالة على يديه ودسها فى صدره تحت المعطف حيث كان فيودور تيموفيتش. وكان المكان هنا مظلمًا خائفًا ولكنه دافئ. وللحظة توهجت شرارتان خضراوان كابتان، إذ فتح القط عينيه وقد أزعجته أكف جارته الباردة الصلبة. ولعفت الخالة أذنه، وأرادت أن تتخذ وضعًا مريحًا فتحركت بقلق وداسته تحتها بأكفها الباردة، وأطلت برأسها عفواً من فتحة المعطف، ولكنها زمجرت على الفور بغضب وغاصت تحت المعطف. وخيل إليها أنها رأت غرفة ضخمة، سيئة الإضاءة، مليئة بالكائنات الخرافية المخيفة. ومن وراء الحواجز والشباك التى امتدت على جانبي الغرفة أطلت سحن رهيبية:

سحن خيول، وسحن بقرون، وبآذان طويلة، وسحنة ضخمة سمينة بذيل فى مكان الأنف، وبعظمتين طويلتين معروفيتين تبرزان من فمها.

وماء القط بصوت أبج تحت أكف الخالة، ولكن المعطف انفتح فى تلك اللحظة، وقال السيد «هوب!» فقفز فيودور تيموفيتش والخالة إلى الأرض. كانوا الآن فى غرفة صغيرة بجدران رمادية من ألواح الخشب. ولم يكن هنا، بخلاف طاولة صغيرة بمرآة ومقعد بلا ظهر، وخرق معلقة فى الأركان، أى

أثاث آخر، وبدلاً من المصباح أو الشمعة توهج نور ساطع على شكل مروحة كان موضوعاً في أنبوب مدقوق في الحائط. ولحق فيودور تيموفيتش فروته التي جعدتها الخالة، ومضى فرقد تحت المقعد. وبدأ السيد يخلع ملابسه وهو لا يزال مضطرباً بفرك يديه.. خلع ملابسه كما يفعل عادة في البيت عندما يستعد للنوم تحت البطانية الخفيفة، أى نزع عنه كل شيء عدا الملابس الداخلية، ثم جلس على المقعد، وراح يصنع بنفسه أشياء عجيبة وهو يتطلع إلى المرأة. قبل كل شيء وضع على رأسه باروكة بمفرق وقصتين تشبهان القرنين، ثم طلى وجهه بطبقة كثيفة من مادة بيضاء، ورسم فوق الطلاء الأبيض حاجبين وشوارب ووجنتين حمراوين. ولم تنته أفعاله عند هذا الحد. فبعد أن لوث وجهه وعنقه بدأ يرتدى حلة غير عادية لا يمكن مقارنتها بشيء، حلة لم ترها الخالة من قبل أبداً لا في البيوت ولا في الشوارع. تصوروها مثلاً سروالاً واسعاً للغاية محاكاً من فماش الشيت المنقوش بالأزهار، من ذلك النوع المستخدم في بيوت صغار البرجوازيين للستائر وتنجيد الأثاث، سروالاً يزرر عند الأبطين تماماً. وإحدى ساقى السروال محاكاة من شيت بنى والأخرى من شيت أصفر فاقع. وغرق السيد في هذا السروال، ثم ارتدى أيضاً سترة من الشيت بياقة كبيرة مستنة ونجمة ذهبية على الظهر، وجوريا مختلف الألوان وحذاء أخضر..

ومن كثرة الألوان زاغ بصر الخالة وقلبها. وانبعثت من هذا الجسد المترهل الأبيض الوجه رائحة السيد، وكان صوته أيضاً مألوفاً، صوت السيد، ولكن الشكوك كانت تعذب الخالة أحياناً، وعندئذ كانت على استعداد لأن تهرب بعيداً عن هذا الجسد المزركش وتنج. فالمكان الجديد، والنور المروحي، والرائحة، والتحول الذى طرأ على السيد.. كل ذلك بعث في نفسها خوفاً مبهمًا وإحساساً بأنها سوف تقابل حتماً شيئاً مرعباً، مثل تلك السحنة السمينة ذات الذيل في مكان الأنف. وعلاوة على ذلك فقد دوت الموسيقى الكريهة في مكان ما بعيداً خلف الجدار، وتناهى أحياناً زئير غير مفهوم. شيء واحد فقط هدأ من روعها: برود فيودور تيموفيتش. فقد كان نائمًا في هدوء تحت المقعد، ولم يفتح عينيه حتى عندما كانوا يزحزون المقعد.

وأطل في الغرفة شخص ما يرتدى حلة الفراك وصديريا أبيض وقال:

- الآن نمرة ميس أرايلا، وأنتم بعدها.

فلم يرد السيد بشيء. وأخرج من تحت الطاولة حقيبة غير كبيرة، وجلس، وراح ينتظر. وكان واضحًا من شفثيه ويديه أنه منفعل، وسمعت الخالة تهديج أنفاسه.

وصاح أحد ما وراء الباب:

- مسيو جورج، تفضل!

ونفض السيد، ورسم علامة الصليب ثلاث مرات، ثم أخرج القط من تحت المقعد ودسه في الحقيبة. وقال بصوت خافت:

- هيا يا خالة!

واقتربت الخالة من يديه وهي لا تفهم شيئًا، فقبلها في رأسها ووضعها بجوار فيودور تيموفيتش. ثم حل الظلام.. وداست الخالة على القط، وخذشت جدران الحقيبة ولم تستطع من الرعب أن تنفوه بصوت، بينما كانت الحقيبة تتأرجح كأنها فوق موج وترنح..

وصاح السيد بصوت عال:

- أنا هنا! أنا هنا!

وشعرت الخالة بعد هذه الصيحة بالحقيبة تصطدم بشيء صلب وتكف عن التآرجح. وتردد زئير عال غليظ، وربت أحدهم على شخص ما، فزأر هذا الشخص، الذي كان في الغالب تلك السحنة ذات الذيل في مكان الأنف، وفهقه بصوت عال حتى أن أقفال الحقيبة ارتعشت. ورد السيد على الزئير بضحك رفيع ثاقب، لم يضحك مثله أبدا في البيت.

وصاح محاولاً أن يطفئ على الزئير:

- ها! حضرة الجمهور المحترم! أنا وصلت حالاً من المحطة! جدتى ماتت فى داهية وتركت لى ميراثاً! فى الحقبة شىء ثقیل.. يبدو أنه ذهب.. ها.. ها!
ربما فیها مليون! سفتحتها الآن ونرى.. وفرق قفل الحقبة. وتسلط ضوء ساطع على عینی الخالة، فقفزت من الحقبة وتراكضت حول سیدها بكل ما فی وسعها من سرعة، وقد أصمها الزئیر، وانفجرت فی نباح رنان.

فصاح السید:

- ها! خالى فيودور تيموفيتش! خالتى العزيزة!

أقربائى الأعزاء، فلتخطفكم الأبالة!

وارتمى على بطنه فوق الرمل، وأمسك بالقط والخالة وراح يحضنهما. وبينما كان السید يعصر الخالة فى أحضانها نظرت هى بطرف عینها إلى ذلك العالم الذى ألقاها فيه القدر، وأذهلتها ضخامته، فسمرت لحظة من الدهشة والإعجاب، ثم أفلتت من أحضان سیدها، ودارت كالخذروف فى مكانها من قوة الانطباع. كان العالم الجديد كبيراً ومليئاً بالأضواء الساطعة. وأينما نظرت بدت فى كل مكان، من الأرض حتى السقف، وجوه، وجوه فقط، ولاشئ آخر.

وصاح السید:

- يا خالة، اجلسى أرجوك.

ولما كانت الخالة تذكر ما معنى هذا فقد قفزت على الكرسي وجلست. ونظرت إلى سیدها. كانت نظرة عینيه جادة ورفیقة كالعادة، ولكن وجهه، وخاصة فمه وأسنانه، كانت تشوهاها ابتسامة واسعة جامدة. أما هو نفسه فكان یقهقه ویقفز ویهز كتفيه، ویظهار بأنه مسرور للغاية فى حضرة آلاف الوجوه. وصدقت الخالة سروره، وفجأة أحست بكل کيانها أن آلاف الوجوه هذه تحرق فیها، فرفعت بوزها الثعلبی إلى أعلى وعوت بمرح.

فقال لها السيد:

- اجلسي أنت يا خالة أما أنا وخالي فسرقص كما رينسكى^(١).

كان فيودور تيموفيتش واقفاً وهو يتطلع حوله بلا اكتراث، فى انتظار اللحظة التى سيجبرونه فيها على القيام بأشياء حمقاء. ورقص بفتور، وباستهتار وعبوس، وبدا واضحاً من حركاته، ومن ذيله وشواربه، أنه يحتقر إلى حد بعيد هذا الجمهور، والضوء الساطع، وسيدة، ونفسه.. وبعد أن أدى دوره تشاءب وجلس.

وقال السيد:

- طيب يا خالة. فى البداية سنغنى معاً، وبعد ذلك سرقص. حسناً؟

وأخرج من جيبه مزماراً وعزف عليه. وتململت الخالة، التى لم تكن تطيق الموسيقى، على الكرسي بقلق وعوت.

وتناهى الزئير والتصفيق من كل مكان. فانحنى السيد محيياً، وبعد أن سكن كل شيء استأنف العزف.. وأثناء عزفه نوتة عالية جداً ندت عن أحد المتفرجين فى أعلى الصالة آهة عالية.

وصاح صوت طفولى:

- بابا! هذه كاشتانكا!

فأكد صوت «تينور» ثمل مرتعش:

- بالضبط كاشتانكا! كاشتانكا! يافيدوشكا فليعاقبنى الله إن لم تكن كاشتانكا! فويت!

وصفر أحد ما فى أعلى الصالة، وصاح صوتان عاليان، أحدهما طفولى والآخر لرجل:

كاشتانكا! كاشتانكا!

(١) رقصة شعبية روسية بطلها فلاح ثمل. (المغرب).

وانتفضت الخالة ونظرت إلى الموضع الذى تردد منه الصباح. كان هناك وجهان، أحدهما أشعر، ثمل، ضاحك باستهزاء، وآخر مكتنز أحمر الخدين ومذعور تسلطاً على عيني الخالة كما تسلط الضوء الساطع من قبل.. فتذكرت، وسقطت من الكرسي وتقلبت على الرمل، ثم قفزت واقفة واندفعت نحو هذين الوجهين وهى تعوى بفرح. ودوى زئير يصم الآذان تخلله الصفير وصيحة طفل ثاقبة:

- كاشتانكا! كاشتانكا!

وقفزت الخالة عبر الحاجز، ثم فوق كتف ما، وأصبحت فى المقصورة. ولكى تبلغ الطابق التالى كان عليها أن تقفز من فوق جدار مرتفع. وقفزت الخالة ولكنها لم تصل فانزلقت عن الجدار إلى أسفل. ثم انتقلت بعد ذلك من يد إلى يد، وهى تعلق أيدى ورؤوس أشخاص ما، وتقدمت صاعدة أعلى فأعلى، حتى وصلت أخيراً إلى أعلى الصالة..

بعد نصف ساعة كانت كاشتانكا تسير فى الشارع خلف شخصين تفوح منهما رائحة الصمغ وورنيش اللك. وكان لوقا ألكسندريتش يترنح، ويحاول غريزياً، وقد علمته الخبرة، أن يسير بعيداً عن خندق الطريق.

ومضى يدمدم:

- فى رحم الذنوب السحيق أتمرغ.. أما أنت يا كاشتانكا فأمرك عجب. أنت، بالمقارنة مع الإنسان، مثلك مثل النجار بالمقارنة مع صانع الأثاث. ويجوارهما سار فيدوشكا مرتدياً عمرة أبيه. ونظرت كاشتانكا إلى ظهرهما وخيل إليها أنها تسير خلفهما منذ زمن بعيد وتشعر بالفرحة لأن حياتها لم تتوقف لحظة واحدة.

وتذكرت الغرفة ذات ورق الجدران القذر، وذكر الأوز، وفيودور تيموفيتش، والطعام اللذيذ، والتدريب، والسيرك، ولكن ذلك كله بدا لها الآن كحلم طويل مشوش مرهق..

القبلة

فى ٢٠ مايو، وفى الساعة الثامنة مساء توقفت جميع البطاريات الست من لواء «س» المدفعية الاحتياطى، التى كانت متجهة إلى المعسكر، للمبيت فى قرية ميستينشكى. وفى أوار الهرج، عندما كان بعض الضباط يروحون ويجيئون قرب المدافع، بينما كان البعض الآخر، وقد تجمعوا فى الميدان قرب سور الكنيسة، يستمعون إلى تقارير مسئولى الإيواء، ظهر من وراء الكنيسة فارس فى زى مدنى وعلى متن حصان غريب. كان حصاناً كميئاً، صغيراً، بعنق جميل وذيل قصير، ولم يكن يسير فى خط مستقيم، بل منحرف، ويأتى بحركات قصيرة راقصة بقوائمه، كأنما كان أحد ما يضربه بالسوط عليها. وعندما اقترب الفارس من الضباط رفع قبعة وقال:

- صاحب السعادة اللفتنانت جنرال فون.. رايبك، الإقطاعى المحلى، يدعو السادة الضباط للحضور إليه حالاً لتناول الشاي..

وانحنى الحصان، ورقص، وتراجع بجنبه إلى الخلف، ورفع الفارس قبعة مرة أخرى، وبعد لحظة كان قد اختفى مع حصانه الغريب وراء الكنيسة.

ودمدم بعض الضباط بتذمر وهم ينصرفون إلى مساكنهم:

- الشيطان يعلم ما هذا! نريد أن ننام، بينما يأتينا هذا الفون.. رايبك بشايه! ما الداعى؟ وأى شاي الآن!

وتذكر ضباط البطاريات الست. على الفور حادث العام الماضى، عندما

وجهت إليهم الدعوة أثناء المناورات، هم وضباط أحد ألوية القوزاق، بمثل هذه الطريقة، لتناول الشاي عند إقطاعي كونت، عسكري سابق. واستقبلهم الكونت المضيف البشوش بركة، وأطعمهم وسقاهم، ولم يدعهم يذهبون إلى القرية للنوم بل استبقاهم للمبيت في داره. وكان كل هذا بالطبع حسناً، بل وليس هناك أفضل من ذلك، ولكن المصيبة أن فرحة العسكري المتقاعد بالضباط الشبان فاقت كل الحدود. فظل حتى الفجر يروى للضباط مشاهد من ماضيه الطيب، وطاف بهم على الغرف وهو يعرض عليهم لوحاته الثمينة والرسوم القديمة والأسلحة النادرة، وقرأ لهم رسائل خطية من شخصيات كبيرة، أما الضباط المعذبون المنهكون فكانوا يستمعون إليه وينظرون إلى معروضاته وهم يتحرقون شوقاً إلى الأسرة، ويخفون بحذر تناوؤياتهم في أكمامهم. وعندما أطلق المضيف سراحهم أخيراً لم يكن هناك وقت للنوم.

نرى أيكون هذا الفون.. رايك مثله؟ وسواء كان مثله أم لم يكن، فليس ثمة حيلة. بدل الضباط ملابسهم، ورتبوا هندامهم، وانطلقوا جميعاً يبحثون عن دار الإقطاعي. وفي الميدان أمام الكنيسة قبل لهم إنه يمكن الذهاب إلى دار السادة من الأسفل.. أن يهبطوا من خلف الكنيسة إلى النهر ويسيروا على الشاطئ حتى يبلغوا بستان الدار، وهناك ستقودهم دروبها إلى حيث يريدون. أو أن يذهبوا من أعلى.. من الكنيسة مباشرة، على الطريق الذي يفضى بعد نصف فرسخ من القرية إلى مخازن السادة مباشرة. وقرر الضباط أن يتبعوا الطريق العلوي.

وتساءلوا أثناء الطريق:

- من هو فون.. رايك هذا؟ أليس هو الذي كان يقود فرقة الخيالة (س) قرب بليفيا؟

- كلا، لم يكن فون.. رايك، بل راي، وبدون فون.

- ما أروع الطقس!

وتفرع الطريق عند أول مخزن من مخازن السادة، فاتجه فرع منه إلى الأمام مباشرة حيث اختفى فى ظلام المساء، بينما انعطف الفرع الثانى إلى اليمين نحو منزل السادة. ومضى الضباط يمينا وراحوا يتحدثون بصوت خافت.. وعلى جانبى الطريق امتدت مخازن حجرية بأسقف حمراء، وكانت جهمة ثقيلة، تشبه كثيرا ثكنات مدينة ريفية. وفى الأمام لاحت أضواء نوافذ بيت السادة.

وقال أحد الضباط:

- يا سادة هذا فال حسن! إن كلب صيدنا يسير فى مقدمة الجميع، إذن فهو يشم رائحة فريسة!

سار الملازم لوبيتكو فى المقدمة، وكان طويلا وممتلىء الجسم، ولكنه بلا شوارب على الإطلاق (كان قد جاوز الخامسة والعشرين، ولكن لسبب ما لم ينبت فى وجهه المستدير الشبان أى شعر) وكان مشهورا فى اللواء بحدسه وقدرته على التكهن بوجود نساء عن بعد. فاستدار قائلا:

- نعم، هنا ينبغى أن توجد نساء. إننى أدرك ذلك بغريزتى.

واستقبل الضباط عند عتبة الدار فون.. رايبك نفسه، وهو شيخ بهى، فى حوالى الستين، فى حلة مدنية. وقال وهو يصافح الضيوف إنه مسرور جدا وسعيد، ولكنه يرجو السادة الضباط بشدة ويستحلفهم بالله أن يعذروه على عدم دعوتهم لهم للمبيت.. فقد حضرت إليه شقيقته وأبناؤهما وإخوته وجيرانه، بحيث لم تبق لديه غرفة واحدة خالية.

صافح الجنرال أيدى الجميع وهو يرجو المعذرة ويتسم، ولكن بدا على وجهه أنه لم يكن أبدا مسرورا إلى هذا الحد بهؤلاء الضيوف، مثلما كان ذلك الكونت فى العام الماضى، وأنه لم يدع إليه الضباط إلا لأن اللياقة، حسب رأيه، تقتضى ذلك. وأدرك الضباط أنفسهم، وهم يصعدون الدرج اللين ويصفون إلى الكونت أنهم لم يدعوا إلى هذا البيت إلا لأن عدم دعوتهم أمر محرج،

وعندما رأوا الخدم يسارعون إلى إشعال المصابيح عند المدخل في الأسفل، وفي البهو في الأعلى، خيل إليهم أنهم حملوا معهم إلى هذا البيت الإزعاج والقلق. فهل يمكن أن يكون وجود تسعة عشر ضابطاً غرباء أمراً محبباً في مكان اجتمع فيه، ربما لمناسبة عائلية أو لاحتفال ما، شقيقتان مع أبنائهما وأخوة وجيران؟

وفي الأعلى، عند مدخل القاعة، استقبلت الضيوف عجوز طويلة ممشوقة، ذات وجه طويل وحاجبين أسودين، شديدة الشبه بالإمبراطورة أوجين. قالت وهي تبسم بترحاب ومهابة إنها مسرورة وسعيدة برؤية الضيوف في بيتها، واعتذرت لعدم تمكنها هي وزوجها في هذه المرة من دعوة السادة الضباط للمبيت. وبدا من ابتسامتها الجميلة المهيبة، التي كانت تختفي من وجهها على الفور كلما حولته عن الضيوف لأمر ما، أنها رأت في حياتها الطويلة كثيراً من السادة الضباط، وأنها في شغل عنهم الآن، وإذا كانت قد دعتهم إلى دارها ومضت تعتذر لهم، فإنما تفعل ذلك فقط لأن ترتيبها ووضعها في المجتمع يقتضيان هذا.

وفي غرفة الطعام الكبيرة التي دلف إليها الضباط، جلس إلى أحد جانبي مائدة طويلة حوالي عشرة رجال ونساء. كبار وشبان، يشربون الشاي. ومن خلف مقاعدهم بدت مجموعة من الرجال تغلفهم سحب دخان السيجار الخفيفة. وفي وسطهم وقف شاب نحيل بسالفين صغيرين أحمرين يتحدث عن شيء ما بصوت عال وبالإنجليزية وهو يلثغ. ومن خلف المجموعة بدت من خلال الباب غرفة مضيئة بأثاث أزرق.

وقال الجنرال بصوت عال محاولاً أن يبدو مرحاً جداً:

- أيها السادة، إنكم من الكثرة بحيث يستحيل تقديمكم. فلتعارفوا بأنفسكم يا سادة، دون كلفة!

وانحنى الضباط محيين كيفما كان، بعضهم بوجوه جادة للغاية، بل وحتى

صارمة، والبعض الآخر بابتسامات متكلفة، وهم يشعرون جميعا بالحرَج الشديد، وجلسوا لتناول الشاي.

كان أكثر الجميع شعورا بالحرَج النقيب ريبوفتش، وهو ضابط صغير الجسم، محنى القامة، يضع نظارة، وذو سوارف كسوارف الوشق. وبينما كان بعض زملائه يكسبون وجوههم ملامح الجد، والبعض الآخر يتكلف الابتسام، كان وجهه هو، وسوارفه الوشقية ونظارته، كأنما تقول: «أنا أكثر ضباط اللواء كله خجلا، وتواضعا، وأقلهم تميزا!». وفي اللحظات الأولى، عندما دخل غرفة الطعام، ثم بعد ذلك، وهو جالس يتناول الشاي، لم يستطع أبدا أن يركز انتباهه على وجه واحد أو شيء واحد. فقد امتزجت الوجوه والملابس وأباريق الكونياك المضلعة، والبخار المتصاعد من أكواب الشاي، والسلال الخزفية، امتزج ذلك كله في انطباع واحد هائل ألقي في قلب ريبوفتش بالجزع والرغبة في إخفاء رأسه. وكالممثل الذي يواجه الجمهور لأول مرة، كان يرى كل شيء أمام عينيه، إلا أن ما رآه كان عسير الفهم (تسمى هذه الحالة لدى الفسيولوجيين بـ «العمى السيכולوجي» وذلك عندما يرى الشخص ولا يفهم ما يراه). ولكن بعد مضي بعض الوقت تأقلم ريبوفتش فعاد إليه بصره وراح يراقب. وكان أول ما أثار انتباهه، كشخص خجول منطو ذلك الشيء الذي كان يفقده دائما، أي تلك الجرأة الفاتكة للمعارف الجدد. إذ أن فون.. رايبك، وزوجته، والسيدتين الكبيرتين، وتلك الفتاة ذات الثوب البنفسجي، والشاب ذا السوارف الحمراء، والذي اتضح أنه الابن الأصغر لرايبك، قد توزعوا بين الضباط ببراعة شديدة وكأنما تدربوا على ذلك من قبل، وعلى الفور أثاروا نقاشا حاميا لم يكن بوسع الضيوف إلا أن يشاركوا فيه. وراحت الفتاة البنفسجية تؤكد بحرارة أن حياة رجال المدفعية أسهل بكثير من حياة الخيالة أو المشاة، أما رايبك والسيدتان الكبيرتان فكانوا يؤكدون العكس. وبدأ حديث متقاطع. ونظر ريبوفتش إلى الفتاة البنفسجية التي كانت تجادل بحرارة في أمر غريب عنها وغير مثير لاهتمامها أبدا، وراقب كيف كانت الابتسامات غير الصادقة تظهر على وجهها ثم تختفي.

وجذب فون.. رايبك وأسرته الضباط إلى الجدل بمهارة، بينما مضوا في نفس الوقت يراقبون بيقظة أكوام الضباط وأفواههم، وهل يشربون جميعاً، وهل شايبهم حلو، ولماذا لا يتناول الضابط الفلاني البسكويت أو لا يشرب الكونياك. وكلما أطال ربابوفتش النظر وأصاخ السمع ازداد إعجابه بهذه الأسرة التي وإن كانت غير صادقة المشاعر إلا أنها رائعة الانضباط.

وبعد الفراغ من تناول الشاي اتجه الضباط إلى الصلاة. ولم يخب حدس الملازم لوبيتكو.. فقد كان في الصلاة كثير من السيدات والنساء الشابات. وكان الملازم - كلب الصيد - واقفاً بالفعل بجوار شقراء شابة جداً ترتدى فستاناً أسود، وقد انحنى بجسارة كأنما كان يعتمد على سيف غير مرئي، وهو يتسم ويلعب كتفيه بدلال. كان في الغالب يقول هراء ما طريفاً للغاية، لأن الشقراء كانت تنظر بتسامح إلى وجهه الشبعان وتتساءل بلا اكتراث: «حقاً؟». ولو كان كلب الصيد ذكياً لما توقع من هذه الـ «حقاً» اللامبالية أن يقولوا له: «خذها!».

ودوت أنغام المعزف. وانطلق فالس حزين من الصلاة عبر النوافذ المفتوحة، ولسبب ما تذكر الجميع أن الربيع الآن وراء النوافذ، وأن الليلة أمسية من شهر مايو. وأحس الجميع في الجو برائحة أوراق الحور الشابة والورود والبنفسج. أما ربابوفتش الذي أفصح فيه الكونياك المشروب عن نفسه تحت تأثير الموسيقى، فقد حول بصره إلى النافذة وابتسم، ثم راح يتابع حركات النساء، وبداله الآن أن رائحة الورود والحور والبنفسج لا تنبعث من البستان بل من وجوه النساء وفساتينهن.

ودعا ابن رايبك فتاة ما نحيلة إلى الرقص ودار معها دورتين. أما لوبيتكو فقد هروا، وهو ينزلق على الباركيه، إلى الفتاة البنفسجية وحلق معها في الصلاة. وبدأ الرقص..

ووقف ربابوفتش بجوار الباب وسط جمهور غير الراقصين وأخذ يراقب. لم يرقص في حياته كلها مرة واحدة، ولم يتسن له في حياته كلها أن يحتضن خصر سيدة محترمة. كان يعجبه جداً أن يمسك الشخص بخصر فتاة لا يعرفها

على مرأى من الجميع ويقدم لها كتفه لتضع عليها يدها، إلا أنه لم يستطع أبداً أن يتصور نفسه فى مكان هذا الشخص. وفى وقت ما كان يحسد شجاعة زملائه وشطارتهم ويحز ذلك فى نفسه.

وكان إدراكه بأنه خجول، محنى القامة وباهت، وأنه طويل الخصر ووشقى السوالف يترك فى نفسه إحساساً عميقاً بالمهانة، ولكن بمضى الزمن أصبح هذا الإحساس مألوفاً، ولم يعد الآن، وهو ينظر إلى الراقصين أو المتحدثين بصوت عال، يشعر بالحسد، بل بإعجاب حزين.

وعندما بدأت رقصة الكادريل اقترب ابن فون.. رايك الشاب من غير الراقصين ودعا اثنين من الضباط إلى لعب البلياردو. ووافق الضابطان وخرجا معه من الصالة. ولما لم يكن لدى رايك وقتش ما يفعله، وبدافع الرغبة فى المشاركة بأى شىء فى الحركة العامة، فقد مضى فى أثرهم. خرجوا من الصالة إلى غرفة الاستقبال، ثم إلى ممر زجاجى ضيق، ومنها دلفوا إلى غرفة، حيث قفز لدى ظهورهم ثلاثة من الخدم الناعسين من على الكنية بسرعة. وأخيراً، وبعد عبور عدد كبير من الغرف، دخل رايك الشاب والضباط غرفة غير كبيرة، امتدت فيها طاولة البلياردو. وبدأ اللعب.

وقف رايك وقتش، الذى لم يمارس فى حياته أية لعبة سوى الورق، بجوار الطاولة وراح ينظر بلا اكتراث إلى اللاعبين، أما هم فكانوا يدورون، بسترات مفكوكة الأزوار وبالعصى فى أيديهم، وهم يتبادلون القفشات ويصبحون بكلمات غير مفهومة. لم يلحظه أحد من اللاعبين، وأحياناً فقط، عندما كان أحدهم يضربه بكوعه أو تشتبك عصاه به عفواً، يستدير إليه ويقول «pardon». وقبل أن ينتهى الدور الأول كان قد أحس بالملل، وبدأ يتخيل أنه زائد على الحاجة ويعوقهم.. وراودته رغبة فى العودة إلى الصالة فخرج.

وفى طريق العودة تعرض لمغامرة صغيرة. فقد انتبه فى وسط الطريق إلى أنه يسير إلى غير الجهة التى يقصدها. فقد كان يذكر جيداً أنه ينبغى أن يقابل

فى الطريق ثلاثة خدَم ناعسين، ولكنة عبر خمس أو ست غرف، ولم يقابل الخدَم وكأنما انشقت الأرض وابتلعتهم. وعندما أدرك خطأه عاد قليلاً إلى الراء وانعطف يمينا، فوجد نفسه فى غرفة مكتب شبه مظلمة لم يمر بها فى طريقه إلى غرفة البلياردو. وقف هنا حوالى نصف دقيقة، ثم فتح بحزم أول باب وقع عليه بصره، وولج غرفة مظلمة تماماً. وفى مواجهته مباشرة ظهر فرج باب كان يتسرب منه ضوء ساطع. ومن خلف الباب تناهت نغمات مكتومة لرقصة مازوركا حزينة. وهنا، كما فى الصلاة، كانت جميع النوافذ مفتوحة على مصاريعها، وانتشرت رائحة الحور والبنفسج والورود..

توقف ريابوفتش متردداً.. وفى تلك اللحظة فوجئ بخطوات عجلى وحفيف ثوب، وهمس صوت نسائى مختنق:

«أخيراً!» وطوقت عنقه ذراعان ناعمتان عطرتان، لا شك أنهما نسائتان. والتصق خد دافئ بخده، وفى نفس اللحظة تردد صوت قبلة. وعلى الفور نددت عن صاحبة القبلة صرخة ضعيفة، وارتدت عنه، بتقرز، كما خيل لريابوفتش. وكاد هو أيضاً أن يصرخ، واندفع نحو فرج الباب المضىء.. عندما عاد إلى الصلاة كان قلبه يخفق ويدها ترتعشان بصورة ملحوظة حتى أنه سارع بإخفائهما وراء ظهره. وفى البداية عذبه الخجل والخوف من أن كل من فى الصلاة يعرفون أن امرأة قد عانقته وقبلته الآن، فأنكمش وأخذ يتلفت حوله بقلق، وعندما تأكد أنهم يرقصون ويثرثرون بهدوء فى الصلاة كما فى السابق، استسلم تماماً لهذا الإحساس الجديد الذى لم يمر به فى حياته أبداً. كان شىء غريب يحدث له.. وبدا له أن عنقه الذى طوقته منذ لحظات ذراعان ناعمتان عطرتان قد تلوث بالزيت. وعلى خده، بجوار شاربه الأيسر حيث قبلته تلك المجهولة، سرت برودة راعشة خفيفة كبرودة قطرات النعناع، وكلما أمعن فى حك هذا الموضع ازداد الإحساس بالبرودة، أما هو فكان مفعماً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه بهذا الشعور الجديد الغريب الذى كان يتنامى أكثر فأكثر.. وأحس برغبة فى الرقص والحديث والانطلاق إلى البستان، والضحك بصوت عال.. ونسى

تمامًا أنه محنى القامة، باهت، وأن سوالفه وشقية و «هيته غير محددة» (كما وصفته إحدى النساء فى حديث سمعه عرضًا). وعندما مرت بجواره زوجة فون.. رابيك ابتسم لها ابتسامة عريضة رقيقة حتى إنها توقفت ونظرت إليه مستفهمة.

فقال وهو يسوى نظارته:

- بيتكم يعجبني جدًا!..

ابتسمت زوجة الجنرال وأخبرته أن هذا البيت كان فى زمانه ملكا لأبيها، ثم سألته هل والداه على قيد الحياة، ومنذ متى وهو فى الخدمة، ولماذا هو نحيل هكذا وغير ذلك من الأسئلة.. وبعد أن تلقت الإجابة على أسئلتها استأنفت سيرها، أما هو، فبعد حديثه معها، أصبح يتسم بصورة أرق ويفكر فى أنه محاط بأناس رائعين..

وعلى العشاء كان ريبوفتش يأكل آليًا كل ما يقدم له ويشرب، ودون أن يصغى إلى شىء، مضى يحاول أن يفسر لنفسه تلك المغامرة القريبة.. كان لهذه المغامرة طابع غامض ورومانسى، إلا أن تفسيرها كان أمرًا سهلاً. ربما ضربت إحدى الفتيات أو السيدات موعدًا لشخص ما فى تلك الغرفة المظلمة، وانتظرته طويلاً، ولما كانت مستثارة الأعصاب فقد ظنت ريبوفتش بطلها المنشود. ويبدو ذلك أقرب احتمال، خاصة وأن ريبوفتش، عندما مر عبر الغرفة المظلمة، توقف مترددًا، أى أنه كان يبدو كشخص يتظر أيضًا شيئًا ما.. وهكذا فسر ريبوفتش لنفسه سبب القيلة التى تلقاها.

وفكر وهو يطوف بوجوه النساء: «ولكن من هى؟ ينبغى أن تكون شابة، لأن العجائز لا يذهبن إلى المواعيد الغرامية. ثم إنها مهذبة، فقد ظهر ذلك من خفيف ثوبها، ورائحة عطرها، وصوتها..»

وتوقفت نظراته على الفتاة البنفسجية فأعجبته للغاية. كانت كتفها وذراعاها

جميلة، ووجهها ذكيًا، وصوتها رائعًا. وشعر ربابوفتش، وهو يتطلع إليها، برغبة في أن تكون هي بالذات، وليس غيرها، تلك المجهولة.. ولكنها ضحكت ضحكة ما غير صادقة، وقطبت أنفها الطويل الذي بدا له كأنف العجائز. عندئذ حول بصره إلى الشقراء ذات الفستان الأسود.

كانت أكثر شبابًا وبساطة وصدقًا، وكان صدغها ساحرين، وكانت ترشف الكأس بطريقة جميلة جدًا. وأراد ربابوفتش الآن أن تكون هي تلك المرأة. ولكنه سرعان ما وجد أن وجهها مسطح، فحول بصره إلى جارتها..

وفكر وهو يحلم: «من الصعب أن تخمن. لو أخذنا من البنفسجية كتفيها وذراعيها فقط، وأضفنا إليها صدغى الشقراء، وأخذنا العينين من تلك التي تجلس إلى يسار لوبيتكو، فإن..»

وجمع ذلك في ذهنه فظهرت لديه صورة الفتاة التي قبلته، تلك الصورة التي أرادها ولكنه لم يستطع أبدًا أن يجدها على المائدة..

وبعد العشاء مضى الضيوف وقد شبعوا وانتشوا يودعون ويشكرون. وعاد أصحاب الدار يعتذرون ثانية عن عدم استطاعتهم استبقاءهم للمبيت.

- مسرور، مسرور جدًا يا سادة! - قال الجنرال بصدق في هذه المرة (ربما لأن الناس عندما يودعون الضيوف يكونون أكثر صدقًا وطيبة مما عند استقبالهم). - سعيد جدًا! شرفونا بالزيارة في طريق العودة! بلا كلفة! إلى أين؟ تريدون العودة من أعلى؟ كلا، اذهبوا عبر البستان، في الأسفل، فهناك أقرب.

خرج الضباط إلى البستان. وبعد الضوء الساطع والصخب بدا لهم البستان مظلمًا وهادئًا للغاية. وساروا إلى باب السور في صمت. كانوا شبه سكارى، مرحين، راضين، ولكن الظلام والسكون جعلاهم يخلدون لحظة إلى التفكير. وتبادرت إلى ذهن كل منهم، كما إلى ذهن ربابوفتش، في الغالب نفس الفكرة: ترى هل سيأتى ذلك اليوم الذى سيكون لديهم، كما لدى رابيك، منزل كبير، وأسرّة، وبستان، ويصبح لديهم أيضًا إمكانية ملاطفة الضيوف،

ولو عن غير صدق، وجعلهم شباعا، سكارى، راضين؟ وعندما خرجوا من باب السور تحدثوا جميعًا على الفور، وراحوا يضحكون بصوت عالٍ دونما سبب. كانوا الآن يسرون على الدرب الذى ينحدر إلى النهر ثم يمتد بجوار المياه مباشرة ملتصقًا حول دغل الشاطئ والخلجان الصغيرة وأشجار الصفصاف ذات الأغصان المهدلة فوق الماء. كان الشاطئ والدرب لا يكادان يلوحان، أما الشاطئ الآخر ففرق كله فى الظلمة. وفى بعض الأماكن انعكست النجوم على سطح المياه المظلمة. كانت ترتعش وتلاشى، ومن هذا وحده كان يمكن التخمين بأن النهر يتدفق بسرعة. وكان الهدوء يشمل المكان. وعلى الشاطئ الآخر آتت طيور البكاسين الناعسة، أما على هذا الشاطئ فقد صدح بلبل بصوت عالٍ فى إحدى الخمائل غير عابىء بجمهرة الضباط. وتوقف الضباط بجوار الخميعة، وتحسسوها، بينما ظل البلبل يصدح.

وسمعت صيحات استحسان:

- هل رأيتم؟ نحن نقف بجواره وهو لا يعيرنا انتباهًا! يا له من شيطان!

فى نهاية المشوار صعد الدرب إلى أعلى والتقى بالطريق قرب سور الكنيسة. وهنا جلس الضباط وقد أرهقهم الصعود، ودخنوا. وعل الشاطئ الآخر لاح ضوء أحمر كاب، ولما لم يكن لديهم ما يفعلونه أخذوا يخمنون هل هى شعلة نار، أم ضوء فى نافذة، أم شيء آخر.. وتطلع ريبوفتش أيضًا إلى الضوء، وخيل إليه أنه يتسم له ويغمز بطريقة خاصة وكأنما يعرف أمر القبلية.

وعندما عاد ريبوفتش إلى مسكنه نزع ملابسه بسرعة وأوى إلى الفراش. وفى نفس المنزل نزل معه لوبيتكو والملازم ميرزلياكوف، وهو فتى هادئ، صموت، يعتبر فى محيطه ضابطًا مثقفًا، يقرأ دائمًا فى كل مكان يمكن فيه القراءة مجلة «بشير أوروبا» التى كان يحملها معه أينما ذهب. ونزع لوبيتكو ملابسه وأخذ يروح ويحىء فى الغرفة طويلاً، وبدأ كشخص غير راض، ثم أرسل جندى المراسلة ليحضر بيرة. وأوى ميرزلياكوف إلى الفراش، ووضع بجوار رأسه شمعة، وانهمك فى قراءة «بشير أوروبا».

«تري من هي؟» - فكر ربابوفتش وهو ينظر إلى السقف المسود من الدخان.

كان لا يزال يخيّل إليه أن عنقه ملوث بالزيت، وبجوار فمه أحس بالبرودة الخفيفة كبرودة قطرات النعناع. وومضت في خياله كتفا الفتاة البنفسجية وذراعاها، وصداغا الشقراء ذات الفستان الأسود وعيناها الصادقتان، والخصور والفساتين والبروشات. وحاول أن يركز انتباهه في هذه الصور، إلا أنها كانت تقفز وتتلاشى وتومض. وعندما كانت هذه الصور تختفي تمامًا على الخلفية السوداء العريضة التي يراها كل من يغمض عينيه، يسمع خطوات عجلية، وحفيف فستان وصوت قبلة، فتتملكه فرحة قوية لا سبب لها.. وسمع وهو مستسلم لهذه الفرحة كيف عاد جندي المراسلة وأبلغ أنه لا توجد بيرة. واستشاط لوبيتكو غضبًا وعاد يروح ويجيء. وقال وهو يتوقف تارة أمام ربابوفتش وتارة أمام ميرزلياكوف:

- ما رأيكم في هذا الأبله؟ أي أحمق وغبي ينبغي أن يكون حتى لا يجد بيرة! هه؟ أليس محتالاً؟

فقال ميرزلياكوف دون أن يرفع عينيه عن «بشير أوروبا»:

- بالطبع لا يمكن أن تجد بيرة هنا.

فألح عليه لوبيتكو:

- نعم؟ أهكذا تظن؟ يا إلهي، ياربي، لو ألقيت بي إلى القمر فسأجد لك على الفور بيرة ونساء! حسنًا، سأذهب الآن وأجد.. فلتعتبرني نذلًا إن لم أجد! واستغرق وقتًا طويلاً في ارتداء ملابسه وشد حذائه الطويل الكبير، ثم دخّن سيجارة في صمت ومضى.

ودمدم وهو يتوقف في المدخل:

- رايبك، جرايبك، لايبك. يا للشيطان، لا أشعر برغبة فى الذهاب بمفردى.
يا ريبوفتش، ألا تريد أن تتريض قليلاً؟ هه؟

وعندما لم يسمع ردًا عاد، ونزع ملابسه ببطء، وأوى إلى الفراش. وتنهّد
ميرزلياكوف، ووضع «بشير أوروبا» جانبًا، وأطفأ الشمعة.

ودمدم لوبيتكو وهو يشعل سيجارة فى الظلام:

- نعم..

وتغطى ريبوفتش إلى ما فوق رأسه، وانطوى على نفسه كالكعكة وراح
يجمع فى خياله الصور الوامضة ويركب منها صورة متكاملة. إلا أنه لم يوفق
إلى شىء. وسرعان ما نام، وكانت آخر فكرة طافت بذهنه أن شخصًا ما قد
لاطفه وأبهجه، وأن شيئًا ما قد وقع فى حياته، شيئًا أحسن ولكنه حسن وبهيج
إلى أقصى حد. ولم تفارقه هذه الفكرة حتى فى المنام.

عندما استيقظ لم يعد يشعر بالزيت على عنقه وبالبرودة التناعية قرب
شفتيه، ولكن الفرحة، مثلما بالأمس، كانت تغمر قلبه كالموجة. وتطلع
بإعجاب إلى أطر النوافذ التى ذهبت الشمس البازغة، وأصاخ السمع إلى
الحركة الدائرة فى الخارج. كان هناك من يتحدث بصوت عال تحت النوافذ
مباشرة.

كان قائد بطارية ريبوفتش، ويدعى ليبيديتسكى، الذى لحق بالبطارية لتوّه،
يتحدث مع رفيقه بصوت عال جدًا لعدم تعوده على الحديث بصوت خافت.

صاح القائد:

- وماذا أيضًا؟

- عند تغيير الحدود بالأمس يا صاحب المعالى ركبنا حدوات لـ «عزيز».
ووضع الحكيم له طينًا وخلاً. والآن يسحبونه من اللجام بدون حمولة. وبالأمس

أيضًا يا صاحب المعالي شرب الأسطى أرتيمييف حتى السكر، وأمر الملازم بأن نحمله على مقدمة عربة المدفع الاحتياطية.

وأبلغ الرقيب أيضًا أن كاربوف نسي خيوط الأبقاج الجديدة وأوتاد الخيام، وأن السادة الضباط كانوا مساء أمس في ضيافة الجنرال فون.. رايبك. وخلال الحديث ظهر في النافذة رأس ليبيديتسكى بلحيته الحمراء. وزر عينيه القصيرتي النظر وهو ينظر إلى الضباط الناعسين وحياهم. ثم سأل:

- كل شيء على ما يرام؟

فأجاب لوبيتكو متثائبًا:

- فرس السرج الرئيسية جرحت عنقها.. بالنير الجديد.

فتنهّد القائد، وفكر قليلًا، ثم قال بصوت عال:

- إتنى أفكر في الذهاب إلى الكساندرا يفجرا فونا. ينبغي أن أزورها. حسنًا، وداعًا. سألحق بكم في المساء.

وبعد ربع ساعة تحرك اللواء. وعندما مر في الطريق بجوار مخازن السادة، نظر ريبوفتش يمينًا إلى البيت. كانت حصر التوافذ مسدلة. يبدو أن أهل البيت ما زالوا نائمين.

وتلك التي قبلت ريبوفتش بالأمس كانت أيضًا نائمة. وأراد أن يتصورها نائمة. النافذة المفتوحة على مصراعيها في غرفة النوم، والغصون الخضراء المطلة في هذه النافذة، وبرودة الصباح المنعشة، وأريج الحور والبنفسج والورود، والسرير، والكرسى وعليه الفستان الذى هفّيف بالأمس، والحذاء والساعة على الطاولة.. كل ذلك تخيله بوضوح ودقة، أما ملامح الوجه، والابتسامة الناعسة الرقيقة، أى بالضبط ما كان مهما ومميزًا، فقد انزلق من خياله كما ينزلق الزئبق تحت الأصابع. وبعد أن قطعوا نصف فرسخ نظر إلى الورا: كانت الكنيسة الصفراء، والبيت، والنهر، والبستان مغمورة بالنور.

وكان النهر جميلاً للغاية بشواطئه الخضراء اليانعة وانعكاس السماء الزرقاء فيه وتموجه الفضى تحت أشعة الشمس فى بعض المواضع. وتطلع ريابوفتش لآخر مرة إلى ميستيتشكى وداهمه الحزن، كأنما كان يفارق شيئاً قريباً حبيباً.

وعلى الطريق لم يكن أمام بصره سوى الصور المألوفة من زمان وغير الشيقة.. فعن اليمين وعن اليسار حقول الجودار الفتى والحنطة السوداء بالغربان القافزة فيها. فإذا نظرت أمامك رأيت الغبار ومؤخرات الرؤوس، وإذا نظرت إلى الخلف ترى نفس الغبار والوجوه.. وفى مقدمة الجميع يسير أربعة أشخاص بسيوف.. إنهم الطليعة. ومن خلفهم جمع المنشدين، ومن خلف المنشدين نافخو الأبواق على متن الخيول. وكانت الطليعة والمنشدون، مثل حاملى المشاعل فى مواكب الجنائز، ينسون بين الحين والحين المسافة المنصوص عليها فى اللوائح، فيتعدون كثيراً إلى الأمام.. وكان ريابوفتش بجوار المدفع الأول فى البطارية الخامسة. ولذلك فهو يرى كل البطاريات الأربع السائرة أمامه. وبالنسبة لشخص غير عسكري يبدو هذا الطابور الطويل الثقيل الذى يمثل له لواء مدفعية متحرك، خليطاً معقداً وصعب الفهم. فليس مفهوماً لماذا يتجمهر هذا العدد من الأشخاص حول مدفع واحد، ولماذا يجره كل هذا العدد من الخيول الملفوفة بعدة غريبة، وكأنما هذا المدفع بالفعل رهيب وثقيل إلى هذه الدرجة. أما بالنسبة لريابوفتش فكل شيء مفهوم، ولهذا فهو غير طريف على الإطلاق. إنه يعرف منذ زمن بعيد لماذا يسير فى مقدمة كل بطارية، بجوار الضابط، صف ضابط رزين ولماذا يسمى «الشداد». ومن خلف ظهر هذا الصف ضابط يبدو ساسة خيول الشدة الأولى والوسطى. ويعرف ريابوفتش أن الخيول اليسرى، والتى يركونها تسمى السروجية، أما الخيول اليمنى فتسمى المقودة، وهذا غير طريف أبداً. ومن وراء السائس تأتى الفرسان الرئيسيتان.

ويمتطى السائس صهوة أحدهما وعلى ظهره غبار الأمس، وعلى ساقه

اليمنى خشبة خرقاء مضحكة جدًا. ويعرف ربابوفتش الغرض من هذه الخشبة، ولا تبدو له مضحكة. وجميع الساسة، عن بكرة أبيهم، يلوحون بالسياط بطريقة آلية وأحيانًا يصيحون. أما المدفع فيبدو قبيحًا. فعلى مقدمة عربته تتكوم أجولة الشعير المغطاة بالمشمع، بينما تتدلى منه غلايات الشاي وأكياس الجنود والصرر الصغيرة، ويبدو كحيوان صغير أليف لا يعرف لأي غرض أحاط به الناس والخيول. وعلى جانبي المدفع يسير ستة من أفراد الطاقم وهم يهزون أذرعهم. وبعد المدفع يظهر ثمانية «شدادون» جدد، وساسة، وخيول رئيسية، ثم يتبعهم مدفع آخر، أيضًا قبيح وغير مهيب كالمدفع الأول. وبعد المدفع الثاني يأتي الثالث، والرابع، وبجوار الرابع ضابط، وهكذا دواليك ويضم اللواء ست بطاريات، في كل بطارية أربعة مدافع. ويمتد الطابور نصف فرسخ. وينتهي بالحملة، التي تسير بجوارها سحنة لطيفة إلى أقصى حد، وقد طأطأت رأسها مستغرقة.. إنه الحمار «مجار»، الذي أتى به أحد قادة البطاريات من تركيا.

تطلع ربابوفتش بلا اكتراث إلى الأمام وإلى الخلف، إلى مؤخرات الرؤوس وإلى الوجوه. ولو كان في حال أخرى لاستسلم للنعاس، ولكنه الآن غارق في أفكاره الجديدة السارة. ففي البداية، عندما بدأ اللواء تحركه، أراد أن يقنع نفسه بأن حادث القبله لا يمكن أن يكون طريقًا إلا باعتباره مغامرة صغيرة غامضة، وأنه في الواقع حادث تافه، ومن الغباء، على أقل تقدير، التفكير فيه جدًّا. إلا أنه سرعان ما ترك عنه المنطق واستسلم للأحلام.. فتارة يتخيل نفسه في غرفة الجلوس في دار رايبك، جالسًا بجوار فتاة تشبه الفتاة البنفسجية والشقراء ذات الفستان الأسود، وتارة يغمض عينيه فيرى نفسه مع أخرى، غير معروفة له أبدًا، بملامح غير محددة إطلاقًا. وكان يتحدث في سرقة، ويلاطف، ويميل إلى الكتف، ويتخيل الحرب والفراق، ثم اللقاء والعشاء مع الزوجة والأولاد..

- إلى الاستندات^(١) ! - كانت هذه الصبيحة تتردد كلما انحدر الطريق إلى أسفل.

فكان هو أيضًا يصيح «إلى الاستندات!» ويخشى أن تقطع هذه الصبيحة عليه أحلامه وتعيده إلى الواقع ..

وعندما مروا بجوار ضيعة أحد الإقطاعيين تطلع ربابوفتش عبر الحديقة الصغيرة إلى البستان. ووقعت عيناه على ممر طويل مستقيم كالمنسطرة، مفروش بالرمل الأصفر وقد غرست على جانبيه أشجار بتولا فتية.. وبينهم شخص أوغل في الأحلام تخيل ساقين نسائيتين تخطوان على الرمل الأصفر، ودون أن يتوقع تمامًا ارتسمت في خياله بوضوح تلك التي قبلته، والتي استطاع أن يتصورها بالأمس أثناء العشاء. وتوقفت هذه الصورة في ذهنه ولم تبرحه. وفي منتصف النهار، ترددت صبيحة في المؤخرة، قرب الحملة:

- انتباه! إلى الشمال انظر! السادة الضباط!

وفي عربة يجرها زوج من الخيول البيضاء، مر الجنرال قائد اللواء. وتوقف بجوار البطارية الثانية، وصاح بشيء لم يفهمه أحد. وهروا إليه عدة ضباط، ومن بينهم ربابوفتش.

وسأل الجنرال وهو يطرف بعينين حمراوين:

- هه، كيف الحال؟ ماذا؟ هل هناك مرضى؟ وبعد أن سمع هذا الجنرال الصغير الرفيع الرد على الأسئلة، مضغ قليلاً، وفكر، ثم قال مخاطباً أحد الضباط:

- سائس الشدة الرئيسية في المدفع الثالث لديك خلع وقاء الركبة وعلقه، هذا الوغد، على عربة المدفع. وقع عليه جزاء.

(١) استندة العربة هي العمود الأفقي المتحرك الذي تشد إليه العربة. (المعرب).

ورفع عينيه إلى ربابوفتش واستطرد:

- أما أنت، على ما أظن، فسيور الصدر عندك طويلة..

وبعد أن أبدى الجنرال بعض الملاحظات الأخرى البملة، تطلع إلى لوييتكو وضحك ضحكة قصيرة.

وقال:

أما أنت يا ملازم لوييتكو فمنظرك اليوم حزين جدًا.

هل أوحشتك لوبوخوفا؟ هه؟ يا سادة، لقد أوحشته لوبوخوفا!

كانت لوبوخوفا سيدة بدينة، طويلة جدًا، قد تجاوزت الأربعين منذ زمن بعيد. ولما كان الجنرال مولعا بالسيدات ذوات الأجساد الضخمة، مهما كان عمرهن، فقد كان يتوهم فى ضباطه أيضًا هذا الولع. وابتسم الضباط باحترام. وفهقه الجنرال بصوت عال وقد أراضاه أنه قال شيئًا مضحكًا جدًا ولاذعا، ثم لمس ظهر الحوذى ورفع يده بالتحية.

واستأنفت العربية سيرها..

وفكر ربابوفتش وهو ينظر إلى سحب الغبار الراكضة خلف عربة الجنرال: «إن كل ما أحلم به الآن، وما يبدو مستحيلًا وسماويًا، هو فى الواقع عادى جدًا. كل هذا عادى جدًا والجميع يخبرونه.. مثلاً هذا الجنرال.. قد أحب فى زمانه، وهو الآن متزوج ولديه أولاد. والنقيب فاخثير متزوج أيضًا ومحبوب، رغم أن قفاه قبيح جدا وأحمر، وليس لديه خصر.. وسلمانوف فظ وتترى جدًا، ولكنه عاش أيضًا قصة غرام انتهت بالزواج.. وأنا مثلى مثل الآخرين، وسأخبر عاجلا أم آجلا ما خبروه..».

وأسعدته ورفعت من معنوياته فكرة أنه شخص عادى وأن حياته عادية. ومضى بجراًء، وكيفما شاء، يرسم حياته وسعادته، ولم يضع أية قيود على خياله..

وعندما بلغ اللواء فى المساء المكان المنشود، وأخلد الضباط إلى الراحة فى الخيام، جلس ريبوفتش ولوبيتكو وميرزلياكوف حول صندوق يتناولون العشاء. كان ميرزلياكوف يأكل على مهل ويمضغ ببطء وهو يقرأ «بشير أوروبا» الموضوع على ركبتيه. وكان لوبيتكو يتحدث بلا توقف ويملاً كأسه بالبيرة كلما فرغ، أما ريبوفتش الذى امتلأ رأسه بالضباب من الأحلام طوال النهار فكان يشرب فى صمت. وبعد ثلاث أكواب انتشى وخار، واستبدت به رغبة جارفة فى الإفشاء لرفاقه بما يحسه.

وبدأ يحكى محاولاً أن يضيف على صوته نبرة لا مبالية هازئة:

- وقعت لى حادثة عند آل رايبك هؤلاء.. فقد توجهت هناك إلى غرفة البلياردو..

وراح يحكى بالتفصيل حادثة القبله ثم صمت بعد دقيقة.. فقد روى فى هذه الدقيقه كل شىء، وأدهشه للغاية أن الرواية لم تتطلب إلا هذا الوقت القصير. كان يخيل إليه أنه يستطيع أن يحكى عن القبله حتى الصباح. وبعد أن استمع إليه لوبيتكو، الذى كان يكذب كثيرًا ولهذا لم يكن يصدق أحداً، نظر إليه بارتياح ثم ضحك ضحكة قصيرة.

أما ميرزلياكوف فلعب حاجبيه، ثم قال بهدوء شديد، ودون أن يحول بصره عن «بشير أوروبا»:

- الله يعلم ما هذا!.. ترتى على عنقه قبل أن تناديه.. يبدو أنها مضطربة العقل.

فقال ريبوفتش موافقاً:

- نعم، يبدو أنها مضطربة العقل..

وقال لوبيتكو متصنعاً الخوف بعينه:

- وقع لى حادث مماثل ذات مرة.. كنت مسافرًا فى العام الماضى إلى كوفنو.. ابتعت بطاقة الدرجة الثانية فى القطار.. وكانت العربى مزدحمة إلى درجة يستحيل معها أن تجد مكانا للنوم.. فأعطيت للمحصل نصف روبل.. فأخذ حقائبى وقادنى إلى إحدى المقصورات.. وأويت إلى الفراش وتغطيت بالبطانية.. وكانت المقصورة مظلمة. وفجأة وجدت شخصًا يلمس كتفى وأنفاسه تتردد فى وجهى. ومددت ذراعى فلمست مرفق شخص ما.. وفتحت عينى فرأيت امرأة، تصوروا! عينان سوداوان، وشفتان حمراوان كسمكة سلمون طيبة، ومنخاران يتنفسان بشهوة، وصدر نافر.. فقاطعه ميرزلياكوف بهدوء:

- عفوا، بخصوص الصدر أستطيع أن أفهم، ولكن كيف استطعت أن ترى لون شفتيها والمقصورة مظلمة؟

وأخذ لوبيتكويراوغ ويسخر من عدم فطنة ميرزلياكوف.

وأثار هذا نفور ريبوفتش، فابتعد عن الصندوق، واستلقى، وعاهد نفسه ألا يصارح أحدا بما فى نفسه أبدا.

وبدأت حياة المعسكر.. ومرت الأيام، كل يوم يشبه الآخر كثيرًا. وطوال هذه الأيام كان ريبوفتش يحس ويفكر ويتصرف كشخص عاشق. وكل صباح، عندما كان جندى المراسلة يصب له الماء ليغتسل، كان ريبوفتش يتذكر، وهو يغمر رأسه بالماء البارد، أن فى حياته شيئًا طيبًا ودافئًا.

وفى الأمسيات، عندما يشرع رفاقه فى الحديث عن الحب والنساء، كان يصغى، ويقترب منهم، ويرتسم على وجهه تعبير كالذى يرتسم على وجوه الجنود عندما يسمعون رواية عن معركة شاركوا فيها هم أنفسهم. أما فى الأمسيات التى كان فيها الضباط المتشون، وعلى رأسهم كلب الصيد لوبيتكويرا، يقومون بغزوات دون جوانية على «المحلة»، كان ريبوفتش، المشارك فى الغزوات يصبح بعدها حزينًا، ويحس بشعور عميق بالذنب، ويرجو منها

المغفرة فى دخيلته.. وفى ساعات الفراغ، أو فى ليالى الأرق، عندما تواتيه الرغبة فى تذكر طفولته وأبيه وأمه، وعمومًا كل ما هو قريب وعزيز، كان يتذكر حتمًا ميستيشكى أيضًا، والحصان الغريب، ورايبك، وزوجته التى تشبه الإمبراطورة أوجين، والغرفة المظلمة، وفرج الباب الساطع..

وفى ٣١ أغسطس غادر المعسكر، ولكن ليس مع اللواء كله، بل مع بطاريتين. وظل طوال الطريق يحلم ويشعر بالاضطراب وكأنما كان عائدًا إلى دياره. واستبدت به رغبة جارفة فى رؤية الحصان الغريب، والكنيسة، وأسرة رايبك غير الصادقة، والغرفة المظلمة. ولسبب ما همس له «الصوت الداخلى»، الذى كثيرًا ما يخدع العاشقين، بأنه حتمًا سيراه.. وعذبتة الأسئلة: كيف سيلقاها؟ وعم سيتحدث معها؟ ترى ألم تنس القبلية؟ وقال لنفسه إنه إذا حدث على أسوأ الأحوال ولم يقابلها، فيكفيه سرورا أنه سيجوس فى الغرفة المظلمة ويتذكر..

وقبيل المساء لاحت فى الأفق الكنيسة المألوفة والمخازن البيضاء وخفق قلب ريبوفتش.. ولم يسمع ما كان يقوله له الضابط الراكب حصانه إلى جوراه، ونسى كل شيء فى الوجود، وأخذ يحدق بنهم فى النهر اللامع بعيدًا فى الأمام، وفى سقف المنزل، وفى برج الحمام الذى حوّم الحمام فوقه وقد أضاءته أشعة الشمس الغارية.

وعندما بلغوا الكنيسة، وفيما بعد، وهو يستمع إلى تقرير مسئول الإيواء، كان يتوقع فى كل لحظة أن يظهر الفارس من وراء السور ويدعو الضباط إلى تناول الشاي، ولكن.. انتهى تقرير مسئول الإيواء، وترجل الضباط وتفرقوا فى القرية، بينما لم يظهر الفارس..

«سيعرف رايبك الآن من الفلاحين أننا وصلنا فيرسل من يدعونا» - فكر ريبوفتش وهو يدلف إلى مسكنه ولا يفهم لماذا يشعل رفاقه شمعة ويسرع جندى المراسلة إلى تجهيز السماور..

واستولى عليه قلق مقبض. ورقد، ثم نهض، ونظر من النافذة ليرى هل الرسول قادم أم لا. ولكن الرسول لم يظهر. فرقد ثانية، وبعد ساعة نهض، ولم يستطع مغالبة قلقه فخرج من البيت واتجه نحو الكنيسة. كان الميدان بجوار السور مظلمًا ومقفراً.. ووقف ثلاثة جنود عند المهيبط تمامًا وقد لزموا الصمت. وعندما رأوا ربابوفتش انتفضوا وأدوا التحية العسكرية. فرفع يده رادا التحية ومضى يهبط على الدرب المعروف.

كانت السماء كلها فوق الشاطئ الآخر مصبوغة بلون أحمر، فقد بزغ القمر. وكانت ثمة فلاحتان يتحدثان بصوت عال وتسيران في مزرعة الخضروات وهما تقطفان أوراق الكرنب. ولاحت خلف المزرعة عدة بيوت ريفية متشعة بالسواد.. أما على هذا الشاطئ فكان كل شيء مثلما في شهر مايو:

الدرب، والخمائل، والصفصاف المتدلى فوق الماء.. إلا أن ذلك البلبل الشجاع لم يكن يصدح، كما لم تنتشر رائحة الحور والعشب الفتى.

وعندما بلغ ربابوفتش البستان أطل من باب السور. كان البستان مظلمًا وهادئًا.. ولم تظهر إلا جذوع أشجار البتولا البيضاء القريبة وقسم من الممر، أما ما عدا ذلك فقد اختلط بكتلة الظلام. وأصاح ربابوفتش وحدق بنهم، ولكنه بعد أن وقف حوالي ربع ساعة دون أن يسمع صوتًا أو يرى ضوءًا، عاد أدراجه..

واقترب من النهر. ولاح أمامه مسبح الجنرال وملاءات بيضاء منشورة على حاجز الجسر.. ارتقى الجسر ووقف، ودونما داع لمس ملاءة. كانت الملاءة خشنة وباردة. ونظر إلى الماء في الأسفل.. كان النهر ينساب بسرعة ويخرخر بصوت لا يكاد يسمع بجوار قوائم المسبح. وانعكس القمر الأحمر قرب الشاطئ الأيسر. وركضت أمواج صغيرة فوق انعكاسه وهي تمطه وتمزقه قطعًا، وبدا أنها تريد أن تجرفه معها..

وفكر ربابوفتش وهو يحدق في المياه الجارية: «يا للحماقة! يا للحماقة! ما أغبى كل هذا!».

الآن، عندما لم يعد ينتظر شيئاً، تبدت له حادثة القبلية، ولهفته، والآمال الغامضة، وخيبة الأمل، فى ضوء واضح. لم يعد يبدو له غريباً أن رسول الجنرال لم يأت، وأنه لن يرى أبداً تلك التى قبلته صدفة بدلاً من شخص آخر. بالعكس، كان سيكون غريباً لو رآها..

كانت المياه تتدفق إلى جهة غير معلومة ولغرض غير معروف. وتدفقت بهذه الصورة أيضاً فى شهر مايو. ومن نهر فى مايو تحولت إلى نهر كبير، ومن نهر إلى بحر، ثم تبخرت، وتحولت إلى مطر، وربما كانت الآن، نفس تلك المياه، هى التى تتدفق ثانية أمام عيني ريبوفتش.. فما الداعى؟ ولأى غرض؟

وبدت له الدنيا كلها والحياة كلها مزحة غير مفهومة وبلا معنى.. وعندما حول عينيه عن المياه وتطلع إلى السماء، تذكر ثانية كيف لطفه القدر عرّضاً فى شخص المرأة المجهولة، وتذكر أحلامه الصيفية وصوره، فبدت له حياته شحيحة للغاية وبائسة ولا لون لها..

وعندما عاد إلى مسكنه لم يجد أحداً من زملائه.

وأخبره جندي المراسلة بأنهم قد ذهبوا جميعاً إلى «الجنرال فون ترابكين» الذى بعث رسولاً لدعوتهم.. وللحظة توهجت الفرحة فى قلب ريبوفتش، إلا أنه أخطأها على الفور، واستلقى فى الفراش، وكيدا فى حظه، كأنما كان يبغي أن يغيظه، لم يذهب إلى الجنرال.

الحستاوان

١

أذكر أننى ذات مرة، وأنا بعد تلميذ فى الصف الخامس أو السادس، كنت مسافراً مع جدى من قرية «بلشايا كريكايا» فى مقاطعة الدون إلى مدينة روستوف على الدون. كان نهائاً من أيام أغسطس القاتظة الممثلة إلى درجة الإرهاق. والنصقت جفوننا وجفت حلوقنا من الحر والرياح الجافة الساخنة التى كانت تدفع فى وجوهنا سحب الغبار. ولم تكن ثمة أية رغبة فى التطلع أو الكلام أو التفكير. وعندما كان سائق العربى النعسان، كاربو الأوكرانى، يلوح بسوطه على الفرس فيقع السوط على عمرتى، لم أكن أحتج أو يند عنى صوت، بل كنت أستيقظ من النعاس فأنتطلع بكأبة واستكأنة إلى الأفق على أرى عبر الغبار قرية. ثم توقفنا لإطعام الخيول فى قرية أرمنية كبيرة تسمى «بخش.. صالى» عند أرمنى ثرى من معارف جدى. لم أر فى حياتى صورة أكثر كاريكاتيرية من مظهر هذا الأرمنى.

تصوروا رأساً صغيراً حليقاً، بحاجبين كثيفين مهدلين إلى أسفل كثيراً، وبأنف طائر، وبشوارب بيضاء طويلة، وفم واسع تمتد منه قصبة تدخين طويلة من خشب الكرز. وكان هذا الرأس ملتصقاً بصورة غير متقنة بجذع نحيل أحذب، يرتدى حلة خيالية: سترة حمراء قصيرة، وسروالاً واسعاً ساطع الزرقة. وكانت هذه القامة تسير مباحدة بين ساقها وتحك الأرض بحذائها، وتحدث

دون أن تنزع قصبه التدخين من فمها، وتتصرف بعزة أرمنية أصيلة، فلا تبسم،
وتحلق بعينها، وتحاول أن تولى الضيوف أقل قدر من الاهتمام.

ولم يكن فى غرف الأرمنى ربح أو غبار، ولكن جوها كان منفراً وخائفاً
ومملاً كما فى السهوب وفى الطريق. وأذكر أننى جلست على صندوق أخضر
فى الركن، وقد غطانى التراب وعذبنى القيق. وانبعثت من الجدران الخشبية
غير المطلية ومن الأثاث والأرضية المدهونة بالغراء رائحة خشب جاف
أحرقته الشمس.. وذباب، ذباب، ذباب.. حيثما نظرت وجدت ذباباً. أخذ
جدى والأرمنى يتحدثان بصوت خافت عن المراعى والأعشاب والغنم..
وكنت أعرف أنهم سيستغرقون ساعة كاملة فى إعداد السماور، وأن جدى
سيظل يشرب الشاي ما لا يقل عن ساعة، ثم يرقد لينام ساعتين أو ثلاث،
وأنى سأضيع ربح النهار فى انتظار أعود بعده ثانية إلى القيق والغبار والطرق
الحفرية. وأصغيت لهمهمة الصوتين وبدأ يخيّل إلى أننى أرى منذ زمن بعيد
بعيد هذا الأرمنى، وصوان الآنية، والذباب، والنوافذ التى تلفحها الشمس
اللاهبة، وأننى لن أكف عن رؤيتها حتى فى المستقبل البعيد جداً، فتملكتنى
كراهية للسهوب، وللشمس وللذباب..

ودخلت امرأة أوكرائية بمنديل رأس تحمل آنية الشاي، ثم أحضرت
السماور. وخرج الأرمنى على مهل إلى ردهة المدخل وصاح:

- يا ماشيا! تعالى صبي الشاي! أين أنت؟ يا ماشيا! ^(١)

وتناهى وقع خطوات عجلى، ودخلت الغرفة فتاة فى حوالى السادسة
عشرة، فى فستان بسيط من الشيت، وفى منديل أبيض. وكانت مولية ظهرها
إلىّ وهى تغسل الآنية وتصب الشاي، فلم ألحظ إلا أنها دقيقة الخصر، حافية
القدمين، وأن كعبيها الصغيرين العاريين يغطيها سروال مسدل.

(١) النطق الصحيح هو: ماشا (تدليل لاسم ماريّا). أما كتابته «ماشيا» فهى إشارة من المؤلف
إلى لكتة العجوز الأرمنى. (المعرب).

ودعاني رب الدار إلى تناول الشاي. وعندما جلست إلى المائدة تطلعت إلى وجه الفتاة التي ناولتني الكوب، وفجأة أحسست وكأن نسمة هبت على روحي ونفخت عنها كل انطباعات النهار بمللها وغبارها. رأيت قسمات ساحرة لأروع وجه صادفني من قبل في اليقظة أو راودني في الأحلام. كانت أمامي حسناء، وقد أدركت ذلك من أول نظرة كما أدرك البرق.

إنني مستعد أن أقسم بأن ماشا، أو كما دعاها أبوها ماشيا، كانت حسناء بالفعل، ولكني لا أستطيع أن أبرهن على ذلك. وقد يحدث أحيانًا أن تتزاحم السحب عند الأفق في اضطراب، وتحتجب الشمس خلفها فتلونها بشتى الألوان:

بالأحمر القاني، وبالبرتقالي، وبالذهبي، وبالليلكي، وبالوردي الداكن. وتبدو إحدى السحب كالراهب، والأخرى كالسمكة، والثالثة كالتركي المعمم. ويحتل لهب المغيب ثلث صفحة السماء، ويتوهج على صليب الكنيسة وعلى زجاج نوافذ دار السادة، وينعكس في النهر وفي برك المياه، ويتذبذب على الأشجار. وبعيدًا على صفحة الشفق يحلق سرب من البط البري لبييت في مكان ما.. ويتطلع الراعي الذي يسوق البقر، والمساح العابر في عربته فوق السد، والسادة المتزهون.. يتطلعون كلهم إلى الغروب فيجدونه جميعًا فائق الجمال، ولكن أحدًا لا يعرف ولن يخبرنا بسر جماله.

ولم أكن وحدي الذي وجدت الأرمية جميلة. فقد ظل جدي، العجوز ذو الثمانين عامًا، هذا الرجل الصارم الطباع، اللامبالي بالنساء ومفاتيح الطبيعة، يحرق في ماشا برقة دقيقة كاملة ثم سأل:

- هل هذه ابنتك يا أفيت نزاريتش؟

فأجاب رب الدار:

- ابنتي. نعم ابنتي.

فامتدحها جدي:

ولو نظر فنان إلى جمال هذه الفتاة الأرمنية لا اعتبره جمالاً كلاسيكياً صارماً. كان بالضبط ذلك الجمال الذى يدخل تمليه فى قلبك، من حيث لا تعلم، الثقة بأنك ترى ملامح سوية، وأن الشعر، والعينين، والأنف، والفم والعنق والصدر، وكل حركات هذا الجسد الشاب قد اتحدت كلها فى نغمة هارمونية متكاملة، لم تخطئ الطبيعة فيها خطأ صغيراً واحداً. ولسبب ما يخيل إليك أن المرأة المثالية الجمال ينبغي أن يكون لها أنف مثل أنف ماشا بالضبط، أنف مستقيم محدودب قليلاً، ومثل هاتين العينين السوداوين الواسعتين، ومثل هذه الرموش الطويلة، وهذه النظرة الساهمة، وأن شعرها الأسود المتموج وحاجبيها تنسجم أيضاً مع لون جبينها وخديها الأبيض الرقيق، كما تنسجم أعواد القصب الخضراء مع النهر الهادئ. وعنق ماشا الأبيض وصدرها الفتى غير مكتملى التكوين، ولكن يخيل إليك أن تشكيلهما يتطلب موهبة فنية هائلة. وتتطلع إلى ماشا، وشيئاً فشيئاً تحس بالرغبة فى أن تقول لها شيئاً غير عادى، سارا، صادقاً، جميلاً كجمالها.

فى البداية أحسست بالإهانة والخجل من أن ماشا لا تعيرنى أدنى اهتمام، وتنتظر طوال الوقت إلى أسفل. وخيل إلى أن هواء خاصاً، سعيداً ومتعاليّاً، يفصلها عني ويحميها بغيرة من نظراتي.

وفكرت بيني وبين نفسي: «هذا لأننى ملوث بالغبار، وملوح البشرة، وأيضاً لأننى ما زلت صبيّاً».

ولكنى فيما بعد، وشيئاً فشيئاً، نسيت نفسى واستغرقت تماماً فى الإحساس بالجمال. لم أعد أذكر ملل السهوب والغبار، ولم أعد أسمع طنين الذباب أو أدرك مذاق الشاي بل كنت أشعر فقط بأنه عبر المائدة تقف أمامى فتاة جميلة.

ولكن إحساسى بالجمال كان غريباً. لم تثر ماشا فى الرغبة أو الانبهار أو المتعة، بل حزناً ثقيلاً، وإن كان لطيفاً.

كان هذا الحزن مبهما، غامضًا كالحلم. ولسبب ما أحسست بالأسى
لنفسى، ولجدى، وللأرمنى، وللأرمنية الصبية ذاتها، وراودنى شعور كأنما
فقدنا نحن الأربعة شيئًا مهما وضروريًا للحياة، شيئًا لن نجده بعد ذلك أبدًا.
وجدى أيضًا بدا محزونًا. لم يعد يتحدث عن المراعى والأغنام، بل ركن إلى
الصمت وهو يسترق النظر إلى ماشا بين الحين والحين فى تأمل.

وبعد تناول الشاي تمدد جدى لينام، أما أنا فخرجت من البيت وجلست
على درج المدخل. كان البيت، ككل البيوت فى «بخشى.. صالى»، يصلى لهب
الشمس. لم تكن هناك أشجار أو عرائش أو ظلال. وكان فناء الأرمنى الواسع،
المغطى بحشائش رجل الوزه عامرًا بالحركة والمرح رغم القىظ الشديد.
فخلف أحد الأسيجة المنخفضة، التى كانت تخترق الفناء الواسع هنا وهناك،
كانت تجرى عملية دراس. وحول عمود دق فى وسط البيدر تمامًا دار اثنا عشر
حصانًا مسرجين صفا واحدًا ومشكلين نصف قطر دائرة طويلاً. وبجوارها سار
فلاح أوكرانى فى صدىرى طويل وسروال واسع، وهو يفرقع بالسوط ويصيح
بنبرة خاصة، وكأنما يريد أن يفيظ الخيول ويتباهى بسلطانة عليها:

«حـا.. ايا ملاعين! حـا.. ا.. ا.. ا.. إن شاء الله تأخذكم داهية! خائفون؟»

كانت الخيول الشهب والبيض والبلق، وهى لا تفهم لماذا يجبرونها على
الدوران فى مكان واحد وهرس سيقان القمح، تركض بلا رغبة، كأنما فقدت
قواها، وتهز ذيولها بغضب.

وأثارت الريح من تحت قوائمها سحبًا من التبن الذهبى وحملتها بعيدًا عبر
السياج. وبجوار العرمت العالية الجديدة عملت نساء بالمذارى وتحركت
عربات، ومن وراء العرمت، فى فناء آخر، ركضت دسنة من الخيول المماثلة
حول عمود آخر، وفرقع أوكرانى مماثل بالسوط هازنًا بالخيول.

كانت الدرجات التى أجلس عليها ساخنة. ومن الحر ظهرت على عوارض

الدرازين المخلخلة، وعلى أطر النوافذ هنا وهناك قطرات صمغ الخشب. وتحت الدرجات، وتحت شيش النوافذ، فى خطوط الظل، تلاصقت برغشات حمراء. وكانت الشمس تلهب رأسى وصدرى وظهري، ولكنى لم أشعر بذلك، بل كنت أشعر فقط بأقدام عارية تخطو من خلفى على ألواح الأرضية الخشبية فى ردهة المدخل وغرف المنزل. وبعد أن جمعت ماشا آنية الشاي ركضت هابطة على الدرج فهبت على دفقة هواء، وحلقت كطائر نحو مبنى صغير مسود، يبدو أنه المطبخ، حيث تصاعدت رائحة الضأن المشوى وتناهدت رطانة أرمنية غاضبة. واختفت فى فتحة الباب المظلمة، وظهرت بدلاً منها على العتبة أرمنية عجوز محدودة، بوجه أحمر وسروال أخضر. كانت العجوز غاضبة تسب أحداً ما. ثم سرعان ما ظهرت ماشا على العتبة، وقد أحمرت من حرارة المطبخ، حاملة على كفها رغيفاً كبيراً من الخبز الأسود. وركضت عبر الفناء نحو البيدر، وهى تنثنى بجمال تحت ثقل الخبز، وانسلت عبر السياج، وغاصت فى سحابة التبن الذهبى، فاخفت وراء العربات. وأنزل الأوكرانى الذى كان يسوق الخيول سوطه وصمت، وظل ينظر صامتاً حوالى دقيقة نحو العربات، وعندما مرقت الفتاة الأرمنية ثانية بجوار الخيول وقفزت عبر السياج شيعها بنظراته ثم صاح فى الخيول بنبرة كأنما كان فى غاية الكدر:

- فلتخطفكم مصيبة، يا أولاد الأبالسة!

وبعد ذلك ظللت أسمع طول الوقت بلا انقطاع وقع أقدامها العارية، وأراها وهى تركض فى الفناء بوجه جاد مهموم. كانت تركض تارة على الدرج فتهب على دفقة هواء، وتارة إلى المطبخ، وتارة إلى البيدر، وتارة إلى البوابة، فلم أكد ألاحق الدوران برأسى كى أتابعها.

وكلما لاحت أكثر أمام عيني، ازداد حزنى وطأة.

وشعرت بالأسى لنفسى، ولها، وللأوكرانى الذى كان يشيعها بنظراته فى حزن كلما ركضت إلى العربات خلال سحابة التبن. ترى أكان ما أشعر به

غيرة من جمالها، أم أنني كنت آسى لأن هذه الفتاة ليست فتاتي ولن تكون أبدًا،
وأننى بالنسبة لها غريب، أم أنني كنت أشعر شعورًا مبهمًا بأن جمالها النادر
شيء عارض، لا حاجة إليه، وككل ما فى الدنيا زائل، أم ربما كان حزنى هو
ذلك الإحساس الخاص الذى يثيره فى الإنسان تأمل الجمال الحقيقى.. الله
أعلم!

مرت ساعات الانتظار الثلاث دون أن أشعر. وخيل إلى أنني لم أكد
أشبع من تملئ ماشا، حتى كان كاربو قد ذهب إلى النهر وحمم الفرس وبدأ
يسرجها. وكانت الفرس المبتلة تنخر من السرور وتضرب العدة بحوافرها.
وكاربو يصيح فيها:

«ارجعى!». واستيقظ جدى. وفتحت لنا ماشا البوابة ذات الصرير، وجلسنا
فى العربة وخرجنا من الفناء. وسرنا فى صمت كأنما كان كل منا غاضبًا من
الآخر.

وعندما لاحت روستوف وناخيتشيفان بعد ساعتين أو ثلاث، التفت كاربو
بسرعة، بعد أن ظل طوال الوقت صامتًا، وقال:

- يا لها من فتاة رائعة لدى الأرمنى!

وألهب الفرس بالسوط.

٢

فى مرة أخرى، وقد أصبحت طالبًا، كنت مسافرًا بالقطار إلى الجنوب. كان
ذلك فى شهر مايو وفى إحدى المحطات، أظن بين بيلجورود وخاركوف،
خرجت من العربة لأتمشى على الرصيف.

كانت ظلال الغروب ترمى على حديقة المحطة، وعلى الرصيف وعلى

الحقل. وحجب مبنى المحطة المغيب، غير أنه ظهر من قمم سحب الدخان المتصاعدة من القاطرة والمصبوغة بلون وردي رقيق أن الشمس لم تغب بعد.

ولاحظت وأنا أتمشى على الرصيف، أن معظم الركاب المتجولين يتمشون ويتوقفون فقط بجوار عربة واحدة من عربات الدرجة الثانية، ويرسم على وجوههم تعبير كأنما هناك شخصية شهيرة تجلس في العربة. وكان بين الفضوليين بجوار هذه العربة أيضًا رفيق في الرحلة، وهو ضابط مدفعية، فتى ذكى، دافئ وظريف، ككل من نتعرف بهم في الطريق صدفة ولفترة قصيرة. وسألته:

- فيم تحدد هنا؟

فلم يرد بشيء بل أشار بعينه إلى إحدى النساء. كانت فتاة شابة، في حوالى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، ترتدى تاييرا روسيًا، حاسرة الرأس، تضع على إحدى كتفها بإهمال مانطو صغيرًا. ولم تكن من الركاب، بل يبدو أنها ابنة ناظر المحطة أو أخته. كانت واقفة بجوار نافذة العربة تتحدث مع راكبة كبيرة السن. وقبل أن أستوعب ما رأيته عيناى تملكنى فجأة ذلك الإحساس الذى راودنى فى القرية الأرمنية.

كانت الفتاة حسناء رائعة، ولم يشك فى ذلك أحد، لا أنا، ولا من كانوا يتطلعون معى إليها.

ولو وصفت هيبتها، كما هو متبع، جزءًا جزءًا، فلن تجد فيها جميلًا بالفعل سوى شعرها الأشقر المتموج الغزير المسدل والمعقود على الرأس بشريط أسود، أما عدا ذلك من الملامح فكانت إما غير سوية، وإما عادية للغاية. وربما بسبب طريقتها الخاصة فى التدلل، أو لقصر نظرها كانت عيناها مزرورتين، وأنفها مشربًا بتقاعس، وفمها صغيرًا، وكان بروفيلها مرسومًا بخطوط واهنة

متراخية، وكتفها ضيقتين بما لا يتفق وسنها، ومع ذلك كانت الفتاة تترك انطباعاً بحسنة حقيقية، وتأكدت وأنا أنطلق إليها أن الوجه الروسى، لكى يبدو رائعاً، ليس بحاجة إلى تقاطيع سوية صارمة، بل والأكثر من ذلك أنه لو كان للفتاة بدلاً من أنفها المشربب، أنف آخر سوى وخال من عيوب التكوين، كأنف الفتاة الأرمنية، فربما فقد وجهها بسبب ذلك كل روعته.

كانت الفتاة وهى واقفة بجوار النافذة تتحدث وتنكمش من رطوبة المساء، تلتفت إلينا بين الحين والحين، وتارة تشنى واضعة يدها فى خصرها، وتارة ترفع يديها إلى رأسها لتسوى شعرها، وكانت تتحدث وتضحك، وترسم على وجهها الدهشة حيناً والرعب حيناً آخر، ولم أذكر لحظة ركن فيها جسدها ووجهها إلى السكون. كان كل سر جمالها وسحره يكمن بالضبط فى هذه الحركات الصغيرة، الرشيقة بلا حدود، وفى ابتسامتها، وفى تعابير وجهها، وفى نظراتها السريعة نحونا، وفى الجمع بين الرشاقة الرقيقة لهذه الحركات وبين الصبا والنضارة ونقاء الروح الذى كان يتجلى فى ضحكها وصوتها، وذلك الضعف الذى نعشقه فى الأطفال، والطيور، والغزلان الصغيرة، والأشجار الوليدة.

كان جمالاً فراشياً، تنسجم معه تماماً أنغام الفالس وخفقان الأجنحة فى البستان والضحك والمرح، ولا يمكن تصوره فى ارتباط مع الفكر الجاد أو الحزن أو السكينة. وبدا أنه يكفى أن تهب على الرصيف دفقة ريح نشطة أو يسقط المطر كى يذبل هذا الجسد الهش فجأة ويتناثر هذا الجمال النزق كدقيق الأزهار.

ودمدم الضابط متنهذاً عندما توجهنا إلى عربتنا بعد أن دق الجرس للمرة الثانية:

..هكذا..

أما ماذا كانت تعنى «هكذا» هدم فلا أستطيع أن أقرر.

ربما كان يشعر بالحزن ولا يريد أن يمضى عن الحسناء والمساء الربيعي إلى العربة الخائفة، أو ربما كان، مثلي، يشعر بأسى غير مفهوم على الحسناء وعلى نفسه وعلى، وعلى جميع الركاب الذين جروا أقدامهم بتراخ ودون رغبة متوجهين إلى عرباتهم. وعندما مررنا بجوار نافذة المحطة، حيث جلس وراءها إلى جوار جهازه عامل تليغراف شاحب أحمر الشعر، بخصلات عالية ووجه باهت ناتى الوجنتين، تنهد الضابط قائلاً:

- أراهن على أن عامل التليغراف هذا يعشق تلك الحسناء. فأن تعيش فى حقل، تحت سقف واحد مع هذا المخلوق الهفهاف ولا تعشقه لشيء فوق طاقة البشر. وبإلها من تعاسة يا صديقى، بإلها من سخرية أن تكون محنى القامة، مشعثاً، رمادياً، مستقيماً، وغير غبى، وأن تعشق هذه الفتاة الحسناء الالهية التى لا تعيرك أدنى اهتمام! أو... وهذا هو الأسوأ، تصور أن هذا العامل عاشق، وفى الوقت نفسه متزوج، وأن زوجته أيضاً محنية القامة، مشعثة، ومستقيمة مثله.. يا للعذاب!

بجوار عربتنا وقف المحصل معتمداً على حاجز البسطة وهو يتطلع إلى الجهة التى كانت الحسناء تقف فيها، وكان وجهه المنهوك الرخو، الشبعان إلى درجة منفرة، والمتعب من ليالى السهاد واهتزاز العربة، يعبر عن التأثر والحزن العميق، كأنما كان يرى فى الفتاة شبابه وسعادته وصحوه وطهارته وزوجته وأولاده، كأنما كان يندم ويحس بكل كيانه أن هذه الفتاة ليست له، وأنه بشيخوخته المبكرة، وهيبته الخرقاء، ووجهه السمين بعيد عن السعادة الإنسانية العادية، سعادة أى راكب، بعده عن السماء.

ودق الجرس لثالث مرة، وترددت الصفارات، فتحرك القطار بكسل، ومرق من أمام نوافذنا أولاً المحصل، فناظر المحطة، ثم البستان، فالحسناء بابتسامتها الساحرة الماكرة كمكر الأطفال..

وأخرجت رأسى من النافذة ونظرت إلى الوراء فرأيتها وهى تشيع القطار

بنظراتها ثم تسير على الرصيف مارة أمام نافذة عامل التليغراف، وسوت شعرها
ثم ركضت إلى البستان. ولم يعد مبنى المحطة يحجب الغروب، وبدأ الحقل
مكشوفاً، إلا أن الشمس كانت قد غربت، وارتقى الدخان سحباً سوداء فوق
نبات القمح المخملية الخضراء. وانتشر الحزن في هواء الربيع، وفي السماء
المعتمة، وفي العربة.

ودخل المحصل المذكور العربة وراح يشعل الشموع.

قلادة آنا

١

بعد عقد القران لم تقدم حتى المزات الخفيفة. شرب العروسان كأسين، وبدلاً ثيابهما، ورحلا إلى المحطة. وبدلاً من حفل الزفاف المرح والعشاء، وبدلاً من الموسيقى والرقص كانت هذه الرحلة للحج على بعد مائتي فرسخ. وحيد الكثيرون ذلك قائلين أن موديست أليكسييتش رجل ذو مركز ولم يعد شاباً، وأن العرس الصاخب قد يبدو على الأرجح، غير لائق تماماً. كما أنه من الممل سماع الموسيقى عندما يتزوج موظف في الثانية والخمسين من عمرة فتاة لم تتجاوز الثامنة عشرة إلا بقليل. وقالوا أيضاً أن موديست أليكسييتش، كرجل يراعى الأصول، إنما دبر هذه الرحلة إلى الدير لكي يفهم زوجته الشابة بأنه في الزواج أيضاً يضع الدين والأخلاق في المقام الأول.

ودعوا العروسين. ووقف جمع زملاء العمل والأقارب والكؤوس في أيديهم منتظرين تحرك القطار لكي يهتفوا: «هورا»، وكان والد العروس، بيوتر ليونيتش، الذي يرتدى قبعة أسطوانية وحلة المدرسين، وهو ثمل جداً وشاحب جداً، بهم طول الوقت بجسده نحو نافذة العربة، والكأس في يده، ويقول بصوت ضارع:

— أنيوتا! يا أنيا! يا أنيا، كلمة واحدة!

فتنحنى أنيا نحوه من النافذة، فيهمس لها بكلمات ما وهو يلفحها ببخر

الخمير وينفخ فى أذنها، فلا تستطيع أن تميز شيئا، ويرسم علامة الصليب على وجهها وصدرها وذراعيها. وأثناء ذلك تتهدج أنفاسه وتغرورق عيناه بالدموع. أما شقيقا آنيا، التلميذان بيتيا وأندريوشا، فيشدانه من بدلتيه من الخلف ويهمسان بحرج:

- بابا كفى.. بابا لا داعى..

وعندما تحرك القطار رأت آنيا كيف ركض أبوها قليلا فى أثر العربى وهو يترنح ويسكب الخمير، وكان وجهه بائسا، طيبا، مذنبا.

وصاح:

- هورا... ا... ا... ا...

أصبح العروسان وحدهما. تفحص موديست أليكسييتش المقصورة، ووزع المتاع على الأرفف، وجلس قبالة زوجته الشاببة مبتسما. كان موظفا متوسط الطول، بدينا، مدملجا شبهان جدا، بسالفين طويلين وبلا شارب، وكان ذقنه الحليق المستدير البارز بشدة يشبه الكعب. وكان أكثر ما يميز وجهه انعدام الشارب، وذلك المكان الحليق العارى، الذى يلتقى تدريجيا بخدين مكتنزين مرتعشين كالجيلى. وكانت هيئته رصينة، وحركاته متأنية، وأسلوبه ناعما.

قال مبتسما:

- لا يسعنى الآن إلا أن أتذكر إحدى الوقائع. فمنذ خمس سنوات، عندما حصل كوسوروتوف على وسام القديسة آنا من الطبقة الثانية وجاء للشكر رد عليه صاحب السمو هكذا: «إذن فقد أصبح لديك آنا: واحدة فى عروتك، واثنان فى رقبتك». وجدير بالذكر أنه فى ذلك الوقت كانت زوجة كوسوروتوف قد عادت إليه لتوها، وكانت امرأة سليطة، مستهترى تدعى آنا. أمل عندما أحصل على وسام آنا من الطبقة الثانية ألا يكون لدى صاحب السمو مبرر ليقول لى نفس الشىء.

وابتسم بعينيه الصغيرتين. وابتسمت هى أيضا مضطربة من فكرة أن هذا

الرجل يستطيع فى أية لحظة أن يقبلها بشفتيه السميتين، وأنها لم تعد تملك الحق فى منعه من ذلك. كانت حركات جسمه البدين الناعمة تخيفها، فكانت تشعر بالرهبة والتقزز. ونهض، ونزع الوسام من رقبته على مهل، ونزع السترة والصديري، وارتدى الروب.

- هكذا... - قال وهو يجلس إلى جوار آنيا.

وتذكرت كم كانت طقوس العرس مرهقة، عندما خيل إليها أن القسيس والمدعوتين وكل من فى الكنيسة ينظرون إليها بأسى: فلماذا، لماذا تتزوج، هى الفتاة الرقيقة، الجميلة، من هذا السيد الكهل غير الظريف؟ اليوم صباحا كانت فى قمة الإعجاب من أن الأمور سارت بهذا التوفيق، ولكن أثناء الزفاف، والآن فى المقصورة، أحست بأنها مذبذبة، مخدوعة ومضحكة. ها هى ذى قد تزوجت من رجل ثرى، ومع ذلك فهى بلا نقود، وفستان الزفاف حيك ديناً، وعندما ودعها أبوها وأخوها اليوم أدركت من وجوههم أنه ليس لديهم كويك واحد. ترى هل سيتعشون اليوم؟ وغدا؟ ولسبب ما خيل إليها أن أباهما وأخويها يجلسون الآن بدونها جوعى، ويشعرون بتلك الوحشة التى تملكتهم فى أول مساء بعد دفن الأم.

وفكرت: «أوه، كم أنا تعيسة! لماذا أنا تعيسة هكذا؟».

وبسماجة الرجل الرصين الذى لم يألف معاملة النساء لمس موديست أليكسييتش خصرها وربت على كتفها، بينما كانت هى تفكر فى النقود، وفى أمها وموتها. فعندما ماتت أمها أغرق أبوها، بيوتر ليونتيتش، مدرس الخط والرسم، فى الشراب، وحلت بهم الفاقة. لم يكن لدى الصبيين أحذية وأخفاف، وجر جر الداثون أباهما إلى قاضى الصلح، وجاء محضر المحكمة فحجز على الأثاث... يا للعار! وكان على آنيا أن تعتنى بأبيها الثمل، وترتق جوارب أخويها، وتتردد على السوق، وعندما كانوا يمتدحون جمالها وشبابها وحركاتها الرشيقة، كان يخيل إليها أن الدنيا كلها ترى قبعتها الرخيصة وثقوب حذاءها المدهونة بالجبر. وفى الليل الدموع وفكرة ملحة مزعجة بأنه قريباً جداً سيطردون أباهما

من المدرسة لضعفه، وأنه لن يحتمل ذلك فيموت أيضا كأماها. ولكن هاهي ذى السيدات المعارف قد تحركن وأخذن يبحثن عن عريس جيد لآنيا. وسرعان ما وجدن هذا الموديست أليكسييتش نفسه، الذى لم يكن شابا ولا جميلا، ولكن ذا نفوذ. كان لديه فى البنك حوالى مائة ألف روبل، وضيعة موروثة يؤجرها. وهو رجل يعرف الأصول وله مكانة لدى صاحب السمو. ولم يكن يكلفه شيئا، كما قيل لآنيا، أن يأخذ من صاحب السمو رسالة إلى مدير المدرسة، بل حتى إلى رئيس مصلحة المعارف، لكيلا يفصلوا بيوتر ليونتيتش..

وبينما كانت تتذكر هذه التفاصيل دوت الموسيقى فجأة واقتحمت النافذة مع صخب أصوات. لقد توقف القطار فى محطة صغيرة. ووراء الرصيف كانوا يعزفون وسط حشد بحوية على الأكورديون وعلى كمان رخيص معول، ومن وراء أشجار البتولا والحدود العالية، من وراء الدور الصيفية المغمورة بنور القمر تناهت أنغام أوركسترا عسكرية؛ يبدو أنه كانت هناك حفلة راقصة. وعلى الرصيف كان يتنزه المصطافون وأهل المدينة الذين كانوا يأتون إلى هنا فى الطقس الجيد ليستنشقوا الهواء النقي. وكان هنا أرطينوف أيضا، مالك هذه الدور الصيفية، ذلك الثرى الطويل البدن، الأسود الشعر، الذى كان يشبه بوجهه أرمنيا، بعينين جاحظتين وفى بدلة غريبة. كان يرتدى قميصا مفكوك الأزرار على صدره، وحذاء طويلا بمهماز، ومن كتفيه أسدل معطف خفيف أسود متجرجرا على الأرض كذيل الفستان. وسار خلفه كلبان سلوقيان وقد نكسا سحتيهما الحادتين.

كانت الدموع لا تزال تترقق فى عيني آنيا، إلا أنها لم تعد تذكر أمها أو النقود أو زفافها، بل أخذت تصافح التلاميذ والضباط المعارف؛ وتضحك بمرح وتقول بسرعة:

- مرحبا! كيف حالكم؟

وخرجت إلى فسحة العربة، ووقفت تحت ضوء القمر بحيث يرونها بكامل هيئتها، فى فستانها الجديد الرائع والقبعة.

وسألت:

- لماذا توقفتنا هنا؟

فقبل لها:

- هنا مفرق طرق. ينتظرون القطار المعاكس. وإذا لاحظت أن أرطينوف يتطلع إليها، زرت عينيها بدلال وتحدثت بالفرنسية بصوت عال. ولأن صوتها تردد بهذه الروعة بينما صدحت الموسيقى وانعكس القمر في البركة، ولأن أرطينوف، هذا الدون جوان والعاث المعروف كان يتطلع إليها بشراهة وفضول، ولأن الجميع كانوا يشعرون بالمرح، فقد تملكها الفرحة فجأة، وعندما تحرك القطار، وأدى لها الضباط المعارف التحية مودعين، كانت تدندن بلحن رقصة البولكا، الذي أخذت الفرقة العسكرية الهادرة في مكان ما وراء الأشجار تبعث بأنغامه في أثرها. فعادت إلى مقصورتها بإحساس، وكأنما اقنعوها في المحطة الصغيرة بأنها ستكون سعيدة حتما، وبالرغم من أى شيء.

أمضى العروسان في الدير يومين ثم عادا إلى المدينة. وعاشا في شقة حكومية. وعندما كان موديست أليكسييتش يذهب إلى العمل كانت آنيا تعزف على البيانو، أو تبكى من الملل، أو تستلقى على التخت وتقرأ روايات أو تصفح مجلة أزياء. وكان موديست أليكسييتش يأكل كثيرا أثناء الغداء ويتحدث عن السياسة وعن التعيينات والتنقلات والمكافآت، وعن أنه لا بد من الكد، وأن الحياة الزوجية ليست متعة بل واجبا، وأنتك إذا صنت الكوييك صنت الروبل، وأنه يضع الدين والأخلاق فوق كل شيء. وكان يقول ممسكا بالسكين في قبضته كالسيف:

- ينبغي أن يكون لكل شخص واجباته!

وكانت آنيا تستمع إليه وتخافه ولا تستطيع أن تأكل، فتنهض عادة عن المائدة وهي جائعة. وبعد الغداء ينام الزوج ويشخر بصوت عال، أما هي فتذهب لزيارة أهلها. وكان أبوها وأخوها ينظرون إليها نظرة خاصة، كأنما

كانوا قبل وصولها بقليل يدينونها لأنها تزوجت من أجل النقود من رجل محل،
ثقيل الدم، لا تحبه. وكان فستانها ذو الحفيف، وأساورها، وعموما مظهرها
كسيدة يحرجهم ويهينهم. وفي حضرتها كانوا يشعرون بالخجل ولا يعرفون عم
يتحدثون معها. ومع ذلك ظلوا يحبونها كما في السابق، ولم يتعودوا بعد على
الغداء بدونها. كانت تجلس معهم إلى المائدة فتأكل حساء الكرنب والعصيدة
والبطاطس المحمرة بدهن الضأن الذي كانت تفوح منه رائحة الشمع. وكان
بيوتر ليونيتش يصب الفودكا من الإبريق بيد مرتعشة فيشرب بسرعة ونهم
وتقرز، ثم يشرب كأسا أخرى، ثم ثالثة... وكان بيتيا وأندريوشا، النحيلان
الشاحبان، الواسعا العينين، ينحيان الإبريق ويقولان بارتباك:

- لا داعي يا بابا.. كفى يا بابا..

وتنزعج آتيا أيضا وتتوسل إليه ألا يشرب بعد، فينفجر فجأة ويدق على
الطاولة بقبضته صائحا:

- لن أسمح لأحد بمراقبتى! عيال صغار! طفلة! سأطردكم جميعا من
هنا!.

ولكن صوته كان يبدى ضعفا وطيبة، فلم يخف منه أحد. وبعد الغداء
عادة كان يتأنق. كان يقف أمام المرأة طيلة نصف ساعة، شاحبا، بذقن مجروح
من الحلاق، يمد عنقه النحيل، ويتزين، فتارة يمشط شعره وتارة يفتل شاربه
الأسود، ويرش العطر، ويعقد رابطة العنق فراشة، ثم يرتدى القفاز والقبعة
الأسطوانية، ويخرج لإعطاء دروس خصوصية. أما في العيد فكان يبقى في
المنزل ويرسم بالألوان أو يعزف على القدمة^(١) التي كانت تفح وتزأر. وكان
يحاول أن يستخرج منها أنغاما منسقة، هارمونية، ويدندن، أو يغضب من
الصبيين فيصيح بهما:

(١) آلة موسيقية، ضرب من الأرغن، تشبه بمظهرها البيانو. (المغرب).

- يا أوغادا! يا سفلة! أتلفتُم الآلة!.

فى المساء كان زوج أنيا يلعب الورق مع زملائه الذين كانوا يقطنون معه فى نفس المنزل الحكومى. وأثناء اللعب كانت تجتمع زوجات الموظفين القبيحات، المتأنقات بلا ذوق، الفظاظ كالطاهايات، فتردد فى الشقة الشائعات القبيحة، القليلة الذوق مثل زوجات الموظفين أنفسهم. وكان يحدث أن يذهب موديست أليكسييتش مع أنيا إلى المسرح. وفى فترات الاستراحة لم يكن يتركها تبعد عنه خطوة، بل كان يتجول معها فى الممرات والردهة متأبطا ذراعها. وإذا ينحنى محيا شخص ما، يهمس على الفور لأنيا: «مستشار دولة... استقبله صاحب السمو...» أو «غنى... يملك داره الخاصة...». وعندما يمران بجوار البوفيه كانت أنيا تتوق إلى شىء حلو، فقد كانت تحب الشيكولاته والجاتوه بالنفاح، ولكنها لم تكن تملك نقودا وتخجل من سؤال زوجها. وكان هو يتناول ثمرة الكمثرى فيجسها بأصابعه ثم يسأل مترددا:

- بكم؟

- بخمسة وعشرين كوبيكا.

- يا سلام! - يقول ويضع الكمثرى فى مكانها. ولكن لما كان من المخرج الانصراف من البوفيه دون شراء شىء فقد كان يطلب زجاجة مياه سلتريشربها كلها وحده، بينما تظفر الدموع من عينيه، وفى تلك اللحظة كانت أنيا تمقته. أو يتضرع كله فجأة، ويقول لها بسرعة:

- حى هذه السيدة العجوز!

- ولكنى لا أعرفها.

- سيان. إنها زوجة مدير الغرفة الأميرية، حياها أقول لك! - يلح متذمرا - لن ينكسر عنقك.

فتحى أنيا بإيماءة، ولا ينكسر عنقها بالفعل، ولكنها تشعر بمعاناة. كانت تفعل كل ما يريده زوجها، وتمقت نفسها لأنه خدعها وكأنها أحمق حمقاء. لم تزوج منه إلا من أجل النقود فقط، بينما أصبح لديها من النقود أقل مما كان قبل الزواج. فمن قبل كان أبوها على الأقل يعطيها عشرين كوبيكا بين الحين والحين، أما الآن فلا تملك خردة. ولم تكن تجرؤ على اختلاس النقود سرا أو سؤال زوجها، فقد كانت تخشاه وترتعب منه. وخيل إليها أنها تحمل الخوف من هذا الرجل في قلبها منذ أمد بعيد. ففي زمن ما في طفولتها كانت تتصور ناظر المدرسة أهرب وأرعب قوة تزحف نحوها كالعاصفة أو كالقاطرة التي توشك أن تدهمها؛ أما القوة الأخرى التي كانوا يتحدثون عنها في الأسرة دائما، والتي كانوا يخشونها لسبب ما فكان صاحب السمو؛ وكانت هناك أيضا بضع قوى أصغر، من بينها مدرسو المدرسة ذوو الشوارب المحلوقة، الصارمون القساة، ثم أخيرا موديست أليكسييتش، الرجل الذي يراعى الأصول، والذي يبدو حتى بملامحه أشبه بالناظر. واتحدت هذه القوى في خيال أنيا في كل واحد، وزحفت في صورة دب أبيض ضخم رهيب على الضعفاء والمذنبين أمثال أبيها، فكانت تخشى أن تقول شيئا معارضا، وتبتسم بتكلف وتبدي الرضا المتصنع عندما يلاطفونها بغلظة، ويدنسونها بالعناق الذي يلقي في قلبها الرعب.

مرة واحدة فقط تجرأ بيوتر ليونيتش فطلب منه خمسين روبلا قرضا لكي يسدد أحد الديون الكريهة، ولكن أى عذاب كان ذلك!

فقد فكر موديست أليكسييتش قليلا ثم قال:

- حسنا، سأعطيك. ولكنى أنبهك إلى أننى لن أساعدك بعد ما لم تكف عن الشراب. إن هذا الضعف عار على شخص يخدم فى الدولة. ولا يسعنى إلا أن أذكرك بحقيقة معروفة، وهى أن هذه الشهوة قد أهلكت كثيرا من الأشخاص الموهوبين، فى حين أنهم لو تجنبوها لربما بلغوا مع الزمن مراكز مرموقة.

وتتابعت عبارات طويلة: «وبقدر ما...». و«انطلاقاً من واقع أن...» و«بناء على ما سبق ذكره»، فكان بيوتر ليونيتش المسكين يعاني من الذل ويشعر برغبة شديدة في الشرب.

وكان على الصبيين اللذين يزوران آنيا عادة في أحذية ممزقة وسراويل مهترئة، أن يسمعا أيضاً المواعظ الطويلة كان موديست أليكسييتش يقول لهما:

- ينبغي أن يكون لكل شخص واجباته!

ولا يعطى نقوداً. ولكنه في المقابل أهدى آنيا خواتم وأساور وبروشات، قائلاً إنه من المستحسن اقتناء هذه الأشياء لليوم الأسود. وكثيراً ما كان يفتح صوانها ويجري تفتيشاً ليتأكد هل كل شيء في مكانه.

٢

ثم حل الشتاء. وقبل أعياد الميلاد بفترة نشرت الصحيفة المحلية إعلان بأنه في ٢٩ ديسمبر سيقام في مجمع النبلاء الحفل الشتوي المعهود. فكان موديست أليكسييتش يتهاشم مع زوجات الموظفين كل مساء بعد الفراغ من لعب الورق، ويتطلع إلى آنيا بقلق، ثم يظل طويلاً يذرع الغرفة مستغرقاً في التفكير، وأخيراً، وذات ساعة متأخرة من المساء، توقف أمام آنيا وقال:

- ينبغي أن تفصلي فستاناً للحفل، مفهوم؟ ولكن أرجوك، تشاوري مع ماريا جريجوريفنا ونتاليا كوزمينشنا.

وأعطاهما مائة روبل، فأخذتها. ولكنها لم تستشر أحداً عندما أوصت على فستان الحفل بل تحدثت فقط مع أبيها، وحاولت أن تتصور كيف كانت أمها ستزين للحفل. كانت المرحومة أمها تتألق دائماً حسب آخر موضوعة، وكانت تشغل دائماً بآنيا وتلبسها بأناقة كدمية، وعلمتها التحدث بالفرنسية ورقص

المازوركا جيدا (فقد عملت أمها مربية لخمس سنوات قبل أن تتزوج). وكانت آنيا، مثل أمها، تعرف كيف تصنع فستانا جديدا من ثوب قديم، وتغسل القفاز في البنزين وتستأجر الـ bijoux^(١)، وكأمها كانت تجيد أيضا زر عينيها واللثغ واتخاذ الأوضاع الجميلة، وإبداء الإعجاب عند الضرورة، والتطلع بحزن وغموض. أما عن أبيها فقد ورثت لون الشعر الداكن، والعينين السوداوين والعصبية، وطريقته في التأنق الدائم.

وقيل الرحيل إلى الحفل بنصف ساعة، عندما دخل عليها موديست أليكسييتش بدون سترة لكي يضع قلادة الوسام في رقبتها أمام مرأتها، سحره جمالها وبريق فستانها الهوائي المنعش، فمشط سالفه برضى وقال:

- كم أنت جميلة... كم أنت جميلة!- واستطرد فجأة بنبرة احتفالية- أنيوتا! أنا قد أسعدتك، واليوم تستطيعين أنت إسعادى. أرجوك تعرفي بـ زوجة صاحب السمو! بالله عليك! فمن طريقها يمكننى أن أصبح كبير المعاونين.

وذهبا إلى الحفل. وها هو ذا مجمع النبلاء، والمدخل ذو الحاجب. والردهة ذات المشاجب، ومعاطف الفراء، والخدم المهرولون، والسيدات العاريات الأكتاف والصدور، وهن يتقن بالمراوح تيارات الهواء. وتنفوح رائحة غاز الاستصباح والجنود. وعندما سمعت آنيا الموسيقى وهى تصعد الدرج متأبطة ذراع زوجها، ورأت نفسها بالكامل فى مرآة ضخمة، وقد أضاءتها عشرات المصابيح، استيقظت الفرحة فى قلبها وذلك الهاجس بالسعادة، الذى تملكها فى تلك الأمسية القمرية على المحطة الصغيرة. سارت بعزّة، وثقة، وهى تحس بنفسها لأول مرة لا كفتاة، بل كسيدة، وتقلد بمشيئها وحركانها لا إراديا المرحومة أمها. ولأول مرة فى حياتها أحست بأنها غنية وحرّة. حتى حضور زوجها لم يضايقها، ذلك لأنها ما إن عبرت عتبة المجمع حتى أدركت بغريزتها أن وجود زوج عجوز بقربها لا يحط من قدرها أبدا، بل بالعكس، يضىء عليها

(١) الحللى (بالفرنسية فى الأصل).

طابع الغموض المثير الذى يستهوى الرجال إلى تلك الدرجة. وفى القاعة الكبيرة كان الأوركسترا يدوى وقد بدأ الرقص. وبعد الشقة الحكومية نظرت آنيا التى بهرما انطباع الأضواء والألوان والموسيقى والصخب إلى الصالة وفكرت: «آه ما أروع هذا»، وعلى الفور ميزت فى الحشد جميع معارفها، جميع هؤلاء الضباط والمدرسين، والمحامين، والموظفين، والإقطاعيين، وصاحب السمو، وأرطينوف، وسيدات المجتمع الراقى المتأنقات، العاريات الأكتاف والصدور بشدة، الجميلات والقييحات، اللاتى شغلن مواقعهن فى أكشاك وأجنحة السوق الخيرية استعدادا لبدء البيع لصالح الفقراء. وظهر فجأة ضابط ضخيم بكتفيات حريرية مقصبة. كانت قد تعرفت به فى شارع ستارو كييفسكايا وهى بعد تلميذة، ولم تعد تذكر اسمه الآن. وكأنما انشقت الأرض عنه، ودعاها لرقصة الفالس، فحلقت مبتعدة عن زوجها، وأصبح يخيل إليها أنها تسبح فى زورق شراعى أثناء عاصفة شديدة، بينمابقى زوجها بعيدا على الشاطئ.. رقصت بهيام وولع رقصات الفالس والبولكا والكادريل، والأيدى تتناقلها، وهى نشوى من الموسيقى والصخب، وتخلط الكلمات الروسية بالفرنسية، وتلغ وتضحك ولا تفكر لا فى زوجها ولا فى أحد أو شىء. لقد حازت على إعجاب الرجال، وكان ذلك واضحا، ولم يكن من الممكن أن يكون غير ذلك، وكانت تختنق من الانفعال وتعصر المروحة فى يدها بتوتر وتشعر بالظما. واقترب منها أبوها بيوتر ليونتيتش، فى فراك مجعد تفوح منه رائحة البنزين، ومد لها طبقا به آيس كريم أحمر.

وقال لها وهو يرمقها بإعجاب:

- أنت اليوم فاتنة. لم أشعر أبدا بالأسف كما شعرت اليوم على تسرعك بالزواج.. لماذا؟ أنا أعرف أنك فعلت ذلك من أجلنا، ولكن... وأخرج يديين مرتعشين رزمة نقود صغيرة وقال - اليوم أخذت أجر الدروس وأستطيع أن أسدد دينى لزوجك.

ودست الطبق فى يديه وحلقت بعيدا عنه وقد سحبها شخص ما، ورأت من فوق كتفى مراقصها كيف انزلق أبوها على باركيه الأرضية فاحتضن سيدة ودار بها فى الصالة.

وفكرت: «كم هو لطيف عندما يكون مفيقا!».

رقصت المازور كامع ذلك الضابط الضخم. كان يخطو بثقل وعظمة كأنما ذبيحة فى حلة، ويدير كتفيه وصدره، ولا يكاد يحرك قدميه، فقد كان غير راغب فى الرقص أبدا، أما هى فكانت تخفق من حوله مستفزة إياه بجمالها وعنفها المكشوف. وكانت عينها تتقدان حماسة، وحركاتها تفيض حرارة، أما هو فازداد لامبالاة ومد إليها يديه بتفضل كأنه ملك.

وتردد فى الجمع:

- برافو! برافو!.

ولكن شيئا فشيئا لم يصبر الضابط الضخم. دب فى الحياة، فانفعل واستجاب للسحر فتملكته الحمية وأصبح يتحرك بخفة وصباء، أما هى فكانت تدير كتفيه فحسب وتحقق بمكر، كأنما هى التى أصبحت ملكة وهو عبد، وفى تلك الأثناء خيل إليها أن الصالة كلها تنظر إليهما، وأن كل هؤلاء الناس يذوبون تأثرا ويغبطونهما. وما إن شكرها الضابط الضخم حتى انشق الجمهور فجأة، واستطالت قامات الرجال بصورة غريبة وتهدلت أذرعهم... كان صاحب السمو قادما نحوها، فى فراك بنجمتين. نعم، كان صاحب السمو قادما نحوها بالذات إذ كان يحدق فيها مباشرة ويتسم ابتسامة معسولة وخلال ذلك كان يتلمظ بشفتيه، وهو ما كان يفعله دائما عندما يرى نساء جميلات.

وأخذ يقول:

- سعيد جدا، سعيد جدا.. سأمر بسجن زوجك لأنه أخفى عنا هذا الكنز حتى الآن - واستطرد يقول ماذا لها يده - جئت بتكليف من زوجتى. ينبغى أن

تساعدينا.. إم.. يجب أن تخصص لك جائزة الجمال.. كما فى أمريكا.. إم..
الأمريكيون.. زوجتى تنتظرك بفارغ الصبر.

وقادها نحو كشك، إلى سيدة كهلة، كان الجزء الأسفل من وجهها ضخما
بما لا يتسق وبقية الوجه، فبدت وكأنما وضعت فى فمها حجرا كبيرا.

وقالت لآنيا بصوت أخف ناغم:

- ساعدينا. كل السيدات الجميلات يعملن فى السوق الخيرية، وأنت
وحدك التى تلهو لسبب ما. لماذا لا تريدين مساعدتنا؟

وانصرفت، وشغلت آنيا مكانها بجوار سماور فضى حوله فناجين الشاي.
وعلى الفور بدأت تجارة نشيطة. لم تكن آنيا تتقاضى مقابل فناجان الشاي
أقل من روبل، وأجبرت الضابط الضخم على شرب ثلاثة فناجين... وجاء
أرطينوف، ذلك الثرى ذو العينين الجاحظتين الذى يعانى من اللهاث، ولكنه
لم يكن فى حلتة الغربية التى رآته آنيا فيها صيفا، بل فى فراك، مثل الجميع.
ودون أن يحول بصره عن آنيا شرب كأس شمبانيا ودفع مائة روبل، ثم شرب
شايا ودفع مائة أخرى.. فعل كل ذلك فى صمت، وهو يعانى من الربو...
ومضت آنيا تنادى الزبائن وتتقاضى منهم النقود، وهى واثقة تماما من أن
ابتساماتها ونظراتها لا تجلب لهؤلاء الناس سوى المتعة الخالصة. وأدركت
أنها لم تخلق إلا لهذه الحياة الصاخبة البراقة الضاحكة بموسيقاها ورقصها
ومعجبيها، وبدا لها مضحكا خوفها القديم من تلك القوة التى ترحف نحوها
وتهدد بدهمها. لم تعد تخشى أحدا، ولم تأسف إلا لغياب أمها التى لو كانت
حية لشاركتها الفرحة بنجاحها.

اقترب بيوتر ليونتيش، الذى أصبح شاحبا، وإن كان لا يزال يقف راسخا
على قدميه، من الكشك وطلب كأس كونياك. وتضرجت آنيا وهى تتوقع أن
يتفوه بشيء غير لائق (فقد أصبحت تشعر بالخجل من أن لها أبا فقيرا وعاديا
إلى هذا الحد)، ولكنه شرب، وألقى إليها بعشرة روبلات من رزمته الصغيرة،

وابتعد بعظمة دون أن يقول كلمة واحدة. وبعد قليل رآته وهو يراقص سيدة في grand-rond، ولكنه أصبح الآن يترنح ويصرخ بشيء ما، مما أثار خجل صاحبه الشديد، فتذكرت آنيا كيف كان يترنح ويصرخ هكذا في الحفل منذ ثلاث سنوات، وانتهى الأمر بأن حمله الشرطى إلى البيت لينام، وفى اليوم التالى هدده الناظر بالفصل من الوظيفة. أوه، كم جاءت هذه الذكرى فى غير وقتها!

عندما أطفئت نيران السماور فى الأكشاك وسلمت فاعلات الخير حصيلة البيع إلى السيدة الكهلة ذات الحجر فى قمها، تأبط أرطينوف ذراع آنيا وقادها إلى الصالة، حيث أقيمت مأدبة عشاء لجميع المشتركين فى السوق الخيرية. ولم يزد عدد المدعوين عن العشرين شخصا ولكن الصخب كان شديدا. ورفع صاحب السمو نخبا: «فى هذا المطعم الفاخر سيكون من المناسب أن نشرب من أجل ازدهار المطاعم الرخيصة التى أقيمت من أجلها سوق اليوم». واقترح الجنرال أن يشربوا «نخب القوة التى تراجع أمامها حتى المدفعية» فمد الجميع كؤوسهم ليقرعوها بكؤوس السيدات. كان الجو فى غاية المرح!

وعندما أوصلوا آنيا إلى البيت كانت تبشير الفجر تلوح، وكانت الطاهيات يمشين إلى السوق. ونزعت آنيا ثيابها فرحة، ثملة، مشبعة بالانطباعات الجديدة، منهوكة القوى، وارتمت على السرير فنامت على الفور..

وفى حوالى الساعة الثانية أيقظتها الخادمة وأبلغتها أن السيد أرطينوف جاء للزيارة. فارتدت ثيابها على عجل وذهبت إلى غرفة الجلوس. وبعد أرطينوف سرعان ما جاء صاحب السمو ليشكرها على مساهمتها فى السوق الخيرية. وقبل يدها وهو ينظر إليها نظرة معسولة ويتلمظ بشفتيه، ورجاها أن تسمح له بزيارتها مرة أخرى، ثم رحل، بينما وقفت هى وسط الغرفة، مذهولة، مسحورة، غير مصدقة أن تحولا فى حياتها، تحولا مذهشا، قد وقع بهذه السرعة. وفى تلك اللحظة دخل زوجها موديست أليكسييتش.. ووقف

أمامها الآن بذلك التعبير المتزلف الحلو الخانع المبجل، الذى تعودت أن تراه على وجهه فى حضور الأشخاص الأقوياء الكبار. فقالت له بابتهاج وسخط واحتقار، واثقة من أنه لن يحدث لها شيء عقاباً على ذلك، وهى تلفظ كل كلمة بوضوح:

- اغرب من هنا أيها الأحمق!

وبعد ذلك لم يعد لدى أنيا يوم فراغ واحد، لأنها كانت تشارك إما فى رحلة خلوية وإما فى نزهة، وإما فى مسرحية. وكانت تعود إلى البيت كل يوم قرب الصباح فترقد فى غرفة الجلوس، على الأرض، ثم تحكى للجميع بتأثر كيف تنام تحت الزهور. وأصبحت بحاجة إلى نقود كثيرة جداً، ولكنها لم تعد تخشى موديست أليكسييتش فراحت تنفق نقوده وكأنها نقودها. ولم تكن ترجوه أو تطالبه بل ترسل إليه الفواتير أو رسائل قصيرة: «ادفع لحامله ٢٠٠ روبل» أو «ادفع ١٠٠ روبل فوراً».

وفى عيد الفصح حصل موديست أليكسييتش على وسام قلادة آنا من الطبقة الثانية. وعندما جاء إلى صاحب السمو ليشكره، نحى الأخير الصحيفة وغاص فى مقعده أكثر. وقال وهو يتملى يديه البيضاءين بأظافرهما الوردية:

- إذن فقد أصبح لديك ثلاث آتات. واحدة فى عروتك واثنان فى رقبتك.

فوضع موديست أليكسييتش إصبعين على شفتيه خشية أن يضحك عالياً وقال:

- لم يبق الآن إلا أن ننتظر مجيء فلاديمير الصغير. وإننى لأتجاسر يا صاحب السمو فأرجوكم أن تكونوا راعيه.

كان يلمح إلى وسام فلاديمير من الطبقة الرابعة، ومضى يتصور كيف سيحكى فى كل مكان عن قفشته هذه الموفقة ببراعتها وجسارتها، وأراد أن

يقول شيئا آخر، موفقا أيضا، ولكن صاحب السمو انكب على الجريدة من جديد وأوما برأسه...

أما أنيا فكانت تنزه في عربة الترويك، وتذهب مع أرطينوف إلى رحلات الصيد، وتمثل في المسرحيات ذات الفصل الواحد، وتتعشى، وندرت زياراتها لأهلها. كانوا الآن يتغدون وحدهم. وأغرق بيوتر ليونتيتش في الشراب أكثر من ذي قبل، ولم تعد لديه نقود، وباعوا القدمية من زمان سدادا للديون. ولم يعد الصبيان يتركانه يخرج إلى الشارع وحده، وكانا يراقبانه دائما حتى لا يسقط. وعندما كانوا يلاقون أنيا أثناء التنزه في شارع ستاروكيفسكايا راكبة عربة بحصانين، وأرطينوف في مكان الحوذى، كان بيوتر ليونتيتش ينزع القبعة ويهم بأن يصرخ بشيء ما، ولكن بيتيا وأندريوشا يمسكان به من تحت إبطيه ويقولان بصوت ضارع:

- لا داعي يا بابا.. كفى يا بابا..

المنزل ذو العلية

(رواية مصور)

١

كان ذلك منذ حوالي ٦ - ٧ سنوات عندما كنت أعيش في أحد مراكز محافظة (ت) في ضيعة الإقطاعى بيلوكوروف، الشاب الذى كان يستيقظ مبكرا جدا ويرتدى صديريا ثقيلًا، ويشرب البيرة فى المساء ويشكولى طوال الوقت من أنه لا يجد تعاطفا فى أى مكان ولا من أى شخص. كان يعيش فى جناح بالبستان، أما أنا ففى بيت السيد القديم، فى قاعة ضخمة ذات أعمدة، لم يكن بها أى أثاث سوى كبة عريضة كنت أنام عليها، وطاولة كنت أنشر فوقها أوراق اللعب. وحتى فى الأوقات الصحوة، كان هناك شىء ما يترد دائما فى المدافى، وفى أوقات العاصفة يرتعش البيت كله ويبدو أنه يتمزق أشلاء، فتشعر ببعض الخوف، خاصة فى الليل، عندما يضىء البرق فجأة النوافذ العشر الضخمة كلها.

ولما كان القدر قد رمانى بالفراغ الدائم، فقد كنت لا أفعل شيئا على الإطلاق. كنت أقضى الساعات الطوال أنظر من نوافذى إلى السماء، والطيور، وممرات البستان، وأقرأ كل ما يحمله لى البريد، وأنام. وأحيانا كنت أغادر البيت وأظل أتسكع فى مكان ما حتى ساعة متأخرة من المساء.

وذات مرة، أثناء عودتى، دلفت صدفة إلى حديقة دار غير معروفة لى. كانت

الشمس قد اختفت، وامتدت ظلال المساء على الحنطة المزهرة. وانتصب صفان من أشجار الحور العجوز المتلاصقة والطويلة جدا مثل جدارين أصمين، فصنعا دربا مظلما جميلا. وعبرت السياج بسهولة وسرت في هذا الدرب أترحلق على الأوراق الإبرية التي كانت تغطي الأرض بسمك شبر. كان المكان هادئا، مظلما، وعلى قمم الأشجار العالية فقط كان يلوح في بعض الأماكن ضوء ذهبي ساطع يتموج بألوان الطيف في خيوط العنكبوت. وفاحت رائحة الصمغ بشدة، إلى درجة خانقة. ثم انعطفتُ بعد ذلك إلى درب بأشجار زيزفون. وهنا أيضا ساد الإهمال والشيخوخة.. كانت أوراق العام الماضي تخشخش بحزن تحت الأقدام، وتخفت ظلال الغسق بين الأشجار. وإلى اليمين، في بستان الفاكهة العجوز صدح طائر الصفارية بصوت واهن، ويبدو أنه هو أيضا كان عجوزا. وها هي ذى أشجار الزيزفون تنتهي، وسرت بجوار بيت السادة، وبركة عريضة بمسيح، ومجموعة كثيفة من الصفصاف الأخضر، وقرية على الشاطئ الآخر بيرج أجراس عال ضيق يشتعل فوقه صليب عاكسا أشعة الشمس الغاربة. وللحظة هبت على روائح شيء ساحر قريب إلى النفس ومعروف جدا، وكأنما رأيت هذا المنظر نفسه في وقت ما أيام الطفولة.

وعند البوابة الحجرية البيضاء التي كانت تفضى من الفناء إلى الحقل، عند هذه البوابة العتيقة الصلبة ذات الأسود، وقفت فتاتان. كانت إحدهما، وهى الأكبر، نحيلة، شاحبة، جميلة جدا، تحمل على رأسها كومة من الشعر الكستنائى، وبقم صغير عنيد، وكان تعبير وجهها صارما، ولم تكذ تولينى انتباها. أما الأخرى فكانت شابة جدا، فى حوالى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة لا أكثر.. وكانت هى أيضا نحيلة شاحبة، بقم واسع وعينين واسعتين، ونظرت إلى بدھشة عندما مررت بالقرب منهما، وقالت بالإنجليزية شيئا ما واعتراها الخجل، وخيل إلى أن هذين الوجهين الرقيقين معروفان لى أيضا منذ زمن بعيد. وعدت إلى المنزل بإحساس من رأى حلما جميلا.

وبعد ذلك بوقت قصير، عندما كنت أتجول مع بيلوكوروف بجوار المنزل، دلفت إلى الفناء بغتة عربية بنوابض، وخشخش الأوراق تحت عجلاتها، وفيها كانت تجلس إحدى هاتين الفتاتين. كانت الفتاة الكبرى. وقد جاءت بكشف تبرعات لمنكوبى الحريق. ودون أن تتطلع فينا أخبرتنا بجدية وتفصيل عن عدد المنازل التي احترقت في قرية سيانوفو، وعدد الرجال والنساء والأطفال الذين أصبحوا بلا مأوى، وما هي التدابير التي تنوى اتخاذها في المراحل الأولى لجنة إغاثة منكوبى الحريق التي هي عضو فيها الآن. وبعد أن أعطتنا الكشف لنوقعه أخذته وأخفته وعلى الفور ودعتنا.

وقالت لبيلوكوروف وهي تناوله يدها:

- لقد نسبتنا تماما يا بيوتر بترفتش. زرنا، وإذا كان monsieur N (وذكرت اسمي) يرغب في أن يرى كيف يعيش محبوبه موهبة ويتفضل بزيارتنا فستكون ماما وأنا سعداء.

وأومات برأسى محييا.

وبعد أن رحلت أخذ بيوتر بترفتش يحكى لى. قال إن هذه الفتاة من أسرة طيبة وتدعى ليديا فولتشانينوفا، أما الضيعة التي تعيش فيها مع أمها وأختها، وكذلك القرية على شاطئ البركة الآخر فتسمى شيلكوفكا. وكان والدها يحتل في وقت ما مكانة مرموقة في موسكو، ومات وهو في رتبة المستشار السرى. ورغم مواردهم الجيدة فقد عاش آل فولتشانينوف في القرية صيفا وشتاء دون أن يغادروها، وكانت ليديا مدرسة في مدرسة ريفية في شيلكوفكا، وتتقاضى ٢٥ روبلا في الشهر. ولم تكن تنفق على نفسها سوى هذه النقود، وتعتر بأنها تعيش على حسابها.

وقال لبيلوكوروف:

- أسرة شيقة. أعتقد أننا ينبغي أن نزورها ذات مرة. وسيكونون سعداء جدا.

وذات مرة بعد الغداء، فى أحد الأعياد تذكرنا آل فولتشانينوف، فتوجهنا إليهم فى شيلكوفكا. كانت الأم والفتاتان فى البيت. ويبدو أن الأم يكاترينا بافلوفنا كانت فى وقت ما جميلة، أما الآن فأصبحت مترهلة قبل الأوان، مريضة بضيق التنفس وحزينة وشاردة، وحاولت أن تسلىنى بالحديث عن التصوير. وعندما علمت من ابتها أنى ربما أزور شيلكوفكا، تذكرت على عجل منظرين أو ثلاثة من رسمى كانت قد رأتها فى المعارض بموسكو، فأخذت تسألنى الآن عما كنت أريد أن أعبر عنه فيها. أما ليديا، أو كما يسمونها فى البيت ليذا، فتحدثت مع بيلوكوروف أكثر مما تحدثت معى. كانت تسأله بجدية، ودون ابتسام، لماذا لا يعمل فى مجلس الإقليم، ولماذا لم يحضر حتى الآن اجتماعا واحدا للمجلس.

وقالت بتأنيب:

- لا يصح يا بيوتر بتروفتش، لا يصح. عيب عليك.

وقالت أمها مؤمنة:

- صحيح يا ليذا صحيح.. لا يصح.

واستطردت ليذا تقول وهى تخاطبنى:

- مركزنا كله فى أيدي بلاجين. هو رئيس مجلس الإدارة، وقد وزع جميع المناصب فى المركز على أولاد إخوته أنسابه ويفعل ما يريد. ينبغى الكفاح ضده. وعلى الشباب أن يشكل جماعة قوية، ولكن ها أنت ذا ترى شبابنا. عيب يا بيوتر بتروفتش.

وصمتت الأخت الصغرى جينيا عندما دار الحديث عن مجلس الإقليم. لم تكن تشارك فى الأحاديث الجدية، ولم تكن العائلة تعتبرها كبيرة بعد، وكانوا يدعونها كالصغار بـ «ميسوس» لأنها فى طفولتها كانت تدعو مربيها ميس. ظلت تنطلع إلى طوال الوقت بفضول، وعندما تفرجت فى الألبوم على

الصور أخذت تشرح لى: «هذا عمى.. هذا أبى فى العماد»، وتمر بأصابعها على الصور، وتمسنى بكتفها كالأطفال، فرأيت عن قرب صدرها الضعيف الذى لم يكتمل، وكتفها الدقيقتين، وضميرتها، وجسدها النحيل، المشدود بقوة بحزام.

ولعبنا الكروكت، و lawn - tennis وتجولنا فى البستان، وشربنا الشاي، ثم جلسنا طويلا إلى مائدة العشاء. وبعد القاعة الضخمة الخاوية ذات الأعمدة أحسست بنوع من الضيق فى هذا المنزل الصغير المريح الذى لم تكن على جدرانه لوحات زيتية ويخاطب أهله الخدم بصيغة الجمع، وبدا لى كل ما فيه شابا ونقبا بفضل وجود ليدا وميسوس، وانبعثت من كل شىء رائحة الاستقامة. وأثناء العشاء تحدثت ليدا مع بيلوكوروف مرة أخرى عن مجلس الإقليم، وعن بلاجين، وعن مكتبات المدارس. لقد كانت فتاة حية، مخلصة، ذات عقيدة، وكان الاستماع إليها ممتعا، رغم أنها كانت تتحدث كثيرا وبصوت عال، ربما لأنها تعودت على ذلك فى المدرسة. ولكن صاحبى بيوتر بتروفتش، الذى كانت لديه منذ أيام الدراسة عادة تحويل أى حديث إلى نقاش، كان يتحدث بملل وتراخ ويجمل طويلا، وبرغبة ظاهرة فى أن يبدو شخصا ذكيا وتقدميا. وبينما كان يلوح بيديه أثناء الحديث أسقط وعاء الصلصة بكمه فظهرت على المفرش بقعة كبيرة، ولكن أحدا غيرى، فيما بدا، لم يلحظ ذلك.

وعندما غادرنا عائدتين كان الظلام قد حل وساد الهدوء وقال بيلوكوروف:

- ليست التربية الجيدة هى ألا تريق الصلصة على المفرش، بل ألا تلاحظ ذلك عندما يفعله شخص آخر - ثم تنهد وقال - نعم، أسرة رائعة، مثقفة. لقد تخلفت عن الناس الطيبين، آه كم تخلفت! وكل ذلك بسبب الأعمال، الأعمال! الأعمال!.

وتحدثت عن العمل الكثير الذى ينبغى أن تقوم به إذا أردت أن تكون مالكا

ريفيًا نموذجيًا. أما أنا ففكرت، ياله من رجل ثقيل وكسول. وعندما يتحدث عن شيء ما جدى يمتط بتوتر «إ...إ...إ» ويعمل أيضا ببطء مثلما يتحدث، ويتأخر دائما عن المواعيد. لم أكن أثق في روحه العملية أيضا لأن الرسائل التي كنت أعطيها له ليرسلها بالبريد كانت تبقى أسابيع عديدة في جيبه.

ودمدم وهو يسير بجانبى:

- أصعب شيء أن تعمل ولا تجد تعاطفا من أحد، لا أدنى تعاطف.

٢

أخذت أتردد على آل فولتشانينوف. وكنت أجلس عادة على درجة الشرفة السفلية. كان يعذبني سخطى على نفسى، وكنت أسفا على حياتى التى كانت تمضى بهذه السرعة وعلى هذا النحو غير الممتع، فرحت أفكر فى أنه من الخير لو استطعت أن أنزع من صدرى قلبى الذى أصبح ثقيلًا هكذا. وفى تلك الأثناء كانوا يتحدثون فى الشرفة، ويتناهى حفيف الفساتين، وتقليب صفحات كتاب. وتعودت على أن ليذا تستقبل المرضى نهارا وتوزع الكتب، وتذهب كثيرا إلى القرية حاسرة الرأس، حاملة مظلة، وتحدث فى المساء بصوت عال عن مجلس الإقليم وعن المدارس. هذه الفتاة النحيلة الجميلة الصارمة دوما، ذات الفم الرشيق الخطوط، كانت تقول لى دائما بصوت جاف عندما يبدأ حديث عملى:

- هذا ليس ممتعا لك.

لم أكن أروق لها. ولم تكن تحببى لأننى أرسم مناظر، ولا أصور فى لوحاتى احتياجات الشعب، وكنت، كما بدا لها، لامباليا تجاه ما كانت تؤمن به بقوة. وأذكر عندما كنت مسافرا على شاطئ بحيرة «البايكال» أننى قابلت فتاة من البوريات ترتدى قميصا وسروالا من القماش الأزرق وتمتطى جوادا. وسألته أن تبيع لى غليونها، وطوال حديثنا كانت تنظر باحتقار إلى وجهى الأوروبى

والى قبعتى، وفى لحظة ملت الحديث معى فأطلقت صيحة وركضت بالحصان مبتعدة. كذلك كانت ليدا تحترق ما هو غريب فى. ولم تظهر أبدا نفورها منى، ولكنى كنت أشعر به، فكنت أحس بالغىظ وأنا جالس على درجة الشرفة السفلية فأقول إن علاج الفلاحين، بينما لست أنت طبيبا، إنما هو خداع لهم، وإنه من السهل أن تكون خيرا عندما تملك ألفى ديسياتينا^(١).

أما شقيقتها ميسوس فلم تكن لديها أية هموم، فكانت تقضى أيامها فى فراغ تام، مثلى. وعندما تستيقظ صباحا تمسك على الفور بكتاب وتقرأ وهى جالسة فى الشرفة فى مقعد عميق. فكانت قدماها لا تكادان تلمسان الأرض، أو تختفى مع الكتاب فى درب الزيزفون، أو تمضى خارج البوابة إلى الحقل. كانت تقرأ طوال النهار وهى تحديق فى الكتاب بنهم. ومن نظرتها التى كانت تصبح أحيانا مرهقة مذهولة، ووجهها الذى يشحب بشدة كان بالإمكان أن تخمن كم ترهق هذه القراءة مخها. وعندما آتى وترانى، كانت تحمر قليلا، وتنحى الكتاب، وتحديق فى وجهى بعينها الواسعتين وتروى لى بحيوية ما حدث، كأن تحدثنى عن اشتعال السناج فى غرفة الخدم، أو أن أحد عمالهم اصطاد فى البركة سمكة كبيرة. وفى الأيام العادية كانت ترتدى قميصا فاتحا وجونلة زرقاء قاتمة. وكنا ننتزه معا ونجمع الكرز للمربى ونسبح بالقرب، وعندما كانت تقفز لتقطف الكرز، أو تجدف، كانت ذراعاها النحيلتان الضعيفتان تشفان من أكامها الواسعة. وأحيانا كنت أرسوم مشهدا فتقف بجوارى وتتطلع بإعجاب.

وفى أحد أيام الأحد، فى نهاية يوليو جئت إلى آل فولنشانينوف صباحا، فى حوالى الساعة التاسعة. سرت فى الحديقة بعيدا عن البيت وأخذت أبحث عن الفطر الأبيض الذى كان كثيرا جدا فى ذلك الوقت، وأضع علامات بجواره لكى أجمعه مع جينيا فيما بعد. وهبت ريح دافئة. ورأيت جينيا وأمها فى فستانين فاتحين من فساتين الأعياد، قادمتين، من الكنيسة إلى البيت، وكانت

(١) الديسياتينا - مقياس روسى قديم لسطح الأرض يعادل ١,٠٩ هكتار. (المغرب).

جينا تثبت القبة على رأسها كيلا تطوح بها الريح. ثم سمعهم يشربون الشاي في الشرفة.

وبالنسبة لى، كرجل خالى البال، يبحث عن تبرير لفراغه الدائم، كانت هذه الأصباح العيية فى ضياعنا تبدو لى دائمة جذابة بصورة غير عادية. عندما يشع البستان الأخضر فى الشمس، وهو لا يزال رطبا من الندى، فيبدو سعيدا، وعندما تتضوع قرب البيت رائحة الخزامى والدفلى، والشباب قد عاد لتوه من الكنيسة ويشرب الشاي فى الحديقة، وعندما يلبس الجميع ثيابا لطيفة ويعلمو وجوههم المرح، وعندما تعلم أن كل هؤلاء الأشخاص الأصحاء الشبى الجميلين لن يفعلوا شيئا طوال اليوم.. عندها تود أن تصبح الحياة كلها هكذا. والآن كنت أفكر فى ذلك وأتمشى فى البستان، وأنا على استعداد لأن أتمشى هكذا بلا عمل طول النهار، طول الصيف.

وجاءت جينا ومعها سلة. وكان على وجهها تعبير وكأنها كانت تعرف أو تحدث أنها ستجدينى فى البستان. وجمعنا الفطر وتحدثنا، وعندما كانت تسألنى عن شيء ما، كانت تتقدمنى لى ترى وجهى.

وقالت:

- وقعت معجزة بالأمس فى القرية. فقد كانت بيلاجيا العرجاء مريضة طول السنة، ولم يسعفها أى طبيب أو دواء، وبالأمس رقتا عجوز فزال المرض.

فقلت:

- هذا ليس مهما. لا ينبغي أن نبحث عن المعجزات فقط بجوار المرضى والعجائز. أليست الصحة معجزة؟ والحياة نفسها؟ كل ما هو غير مفهوم معجزة.

- وأنت، ألا تخاف من غير المفهوم؟

- كلا. الظواهر التي لا أفهمها أعاملها بنشاط ولا أخضع لها. أنا أسمى منها.
ينبغي على الإنسان أن يحس بنفسه أسمى من الأسود والنمور والنجوم، أسمى
من كل ما فى الطبيعة، بل حتى أسمى من كل ما هو غير مفهوم ويبدو معجزاً،
ولا فهو ليس بإنسان، بل فأر يخاف من كل شىء.

كانت جينيا تعتقد أننى كمصور أعرف كثيراً جداً وأستطيع أن أخمن
بصواب ما لا أعرفه. وقد أرادت أن أدخلها ميدان الخلود والجمال، ذلك
المجتمع السامى الذى كنت فيه، حسب اعتقادها، واحداً من أفرادها، فكانت
تحدث معى عن الله، وعن الحياة الخالدة، وعن المعجزات. وكنت أنا الذى
لا أتصور أنه بعد الموت سأهلك أنا وخيالى إلى الأبد، أجيها: «نعم، البشر
خالدون»، «نعم، الحياة الخالدة فى انتظارنا»، فكانت تسمع وتصدق ولا
تطالب بالأدلة.

وعندما كنا عائدين إلى المنزل توقفت فجأة وقالت:

- ليذا إنسان رائع، أليس كذلك؟ إننى أحبها بحرارة، وبوسعى أن أضحي
بحياتى من أجلها فى كل لحظة. ولكن قل لى - ولمست جينيا كى ياصبعها
- لماذا تتجادل معها دائماً؟ لماذا أنت عصبى معها؟

- لأنها ليست على حق.

فهزت جينيا رأسها سلباً، وظهرت الدموع فى عينيها. ودمدمت:

- كم يبدو لى هذا غير مفهوم.

فى تلك الأثناء كانت ليذا قد عادت لتوها من مكان ما، ووقفت فى الشرفة
ممسكة بسوط فى يدها، رشيقة، جميلة، تضيئها الشمس، وكانت تصدر
الأوامر لأحد العاملين. واستقبلت مريضين أو ثلاثة على عجل، وهى تتكلم
بصوت عال، ثم طافت بالغرف بوجه يعبر عن روح الجد والمشغولية، تفتح
هذا الصوان أو ذاك، وذهبت إلى العلية. وبحثوا عنها طويلاً، ودعوا للغداء
فجاءت عندما فرغنا من تناول الحساء. ولست أدري لماذا أذكر وأحب كل هذه

التفاصيل الصغيرة، وأذكر جيدا ذلك اليوم الحار كله رغم أنه لم يحدث شيء ذو قيمة. وبعد الغداء جلست جينيا في مقعد عميق وراحت تقرأ، وجلست أنا على درجة الشرفة السفلية. ولزمت الصمت. وانتشحت السماء كلها بالغيوم، وراح يسقط مطر خفيف متقطع. كان الجو حارا، والريح قد سكنت منذ فترة طويلة، وبدا أن هذا النهار لن ينتهي أبدا. وجاءتنا يكاترينا بافلوفنا في الشرفة بوجه ناعس وفي يدها مروحة.

فقالت جينيا وهي تقبل يدها:

- أوه يا ماما، من المضر لك النوم في النهار.

كانتا تعشقان بعضهما البعض. وعندما تذهبان إحداهما إلى البستان، تقف الأخرى في الشرفة وتتطلع إلى الأشجار وتنادى «يا جينيا» أو «ماما، أين أنت؟» وكانتا تصليان دائما معا، وعلى درجة واحدة من الإيمان، وتفهمان بعضهما البعض جيدا حتى عندما تصمتان. وكان موقفهما من الناس واحدا. وكذلك تعودت على يكاترينا بافلوفنا وتعلقت بى بسرعة، وعندما كنت لا أزورهم يومين أو ثلاثة، كانت ترسل من يسأل هل أنا بصحة طيبة. وكانت تتطلع إلى مشاهدي أيضا بإعجاب، وبنفس الثرثرة وبنفس الصراحة مثل ميسوس كانت تحدثني عما يحدث، وكثيرا ما كانت تأتمننى على أسرارها العائلية.

وكانت تبجل ابنتها الكبرى. ولم تكن ليذا تلاطف أحدا، ولا تتحدث إلا عن الأمور الجدية، وتعيش حياتها الخاصة وكانت بالنسبة لأمها وشقيقتها مقدسة، وشخصية غامضة إلى حد ما مثل الأميرال بالنسبة للبحارة، والذي يجلس طوال الوقت في مقصورته.

وكانت الأم تقول كثيرا:

- ليدانا شخص رائع، أليس كذلك؟

والآن، وبينما المطر يتساقط، أخذنا نتحدث عن ليدا.

- إنها إنسان رائع - قالت الأم، ثم أضافت في همس وبسرة تأمر وهي تتلفت حولها بخوف - مثلها لن تجد مهما بحثت، ولكنى، أتدري، بدأت أقلق قليلا. المدرسة، والصيدليات، والكتب، كل ذلك جميل.. ولكن لماذا التطرف؟ إنها الآن فى الرابعة والعشرين، آن لها أن تفكر فى نفسها بجدية وإلا فلن تشعر من وراء الكتب والصيدليات إلا والحياة قد ولت.. ينبغى أن تتزوج.

ورفعت جينيا رأسها، وكان وجهها شاحبا من القراءة، وتسريحتها مجمدة وقالت وهي تنظر إلى أمها وكأنها تقول لنفسها:

- ماما، كل شىء رهن بمشيئة الله.

وانهمكت فى القراءة من جديد.

وجاء بيلو كوروف فى الصديرى الثقيل وقميصه المطرز. ولعبنا الكروكت، و lawn - tennis، وعندما حل الظلام تعشنا طويلا، وعادت ليذا نتحدث عن المدارس وعن بلاجين الذى سيطر على الإقليم. وعندما رحلت فى ذلك المساء عن آل فولتشانينوف حملت معى انطباع يوم طويل طويل فارغ وإدراكا حزينا بأن لكل شىء نهاية فى هذه الدنيا مهما كان طويلا. وودعتنا جينيا حتى البوابة، وربما لأنها قضت معى اليوم كله من الصباح حتى المساء، أحسست بدونها بالوحشة وبأن هذه الأسرة اللطيفة قريبة إلى قلبى، ولأول مرة طوال الصيف شعرت بالرغبة فى الرسم.

وسألت بيلو كوروف وأنا عائد معه إلى البيت:

- خبرنى، لماذا تعيش على هذا النحو الممل، العديم الألوان؟ إن حياتى مملة، ثقيلة ورثية لأننى مصور، لأننى إنسان غريب، مزقتنى منذ الصغر الغيرة وعدم الرضا عن النفس وعدم الثقة فى عملى. إننى فقير دوما، أنا صعلوك، ولكن أنت، أنت أنسان صحيح، طبعى، إقطاعى، سيد، فلماذا تحيا هذه الحياة غير الممتعة ولماذا لا تأخذ من الحياة إلا هذا القدر القليل؟ لماذا، مثلا، لم تقع فى حب ليذا أو جينيا حتى الآن؟

فأجاب بيلو كوروف:

- إنك تنسى أنني أحب امرأة أخرى.

كان يقصد صاحبه لوبوف إيفانوفنا، التي كانت تعيش معه فى الجناح. وكنت كل صباح أرى هذه السيدة البدينة، التى تشبه أوزة معلوفة، وهى تتجول فى البستان مرتدية فستانا روسيا وعقدا، ودائما تحت شمسية، والخدم يدعونها بين الحين والحين لتأكل تارة، ولتشرب الشاي تارة أخرى. منذ حوالى ثلاثة أعوام استأجرت أحد الأجنحة من بيلو كوروف كمقر صيفى، ومن يومها بقيت عنده يبدو إلى الأبد. كانت تكبره بحوالى عشرة أعوام، وتحكم فيه بصرامة، بحيث كان عليه أن يطلب الإذن منها إذا أراد أن يغادر البيت. وكانت تتحب كثيرا بصوت رجالي، وعندئذ أرسل إليها من يقول إنها إذا لم تكف فسأرحل عن الشقة، فكانت تكف عن البكاء.

وعندما وصلنا البيت جلس بيلو كوروف على الكنبه وقطب حاجبيه مفكرا، أما أنا فأخذت أتمشى فى القاعة وقد انتابنى اضطراب خفيف وكأني عاشق. كنت أشعر برغبة فى الكلام عن آل فولتشانينوف.

فقلت:

- ليدا لا يمكن أن تحب سوى عضو مجلس إقليم، مغرم مثلها بالمستشفيات والمدارس. أوه، فى سبيل فتاة كهذه يمكن للمرء أن يصبح لا عضو مجلس إقليم فحسب، بل وأن يذبح نعل حذاء حديدى كما فى الحكايات. وميسوس؟ يا لها من ساحرة ميسوس هذه!

ومط بيلو كوروف ببطء «إ...إ...إ» وتحدث عن التشاؤم، مرض العصر. كان يتحدث بثقة، وبببرة كأنما كنت أجادله. إن مئات الكيلو مترات من السهوب الخاوية، الرتيبة، العارية لا تستطيع أن تصيبك بهذه الكآبة التى يصيبك بها شخص واحد، عندما يجلس ويتحدث، ولا تدرى متى سيرحل.

وقلت بعصية:

- ليست القضية فى التشاؤم أو التفاؤل، وإنما فى أن تسعة وتسعين فى المائة من الناس ليس لديهم عقل.
واعتبر يلو كوروف أنه المقصود بذلك، فغضب وانصرف.

٣

قالت ليدا لأمها وهى تخلع القفاز وقد عادت من مكان ما:

- الأمير نزل ضيفا فى مالوزيوموف، ويبلغك التحية. روى أشياء طريفة كثيرة.. ووعد أن يشر فى مجلس المحافظة من جديد مسألة المركز الطبى فى مالوزيوموف، ولكنه قال إن الأمل ضعيف- وقالت تخاطبنى- عفوا، إننى دائما أنسى أن هذا لا يمكن أن يكون طريفا بالنسبة لك.

وشعرت بالضيق، فسألتها وأنا أهز كتفى:

- لِمَ ليس طريفا؟ أنت لا تريدين سماع رأى، ولكنى أؤكد لك أن هذه المسألة تهمنى جدا.

- حقا؟

- نعم، فى رأى أن المركز الطبى فى مالوزيوموف غير ضرورى البتة.

- وما هو الضرورى؟ المناظر؟

- والمناظر أيضا غير ضرورية. لا ضرورة لشيء هناك.

وفرغت من خلع قفازها وفتحت الصحيفة التى حملها البريد لتوه. وبعد دقيقة قالت بهدوء وهى تكبح نفسها فيما يبدو:

- فى الأسبوع الماضى ماتت أنا أثناء المخاض، ولو كان هناك مركز طبى قريب لبقيت على قيد الحياة. ويخيل إلى أنه ينبغى على السادة رسامى المناظر أن تكون لديهم عقيدة ما فى هذا الصدد.

فأجبت ولكنها حجبت نفسها عني بالصحيفة وكأنما لا تريد أن تسمع:

- عندى عقيدة محددة تماما فى هذا الصدد. فى رأى أن المراكز الطبية والمدارس والمكتبات والصيدليات فى ظل الظروف القائمة لا تساعد إلا على الاستعباد. إن الشعب مكبل بسلسلة هائلة، وأنتم لا تحطمون السلسلة، بل تضيفون إليها حلقات جديدة. هذه هى عقيدتى.

ورفعت إلى بصرها وابتمت بسخرية، أما أنا فاستطردت محاولا أن أقتنص فكرتى الرئيسية:

- ليس المهم أن أنا ماتت أثناء المخاض، ولكن المهم هو أن أمثال أنا ومافرا، وبيلاجيا، جميعهن يحنين ظهورهن من الصباح إلى المساء ويمرضن من الكد المرهق، ويرتعشن طوال حياتهن هلعا على أولادهن الجوعى والمرضى، ويخفن طوال الحياة من الموت والأمراض، ويتعالجن طوال الحياة، ويذبن مبكرا، ويهرمن مبكرا، ويمتن فى القذارة والتثانة. وعندما يكبر أولادهن يسرون على نفس المنوال، وهكذا تمضى مئات السنين، بينما يعيش مليارات البشر أسوأ مما تعيش الحيوانات.. فقط من أجل كسرة الخبز، وهم يعانون من الخوف الدائم. والفظاعة فى وضعهم إنه لا وقت لديهم للتفكير فى أنفسهم وفى أرواحهم. الجوع والبرد، والخوف الحيوانى، وكمية العمل الهائلة قد سدت عليهم، ككتل الجليد المنهارة، كل الطرق المؤدية إلى النشاط الروحى، بالضبط إلى ذلك الذى يميز الإنسان عن الحيوان، ويشكل الشئ الوحيد الذى يستحق أن نعيش من أجله. وأنتم تخفون لمساعدتهم بالمستشفيات والمدارس، ولكنكم بذلك لا تحررونهم من القيود، بل بالعكس، تستعبدونهم أكثر، وذلك لأنكم بإدخال مزيد من الخزعبلات إلى حياتهم تزيدون من عدد احتياجاتهم، هذا إذا تغاضينا عن أنهم لابد أن يدفعوا لمجلس الأقليم مقابل العقاقير والكتب، أى مزيدا من إحناء الظهر.

فقلت ليذا وهى تنزل الصحيفة:

- لن أجادلك. لقد سمعت ذلك قبلا. ولكنى سأقول لك شيئا واحدا: لا ينبغي أن نجلس بلا عمل. صحيح أننا لا ننقذ البشرية، وربما كنا نخطئ في أشياء كثيرة، ولكننا نفعل ما نستطيع، ونحن على حق. إن أسمى وأقدس مهمة للإنسان المتحضر أن يساعد الأقربين، ونحن نحاول أن نساعدهم حسبما نستطيع. هذا لا يعجبك، ولكن ما العمل، لا يمكن إرضاء الجميع.

وقال الأم :

- صحيح باليدا، صحيح يا ليدا، صحيح.

كانت تشعر دائما بالوجل في حضرة ليدا، وعندما تتكلم تتطلع إليها بقلق، خشية أن تقول شيئا ما لا لزوم له أو غير مناسب. ولم تعارضها أبدا، بل كانت توافقها دائما: صحيح يا ليدا، صحيح.

وقلت:

- إن تعليم الفلاحين، والكتب ذات المواعظ والدروس التافهة، والمراكز الطبية، لا يمكن أن تقلل نسبة الجهل أو الوفيات مثلما لا يمكن لضوء نوافذكم أن يضيء هذا البستان الضخم. إنكم لا تفعلون شيئا، وتدخلكم في حياة هؤلاء الناس لا تصنعون سوى احتياجات جديدة، ومبرر جديد للكذب.

- آه، يا إلهي، ولكن ينبغي أن نفعل أى شيء!- قالت ليدا بأسى، وظهر من نبرتها أنها تعتبر أفكارى تافهة، وتحتقرها.

فقلت:

- ينبغي تحرير الناس من العمل البدنى الشاق. ينبغي تخفيف النير عنهم، وإعطائهم فرصة لالتقاط الأنفاس، لكي لا يقضوا حياتهم كلها أمام الأفران والطبوت وفي الحقل، بل يكون لديهم وقت للتفكير فى الروح والله، وفرصة للتعبير عن قدراتهم الروحية على نطاق أوسع. إن رسالة كل إنسان هى فى النشاط الروحى، فى البحث الدائم عن الحقيقة ومغزى الحياة. فلتجعلوا العمل

الحيوانى اللفظ غير ضرورى لهم، أعطوهم الفرصة ليحسوا بأنفسهم أحرارًا، وعندئذ ستدركون أية سخرية فى الواقع تمثل هذه الكتب والصيدليات. وإذا ما أدرك الإنسان رسالته الحقيقية فلن يشبعها سوى الدين والعلوم والفنون، لا هذه التفاهات.

وقالت ليذا ساخرة:

- تحريرهم من العمل! وهل هذا ممكن؟

- نعم. خذوا على عاتقكم جزءا من عملهم. فلو أننا جميعا، سكان المدن والقرى، جميعا بدون استثناء، وافقنا على توزيع العمل بيننا، العمل الذى تنفقه البشرية عموما على إشباع الحاجات المادية، فربما لم يزد نصيب الفرد منا عن ساعتين أو ثلاث من العمل فى اليوم. تصورى أننا جميعا، أغنياء وفقراء، نعمل فقط ثلاث ساعات فى اليوم، وبقيّة الوقت أحرار. وتصورى أيضا أننا، لكى نكون أقل تبعية لأجسادنا ونعمل أقل، سنخترع آلات تقوم هى بالعمل، وأننا سنسعى إلى تخفيض احتياجاتنا إلى أدنى حد. وأننا سنقوى عزيمتنا وعزيمة أطفالنا لكى لا يخافوا الجوع والبرد ولكى لا ترتعش خوفا على صحتهم كما ترتعش أنا ومافرا وبيلاجيا. تصورى أننا لا نتعالج، ولا نحفظ بصيدليات ولا مصانع دخان وخمور.. فأى وقت فراغ سيتبقى لدينا فى النهاية. وعندئذ نخصص جميعا هذا الوقت للعلوم والفنون. ومثلما يقوم الفلاحون جماعة بإصلاح الطريق، نقوم نحن جماعة بالبحث عن الحقيقة ومغزى الحياة، وعندئذ - وأنا على يقين من ذلك - سنكتشف الحقيقة بسرعة، وسيتخلص الإنسان من هذا الخوف الدائم المعذب الممض من الموت، بل وحتى من الموت نفسه.

فقال ليذا:

- ولكنك تناقض نفسك. أنت تقول: العلوم، العلوم، ومع ذلك تنكر

التعليم.

- التعليم عندما لا تكون لدى الإنسان إمكانية سوى قراءة لافتات الحانات، وأحيانا بعض الكتب التي لا يفهمها.. هذا التعليم قائم لدينا من أيام ريو ريك. والخادم بتروشكا، عند جوجول، يقرأ منذ زمن بعيد، ومع ذلك فالقرية ظلت حتى الآن كما كانت فى عصر ريو ريك. ليس المطلوب هو التعليم، بل حرية إظهار القدرات الروحية على أوسع نطاق. لسنا بحاجة إلى مدارس، بل إلى جامعات.

- وأنت تنكر الطب أيضا.

- نعم. فلن يكون ضروريا إلا لدراسة الأمراض، كظواهر طبيعية، لا لعلاجها. وإذا كان لابد من العلاج فلنعالج لا الأمراض، بل أسبابها. لو أزلنا السبب الرئيسى - وهو العمل البدنى - لاختفت الأمراض - ورحت أقول بانفعال - إننى لا أعترف بالعلم الذى يعالج. فالعلوم والفنون، إذا كانت حقيقية، لا تسعى إلى أغراض مؤقتة، جزئية، بل إلى الشئ الخالد والعام.. إنها تبحث عن الحقيقة ومغزى الحياة، تبحث عن الله، وعن الفكرة. أما عندما يربطونها بالحاجات اليومية الملحة، بالصيدليات والمكتبات فإنها لا تؤدى إلا إلى تعقيد الحياة وتلوثها. لدينا الكثير من الأطباء، والصيادلة، والمحامين، وأصبح لدينا الكثير من المتعلمين، ولكن ليس لدينا أبدا بيولوجيون ورياضيون وفلاسفة وشعراء لقد انصرف العقل كله، والطاقة الروحية كلها إلى إشباع الاحتياجات المؤقتة الزائلة... والعمل يجرى على قدم وساق لدى العلماء والكتاب والمصورين، وبفضلهم تزداد وسائل الراحة فى الحياة يوما بعد يوم، وتتضاعف متطلبات الجسد، ومع ذلك فما زلنا بعيدين عن الحقيقة، ويظل الإنسان كما كان أحط الحيوانات وأشدّها وحشية، وكل شئ يشير إلى أن البشرية قد انحلت فى غالبيتها وفقدت إلى الأبد أية قدرة على الحياة. وفى ظل هذه الظروف ليس لحياة المصور من معنى، وكلما ازدادت موهبته يصبح دوره أشد غرابة وعدم مفهومية، لأنه عند التمحيص يتضح أنه يعمل من أجل

تسلية حيوان مفترس منحط مساندا بذلك النظام القائم. وأنا لا أريد أن أعمل، ولن أعمل.. لا ضرورة لأى شىء، فلتذهب الأرض فى داهية.

- اخرجى يا ميسوسكا..- قالت ليذا لأختها وهى ترى فى كلماتى على ما يبدو ضررا بالنسبة لفتاة صغيرة. فنظرت جينيا بحزن إلى أختها ثم إلى أمها وخرجت. فقالت ليذا:

- إن مثل هذه الأشياء اللطيفة يقولونها عندما يريدون تبرير لا مبالاتهم. إن إنكار المستشفيات والمدارس أسهل من العلاج والتدريس.

ثم استطردت ليذا تقول:

- إنك تهدد بأنك لن تعمل. يبدو أنك تقدر أعمالك تقديرا عاليا. فلنكف عن الجدل فلن نلتقى أبدا، لأن أكثر المكتبات والصيدليات تخلفا، والتي تحدثت عنها لتوك باحتقار، هى فى نظرى أسمى من جميع المناظر فى العالم - والتفتت على الفور إلى أمها وقالت بنبرة مختلفة تماما: لقد هزل جدا وتغير بشدة منذ أن كان عندنا. الأطباء ينصحونه بالذهاب إلى فيشى.

تحدثت مع أمها عن الأمير كيلا تتحدث معى. وكان وجهها محتقنا، ولكى تخفى اضطرابها انحنت بشدة على الطاولة كقصيرى النظر وتظاهرت بأنها تقرأ الصحيفة. كان وجودى مكروها، فودعت وانصرفت عائدا إلى البيت.

٤

كان الجو فى الفناء هادئا، وقد نامت القرية على شاطئ البركة الآخر فلم يلح منها بصيص ضوء، ولم تنعكس فى مياه البركة بوهن إلا ظلال النجوم الشاحبة. وبجوار البوابة ذات الأسود كانت جينيا واقفة بلا حراك فى انتظارى لكى تودعنى.

وقلت لها وأنا أحاول أن أتفحص وجهها فى الظلمة فرأيت عينيها السوداوين
الحزيتين ترمقانى:

- الجميع نيام فى القرية. صاحب الحانة ولص الخيول ينامان فى هدوء،
أما نحن، الناس المحترمين، فنشير أعصاب بعضنا البعض ونتجادل.

كانت ليلة حزينة من ليالى أغسطس.. حزينة لأن أنفاس الخريف ترددت
فيها. ويزغ القمر ملفعا بسحابة حمراء فأضاء بالكاد الطريق والحقول على
جانبه. ونهاوت النجوم بكثرة. وسارت جينيا بجوارى على الطريق وهى
تحاول ألا تتطلع إلى السماء لكيلا ترى النجوم المتهاوية التى كانت تخفيها
لسبب ما.

وقالت وهى ترتعش من رطوبة الليل:

- يخيل إلى أنك على حق. لو أن الناس جميعا استطاعوا أن يكرسوا قواهم
للنشاط الروحى لسرعان ما توصلوا إلى معرفة كل شىء.

- طبعاً. إننا مخلوقات سامية ولو أننا أدركنا بالفعل كل قوة العبقرية الإنسانية
وعشنا فقط من أجل الأغراض السامية لأصبحنا فى النهاية مثل الآلهة. ولكن
ذلك لن يحدث أبدا. ستتحلل البشرية ولن يبقى من العبقرية أثر.

وعندما غابت البوابة عن الأنظار توقفت جينيا وصافحتنى على عجل.

- ليلة سعيدة - قالت وهى ترتعش فلم يكن يغطى كتفها سوى القميص
فانكمشت من البرد - تعال غدا.

أرعبتني فكرة بقائى وحدى منفعلا، غير راض عن نفسى وعن الناس،
وأخذت أنا أيضا أحاول ألا أتطلع إلى النجوم الهاوية. فقلت:

- ابقى معى دقيقة أخرى.. أرجوك.

كنت أحب جينيا. يبدو أننى أحببتها لاستقبالها ووداعها لى، لأنها كانت
تنظر إلى برقة وإعجاب. وكم كان مؤثرا ورائعا وجهها الشاحب، وعنفها

الدقيق، ويداها الدقيقتان، وضعفها، وفراغها وكتبها! وعقلها؟ لقد خمنت فيها عقلا فذا، وأعجبتني سعة تفكيرها، ربما لأنها كانت تفكر بصورة تختلف عن ليذا الصارمة الجميلة التي لم تكن تحبني. وكانت جينيا معجبة بى كمصور، وقد انتصرت على قلبها بموهبتى، ورغبت بشدة فى أن أرسم لها وحدها وأخذت أحلم بها وكأنها ملكتى الصغيرة التى سوف تملك معى هذه الأشجار والحقول والضباب، والفجر، هذه الطبيعة الساحرة البديعة والتى شعرت بنفسى فيها رغم ذلك وحيدا وغير ضرورى بلا نهاية. ورجوتها:

- ابقى دقيقة أخرى. أتوسل إليك.

ونزعت معطفى وغطيت كتفيها المرتعشين، فضحكت وألقت به خشية أن تبدو مضحكة وغير جميلة فى المعطف الرجالى. وفى تلك اللحظة ضممتها وانهلث عليها بالقبلات فى وجهها وكتفيها ويديها.

- إلى الغدا! - همست وعانقتنى بحذر وكأنما تخشى أن تعكر هدوء الليل - ليس بيننا أسرار، وعلى الآن أن أخبر أمى وأختى بكل شىء.. كم أخاف ذلك! من جهة أمى لا بأس، إنها تحبك، ولكن ليذا!

وركضت نحو البوابة، وصاحت:

- وداعا!

وسمعت مدة دقيقتين ركضها. لم أكن أريد العودة إلى المنزل، ولم يكن ثمة داع للذهاب. فلبثت قليلا أفكر، ثم عدت أدراجى لألقى نظرة أخرى على البيت الذى كانت تقطنه، هذا البيت الرقيق الساذج القديم والذى بدا يتطلع إلى بنوافذ عليته وكأنما يتطلع بأعين، ويدرك كل شىء. ومررت بحذاء الشرفة، وجلست على أريكة قرب ملعب Lawn - tennis فى الظلام تحت شجرة دردار عتيقة، ورحت أنظر من هنا إلى البيت. وشع ضوء ساطع فى نوافذ العلبة التى كانت ميسوس تسكن فيها، ثم ظهر ضوء أخضر هادئ. فقد غطوا المصباح

بالأباجورة. وتحركت ظلال.. وكنت مشبعا بالركة والسكينة والرضا عن النفس، الرضا بأننى استطعت أن أولع وأحب، وفى الوقت نفسه شعرت بعدم الراحة من فكرة أنه فى هذه اللحظة ذاتها، وعلى قيد بضع خطوات منى، وفى إحدى غرف هذا المنزل تعيش ليذا، التى لا تحببى، بل ربما تمقتنى. جلست ورحت أنتظر لعل جينيا تخرج، وأصخت السمع فخيلى إلى أنهم يتحدثون فى العلية.

ومر حوالى ساعة. انطفأ الضوء الأخضر، ولم تعد تلوح الظلال. وكان القمر قد صعد عاليا فوق البيت وأضاء البستان النائم والطرقات. وفى حوض الزهور أمام المنزل لاحت الداليا والورود بوضوح وبدت كأنها من لون واحد. وبرد الجو بشدة. وخرجت من البستان والتقطت معطفى فى الطريق، ومضيت إلى المنزل على مهل.

عندما جئت فى اليوم التالى بعد الغداء إلى آل فولتشاينوف كان الباب الزجاجى المفضى إلى البستان مفتوحا على مصراعيه. وجلست فى الشرفة متوقعا أن أرى بين لحظة وأخرى جينيا قادمة من وراء حوض الزهور أو من أحد الممرات، أو يتناهى إلى صوتها من الداخل. ثم دخلت غرفة الاستقبال، ثم غرفة الطعام، فلم أجد أثرا لأحد. وعبرت ممرا طويلا من غرفة الطعام إلى ردهة المدخل، ثم عدت أدراجى. كان فى الممر عدة أبواب، وخلف واحد منها تردد صوت ليذا:

- رزق الله.. الغراب ذات مرة.. قالت بصوت عال ويتمهل، إذ يبدو أنها كانت تملئ - الغراب ذات مرة.. بقطعة جبن.. الغراب ذات مرة.. من هناك؟ - صاحت فجأة وقد سمعت وقع أقدامى.

- أنا.

- آه، عفوا، لا أستطيع أن أخرج إليك الآن، إننى أدرس لداشا.

- هل يكاترينا بافلوفنا فى البستان؟

- كلا لقد سافرت مع أختى صباح اليوم إلى خالتي في محافظة بنزا. ومن المحتمل أن تسافرا شتاء إلى الخارج - وصمتت قليلا ثم استطردت - رزق الله الغراب ذات مرة.. بقطعة جبن.. كتبت؟

خرجت إلى ردهة المدخل وأنا لا أفكر في شيء، ووقفت هناك أنظر إلى البركة والقرية، وتناهى إلى سمعى:

- بقطعة جبن.. رزق الله الغراب ذات مرة بقطعة جبن..

وغادرت الضيعة عبر الطريق الذى سلكته أول مرة ولكن فى اتجاه عكسى: من الفناء إلى البستان بحذاء المنزل، ثم عبر درب الزيزفون.. وهنا لحق بى صبي وناولنى ورقة مكتوبة فقرأت: «رويت كل شيء لأختى وهى تطالبنى بأن افترق عنك. وليس فى مقدورى أن أسبب لها الأحزان بعدم طاعتي. فليهبك الله السعادة، وسامحنى لو تدرى كم نيكى أنا وأمى بحرقه.»

ثم درب الشوح المظلم، السياج المتهاالك.. وفى ذلك الحقل الذى كانت تزهر فيه الحنطة آنذاك ويصدهج السمان تتجول الآن الأبقار والخيول المقيدة. وفى بعض الأماكن على التلال ظهرت نباتات القمح الخضراء. وسيطر على مزاج واع عادى فشعرت بالخجل لكل ما قلته لدى آل فولتشانينوف، وعاد إلى الملل من الحياة. وعندما وصلت إلى البيت حزمت متاعى ورحلت فى المساء إلى بطرسبرج.

* * *

لم أر آل فولتشانينوف بعد ذلك ولا مرة. ومنذ فترة قريبة، كنت مسافرا إلى القرم فالتقيت فى عربة القطار ببيلوكوروف. كان فى نفس الصدىرى الثقيل والقميص المطرز، وعندما سألته عن صحته أجاب: «بصلواتك». وتجاذبا أطراف الحديث. لقد باع ضيعته واشترى أخرى أصغر منها، باسم لوبوف إيفانوفنا. ولم يخبرنى بالكثير عن آل فولتشانينوف. كانت ليذا، حسبما قال، تعيش كسابق العهد فى شيلكوفكا وتعلم الأطفال. وتمكنت شيئا فشيئا من

أن تجمع حولها مجموعة من الأشخاص الذين يروقون لها والذين يشكلون فريقاً قوياً، و«دحرجوا» في انتخابات مجلس الأقليم الأخيرة بلاجين الذي كان حتى ذلك الحين يقبض بيديه على الإقليم كله. ولم يقل بيلوكوروف عن جينيا سوى أنها لا تعيش في المنزل ولا يعرف مكانها.

لقد بدأت أنسى المنزل ذا العلية، وأحيانا فقط، عندما أرسم أو أقرأ أتذكر فجأة دون سبب الضوء الأخضر في النافذة تارة، وتارة أخرى وقع خطواتي في الحقل ليلا عندما كنت عائدا وأنا عاشق وأفرك يدي من البرد. وفي أحيان نادرة، عندما تؤرقني الوحدة وأشعر بالحزن أتذكرها بصورة مبهمّة، وشيئا فشيئا يخيّل إليّ أيضا أن هناك من يتذكرني، ويتظنّني، وأنا سنلتقى...

– ميسوس، أين أنت؟

أيونييتش

١

عندما كان القادمون إلى مدينة «س» عاصمة المحافظة يشكون من الملل ورتابة الحياة فيها، كان السكان المحليون يقولون، كأنما يعتذرون، إن الحياة في «س» على العكس جيدة جدا، وإنه توجد في «س» مكتبة ومسرح وناد، وتقام فيها الحفلات الراقصة، وأخيرا فهناك أناس شيقون وعائلات لطيفة يمكن التعرف إليها. وكانوا يشيرون إلى عائلة توركين، باعتبارها أكثر العائلات ثقافة وموهبة.

كانت هذه العائلة تسكن في الشارع الرئيسي، بجوار المحافظ، في بيت ملكها. وكان إيفان بتروفتش توركين نفسه، وهو رجل أسمر جميل، بدين، بسوالف، يقيم عروض الهواة التمثيلية لأغراض خيرية، ويلعب بنفسه أدوار الجنرالات العجائز، ويسعل أثناء ذلك بصورة مضحكة للغاية. كان يعرف الكثير من النكات والألغاز والأمثال، ويحب المزاح والقفشات، وعلى وجهه يرسم دائما تعبير لا تفهم منه إن كان يمزح أم يتكلم بجدية. وكانت زوجته فيرا يوسفونا، وهي امرأة نحيلة، لطيفة، في عوينات، تكتب القصص والروايات، وتقرأها بصوت مسموع لضيوفها عن طيب خاطر. أما ابنتهم، يكاترينا إيفانوفنا، الفتاة الشابة، فكانت تعزف على البيانو. وباختصار كانت لكل فرد من أفراد العائلة موهبته الخاصة. وكان آل توركين يستقبلون الضيوف بحفاوة ويعرضون

عليهم مواهبهم بمرح، وببساطة قلبية. وكان بيتهم الحجري الكبير رحبا، وفي الصيف باردا، ويظل نصف النوافذ على بستان قديم ظليل تصدح فيه البلابل ربيعا. وعندما يجلس الضيوف في الداخل، تسمع من المطبخ ضربات السكاكين، وتنفوح في الفناء رائحة البصل المحمر... وكان ذلك يشتر في كل مرة بعشاء لذيد حافل.

وقد قيل أيضا للدكتور ستارتسف، ديمتري أيونيتش، إثر تعيينه طبيبا إقليميا واستقراره في «دياليج»، على بعد تسعة فراسخ من «س»، إنه لا بد له كشخص مثقف من التعرف على آل توركين. وذات مرة، شتاء، قدموه إلى إيفان بتروفتش في الشارع. فتحدثا عن الطقس، وعن المسرح، وعن الكوليرا، وتلت ذلك الدعوة. وفي الربيع، يوم العيد - وكان ذلك عيد الصعود - وبعد أن فرغ ستارتسف من استقبال المرضى، رحل إلى المدينة ليرفه عن نفسه قليلا، وبالمناسبة، ليشتري بعض الأشياء. سار على قدميه، على مهل (لم يكن قد اقتنى خيوله الخاصة بعد) وهو يدندن طوال الطريق:

لم أكن قد ذقت مرّ الدمع من كأس الوجود...

تغدى في المدينة وتنزه في الحديقة، وبعد ذلك تذكر عفوا دعوة إيفان بتروفتش فقرر أن يذهب إلى آل توركين ليرى أي ناس هؤلاء.

قال إيفان بتروفتش وهو يلقيه على الدرج:

- مرحبا من فضلك. سعيد، جدا برؤية مثل هذا الضيف اللطيف. هيا أقدمك إلى نصفى الحلو - ومضى يقول وهو يقدم الدكتور إلى زوجته - إننى أقول له يا فيروتشكا^(١) أنه لا يملك أى حق رومانى فى الاختفاء هناك فى المستشفى. عليه أن يعطى وقت فراغه للمجتمع. أليس كذلك يا روحى؟

(١) اسم التديل من الاسم الكامل «فيرا». (المعرب).

١- اجلس هنا - قالت فيرا يوسفوننا وهي تجلس الضيف بجوارها - يمكنك أن تغالزنى. زوجى غيور، إنه عطيل، ولكننا سنحاول أن نفعل ذلك دون أن يلاحظ شيئا.

٢- آه منك يا كتكوتة، يا شقية... دمدم إيفان بتروفتش برقة وقبلها فى جبينها - جنت فى الوقت المناسب - قال مخاطبا الضيف من جديد - لقد كتب نصفى الحلو رواية كبّورة^(١)، وسوف تقرأها لنا اليوم.

فقالت فيرا يوسفوننا لزوجها:

- يا جانتشيك^(٢) dites que l'on nous donne du the^(٣).

وقدما الستار تسف يكاترينا إيفانوفنا، فتاة فى الثامنة عشرة، تشبه أمها كثيرا، ومثلها نحيلة ولطيفة. كانت قسماتها لا تزال طفولية، وخصرها دقيق ورقيق. وكان صدرها العذرى الكاعب، الجميل، العفى ينبى بالربيع، الربيع الحقيقى. ثم شربوا الشاى مع المربى والعسل والحلويات ومع بسكوت لذيذ جدا كان يذوب فى الأفواه. وبحلول المساء توافد الضيوف شيئا فشيئا، وكان إيفان بتروفتش يحدج كلا منهم بعينيه الضاحكتين ويقول:

- مرحبا من فضلك.

ثم جلسوا جميعا فى غرفة الجلوس بوجوه جدية للغاية، وراحت فيرا يوسفوننا تقرأ لهم روايتها. وبدأتها هكذا: «صقع الصقيع...». كانت النوافذ مفتوحة على مصاريعها، وسمعت ضربات السكاكين فى المطبخ وتناهت رائحة البصل المحمر... واطمأنت النفوس فى المقاعد اللينة العميقة، وومضت الأضواء برقة فى غسق الغرفة، وفى هذا المساء الصيفى، الذى تناهت فيه من

(١) يقصد: كبيرة، ونلاحظ أن هذه الشخصية تستخدم كثيرا من الكلمات والتعابير غير المألوفة بغرض المزاح. (المعرب).

(٢) جانتشيك - تدليل من الاسم الفرنسى جان (المقابل لاسم إيفان). (المعرب).

(٣) قل لهم أن يقدموا لنا الشاى (بالفرنسية فى الأصل).

الشارع أصوات وضحكات، وهبت من الفناء رائحة البنفسج، كان من العسير أن تفهم كيف صقع الصقيع، وكيف أضاءت الشمس الغاربة بأشعتها الباردة السهل الثلجى وذلك المسافر الوحيد فى الطريق. كانت فيرا يوسفونا تقرأ عن كونيسة شابة جميلة تشيد المستشفيات والمدارس والمكتبات فى قريتها، وكيف أحبت مصورا جوالا.. كانت تقرأ عما لا يحدث أبدا فى الحياة، ومع ذلك كان سماعها لطيفا ومريحا، فكانت تتوارد إلى الذهن أفكار طيبة مطمئنة، ولا تشعر بالرغبة فى الانصراف..

وقال إيفان بتروفتش بصوت خافت:

- لم بأس..؟

وقال أحد الضيوف لا يكاد يسمع وهو يصغى ويحلق بأفكاره بعيدا جدا:

- نعم.. بالفعل..

ومرت ساعة، وأخرى. وفى حديقة المدينة، المجاورة لهم، عزفت فرقة موسيقية وغنت جوقة منشدين، وعندما أغلقت فيرا يوسفونا دفترها صمتوا حوالى خمس دقائق وهم يستمعون إلى أغنية «لوتشينوشكا» التى كانت الجوقة تغنيها، وعبرت هذه الأغنية عما لم يكن فى الرواية وعما يوجد فى الحياة.

وسأل ستارتسف فيرا يوسفونا:

- هل نشرين مؤلفاتك فى المجلات؟

فأجابت:

- كلا، أنا لا أنشرها فى أى مكان. أكتبها وأخبرها فى الصوان - وقالت موضحة - ولماذا النشر؟ إن لدينا مواردنا.

ولسبب ما تنهد الجميع.

وقال إيفان بتروفتش لابتة:

- والآن يا قطعة، اعزفى شيئا ما.

ورفعوا غطاء البيانو، وفتحوا النوت الموضوعة هناك سلفا. وجلست يكاترينا إيفانوفنا إلى البيانو وأهوت بكلتا يديها على المفاتيح. ثم أهوت على الفور مرة أخرى بكل قوتها، ثم مرة أخرى، فأخرى. وارتعش كتفاها وصدرها، وأخذت تدق بعناد على نفس الموضع، وبدأ أنها لن تكف حتى تحشر المفاتيح داخل البيانو. وامتلات غرفة الجلوس بالرعد. كان كل شيء يرعد: الأرض، والسقف، والأثاث.. كانت يكاترينا إيفانوفنا تعزف مقطعا صعبا، أطرف ما فيه صعوبته، مقطعا طويلا رتيبا، فأخذ ستارتسف يصغى ويتصور أحجارا تهوى من جبل عال، تهوى بلا انقطاع، وأراد أن تكف عن السقوط بسرعة، وفي الوقت نفسه أعجبه جدا يكاترينا إيفانوفنا، المتوردة من التوتر، القوية، النشطة، بخصلة الشعر المتهذلة على جبينها. وبعد الشتاء الذى قضاه فى «دياليج» بين الفلاحين والمرضى، كان الجلوس فى هذه الغرفة، والتطلع إلى هذا المخلوق الفتى الرشيق، والظاهر على الأرجح، والاستماع إلى هذه الأصوات الصاخبة المزعجة، والراقية مع ذلك.. كم كان هذا لطيفا وجديدا..

وقال إيفان بتروفتش والدموع تترقرق فى عينيه عندما انتهت ابنته ونهضت:

- يا سلام يا قطعة، لعبت اليوم كما لم تلعبى أبدا. لو مت يا دينيس، فلن تكتب أفضل من ذلك^(١).

وأحاط بها الجميع، وهنأوها، وأعربوا عن إعجابهم وأقسموا أنهم لم

(١) عبارة قيلت لدينيس فونفيزين بعد العرض الأول لمسرحية «الغر». ودينيس فونفيزين (١٧٤٥ - ١٧٩٢) أديب ومسرحى روسى، من أقطاب حركة التنوير فى القرن الثامن عشر. (المغرب).

يسمعوا منذ زمن بعيد موسيقى كهذه، أما هي فأصغت في صمت، بابشامة خفيفة، ونطقت هيئتها كلها بالظفر.

-رائع! ممتاز!-

- رائع!- قال ستارتسف أيضا منساقا مع الإعجاب العام، وسألها: أين تعلمت الموسيقى؟ في الكونسرفاتوار؟.

- كلا، أنا أستعد للالتحاق بالكونسرفاتوار، لكنني حتى الآن كنت أدرس هنا، عند مدام زافلوفسكايا.

- هل تخرجت من مدرسة المدينة؟

- أوه، كلا!- أجابت عنها فيرا يوسفونا - لقد دعونا المدرسين لتدريسها منزليا. ففي المدرسة أو المعهد يمكن أن تكون تأثيرات سيئة. الفتاة أثناء نموها يجب أن تكون تحت تأثير أمها فقط.

فقالت يكاترينا إيفانوفنا:

- ومع ذلك سأذهب إلى الكونسرفاتوار.

- كلا، القطة تحب ماما. القطة لن تفعل ما يغضب بابا وماما.

- كلا، سأذهب، سأذهب!- قالت يكاترينا إيفانوفنا بمزاح ونزق، ودقت الأرض بقدمها.

أما أثناء العشاء فقام إيفان بتروفتش بعرض مواهبه. كان يضحك بعينيه فقط وهو يروي النكات، ويمزح، ويطرح مسائل مضحكة ويحلها بنفسه، ويتحدث طوال الوقت بلغته غير العادية التي اكتسبها بالمران الطويل على التندر، والتي أصبحت عادة لديه منذ زمن بعيد فيما يبدو: كَبُور، لم بأس، شكرا هزيلا..

ولم يكن ذلك كل شيء. فعندما تزاحم الضيوف الشبان المسرورون في

المدخل وهم يتناولون معاطفهم وعصيتهم دار حولهم الخادم بافلوشا، أو كما كانوا يسمونه هنا: بافا^(١)، وهو صبي فى حوالى الرابعة عشرة، حليق الشعر، بخدين ممتلئين.

فقال له إيفان بتروفتش:

- هيا يا بافا، مثل!

فاتخذ بافا وضعا تمثيليا، ورفع يده إلى أعلى وقال بصوت مأساوى:

- فلتموتى أيتها التعيسة!

وقهقه الجميع.

«طريف!» - قال ستارتسف لنفسه وهو يخرج إلى الشارع.

وذهب إلى المطعم فشرب بييرة، ثم توجه إلى «دياليج» سيرا على الأقدام. وظل طوال الطريق يدندن:

صوتك فى سمعى عذب وشجى..

وعندما استلقى لينام بعد أن قطع تسعة فراسخ لم يشعر بأى تعب، بالعكس فقد بدا له أنه يستطيع بكل سرور أن يقطع عشرين فرسخا أخرى.

«لم بأس..» تذكر وهو ينعس فضحك.

٢

نوى ستارتسف أن يزور آل توركين، ولكن العمل فى المستشفى كان كثيرا جدا فلم يتمكن من اقتناص ساعة فراغ. ومر أكثر من سنة على هذه الحال من

(١) تعنى فى الروسية: الطاووسة (أنثى الطاووس). (المعرب).

الكد والوحدة. ولكن ها هم أولاء قد جاءوا من المدينة برسالة فى مظروف أزرق..

كانت فيرا يوسفونا تعاني من صداع نصفى منذ زمن بعيد، ولكن نوبات الصداع تزايدت فى الفترة الأخيرة عندما أصبحت القطة تخيفها كل يوم بالرحيل إلى الكونسرفاتوار. وجاء إلى آل توركين كل أطباء المدينة، حتى وصل الدور أخيرا إلى الطبيب الإقليمى. كتبت له فيرا يوسفونا رسالة رقيقة دعتة فيها إلى الحضور وتخفيف عذابها. وجاء ستارتسف، وبعد ذلك أصبح يتردد على آل توركين كثيرا، كثيرا جدا..

وبالفعل فقد خفف عن فيرا يوسفونا إلى حد ما، فراحت تقول لجميع الضيوف إنه دكتور مدهش، عظيم. ولكنه لم يعد يزور آل توركين الآن من أجل صداعها..

كان يوم عيد. وأنهت يكاترينا إيفانوفنا تمريناتها الطويلة المرهقة على البيانو. وبعد ذلك جلسوا طويلا فى غرفة الطعام يتناولون الشاى، وروى إيفان بتروفتش شيئا ما مضحكا. وها هو ذا جرس الباب يدق، ولا بد من الذهاب إلى المدخل لاستقبال ضيف ما. وانتهاز ستارتسف فرصة الاضطراب فقال ليكاترينا إيفانوفنا همسا وهو فى شدة الانفعال:

- أرجوك، أتوسل إليك، لا تعذبنى، فلنذهب إلى البستان!

هزت كتفها كأنما تستغرب ولا تفهم ما الذى يريده منها، ولكنها نهضت وذهبت.

وقال وهو يتبعها:

- أنت تعزفين على البيانو بالثلاث والأربع ساعات، ثم تجلسين مع ماما، وليس هناك أية فرصة للحديث معك. أعطينى ولو ربع ساعة، أرجوك.

كان الخريف يقترب، فكان الجو هادئاً وحزيناً في البستان القديم، وغطت أرض الممرات أوراق داكنة. وأصبح الغسق يهبط مبكراً.

ومضى ستارتسف يقول:

- أنا لم أرك أسبوعاً كاملاً، وآه لو تعلمين آىّ عذاب هذا! فلنجلس. أصغى إلى.

كان لديهما مكان مفضل في البستان: أريكة تحت شجرة قيقب عجوز عريضة. وها هما ذان قد جلسا على هذه الأريكة.

وسألت يكاترينا إيفانوفنا بجفاء، بصوت عملى:

- ماذا تريد؟

- أنا لم أرك أسبوعاً كاملاً، لم أسمعك منذ مدة طويلة. أنا مشتاق جداً، أنا ظمآن إلى صوتك. تكلمى.

أثارت إعجابه بنضارتها وتعبير السذاجة فى عينيها وخديها. حتى فى كون الفستان لانقاً عليها رأى ستارتسف شيئاً رقيقاً للغاية ومؤثراً ببساطته ورشاقته الساذجة. وفى الوقت نفسه، وبالرغم من هذه السذاجة، بدت له ذكية جداً وناضجة بأكبر من سنّها. كان بوسعه أن يتحدث معها عن الأدب وعن الفن، عن أى شىء، بوسعه أن يشكو لها من الحياة والبشر، رغم أنه كان يحدث أثناء الحديث الجدى أن تضحك فجأة دون مناسبة أو تركض إلى البيت. كانت ككل فتيات مدينة (س) تقرأ كثيراً (وعموماً فقد كانوا فى (س) يقرأون قليلاً جداً، وكانوا فى المكتبة المحلية يقولون إنه لولا الفتيات واليهود الشبان لتوجب إغلاق المكتبة). وكان ذلك يعجب ستارتسف إلى أقصى حد، وفى كل مقابلة كان يسألها بانفعال عما قرأته فى الآونة الأخيرة، ويصفى مسحوراً إلى ما ترويه.

وسألها الآن:

- وماذا قرأت فى الأسبوع الأخير الذى لم نتقابل فيه؟ تحدثنى أرجوك.

- قرأت بيسيمسكى^(١).

- وماذا بالتحديد؟

- فأجابت القطة:

- «ألف نفس». كم كان اسم بيسيمسكى مضحكا: أليكسى فيرفيلاكتش!

- إلى أين أنت؟- قال ستارتسف بذعر عندما نهضت فجأة ومضت إلى البيت - أنا بحاجة إلى الحديث معك، يجب أن أصارحك.. ابقى معى ولو خمس دقائق! أستحلفك!

فتوقفت كأنما تريد أن تقول شيئا، ثم دست فى يده بحرج قصاصة وركضت إلى البيت، حيث جلست إلى البيانو من جديد.

وقرأ ستارتسف: «اليوم فى الحادية عشرة مساء انتظرنى فى المقابر عند تمثال ديميتى».

وفكر عندما عاد إلى صوابه: «ليس هذا ذكيا على الإطلاق. ما دخل المقابر هنا؟ لأى غرض؟».

كان واضحا أن القطة تعبت. وبالفعل فمن ذا الذى يفكر جديا فى تحديد موعد ليلا، بعيدا خارج المدينة، فى المقابر، بينما من السهل تدبير ذلك فى الشارع، فى حديقة المدينة؟ وهل تليق به وهو طبيب الإقليم، الرجل الذكى الرصين هذه الزفرات والرسائل والتسكع فى المقابر وارتكاب الحماقات التى

(١) أليكسى بيسيمسكى (١٨٢١ - ١٨٨١) كاتب ومرحى روسى. من أشهر أعماله رواية «ألف نفس» ومرحية «الحظ المرير». هاجم الأوضاع الاجتماعية فى روسيا القيصرية، ولكنه هاجم أيضا الأفكار الثورية. (المعرب).

يضحك منها الآن حتى تلاميذ المدراس؟ إلى أين ستقوده هذه الغراميات؟ وما الذى سيقوله رفاقه إذا علموا؟ هكذا فكر ستارتسف وهو يتجول فى النادى حول طاولات القمار، ولكنه فى منتصف الحادية عشرة قرر فجأة أن يرحل إلى المقابر.

كان قد اقتنى زوجا من الجياد وحوزيا يدعى بانتيليمون، يرتدى صديريا من القطيفة. وكان القمر فى السماء. وساد الهدوء والدفء، ولكنه دفء خريفى. وفى ضاحية المدينة، قرب المجزر، عوت الكلاب. وترك ستارتسف عربته عند طرف المدينة فى إحدى الحارات، وذهب إلى المقابر سيرا على الأقدام. وفكر: «لكل شخص غرائبه. والقطعة أيضا غريبة. ومن يدري، ربما لم تكن تمرح، وستأتى». واستسلم لهذا الرجاء الضعيف الفارغ فانتشى.

قطع نصف فرسخ عبر الحقل. ولاحظ المقابر فى البعيد خطا أسود كالجابة أو البستان الكبير. وظهر سور حجرى أبيض وبوابة... وكان من الممكن فى ضوء القمر قراءة هذه الكلمات على البوابة: «تأتى ساعة يسمع فيها جميع من فى القبور...» ودخل ستارتسف، وكان أول ما رآه الصلبان البيضاء والتمائيل على كلا جانبي الممر الطويل العريض، وظلالا سوداء ترمى منها ومن أشجار الحور. كان الأبيض والأسود مرتين لمسافة بعيدة حوله، وأسدت الأشجار الناعسة أغصانها على الأبيض. وبدا أن المكان هنا أكثر نورا من الحقل. وبرزت أوراق القيقب التى تشبه المخالب بحدة على خلفية الرمال الصفراء فى الممرات وعلى الألواح كما كانت الكتابات على التماثيل بادية. أذهل ستارتسف فى اللحظات الأولى ما يراه الآن لأول مرة فى حياته وما لن يتسنى له فى الغالب أن يراه بعد ذلك.. عالم لا يشبه أى شئ آخر، عالم فيه نور القمر جميل وناعم إلى هذه الدرجة، وكأنما هنا مهده، عالم ليس فيه حياة أبدا أبدا، ولكنك تحس فى كل شجرة حور قاتمة وفى كل قبر بوجود سر يعبد بحياة هادئة رائحة خالدة. ومع رائحة الأوراق الخريفية ينبعث من الألواح والأزهار الذابلة الغفران والأسى والسكينة.

الصمت يلف المكان. وأطلت النجوم من السماء فى استكانة عميقة، فترددت خطوات ستارتسف بحدة ونشاز. وعندما بدأت ساعة الكنيسة تدق وتصور نفسه ميتا ومدفونا هنا إلى الأبد، عندئذ فقط خيل إليه أن أحدا يتطلع إليه، ففكر للحظة أن هذا ليس هدوءا وسكينة، بل وحشة العدم الصماء، واليأس المكبوت..

كان تمثال ديميترى على شكل مصلى بملاك فى أعلاه. فى زمن ما مرت بمدينة «س» فرقة أوبرا إيطالية، وتوفيت إحدى المغنيات فدفونها هنا وأقاموا لها هذا التمثال. ولم يعد أحد يذكرها فى المدينة، ولكن القنديل المعلق على المدخل عكس ضوء القمر فبدا وكأنما يشتعل.

لم يكن هناك أحد. ومن ذا الذى سيأتى إلى هنا فى منتصف الليل؟ ولكن ستارتسف انتظر وكأنما ألهب فيه ضوء القمر العواطف الجياشة فراح يتنظر بهيام ويرسم فى خياله القبلات والأحضان. جلس بجوار التمثال نصف ساعة، ثم تمشى فى الممرات الجانبية وقبعته فى يده وهو يتنظر ويفكر: كم يرقد هنا فى هذه القبور من نساء وفتيات، كنّ جميلات، فائتات، أحبين، وتأججت شهواتهن فى الليالى مستسلمات للحنان. وما أسوأ مزاج أمتنا الطبيعة بالإنسان، فى الواقع، وما أمر أن تعى ذلك! كان ستارتسف يفكر هكذا، وفى الوقت نفسه ود لو يصرخ بأنه يريد الحب ويتنظره مهما كان الأمر. ولم يعد ما يلعب أمامه هو القطع المرمرية البيضاء بل أجساد رائعة، رأى تكويناتها تنستر فى خجل بظلال الأشجار، وأحس بدفئها، وأصبح هذا الضنى لا يطاق..

كأنما أسدل الستار.. اختفى القمر خلف السحب، فأظلم المكان كله فجأة. وبالكاد عثر ستارتسف على البوابة، فقد كان الجو مظلمًا كما فى ليلة خريفية، ثم تخطت حوالى ساعة ونصف بحثًا عن الحارة التى ترك فيها العربة.

وقال لبانتيليمون:

- أنا متعب، لا أكاد أقف على قدمي.

وعندما جلس بتلذذ في العربة فكر: «آه، لا يجوز أن أسمن!».

٣

في مساء اليوم التالي رحل إلى آل توركين ليخطب ابنتهم. ولكن الفرصة لم تكن مناسبة، إذ كان الحلاق يصفف شعريكاترينا إيفانوفنا في غرفتها. كانت تستعد للذهاب إلى حفلة راقصة في النادي.

واضطر مرة أخرى إلى الجلوس طويلا في غرفة المائدة وشرب الشاي. وعندما رأى إيفان بتروفتش أن ضيفه مستغرق في التفكير وضجر أخرج من جيبه أوراقا وقرأ رسالة مضحكة من وكيل أعماله الألماني يقول فيها إن جميع قوافل الأبواب في الضيعة قد «عندت» وأن الحيطان قد «جلست».

وفكر ستارتسف وهو يصغى إليه شارد البال: «أظن أنهم سيعطون بائة كبيرة».

كان في حالة من الذهول بعد ليلة مسهدة وكأنما سقوه شرابا حلوا منوما. وكان الضباب يلف روحه، ولكنه أحس بالفرحة والدفء، وفي الوقت نفسه كانت ثمة قطعة باردة ثقيلة في رأسه تفكر:

«توقف قبل فوات الأوان! هل هي تناسبك؟ إنها مدللة، نزقة، تنام حتى الساعة الثانية، أما أنت فابن شماس، طبيب إقليمى...».

وقال في نفسه: «وماذا؟ فليكن».

ومضت القطعة تقول: «وعلاوة على ذلك إذا تزوجتها فسوف يرغمك أهلها على ترك العمل في الإقليم والعيش في المدينة».

فقال فى نفسه: «وماذا؟ فليكن فى المدينة. سيعطوننا بائنة فنؤث بيتا...».

وأخيرا دخلت يكاترينا إيفانوفنا فى فستان سهرة ديكولتيه، جميلة، نظيفة، فملى ستارتسف عينيه منها وتملكه الإعجاب لدرجة أنه لم يستطع أن يتفوه بكلمة، بل أخذ يتطلع إليها ويضحك.

وهمت بالانصراف فنهض - إذ لم يعد ثمة معنى لبقائه - وقال إنه آن له أن يعود، فالمرضى فى انتظاره.

فقال إيفان بتروفتش:

- طيب، ما العمل، اذهب، وبالمناسبة توصل القطة إلى النادي.

كان مطر خفيف يسقط فى الخارج، والظلام حالك، ومن سعال بانتيليمون الأبح وحده كان يمكن تحديد مكان العربية. وشدوا غطاء العربية.

وقال إيفان بتروفتش وهو يجلس ابته فى العربية:

- أنا أفقت من النوم، أنت أفقت، هو أفاق، هم أفاقون.. أفاقون هيا، تحرك. وداعا من فضلك!

وتحركوا.

وقال ستارتسف:

- لقد ذهبت أمس إلى المقابر.. كم كنت ظالمة وقاسية على..

- هل كنت فى المقابر؟

- نعم، وانتظرتك حتى الساعة الثانية. كنت أتعذب..

- فلتتعذب ما دمت لا تفهم المزاح.

قهقهت يكاترينا إيفانوفنا وقد أسعدها أنها مزحت بهذه الصورة الماكرة

من عاشقها وأنه يحبها إلى هذه الدرجة، ولكنها صرخت فجأة رعباً، ففي تلك اللحظة انعطفت العربية بحدة إلى بوابة النادي فمالت. وطوق ستارتسف خصرها فالتصقت به مذعورة، ولم يتمالك نفسه فقبلها بشهوة في شفتيها وذقنها، وضمها إليه بشدة.

فقالت بجفاء:

- كفى.

وبعد لحظة لم تكن في العربية، وصاح الشرطى الواقف بجوار مدخل النادي المضاء في بانتيليمون بصوت منفر:

- ما لك تقف أيها الغراب؟ سر في طريقك!

ورحل ستارتسف إلى بيته، لكنه سرعان ما عاد. ارتدى فراكا مستأجراً ورابطة عتق بيضاء قاسية كانت تنفر وتوشك على الانزلاق عن الياقة. وفي منتصف الليل كان جالسا في قاعة الجلوس في النادي يقول ليكاترينا إيفانوفنا بهيام:

- أوه، ما أقل ما يعرف أولئك الذين لم يحبوا! يخيّل إليّ أن أحدا لم يصور الحب تصويراً صحيحاً حتى الآن، ولا أظن أنه من الممكن تصوير هذا الإحساس الرقيق البهيج المضنى، ومن كابدة ولو مرة فلن يصوره بالكلمات. ما الداعى للمقدمات والتصوير؟ ما الداعى للبلاغة التى لا معنى لها؟ إن حبى بلا حدود.. أرجوك، أتوسل إليك - قال ستارتسف أخيراً - كونى زوجتى!

ففكرت يكاترينا إيفانوفنا ثم قالت وعلى وجهها تعبير جاد جداً:

- يا ديمترى أيونيتش، أنا ممثلة لك جداً على هذا التشريف، إننى أحترمك ولكن... ونهضت واستطردت وهى واقفة - ولكن اعذرنى، لا أستطيع أن

أكون زوجتك. فلتحدث جديا. أنت تعرف يا ديمتری أيونیتش أنني أحب الفن أكثر من أى شىء، إننى أهوى الموسيقى، أحبها بجنون، وقد وهبتها كل حياتى. أنا أريد أن أصبح فنانة، أريد الشهرة والنجاح والحرية، وأنت تريدنى أن أواصل الحياة فى هذه المدينة، أواصل هذه الحياة التافهة الخاوية التى أصبحت لا أحتملها. أن أصبح زوجة.. أوه، كلا، اعذرنى! يجب على الإنسان أن يسعى إلى هدف أسمى باهر، أما الحياة العائلية فستقيدنى إلى الأبد. يا ديمتری أيونیتش (وابتسمت قليلا، فعندما قالت «ديمتری أيونیتش» تذكرت «أليكسى فيوفلاكش»)، يا ديمتری أيونیتش، أنت رجل طيب، نبيل، ذكى، أنت أحسن الجميع... واغور رقت عيناها بالدموع - أنا أتعاطف معك من كل قلبي، ولكن.. ولكنك ستفهم..

واستدارت كى لا تبكى وخرجت من القاعة.

كف قلب ستارتسف عن الخفقان المؤلم. وكان أول ما فعله عندما خرج من النادى أن انتزع من رقبته ربطة العنق القاسية وتنفس بملء رئتيه. كان يشعر بشىء من العار وبأن كرامته أهينت - إذ لم يتوقع الرفض - ولم يصدق أن كل أحلامه ولوعته وآماله قد أفضت به إلى هذه النهاية الحمقاء كما فى مسرحية صغيرة من عروض الهواة. وكان يشعر بالشفقة على إحساسه، على حبه هذا، كان يشعر بالشفقة إلى درجة بدا له فيها أنه مستعد لأن ينفجر بالبكاء أو يهوى بالشمسية على ظهر بانتيليمون العريض.

ظل ثلاثة أيام غير قادر على العمل، ولم يأكل ولم ينام، ولكن حينما بلغه أن يكاترينا إيفانوفنا قد سافرت إلى موسكو للالتحاق بالكونسرفاتوار، هدأت نفسه وعاد إلى حياته السابقة.

وفيما بعد، حين كان يتذكر أحيانا كيف تمشى فى المقابر، وكيف قطع شوارع المدينة كلها بحثا عن فراك، كان يتمطى فى كسل ويقول:

- أوه، يا لها من هموم كانت!

مرت أربع سنوات، وأصبح لدى ستارتسف الكثير من الزبائن فى المدينة. وكل صباح كان يستقبل المرضى فى ديباليج بعجلة ثم يرحل إلى مرضاه فى المدينة، ويرحل الآن لا فى عربة بجوادين بل فى عربة «ترويك» بأجراس، ويعود إلى البيت فى ساعة متأخرة. أصبح ممثلنا، بدينا، لا يحب السير على قدميه إذ كان يعانى من اللهاث. وبانتليمون أيضا أصبح بدينا، وكلما ازداد امتلاء زفر بحسرة واشتكى من حظه المرير: فقد قهرته السوافة!

كان ستارتسف يتردد على بيوت كثيرة ويلتقى بأناس كثيرين ولكنه لم يوطد علاقته بأحد. كان البرجوازيون الصغار يشرونه بأحاديثهم وبآرائهم فى الحياة، بل حتى بمظهرهم. وعلمته الخبرة شيئا فشيئا أن البرجوازي الصغير، طالما تلعب معه الورق أو تشرب وتمز، فهو شخص مسالم، سمح، بل وحتى ذكى، ولكن ما إن تحدث معه عن شىء لا يؤكل، عن السياسة أو العلم مثلا، حتى يواجه مأزقا أو يشرع فى الثرثرة بفلسفة بليدة، شريرة، حتى لا يعود أمامك إلا أن تشيح بيديك وتبتعد. وحينما حاول ستارتسف أن يتحدث حتى مع برجوازي ليبرالى عن أن البشرية والحمد لله تسير إلى الأمام وأنها فى المستقبل ستستغنى عن جوازات السفر وعن عقوبة الإعدام، نظر إليه البرجوازي شزرا وبرية وسأله: «وإذن فسيكون بوسع أى شخص أن يذبح فى الشارع من يشاء؟». وعندما كان ستارتسف يتحدث فى جمع أثناء العشاء أو تناول الشاي عن أنه لا بد من الكدح، وأنه لا يمكن أن تعيش بلا عمل، كان كل شخص يعتبر ذلك لوما موجها إليه، فيتملكه الغضب ويشرع فى الجدال بالحاح. وعلاوة على ذلك كله لم يكن البرجوازيون الصغار يفعلون أى شىء مطلقا، ولم يهتموا بشىء، وكان من المستحيل إيجاد مادة للحديث معهم. فصار ستارتسف يتجنب الأحاديث ويأكل فقط ويلعب «الفنت»، وعندما تصادف زيارته عيدا

عائليا فى أحد البيوت ويدعونه للمائدة، كان يجلس ويأكل فى صمت محققا فى طبقه. وكل ما كان يقال آنذاك كان غير طريف، ظالما، أحرق، فيشعر بالانزعاج والاضطراب، ولكنه يصمت. ولأنه كان يصمت دائما فى تجاههم ويحرق فى طبقه فقد سموه فى المدينة «البولندى المتعجرف» رغم أنه لم يكن بولنديا فى أى وقت من الأوقات.

كان يتحاشى ألوان التسلية من أمثال العروض المسرحية وحفلات الموسيقى، وفى المقابل كان يلعب «الفنت» كل مساء، حوالى ثلاث ساعات، وباستمتاع. وكانت لديه تسلية أخرى انغمس فيها شيئا فشيئا ودون أن يلحظ: فقد كان كل مساء يستخرج من جيوبه أوراق البنكنوت التى حصل عليها من مرضاه، وأحيانا تكون جيوبه محشوة بحوالى سبعين روبلا من شتى الأوراق الصفراء والخضراء التى تفوح منها رائحة العطور، والخل، والبخور، وزيت الحوت. وعندما يتجمع لديه منها بضع مئات كان يحملها إلى جمعية القرض المتبادل فيودعها فى حسابه الجارى.

وخلال السنوات الأربع التى مرت بعد رحيل يكاترينا إيفانوفنا لم يزر آل توركين سوى مرتين بدعوة من فيرا يوسفوفنا التى كانت لا تزال تتعالج من الصداق النصفى. وكانت يكاترينا إيفانوفنا تأتى إلى أهلها كل صيف لقضاء العطلة، ولكنه لم يرها مرة واحدة، لم يتصادف ذلك.

وها هى ذى السنوات الأربع قد انصرفت. وذات صباح هادئ دافئ تسلم رسالة فى المستشفى. كتبت فيرا يوسفوفنا تقول إنها اشتاقت إليه جدا ورجته أن يتفضل بزيارتها حتما ليخفف من عذابها، كما أن اليوم بالمناسبة عيد ميلادها. وفى أسفل الرسالة أضافت: «أضم صوتى إلى رجاء ماما.. لك.»

وفكر ستارتسف ثم رحل مساء إلى آل توركين.

- آه، مرحبا من فضلك - استقبله إيفان بتروفتش مبتسما بعينه فقط -
بونجور عليكم.

وصافحت فيرا يوسفونا التي هرمت بشدة وابيض شعرها يد ستارتسف وتهدت بتصنع وقالت:

- أنت يا دكتور لا تريد أن تغازلني، ولا تزورنا أبدا، أصبحت عجوزا بالنسبة لك. ولكن ها هي ذى أخرى شابة قد جاءت، فربما كان حظها أسعد.

وماذا عن القطة؟ لقد هزلت وشحبت، وأصبحت أجمل وأرشق، ولكنها الآن يكاثرينا إيفانوفنا وليست القطة. لم تعد فيها تلك النضارة السابقة وتعبير السذاجة الطفولية. وكان فى نظراتها وحرركاتها شىء جديد، شىء متردد ومذنب كأنما لم تعد تشعر هنا، فى دار آل توركين، بأنها فى بيتها.

- من زمان لم نرك! - قالت وهى تمد يدها إلى ستارتسف، وكان واضحا أن قلبها يدق بقلق. وحدجته بنظرة فاحصة وبفضول واستطردت - كم سمت! لو حثك الشمس، وكبرت، ولكنك عموما لم تتغير كثيرا.

كانت الآن أيضا تعجبه، تعجبه جدا، ولكن كان ينقصها شىء ما، أو كان فيها شىء زائد، ولم يكن بوسعها أن يحدد هذا الشىء، ولكن شيئا ما كان يعوقه عن الإحساس بما كان يحس به من قبل. لم يعجبه شحوبها، والتعبير الجديد على وجهها، وابتسامتها الواهنة، وصوتها، ثم بعد فترة قصيرة لم يعد يعجبه فستانها، والمقعد الذى جلست فيه، لم يعجبه شىء ما فى الماضى عندما كاد أن يتزوجها. وتذكر حبه وأحلامه وآماله التى أثارته قبل أربع سنوات، ف شعر بالحرج.

شربوا الشاي مع كعكة حلوة. ثم قرأت فيرا يوسفونا رواية عما لا يحدث أبدا فى الحياة، وأصغى ستارتسف وهو يتطلع إلى رأسها الأشيب الجميل منتظرا أن تنتهى من القراءة.

وفكر: «العاطل من الموهبة ليس ذلك الذى لا يجيد كتابة الروايات، بل ذلك الذى يكتبها ولا يجيد إخفاء ذلك».

وقال إيفان بتروفتش:

- لا بأس..

ثم عزفت يكاترينا إيفانوفنا على البيانو بصخب ولمدة طويلة. وعندما انتهت من العزف شكروها طويلا وأبدوا إعجابهم بها.

وفكر ستارتسف:

«حسنا أننى لم أتزوجها».

ونظرت إليه وهى تنتظر على ما يبدو أن يقترح عليها الخروج إلى البستان، ولكنه جلس صامتا.

فقالت وهى تقترب منه:

- هيا نتحدث. كيف أحوالك؟ ماذا لديك؟ لقد كنت طوال هذه الأيام أفكر فيك - استطردت بعصية - أردت أن أرسل إليك خطابا، أردت أن أذهب بنفسى إليك فى دياج، وقررت بالفعل أن أذهب، ولكنى عدلت، فمن يدرى ما هو إحساسك الآن نحوى. بأى قلق انتظرت مجيئك اليوم. أستحلفك بالله، فلنذهب إلى البستان.

وذهبا إلى البستان، وجلسا هناك على الأريكة تحت القيقب العجوز كما حدث منذ أربع سنوات. وكان الجو مظلما.

وسألته يكاترينا إيفانوفنا:

- إذن كيف أحوالك؟

فأجاب ستارتسف:

- لا بأس. الأمور تسير.

ولم يستطع أن يجد أكثر من ذلك. فصمتا.

وقالت يكاترينا إيفانوفنا وغطت وجهها بيديها:

- إننى مضطربة، ولكن لا تلق بالا. كم أشعر بالراحة فى البيت، كم أنا سعيدة برؤية الجميع ولا أستطيع أن أعود على ذلك. كم من ذكريات! بدالى أننا ستحدث بلا توقف حتى الصباح.

كان الآن يرى عن قرب وجهها وعينيها البراقتين، فبدت له هنا، فى الظلام، أصبى مما كانت فى الغرفة بل وكأنما عاد إليها التعبير الطفولى السابق. وبالفعل فقد كانت تنظر إليه بفضول ساذج، وكأنما تريد أن تتأمل وتفهم عن قرب هذا الرجل الذى أحبها فى وقت ما بذلك التأجج وتلك الرقة وتلك النهاية التعيسة. وشكرته عيناها على ذلك الحب. فتذكر كل ما حدث، بأدق التفاصيل، كيف جال وسط المقابر، وكيف عاد بعدها إلى البيت قرب الصباح متعبا، فأحس فجأة بالحزن والأسف على الماضى. وومضت فى روحه جذوة.

فقال:

- أتذكرين كيف أوصلتك إلى الحفل فى النادى؟ كان المطر يسقط آنذاك، والدنيا مظلمة..

وازدادت الجذوة اشتعالا فى روحه، وأحس برغبة فى الحديث والشكوى من الحياة..

وقال متهدا:

- إيه! ها قد سألتنى عن أحوالى وكيف أحيا. كيف نحيا هنا؟ لا نحيا. نهرم ونسمن وتندهور. نهار وليل ويمر اليوم، وتمضى الحياة كابية، بلا انطباعات، بلا أفكار.. بالنهار الكسب وبالليل النادى وصحبة المقامرین والسكارى، ذوى الأصوات المبحوحة الذين لا أطيعهم. فأى خير؟

- ولكن لديك عملا، هدفا نبلا فى الحياة. كم كنت تحب الحديث عن مستشفيات. كنت أنا حينذاك غريبة، أتصور نفسى عازقة عظيمة. كل الأناس الآن يعزفن على البيانو، وأنا أيضا كنت أعزف مثل الجميع، ولم يكن فى أى شىء مميز. أنا عازقة مثلما أمى كاتبة. وبالطبع لم أفهمك آنذاك، ولكن فيما

بعد، فى موسكو، كنت كثيرا ما أفكر فىك. كنت أفكر فىك وحدك. يالها من سعادة أن تكون طبيبا إقليميا وتساعد المعذبين وتخدم الشعب - وكررت يكاترينا إيفانوفنا بحماس - يالها من سعادة! عندما كنت أفكر فىك فى موسكو كنت تبدو لى مثاليا، ساميا..

وتذكر ستارتسف الأوراق التى يستخرجها من جيوبه بلذة كل مساء فانطفأت الجذوة فى روحه.

ونهض لكى يذهب إلى البيت. فوضعت ذراعه فى ذراعها. ومضت تقول:

- أنت أفضل من عرفتهم فى حياتى. سوف نتقابل ونحدث أليس كذلك؟ عدنى. أنا لست عازفة بيانو، ولم أعد مخدوعة فيما يخصنى ولن أعزف فى حضورك أو أتحدث عن الموسيقى.

وعندما دلغا إلى البيت ورأى ستارتسف فى ضوء المساء وجهها وعينها الحزبتين الشاكرتين المتفرستين والمصوبتين إليه، أحس بالقلق وفكر ثانية «حسنا أنى لم أتزوجها آنذاك».

ونهض يودع.

فقال إيفان بتروفتش وهو يوصله:

- ليس لديك أى حق رومانى فى الرحيل دون عشاء. هذا من جانبك محورى جدا.. هيا، مثل - قال مخاطبا بافا فى المدخل.

اتخذ بافا، الذى لم يعد صبيا، بل شابا بشوارب، وضعا تمثيلى ورفع يده إلى أعلى وقال بصوت مأساوى:

- فلتموتى أيتها التعيسة!

أثار ذلك كله ستارتسف. وعندما جلس فى العربة ونظر إلى البيت المظلم والبستان اللذين كانا رقيقين وعزيزين عليه جدا فى زمن ما، تذكر على الفور

كل شيء: رويات فيرا يوسفونا، وعزف القطعة الصاخب، ونكات إيفان بترفش ووضع بافا المأساوى، وفكر: إذا كان أكثر الناس موهبة فى هذه المدينة على هذه الدرجة من البؤس، فكيف ينبغي إذن أن تكون المدينة؟

بعد ثلاثة أيام جاء بافا برسالة من يكاترينا إيفانوفنا.

«أنت لا تزورونا. لماذا؟- كتبت تقول- أخشى أن تكون قد تغيرت نحونا. أخاف وأشعر بالرهبة من مجرد التفكير فى ذلك. فلتطمئنى، تعال وقل إن كل شيء على ما يرام.

أنا بحاجة إلى التحدث معك. المخلصة ي. ت.».

قرأ هذه الرسالة، وفكر، ثم قال لبافا:

- قل لها يا عزيزى إننى لا أستطيع الحضور اليوم. أنا مشغول جدا. قل لها إننى سأتى بعد حوالى ثلاثة أيام.

بيد أنه مرت ثلاثة أيام، ومر أسبوع لكنه لم يذهب. وذات مره كان مارا بجوار منزل آل توركين فتذكر أنه ينبغي أن يعرج ولو لدقيقة ولكنه فكر و.. لم يعرج.

وبعدها لم يزر آل توركين أبدا.

٥

ومرت عدة سنوات أخرى. ازداد ستارتسف سمنا وشحما، وأصبح يتنفس بصعوبة ويسير ورأسه ملقى إلى الوراء. وعندما يستقل الترويكازات الأجراس، مكتنزا، أحمر الوجه، وبانتيليمون أيضا مكتنز أحمر الوجه، بقفا غزير اللحم، جالسا على مقعد الحوذى ويمد إلى الأمام ذراعيه المستقيمتين كأنهما خشبيتان، ويصبح فى المارة «الزم يمينك!»، فإن الصورة تبدو مهية، ويبدو أن الراكب ليس بشرا بل صنما وثنيا. وأصبح لديه فى المدينة زبائن لا حصر لهم، ولا وقت لديه لالتقاط الأنفاس، ولديه ضيعة ومزلا ن فى المدينة

ويسعى لاقتناء ثالث، مريح، وعندما يخبرونه فى جمعية القرض المتبادل عن منزل ما مخصص للبيع، يتوجه إلى هذا البيت دون كلفة، ويطوف بجميع غرفه غير عابى بالنساء المتجردات والأطفال الذين ينظرون إليه بذهول ورهبة، ويدفع بعصاه جميع الأبواب ويقول:

- هذه غرفة مكتب؟ وهذه غرفة نوم؟ وماذا هنا؟

وأثناء ذلك يتنفس بصعوبة ويمسح العرق عن جبينه.

ولديه مشاغل كثيرة، ومع ذلك لا يترك وظيفة طبيب الإقليم. لقد تملكه الجشع، ويود أن يلحق هنا وهناك. وأصبحوا يدعونه فى المدينة وفى ديباليج أيونيتش فقط. يقولون: «إلى أين يذهب أيونيتش؟» أو «ألا ندعو أيونيتش للكونسلتو؟».

وربما لأن الشحم تراكم فى زوره فقد تغير صوته، أصبح رفيعا حادا. وتغيرت طباعه أيضا. أصبح ثقيلًا، عصبيًا. وعندما يستقبل المرضى يغضب عادة ويدق بعصاه على الأرض بنفاد صبر ويصرخ بصوته المنفر:

- تفضل بالإجابة على الأسئلة فقط! ممنوع الكلام!

وهو وحيد. يحيا بمثل، ولا يهتم بشىء.

وطوال إقامته فى ديباليج كان حبه للقطعة فرحته الوحيدة وربما الأخيرة. وفى المساء يلعب «الفنت» فى النادى، ثم يجلس وحيدا إلى مائدة كبيرة ويتعشى. ويقوم على خدمته النادل إيفان، أقدم الخدم وأكثرهم احتراما ويقدم له نبيذ لافيت رقم ١٧، ويعرف الجميع - رؤساء النادى والطهاة والنادل - ماذا يحب وما لا يحب، ويبدلون قصارى جهدهم لنيل رضاه، وإلا لا قدر الله فقد يغضب فجأة ويروح يدق الأرض بعصاه.

وأثناء العشاء يلتفت أحيانا فيتدخل فى حديث ما:

- ما هو الموضوع؟ هه؟ من؟.

وإذا ما حدث أن دار الحديث على طاولة مجاورة عن آل توركين فإنه يسأل:

- عن أى توركين تتحدثون؟ عن أولئك الذين تعزف ابتهم على البيانو؟ وهذا كل ما يمكن أن يقال عنه.

فماذا عن آل توركين؟ لم يهرم إيفان بتروفتش، ولم يتغير مطلقاً، وما زال كما فى السابق يعزح ويروى النكات. وفيما يوسفونا نقرأ للضيوف رواياتها عن طيب خاطر وببساطة قلبية كما فى السابق. والقطعة تعزف على البيانو كل يوم حوالى أربع ساعات. لقد هربت بصورة ملحوظة ومرضت، وتسافر مع أمها كل خريف إلى القرم. ويودعهما إيفان بتروفتش على المحطة، وعندما يتحرك القطار يكفكف دموعه ويصيح:

- مع السلامة من فضلك!

ويلوح بالمنديل.

الرجل المقلب

فى أقصى طرف قرية ميرونوسيتسكويه، وفى حظيرة العمدة بروكوفى، نزل صيادان متأخران ليقضيا الليلة. كانا اثنين فقط: الطبيب البيطرى إيفان إيفانيتش والمدرس الثانوى بوركين. وكان اسم عائلة إيفان إيفانيتش غريبا ومزدوجا: تشيمشا جيملايسكى، ولم يكن يناسبه أبدا، ولذلك كانوا يدعونه فى المحافظة كلها باسمه واسم أبيه. كان يعيش قرب المدينة فى مزرعة لتربية الجياد، وقد جاء الآن للصيد من أجل أن يستنشق الهواء النظيف. أما المدرس الثانوى بوركين فكان ينزل كل صيف ضيفا على الكونت (ب)، وأصبح شخصا معروفا فى هذه الناحية منذ زمن بعيد.

كانا مستيقظين. وجلس إيفان إيفانيتش، المعجوز الطويل النحيف ذو الشوارب الطويلة، قرب الباب من الخارج وهو يدخن الغليون. وكان نور القمر يضيئه. أما بوركين فكان راقدًا فى الداخل على الدريس، فلم يكن ظاهرا فى الظلمة.

كانا يرويان شتى الحكايات. وبالمناسبة فقد روى أن مافرا زوجة العمدة، وهى امرأة قوية وغير غبية، لم تذهب طوال حياتها إلى أى مكان أبعد من قريتها، ولم تر أبدا لا المدينة ولا السكة الحديدية، وفى السنوات العشر الأخيرة ظلت جالسة خلف الفرن ولا تخرج إلى الشارع إلا ليلا.

وقال بوركين:

- وما العجيب فى ذلك! الأشخاص الانطوائيون بطبعهم، والذين يسعون إلى الاختفاء خلف قشرتهم، كسرطان البحر الراهب و القوقعة، كثيرون فى هذه الدنيا. وربما كان ذلك أحد مظاهر الردة الخلقية، والعودة إلى ذلك العهد الذى لم يكن فيه جد الإنسان حيوانا اجتماعيا بعد، وكان يحيا وحيدا فى عرينه، وربما كان ذلك مجرد صورة من صور الطبع البشرى، من يدرى؟ أنا لست من المتخصصين فى العلوم الطبيعية، وليس من شأنى أن أتناول هذه القضايا، بل أريد فقط أن أقول إن الأشخاص الذين من طراز مافرا ليسوا ظاهرة نادرة. ولماذا نذهب بعيدا، فمنذ حوالى شهرين مات فى مدينتنا شخص يدعى بيليكوف، مدرس اللغة اليونانية، زميلى. لقد سمعت عنه بالطبع. كان يمتاز بأنه كان دائما، وحتى فى الجو الجيد لا يخرج إلا بالخف فوق الحذاء وبشمسية، وحتما فى معطف ثقيل ببطانة من القطن. وكانت شمسيته فى كيس، وساعته فى كيس من الشامواه الرمادى، وعندما كان يستخرج المطواة الصغيرة ليبرى قلما يستخرجها من كيس. حتى وجهه بدا وكأنه أيضا فى كيس، فقد كان يخفيه دائما خلف الياقة المرفوعة. وكان يضع نظارة سوداء، ويرتدى سترة بدون أكمام، ويسد أذنيه بالقطن، وعندما يستقل عربة يأمر الحوذى برفع الغطاء. وباختصار فقد لوحظ لدى هذا الرجل ميل مستمر وجارف إلى إحاطة نفسه بقشرة، إلى وضع نفسه فيما يشبه العلبة، التى يمكن أن تعزله وتحميه من المؤثرات الخارجية. كان الواقع يثيره، ويخيفه ويجعله فى قلق مستمر، وربما لكى يبرر وجله هذا، وتقززه من الحاضر، كان يمدح الماضى دائما وكل ما لم يكن له وجود أبدا. وكانت اللغات القديمة التى يعلمها بالنسبة له فى الواقع هى نفس الخف والشمسية التى يختبي بها من الحياة الواقعية.

وكان يقول بتعبير عذب:

- أوه، ما أروع اللغة اليونانية، كم هى موسيقية.

وزير عينه ويرفع إصبعه ويقول كأنما يدلل على صدق كلماته:
أنثروبوس^(١).

وكان بيليكوف يسعى إلى إخفاء أفكاره أيضا في علبة. فلم تكن واضحة له سوى المنشورات الدورية ومقالات الصحف التي تمنع شيئا ما. فعندما كان المنشور الدوري يمنع التلاميذ من الخروج إلى الشارع بعد الساعة التاسعة مساء، أو تمنع مقالة ما الحب الجسدي؟ كان ذلك بالنسبة له واضحا ومحددا.. ممنوع وانتهينا. أما السماح والإباحة فكانا ينطويان بالنسبة له على عنصر مشكوك فيه دائما، وشيء غامض لا يفصح عن نفسه. وعندما يسمح في المدينة بتأسيس جمعية تمثيل أو قاعة مطالعة أو مقهى، كان يهز رأسه ويقول بصوت خافت:

- طبعاً هذا، يعنى، عظيم، ولكن أخشى أن يحدث شيء.

وكانت كل مخالفة أو انحراف أو خروج عن القواعد تجعله مهموما، بالرغم من أنه لا دخل له بذلك. فإذا ما تأخر أحد من رفاقه عن الصلاة، أو سرت شائعة عن فعلة ارتكبتها التلاميذ، أو شوهدت المشرفة المدرسية في ساعة متأخرة مع أحد الضباط، كان يفعل بشدة ويردد أنه يخشى أن يحدث شيء. وفي اجتماعات مجلس التربية كان يرهقنا بحذره وريبته وأفكاره المعلبة للغاية بخصوص السلوك المعيب للشباب في مدرستي البنين والبنات والضجة التي يثيرونها في الصفوف.. آه، أخشى أن يصل الأمر إلى الرؤساء، آه، أخشى أن يحدث شيء.. ولو أننا فصلنا بتروف من الصف الثانى، ويجوروف من الصف الثالث لكان ذلك حسنا جدا. وماذا؟ أتدرى لقد كان يثقل علينا جميعاً بأهاته، وشكايته، وبنظاره السوداء على وجهه الصغير - وجه صغير كسحنة الظربان - فكنا نتنازل ونخفض درجة السلوك لبتروف ويجوروف ونعاقبهما بالحبس وأخيراً نفصل بتروف ويجوروف. وكانت لديه عادة غريبة: أن يطوف بمنازلنا.

(١) الإنسان (باليونانية).

كان يأتي إلى المدرس فيجلس صامتا وكأنه يتفحص شيئا ما. ويظل على جلسته الصامته هذه ساعة أو ساعتين ثم ينصرف. وكان يسمى ذلك «الحفاظ على العلاقات الطيبة مع الرفاق»، ويبدو أن مجيئه إلينا وجلسه كان صعبا عليه، ولم يكن يفعل ذلك إلا لأنه يعتبره واجبا عليه نحو رفاقه. وكنا نحن المدرسين نخشاه. حتى المدير كان يخافه. انظر، إن مدرسينا رجال مفكرون، قويمون جدا، تربوا على أدب تورجينييف وشيدرین، إلا أن هذا الشخص الذي كان يسير بخف وشمسية سيطر على المدرسة خمسة عشر عاما كاملة. وماذا تكون المدرسة؟ بل سيطر على المدينة كلها. كانت سيداتنا في أيام السبت لا يقمن الحفلات المنزلية، خشية أن يعلم بذلك. وكان رجال الكنيسة يتخرجون من تناول اللحوم أمامه أو لعب الورق. وبتأثير هؤلاء الأشخاص أمثال بيليكوف، أصبح أهالي مدينتنا في العشر أو الخمس عشرة سنة الأخيرة يخشون كل شيء. يخشون التحدث بصوت عال، وإرسال الرسائل، والتعارف، وقراءة الكتب، ويخشون مساعدة الفقراء وتعليم القراءة والكتابة...

وسئل إيفان إيفانيتش وقد أراد أن يقول شيئا ما، ولكنه أشعل غليونه أولا وتطلع إلى القمر، ثم قال على مهل:

- نعم. أناس مفكرون، قويمون، يقرأون شيدرین وتورجينييف وأمثال بوكلي وغيرهم، ومع ذلك خضعوا له، وتحملوه.. هذه هي المسألة فعلا.

ومضى بوركين يقول:

- كان بيليكوف يعيش في نفس المنزل الذي أقطنه، في نفس الطابق، وبابه قبالة بابنا، وكنا نتلاقى كثيرا، وكنت أعرف حياته المنزلية. نفس الوضع في المنزل: الروب والطاقيّة والنوافذ المغلقة الشيش والأبواب الموصدة بالمزاليح، وسلسلة طويلة من الممنوعات والمحظورات، وأيضا: آه، أخشى أن يحدث شيء. أكل الصيام مضر، واللحوم ممنوعة إذ قد يقال أن بيليكوف لا يصوم، فكان يأكل السمك مقليا في سمن البقر، فهذا طعام ليس من مأكولات الصوم، ولكنك لا تستطيع أن تقول إنه من اللحوم. وكان لا يستخدم خادmates

نساء خشية أن يساء به الظن، وكان لديه طاه يدعى أفناسى، عجوز فى حوالى
المستين، سكير، ومخبول، كان جندى مراسلة فى وقت ما، ويستطيع كيفما
كان أن يعد الطعام. وكان أفناسى هذا يقف عادة بجوار الباب، عاقدا ذراعيه،
ويدمد دائما بجملة واحدة مع زفرة عميقة:

- ما أكثر عددهم الآن!

كانت غرفة نوم بيليكوف صغيرة، كالصندوق، وكان سريرة تحت ناموسية.
وعندما يأوى إلى الفراش يغطى جسمه حتى رأسه. وكان جو الغرفة خانقا،
حارا، والريح تعصف بالباب، وتتر فى المدفأة، ومن المطبخ تتناهى الزفرات،
الزفرات الشريرة..

وكان يرتعد رعبا تحت البطانية. كان يخشى أن يحدث شىء، أن يذبحه
أفناسى، أن يتسلل اللصوص، ثم يرى طوال الليل أحلاما مزعجة، وفى الصباح،
عندما تتوجه معا إلى المدرسة، كان يلوح كشيء، ممتعا، ويبدو واضحا أن
المدرسة الكبيرة المزدحمة التى كان ذاهبا إليها، مرعبة وكريهة إلى قلبه، وكان
من الصعب عليه أن يسير معى وهو الشخص المنعزل بطبعه.

ويقول كأنما يبحث عن تفسير لمشاعره المرهقة:

- الضجة شديدة جدا فى الصفوف. شىء لا مثيل له.

وهل تصور أن مدرس اللغة اليونانية هذا، الرجل المقلب، كاد يتزوج.

وتطلع إيفان إيفانيتش بسرعة نحو الحظيرة وقال:

- أنت تمزح!

- نعم، كاد أن يتزوج مهما بدا ذلك غريبا. أرسلوا إلينا مدرسا جديدا للتاريخ
والجغرافيا يدعى كوفالكو ميخائيل سافيتش، من الأوكرانيين. وقد وصل مع
أخته فارنكا. كان شابا، طويل القامة، أسمر، بيدين ضخمتين، ويبدو من وجهه
أن صوته غليظ، وبالفعل كان يتكلم وكأنه يتكلم من برميل: بو.. بو.. بو.. أما

هى فقد تخطت سن الشباب، فى حوالى الثلاثين، ولكنها أيضا طويلة القامة، رشيقة، سوداء الحاجبين، حمراء الخدين، وباختصار لم تكن فتاة بل قطعة حلوى. وكانت مرحة، صاخبة، تغنى دائما الأغاني الاوكرانية وتقهقه. ولأنفه الأسباب تغرق فى ضحك رنان: ها.. ها.. ها. وأذكر أن أول مرة تعرفت فيها بآل كوفالينكو عن قرب كانت فى حفلة عيد ميلاد مدير المدرسة. فبين المربين الصارمين المتوترين المملين، الذين يذهبون حتى لحفلات الميلاد وكأنهم يؤدون واجبا، إذ بنا نرى فجأة أفردويت الجديدة وقد بعثت من زبد الأمواج.. تسير وهى تتمخطر، وتقهقه وتغنى وترقص. وغنت «الرياح تعصف» بصورة مؤثرة، ثم غنت أغنية أخرى، ثم أخرى، فأسرتنا جميعا.. جميعا بمن فينا بيليكوف. وجلس بقربها وقال وهو يتسم ابتسامة عسلية:

- اللغة الأوكرانية تشبه فى رقتها وموسيقاها اللطيفة اللغة اليونانية القديمة.

وراقها ذلك فراحت تروى له بتأثر واقتناع أن لديها منزلا ريفيا فى مركز جاياتشى، وأمها تعيش فيه، وأن هناك كمثرى وشماما وكوسة رائعة. والأوكرانيون يسمون القرع العسلى كوسة، والكوسة «شينكى»، ويطهون حساء الكرنب من الكرنب والطماطم والباذنجان، «ما أأذه، ما أأذه، شىء خرافى».

وأصغينا نحن طويلا، ثم سنحت لنا جميعا نفس الفكرة.

وقالت لى زوجة المدير بصوت خافت :

- حسن لو زوجناهما.

ولسبب ما تذكرنا أن بيليكوف ليس متزوجا، فبدا لنا غريبا أننا لم نلاحظ ذلك من قبل، ولم نلتفت أبدا إلى هذا الجانب المهم فى حياته. فما هو موقفه من النساء عامة يا ترى؟ وكيف يواجه هذه المسألة الحيوية؟ لم يثر هذا اهتمامنا أبدا من قبل، وربما لم تراودنا حتى فكرة أن الشخص الذى يسير فى جميع الأحوال الجوية فى خوف وينام تحت ناموسية، يمكن أن يحب.

وقالت زوجة المدير موضحة فكرتها:

- لقد تخطى الأربعين منذ زمن بعيد، وهى فى الثلاثين... يخيل إلیّ أنها ستقبله زوجها.

وما أكثر الأمور التى تحدث بفعل الملل فى الأرياف عندنا، وما أكثر ما يجرى من تفاهات لا داعى لها وحماقات! وذلك لأننا لا نفعل أبدا ما هو مطلوب. حسنا، لماذا أصبحنا فجأة فى حاجة إلى تزويج بيليكوف هذا، وهو الذى لا يمكن حتى أن نتخيله زوجا؟ لقد انتعشت زوجة المدير، والمفتشة وكل سيدات المدرسة، بل وازددن جمالا، وكأنما عثرن فجأة على غاية الحياة. وإذا بزوجة المدير تحجز مقصورة فى المسرح، وننظر نحن فترى فى المقصورة فارنكا ممسكة بمروحة، وهى سعيدة، مشرقة، ويجوارها بيليكوف، صغيرا، منطويا، كأنما أخرجوه من المنزل بكماشة. وأقيم أنا حفلا منزليا فنصر السيدات على أن أدعو بيليكوف وفارنكا. وباختصار فقد انطلقت الآلة. واتضح أن فارنكا لم تكن تمنع فى الزواج. فلم تكن مرتاحة فى حياتها مع أخيها، إذ لم يكن لهما من عمل سوى الجدال والشجار طول النهار. خذ مثلا هذا المشهد: كوفالتكو يسير فى الشارع، طويلا، عملاقا فارع الجسد، فى قميص مطرز، وقصته تهدل من تحت العمرة على جبينه. ويحمل فى إحدى يديه رزمة كتب، وفى اليد الأخرى عصا غليظة بعقد. وتسير وراءه أخته، حاملة كتبها الأخرى.

وتجادله بصوت عال:

- إنك لم تقرأ هذا يا ميخايليك. إننى أقول لك، أقسم إنك لم تقرأ هذا أبدا!

فيصيح كوفالتكو وهو يقمقع بعصاه على الرصيف:

- وأنا أقول لك إننى قرأته.

- آه، يا إلهى، لماذا تغضب يا امتشيك، إن حديثنا مبدئى!.

فيصيح كوفالنكو بصوت أعلى:

- وأنا أقول لك إننى قرأته.

وما إن يوجد فى منزلها شخص غريب حتى ينشب بينهما الشجار. ويبدو أن هذه الحياة أرهقتها، ثم أنها أرادت أن تستقل بركنها، زد على ذلك السن أيضا. عندئذ لا يكون هناك متسع للاختيار، وتصبح مستعدة للزواج بأى كان، حتى بمدرس اللغة اليونانية القديمة. ثم إنه بالنسبة لمعظم أنساننا ليس المهم من يتزوجن، بل المهم أن يتزوجن. وأيا كان الأمر فقد أخذت فارنكا تبتدى نحو بيليكوف ميلا واضحا.

وماذا عن بيليكوف؟ كان يتردد على كوفالنكو كما يتردد علينا. يأتى إليه فيجلس صامتا. هو يصمت أما فارنكا فتغنى له «الرياح تعصف»، أو تنظر إليه شاردة بعينيهما السوداوين، أو تفهقه فجأة::

- ها.. ها.. ها!.

إن الإيحاء يلعب دورا كبيرا فى أمور الغرام، وخاصة فى الزواج. ومن ثم راح الجميع - الرفاق والسيدات - يؤكدون لبيليكوف أنه ينبغى عليه أن يتزوج، وأنه لم يعد لديه شيء فى الحياة إلا أن يتزوج. وهنأناه كلنا، وتفوهنا بأشياء مبتذلة وقد اكتست وجوهنا ملامح الجدبة، أشياء من قبيل أن الزواج هو خطوة جادة، ثم إن فارنكا لا يعوزها الجمال، وهى جذابة، وكانت ابنة مستشار اعتبارى^(١)، ولديها منزل ريفى، وأهم شيء أنها أول امرأة تعامله برقة وود. فدار رأسه وقرر أن ينبغى عليه بالفعل أن يتزوج.

وقال إيفان إيفانيتش:

- تلك هى اللحظة التى يمكن فيها انتزاع الخف والشمسية منه.

- تصور، لقد اتضح أن ذلك مستحيل. لقد وضع صورة فارنكا على مكتبه،

(١) كانت رتبة مدنية فى روسيا القيصرية تعادل رتبة العقيد. (المغرب).

وأخذ يتردد على ويتحدث عن فارنكا، وعن الحياة الزوجية، ويقول إن الزواج خطوة جادة، وأكثر من زيارته لآل كوفالتيكو، لكنه لم يغير طريقة حياته قيد شعرة. بل بالعكس، لقد أثر عليه قراره بالزواج تأثيراً مَرَضِيّاً، فهزل وشحب وجهه وبدأ أنه قد غاص أكثر في علبته.

كان يقول لى بابتسامة ضعيفة ممتعة:

- فارفارا سافيشنا تعجبنى، وأنا أعرف أنه من الضروري لكل إنسان أن يتزوج، ولكن.. كل ذلك، أتدرى، حدث فجأة.. ينبغي على أن أفكر.

فأقول له:

- وفيم تفكر؟ تزوج وهذا كل ما فى الأمر.

- كلا، الزواج خطوة جادة. ينبغي أولاً أن أزن الواجبات القادمة والمسئوليات.. حتى لا يحدث شيء بعد ذلك. إن هذا يقلقنى جداً، وأصبحت لا أنام الليل. وأصارحك أنني أخاف: فلديها هي وشقيقها طريقة تفكير غريبة، إنهما يفكران، أتدرى، بطريقة غريبة، وطبعها أيضاً مندفع جداً. فإذا تزوجت، فربما أقع، لا قدر الله، فى ورطة ما.

ولم يتقدم لطلب يدها، وراح يؤجل ذلك، مما أثار خيبة أمل زوجة المدير وكل نساتنا. ظل يزن الواجبات القادمة والمسئوليات، وفى الوقت نفسه كان يتنزه مع فارنكا كل يوم تقريباً. إذ ربما كان يظن أن ذلك مطلوب فى وضعه، ويأتى إلى ليتحدث عن الحياة العائلية. وربما تقدم فى نهاية الأمر لطلب يدها، وعندئذ كان سيتم زواج من تلك الزيجات الحمقاء التى لا ضرورة لها والتى تحدث عندنا بالآلاف بفعل الملل والفراغ. لو لا أن وقعت Kolossalische Scandal فجأة. إذ لا بد من القول بأن شقيق فارنكا، كوفالتيكو، قد كره بيليكون من أول يوم تعارفهما، ولم يعد يطيقه.

(١) فضيحة كبيرة (بالألمانية فى الأصل).

وكان يقول لنا وهو يهز كتفيه:

- أنا لا أفهم، كيف تطيقون هذا الواشى، هذه السحنة المنحطة. إيه يا ساده كيف تستطيعون العيش هنا! الجو لديكم خائق، قدر. فهل أنتم مربون، معلمون؟ أنتم عبدة ألقاب، وليس ما لديكم محراب علم، بل إدارة مناصب نفوح منها رائحة حامضة كما فى كشك الشرطة. كلا يا إخوان، سأعيش معكم قليلا ثم أرحل إلى منزلنا الريفى وأصطاد هناك السرطان وأعلم الأوكرانيين الصغار. سأرحل، وستبقون أنتم هنا مع يهوذاكم، ألا فلتأخذ مصيبة!

وأحيانا كان يقهقه، يقهقه حتى تدمع عيناه فقهقات غليظة مرة ورفيعة حادة مرة أخرى ويسألنى بالأوكرانية وهو يلوح بيديه:

- لماذا يجلس عندى؟ ما الذى يريده؟ إنه يجلس ويتطلع.

بل وأطلق عليه اسم «العنكبوت». وبالطبع فقد تجنبنا أن نذكر له أن أخته فارنكا تنوى الزواج من «العنكبوت» وعندما ألمحت له زوجة المدير ذات مرة بأنه من الخير تزويج أخته من سيد رصين، يحترمه الجميع مثل بيليكوف، عقد حاجبيه ودمدم ساخطا:

- ليس هذا من شأنى، فلتزوج ولو ثعبانا. أنا لا أحب أن أندخل فى شئون الغير.

فلتسمع ما حدث بعد ذلك. لقد رسم أحد الأشقياء رسما كاريكاتيريا لبيليكوف وهو يسير فى خف وسروال مشمر، وتحت الشمسية، ويتأبط ذراع فارنكا. وكتب تحت الرسم «الأثروبوس العاشق». وهو تعبير كما ترى مناسب بشكل مدهش. لا بد أن الرسام أنفق فى هذا العمل أكثر من ليلة، لأن كل مدرسى مدرستى البنين والبنات، ومدرسى المعهد الدينى وجميع الموظفين حصل كل منهم على نسخة من الرسم. وحصل لبيليكوف أيضا على نسخة. وتركت الصورة فى نفسه أسوأ انطباع.

وخرجنا معا من المنزل، وكان ذلك فى أول مايو، يوم الأحد، وكنا قد اتفقنا

نحن المدرسين والتلاميذ أن نلتقى عند المدرسة، ثم نذهب جميعا سيرا على الأقدام خارج المدينة إلى الغابة، وإذا به مريد الوجه مكفهر كالغمامة.
وقال:

- يا لهم من أناس خبيثاء، أشرار!
وارتعشت شفتاه.

حتى إننى شعرت بالرتاء له. وبينما نحن نسير إذ بنا نرى كوفالينكو قادما نحونا على دراجة، تصور، ومن ورائه فارنكا على دراجة أيضا، خداها أحمران، هى مرهقة، ولكنها مرحة مسرورة.
وصاحت:

إننا نسير إلى الأمام. يالللجو الرائع، يالللجو الرائع، شىء خرافى!
واختفيا عن أنظارنا. وتحول اربداد وجه بيليكوف إلى شحوب، وبدا كأنه تسمر فى مكانه. وتوقف وراح يحملق فى، ثم سألنى:
- عفوا، ما هذا؟ أم أن نظرى يخدعنى؟ هل من اللائق لمدرسى المدرسة وللنساء أن يركبوا الدراجات؟
فقلت له:

- وما عدم اللياقة فى ذلك؟ فليركبوا ما شاء لهم.
فصاح وقد أذهله هدوئى:

- كيف يمكن؟ ماذا تقول؟!

كان مصعوقا لدرجة أنه لم يشأ أن يواصل السير وقفل عائدا إلى المنزل.

وفى اليوم التالى ظل يفرك راحتيه فى عصبية ويتنفض، وكان واضحا أنه

فى حالة سيئة. وترك الدروس، الأمر الذى حدث له لأول مرة فى حياته. ولم يتناول الغداء، وقبيل المساء ارتدى ملابس ثقيلة رغم أن الجو فى الخارج كان صيفيا تماما، ومضى إلى كوفالينكو. ولم تكن فارنكا فى المنزل فلم يجد سوى شقيقها.

فقال له كوفالينكو ببرود وقد عقد حاجبيه:

- تفضل اجلس لو سمحت.

كان وجهه ناعسا. فقد أفاق لتوه من نوم بعد الغداء، وكان مزاجه معتلا للغاية.

وجلس بيليكوف صامتا حوالى عشر دقائق ثم بدأ يقول:

- لقد جئت إليكم لأخفف عن قلبى. إننى مرهق نفسيا جدا. إن أحد الرسامين قد رسمنى فى صورة مضحكة مع آنسة قريبة لنا معا. وأرى من واجبى أن أؤكد لك أنه لا دخل لى بذلك.. لم أفعل من جانبى أى شىء يبرر هذه السخرية، بالعكس دائما أسلك مسلك الشخص القويم.

كان كوفالينكو جالسا مكفهر الوجه وصامتا. وانتظر بيليكوف قليلا، ثم مضى يقول بصوت خافت حزين:

- ولديّ ما أريد أن أقوله لك أيضا. إننى أخدم منذ زمن طويل، أما أنت فمازلت فى بداية الخدمة وأرى من واجبى كرفيق أقدم أن أحذرك. إنك تركب الدراجة، وهذه تسلية لا تليق أبدا بمرب للنشء.

فسأل كوفالينكو بصوت غليظ:

- ولماذا؟

- وهل هناك داع لشرح ذلك يا ميخائيل سافيتش، أليس ذلك مفهوما؟ إذا كان المدرس يركب دراجة، فماذا يتبقى للتلاميذ؟ لا يبقى لهم إلا أن يسيروا على رؤوسهم. وإذا كان ذلك غير مسموح به فى المنشورات الدورية فهذا

يعنى أنه ممنوع. لقد ارتعت أمس. عندما رأيت شقيقتك غامت عيناي. المرأة أو الأنسة فوق الدراجة.. هذا فظيع.

- ماذا تريد بالضبط؟

- لا أريد سوى شيء واحد أن أحذرك يا ميخائيل سافيتش. أنت رجل شاب، والمستقبل عريض أمامك، ينبغي أن يكون سلوكك حذرا، وحذرا جدا. إنك بذلك تستهتر، أوه كم تستهتر! إنك ترتدى قميصا مطرزا، وتسير في الشارع حاملا كتباً ما دائما، ثم ها أنت ذا تركب دراجة. وسيعلم المدير أنك تركب دراجة أنت وشقيقتك، ثم يصل الأمر إلى رئيس المنطقة التعليمية... فما هو الخير في ذلك؟

فقال كوفالنكو وهو يتضرع:

- لا شأن لأحد بركوبى الدراجة أنا وشقيقتى. أما من سيتدخل فى أموري المنزلية العائلية فسأبعث به إلى الشياطين.

فامتقع بيليكوف ونهض. وقال:

- إذا كنت تتحدث معى بهذه اللهجة فأنا لا أستطيع أن أواصل. وأرجوك ألا تتحدث عن الرؤساء أبدا بهذا الشكل فى حضرتى. ينبغي عليك أن تنظر إلى السلطات باحترام.

فسأله كوفالنكو وهو يحدق فيه بغیظ:

- وهل قلت شيئا سيئا عن السلطات؟ أرجوك دعنى فى حالى. أنا رجل شريف، ولا أريد أن أتحدث مع سيد مثلك. أنا لا أحب الرشوة.

وارتبك بيليكوف فى عصبية، وأخذ يرتدى معطفه بسرعة وقد ارتسم الرعب على وجهه. فقد كانت تلك أول مرة فى حياته يسمع فيها هذه العبارات الفظة.

فقال وهو يخرج من الباب إلى بسطة السلم:

- بوسمك أن تقول ما تشاء. غير أنى ينبغي أن أحذرك، فربما سمع كلامنا أحد. ولكى لا يحرف حديثنا ويحدث شىء، ينبغي أن أبلغ السيد المدير فحوى حديثنا.. فى الخطوط العامة. يجب على أن أفعل ذلك.

- تبلغ؟ اذهب وبلغ.

وأمسك كوفالك من الخلف بياقه ودفعه، فتدحرج بليكوف على السلم وهو يقرقع بخفة. وكان السلم عالياً وشديد الانحدار، ولكنه تدحرج حتى وصل إلى أسفل سالماً، ثم نهض وتحسس أنفه ليتأكد هل النظارة سليمة أم لا؟ ولكن فى اللحظة التى كان يتدحرج فيها على السلم دخلت فارنكا بصحبة سيدتين. وقفن فى الأسفل ينظرن. وكان هذا أفظع شىء بالنسبة لليكوف. خيل إليه أنه من الأفضل أن يدق عنقه أو تنكسر كلتا ساقيه من أن يصبح مسخرة. الآن ستعلم المدينة كلها، وسيصل الأمر إلى المدير ورئيس المنطقة، أه، أخشى أن يحدث شىء! إذ ربما رسموا كاريكاتيراً جديداً، وينتهى كل ذلك بأن يأمره بتقديم استقالته..

وعندما نهض عرفته فارنكا. ونظرت إلى وجهه المضحك، ومعطفه المجمع، وخفه، وهى لا تدرك ماذا حدث، واعتقدت أنه زل وسقط، فلم تتمالك نفسها من الإغراق فى الضحك بصوت أسمع البيت كله:

- ها.. ها.. ها!

بهذه القهقهات المدوية المجلجلة تكلل كل شىء: الخطبة، ووجود بليكوف الدنيوى. لم يعد يسمع ما تقوله فارنكا، ولم ير شيئاً. وعندما عاد إلى داره بادر قبل كل شىء برفع صورة فارنكا من الطاولة، ورقد ولم يقم بعدها.

وبعد حوالى ثلاثة أيام جاءنى أfnاسى وسألنى هل يستدعى الطبيب، لأن شيئاً ما يحدث للسيد. فذهبت إلى بليكوف. كان راقدًا تحت ناموسية السرير، مغطى بالبطانية. وصامتاً. وعندما تسألته لا يرد إلا بلا أو نعم، ولا يزيد حرفاً.

كان راقدا، وأفناسى يجوس من حوله عابسا، مكفهرًا، يزفر بعمق، ورائحة
الفودكا تنبعث منه كما فى حانة.

وبعد شهر توفى بيليكوف. وسرنا جميعا فى جنازته، كلنا المدرستين
والمعهد الدينى. وبعد أن تمدد فى التابوت اكتسى وجهه تعبيرا مستكينا،
لطيفا، بل حتى مرحا، كأنما كان سعيدا بأنهم وضعوه أخيرا فى علبة لن يخرج
منها أبدا. نعم لقد بلغ مثله الأعلى. وأثناء الجنازة، وكأنما تكريما له، كان
الجو مكفهرًا ممطرًا، فارتدينا جميعا الأخفاف وحملنا الشماسى. وشهدت
فارنكا أيضا الجنازة، وعندما أنزل التابوت إلى القبر أجهشت بالبكاء. وقد
لاحظت أن النساء الأوكرانيات إما يضحكن وإما يبكين، وليس لديهن مزاج
وسط.

وأصارحك بأن دفن أناس مثل بيليكوف هو متعة كبيرة. فعندما عدنا من
المقبرة كانت وجوهنا متواضعة، محايدة، إذ لم يشأ أحد منا أن يكشف عن هذا
الشعور بالمتعة.. الشعور الذى يشبه ذلك الإحساس الذى كان يعترينا منذ زمن
بعيد، فى أيام الطفولة، عندما يغادر الكبار المنزل فنمرح فى الحديقة ساعة أو
ساعتين مستمتعين بالحرية التامة. آه، الحرية، الحرية! مجرد التلميح، أو حتى
الأمل الضعيف باحتمال تحققها يخلق للروح جناحين، أليس كذلك؟

عدنا من المقابر بنفوس منشرحة. ولكن ما إن مر أسبوع حتى عادت الحياة
إلى مجراها السابق.. حياة قاسية، مرهقة، بلا معنى، لا تحدها ممنوعات
المنشورات الدورية ولكنها غير مطلقة السراح تماما. لم يصبح الوضع أفضل.
وبالفعل، لقد دفنا بيليكوف، ولكن كم بقى من أمثال هؤلاء الرجال المعلمين،
وكم سيظهر منهم.

فقال إيفان إيفانيتش:

- هذه هى المسألة فعلا.

وأشعل غليونه.

وردد بوركين:

- وكم سيظهر منهم.

وخرج المدرس من الحظيرة. كان رجلا غير طويل أصلع تماما، بلحية سوداء تكاد تصل إلى خصره. وخرج معه كلبان.

وقال وهو يتطلع إلى أعلى:

- القمر، القمر، انظر!

كان الوقت منتصف الليل. وإلى اليمين بدت القرية كلها. وامتد شارعها الطويل بعيدا، حوالى خمسة كيلو مترات. وكان كل شيء غارقا فى نوم عميق هادئ. لا حركة، ولا صوت، إلى درجة يصعب معها أن تصدق أن الطبيعة يمكن أن تشتمل على هذا الهدوء. وعندما ترى فى الليل المقمر شارع القرية العريض بمنازله، وأكوام دريسه، وأشجار الصفصاف الناعسة، تشتمل روحك السكنية. ويبدو الشارع فى هدوئه هذا، وقد تغطى بظلال الليل هربا من الكد والهموم والمصائب، مستكينا، حزينا ورائعا، ويخيل إليك أن النجوم تنظر إليه برقة وإعجاب، وأن الشر قد اختفى من الأرض، وكل شيء على ما يرام. وإلى اليسار، عند طرف القرية يبدأ الحقل. كان يلوح بعيدا حتى الأفق، وعلى امتداد هذا الحقل الرحب، الغارق فى ضوء القمر، لم تكن هناك أيضا حركة أو صوت.

وردد إيفان إيفانيتش:

- هذه هى المسألة فعلا. وهل معيشتنا فى المدينة، فى الجو الخانق والزحام، وكتابتنا لأوراق لا حاجة إليها، ولعبنا الورق.. أليس هذا علبة؟ وهل قضاؤنا لعمرنا كله بين كسالى، عاطلين، ونساء حمقاوات فارغات، وتحدثنا وسماعنا لشتى ألوان الهراء.. أليس هذا علبة؟ لو أردت لرويت لك قصة ذات موعظة.

فقال بوركين:

- كلا، آن لنا أن ننام. إلى الغدا!

واتجه كلاهما إلى الحظيرة ورقدا على الدريس. وتغطيا ونعسا وإذ بخطوات خفيفة تتردد فجأة: دب.. دب.. دب.. كان هناك شخص ما يسير غير بعيد عن الحظيرة. يجوس قليلا ثم يتوقف. وبعد دقيقة يعود من جديد: دب.. دب.. وزمجرت الكلاب.

وقال بوركين:

- إنها مافرا تسير.

وسكنت الخطوات.

ودمدم إيفان إيفانيتش وهو ينقلب إلى الجنب الآخر:

- أن ترى وتسمع كيف يكذبون، ثم يرمونك أنت بالغباء لأنك تطيق هذا الكذب. أن تتحمل الإهانات والإذلال، دون أن تجرؤ على الإعلان صراحة أنك فى صف الشرفاء الأحرار، بل تكذب أنت نفسك، وتبتسم، وكل ذلك من أجل لقمة العيش، من أجل ركن دافئ، من أجل وظيفة حقيرة لا تساوى قرشا.. كلا، حياة كهذه لم تعد محتملة.

فقال المدرس:

- إنك تغنى أغنية أخرى يا إيفان إيفانيتش. هيا ننام.

وبعد حوالى عشر دقائق كان بوركين يغط فى النوم. أما إيفان إيفانيتش فكان يتقلب من جنب إلى جنب ويتنهد، ثم نهض، وخرج مرة أخرى فجلس قرب الباب وأشعل الغليون.

حبوبة

كانت أولنكا^(١)، ابنة المساعد الاعتبارى المتقاعد بليميانيكوف، جالسة فى فناء منزلهم على درج المدخل وقد استغرقت فى التفكير. كان الجو حاراً، والذباب يضايقها بالحاح، وكان من المبهج جداً التفكير فى اقتراب المساء. ومن الشرق زحف غمام داكن ممطر، وكانت الرطوبة تتناهى أحياناً من هناك.

وفى وسط الفناء وقف كوكين، المتعهد وصاحب حديفة ملاهى «تيفولى»، الذى كان يسكن جناحاً هنا فى الفناء، وهو يتطلع إلى السماء. وقال بأسى:

- ثانية! ستمطر ثانية! كل يوم مطر، كل يوم مطر، كأنما عمداً! هذا هلاك! هذا خراب! كل يوم خسائر رهية!

وأشاح يديه ومضى يقول مخاطباً أولنكا:

- ها هى ذى حياتنا يا أولجا سيميونفنا. شىء يبكى! تعمل وتبذل جهدك، وتتعذب، ولا تنام الليل، وتفكر دائماً فى التحسين، فما النتيجة؟ من ناحية هناك الجمهور الجاهل المتوحش. أقدم له أفضل أوبريت، أفضل مسرحية سحرية، أروع المغنين، ولكن هل هو بحاجة إلى ذلك؟ هل هو يفقه شيئاً

(١) تدليل من الاسم الكامل: أولجا. (المغرب).

فى ذلك؟ إنه بحاجة إلى مولد! بحاجة إلى أشياء مبتذلة! ومن ناحية أخرى
فلتنظري إلى الطقس. المطر كل مساء تقريبا. منذ أن بدأ يسقط فى العاشر من
مايو وهو مستمر طوال مايو ويونيو، شىء فظيع! الجمهور لا يحضر، ولكن
ألست أرفع الإيجار؟ ألست أرفع أجور الممثلين؟

وفى اليوم التالى قبيل المساء زحف الغمام ثانية، فقال كوكين وهو يفقهه
بهستيرية:

- ثم ماذا؟ فليكن! فليغرق الحديقة كلها، فليغرقنى أيضا! فليحل بى البؤس
فى هذه الدنيا وفى الآخرة! فليشكنى الممثلون إلى المحكمة! وهل تهمنى
المحكمة؟ فليحكموا علىّ بالأشغال الشاقة، فى سيبيريا! لنكن حتى المشقة!
ها.. ها.. ها!

وفى اليوم الثالث نفس الشىء..

كانت أولنكا تصغى إلى كوكين فى صمت، وبجدية، وأحيانا تغرورق عيناها
بالدموع. وفى نهاية الأمر أثرت فيها مصائب كوكين، فأحبته. كان قصير القامة،
هزىلا، بوجه أصفر وصدغين ممشطين، يتكلم بصوت «تينور» ضعيف، وعندما
يتكلم يلتوى فمه. وكان اليأس مكتوبا على وجهه دائما، إلا أنه بعث فيها شعورا
حقيقيا عميقا. كانت على الدوام تحب أحدا ما، ولا تستطيع أن تعيش بدون
ذلك. فى الماضى أحببت أباه الذى أصبح يجلس الآن مريضا فى مقعد، فى
غرفة مظلمة، ويتنفس بصعوبة. وأحبت خالتها التى كانت تأتى من بريانسك
أحيانا، مرة كل عامين. وقبل ذلك، عندما كانت تدرس فى المدرسة المتوسطة،
أحبت مدرس اللغة الفرنسية. كانت آنسة هادئة، طيبة حنونا، بنظرة وديعة ناعمة،
وفى غاية الصحة. وعندما ينظر الرجال إلى خديها الممتلئين المتوردين، وإلى
عنقها الأبيض الناعم ذى الشامة الداكنة، وإلى ابتسامتها الطيبة الساذجة التى
ترسم على وجهها عندما تسمع شيئا سارا، كانوا يفكرون: «نعم، لا بأس بها..»
ويتسمون هم أيضا، أما النساء فلا يتمالكن أنفسهن أثناء الحديث من الإمساك
بيدها والقول فى غمرة السرور:

- يا حَيَّوَة!

كان البيت الذى تعيش فيه منذ أن ولدت وكتب باسمها فى الوصية يقع فى طرف المدينة، فى محلة الفجر، غير بعيد عن حديقة ملاهى «التيفولى». وفى الأسبات والليالى كان يسمع فى الحديقة عزف الموسيقى وانفجارات الصواريخ النارية المزججة، فكان يخیل إليها أن كوكين يحارب قدره، ويهاجم عدوه الرئيسى: الجمهور اللامبالى. فكان قلبها يخفق بلذة، ويجافىها النوم، وعندما يعود كوكين قبيل الصباح كانت تدق خفيفا على نافذتها من داخل غرفة نومها، وتبسم له برقة، كاشفة له عبر الستارة عن وجهها وإحدى كتفيها فقط...

وخطبها، وعقدا قرانهما. وعندما رأى كما يجب عنقها وكتفيها الممتلئتين العفتين، أشاح يديه ودمدم:

- يا حَيَّوَة!

كان سعيدا، ولكن لما كان المطر يسقط يوم الزفاف ثم طوال الليل، لم يفارق وجهه تعبير الأسى.

وعاشا بعد الزفاف حياة طيبة. كانت تجلس فى شباك التذاكر لديه، وتراقب النظام فى الحديقة، وتسجل النفقات وتصرف الرواتب، وكان خداها المتوردان وابتسامتها اللطيفة الساذجة التى تشبه الإشعاع تومض تارة فى شباك التذاكر وتارة وراء الكواليس، وتارة فى البوفيه. وأصبحت تقول لمعارفها إن أروع وأهم وألزم شىء فى الدنيا هو المسرح، وإنه لا يمكن أن تحصل على المتعة الحقيقية وأن تصبح مثقفا وخيرا إلا فى المسرح.

- ولكن هل يفهم الجمهور ذلك؟- كانت تقول - إنه بحاجة إلى مولد! بالأمس قدمنا «فاوست بالمقلوب»، وكانت جميع المقصورات تقريبا خالية، ولو أننا، أنا وفانتشكا، قدمنا أى شىء مبتذل لكان المسرح، صدقونى، ممتلئا عن آخره. غدا سنقدم أنا وفانتشكا «أورفيوس فى الجحيم»، نعالوا.

وكل ما يقوله كوكين عن المسرح والممثلين كانت هي تردده. كانت مثله تحقر الجمهور لعدم اكترائه بالفن ولجهله، وتتدخل فى البروفات وتصحح الممثلين، وتراقب سلوك الموسيقين، عندما تكتب الجريدة المحلية بعدم استحسان عن المسرح تبكى ثم تذهب إلى إدارة التحرير للتفاهم فى الأمر.

وكان الممثلون يحبونها ويسمونها «أنا وفانتشكا» و«حبوبة». وكانت ترق لحالهم وتقرضهم قروضا صغيرة، وإذا حدث وخذعوها تبكى فقط بصوت خافت لكنها لا تشكو لزوجها.

وفى الشتاء أيضا عاشا حياة طيبة. استأجرا مسرح المدينة لموسم الشتاء وكانوا يؤجرونه لفترات قصيرة تارة لفرقة أوكرائية، وتارة لحاو، وتارة للهواة المحليين. وسمنت أولنكا وأشرفت كلها سرورا، أما كوكين فنحفت واصفرت واشتكى من الخسائر الرهيبة، رغم أن الأمور طوال الشتاء سارت على ما يرام. وكان يسعل ليلا فتسقيه شراب التوت ومنقوع زهر الزيزفون، وتدلّكه بالكولونيا وتدثره فى شيلانها الناعمة.

- كم أنت رائع!- كانت تقول بكل إخلاص وهى تداعب شعره - كم أنت حلو!

وفى الصباح الكبير سافر إلى موسكو لجمع فرقة تمثيل، فلم تستطع بدونه أن تنام وجلست طوال الليل بجوار النافذة تحديق فى النجوم. وفى تلك الأثناء كانت تقارن نفسها بالدجاجات التى لا تنام أيضا فى الليل وتشعر بالقلق إذا لم يكن الديك فى الحظيرة. وتأخر كوكين فى موسكو وكتب يقول إنه سيعود فى عيد الفصح، وأصدر فى رسائله تعليماته بخصوص «النيغولي». ولكن فى ساعة متأخرة من المساء، قبيل أسبوع الألام دوى طرق مشؤوم على البوابة. كان أحد ما يديق الباب وكأنما يضرب برميلا: يوم! يوم! يوم! وركضت الطاهية الناعسة لتفتح وهى تطرطش بقدميها الحافيتين فى البرك.

- افتحوا، اعملوا معروفا - قال شخص ما من وراء البوابة بصوت غليظ -
وصلتكم برقية!

كانت أولنكا تتلقى برقيات من زوجها قبل ذلك، ولكن الذهول تملكها
الآن لسبب ما. وفضت البرقية بأصابع مرتعشة وقرأت التالي:

«توفى اليوم إيفان بتروفتش وفاة مفاجئة فى انتظار التعليمات عاجكا الدفد
الثلاثاء».

هكذا كان مكتوبا فى البرقية «الدفد»، ثم تلك الكلمة غير المفهومة
«عاجكا»، والتوقيع لمخرج فرقة الأوبريت.

وأعولت أولنكا:

- يا حبيبى الغالى! يا فانتشكا العزيز، يا حبيبى الغالى! لماذا التقيت بك؟ لماذا
عرفتك وأحببتك؟ لمن تركت أولنكا المسكينة، المسكينة التعيسة؟..

دفن كوكين يوم الثلاثاء، فى موسكو، فى مقابر فاجانكوفو. وعادت أولنكا
يوم الأربعاء، وما إن دخلت البيت حتى ارتمت على السرير وأجهشت بالبكاء
بصوت عال سمع فى الخارج وفى الأفنية المجاورة.

وقالت جاراتها وهن يرسمن علامة الصليب:

- الحبوبة! أولجا سيميونفنا الحبوبة، انظروا، كيف تتألم!

بعد ثلاثة أشهر كانت أولنكا عائدة من صلاة الظهر، حزينة، مجللة بالسواد.
وتصادف أن سار بجوارها أحد جيراتها، فاسيلى أندريتش بوستوفالوف، رئيس
مخزن الخشب التابع للتاجر بابكاييف، وكان عائدا من الصلاة أيضا. كان فى
قبة من القش، وفى صدرى أبيض بسلسلة ذهبية، ويبدو أشبه بإقطاعى منه
بتاجر.

قال لها برزانة وبنبرة تعاطف:

- لكل شيء نظامه. فإذا مات أحد من أقربائنا فمعنى ذلك مشيئة الله، وعلينا في هذه الحالة أن نتذرع بالصبر ونرضى بها.

وأوصل أولنكا إلى باب الفناء ثم ودعها ومضى إلى داره. وبعد ذلك ظل صوته الرزين يتردد في أذنيها طول النهار وما تغمض عينيها حتى تتراءى لها لحيته السوداء. لقد أعجبها غاية الإعجاب. ويبدو أنها هي أيضا قد تركت في نفسه أثرا، إذ جاءت إليها بعد فترة قصيرة لشرب القهوة سيدة كهلة لم تكن تعرفها إلا قليلا، وما إن جلست إلى المائدة حتى تحدثت على الفور عن بوستوفالوف، وإنه رجل طيب، رصين، وإن أية فتاة تقبله زوجا عن طيب خاطر. وبعد ثلاثة أيام زارها بوستوفالوف نفسه. لم يمكث كثيرا، حوالي عشر دقائق، وتحدث قليلا، ولكن أولنكا أحبته، أحبته إلى درجة أنها لم تنم طول الليل وهي تحترق وكأنها مصابة بالحمى، وفي الصباح أرسلت تستدعي السيدة الكهلة. وسرعان ما خطبت، ثم عقد القران.

وعاش بوستوفالوف وأولنكا بعد الزفاف حياة طيبة. كان يبقى في مخزن الخشب عادة حتى الغداء، ثم يمضى لأعماله، فتحل محله أولنكا وتبقى في المكتب حتى المساء وتسجل الحسابات وتصرف البضاعة.

وتقول للمشتري والمعارف:

- أسعار الخشب ترتفع الآن عشرين في المائة كل سنة. عفواً، كنا من قبل نتاجر في الخشب المحلي، أما الآن فإن فاستيشكا مضطر أن يسافر كل سنة إلى محافظة موجيليوف لشراء الخشب. وأية رسوم!- تقول مغطية برعب كلا خديها براحتيها- أية رسوم!

خيل إليها أنها تتاجر في الخشب منذ زمن بعيد، وأن أهم وألزم شيء في الحياة هو الخشب، وسمعت شيئا عزيزا، مؤثرا في هذه الكلمات: عرق، أرومة، لوح، بطانة، لطان، بندقي، سقالة، تريعة... وفي الليل تتراءى لها في المنام جبال من الألواح والعروق، وقوافل طويلة بلا نهاية من العربات

التي تنقل الخشب إلى مكان بعيد خارج المدينة. ورأت في الحلم فوجا كاملا من الجذوع بطول اثنتى عشرة ذراعا وقطر خمسة فير شوكات^(١) للجذع يسير منتصبا ويهاجم مخزن الخشب، وتصطدم الجذوع والعروق والترايع فيصدر عنها صوت أجوف للخشب الجاف، وتساقط كلها ثم تنهض ثانية وهى تكس فوق بعضها. وتصرخ أولنكا فى المنام فيقول لها بوستوفالوف برقة:

- أولنكا، ماذا بك يا عزيزتى؟ صلبى.

وكانت لها نفس الأفكار التى كانت لزوجها. فإذا ما ظن أن الجو فى الغرفة حار أو أن التجارة أصبحت الآن راکدة فإنها تظن كذلك. ولم يكن زوجها يحب أية تسليات، وفى العيد يبقى فى البيت، وهى أيضا.

ويقول معارفها:

- أنت دائما فى البيت أو فى المكتب. هلا ذهبت إلى المسرح أو إلى السيرك يا حبوبة.

فترد برزانة:

- ليس لدينا أنا وفاسيتشكا وقت للذهاب إلى المسارح نحن أناس عمل، مشغولون عن هذه التوافه. أى خير فى هذه المسارح؟

فى أيام السبت كانا، بوستوفالوف وهى، يذهبان إلى صلاة المساء، وفى أيام الأعياد إلى القداس المبكر، ويعودان من الصلاة متجاورين، بوجهين متأثرين، وتفوح من كليهما رائحة زكية، ويهفهف فستانها الحريري بصوت لطيف. وفى البيت يشربان الشاي مع الخبز الدسم ومختلف أنواع المربى، ثم يتناولان الكعكة. وكل يوم فى الظهر تفوح فى الفناء وخلف البوابة فى الشارع روائح شهية من حساء الكرنب ولحم الضأن أو البط المحمر، والسّمك فى

(١) الفير شوك - مقياس روسى قديم يعادل $\frac{3}{4}$ بوصة. (المرب).

أيام الصيام، فلا يمكن أن يمر أحد بجوار البوابة إلا وتفتح شهيته للأكل. وفي المكتب كان السماور يغلى دائما، وكانا يضيفان الزبائن شايا بالسميط الطازج. ويتردد الزوجان على الحمام مرة فى الأسبوع، ويعودان من هناك متجاورين.

بوجهين أحمرين.

وكانت أولنكا تقول لمعارفهما:

- لا بأس، نعيش جيدا، الحمد لله. فليهب الله الآخرين عيشة كعشتنا أنا وفاسيتشكا.

وعندما كان بوستوفالوف يرحل إلى محافظة موجيليوف لشراء الأخشاب تشعر بوحشة شديدة ولا تنام الليل وتبكى وأحيانا كان يزورها فى المساء طبيب الفوج البيطرى سميرنين، الشاب، القاطن لديها فى الجناح. كان يروى لها شيئا ما أو يلعب معها الورق، فكان ذلك يسرى عنها. وكانت أطرف الروايات هى تلك التى يتحدث فيها عن حياته العائلية. كان متزوجا وله ابن، ولكنه انفصل عن زوجته لأنها خائته، وأصبح الآن يمقتها ويرسل لها كل شهر أربعين روبلا للإفناق على ابنه. وكانت أولنكا إذ تسمع ذلك تنتهد وتهز رأسها، وتشعر بالرثاء له.

- طيب، ليحرسك الله - كانت تقول له وهى تودعه وتمضى معه بالشمعة حتى الدرج - شكرا على مشاركتك لى وحشتى، فلتهبك العذراء الصحة...

كانت تتحدث برزانة، بحكمة، مقلدة زوجها. وعندما يغيب البيطرى وراء الباب فى الأسفل تناديه قائلة:

- أنتدى يا فلاديمير بلاتونيتش، هلا تصالحت مع زوجتك. هلا سامحتها ولو من أجل ابنك!... لا بد أن الصبى يفهم كل شىء.

وعندما يعود بوستوفالوف تحدثه بصوت خافت عن البيطرى وحياته

العائلية التعيسة، فيتهدان.. ويهزان رأسيهما ويتحدثان عن الصبي الذى لا شك يشناق إلى أبيه، ثم وفقا لتسلسل غريب فى الأفكار يقفان كلاهما أمام الأيقونة ويركعان بشدة ويدعوان الله أن يرزقهما أطفالا.

وهكذا عاش آل بوستوفالوف فى هدوء وسكينة وحب ووفاق تام ست سنوات. ولكن حدث ذات شتاء أن خرج فاسيلى أندرييتش من المخزن ليصرف خشبا، بعد أن شرب شايا ساخنا، فأصيب بنزلة برد ومرض. وعالجه أفضل الأطباء، لكن المرض تغلب عليه فمات بعد أربعة أشهر. ومرة أخرى أصبحت أولنكا أرملة.

- لمن تركتنى يا عزيزى الغالى؟- انتحبت بعد أن دفنت زوجها - كيف سأعيش الآن بدونك، أنا البائسة المسكينة؟ أيها الطيبون فلترقوا لحالى، أنا اليتيمة المقطوعة..

أصبحت ترتدى فستانا أسود بأشرطة الحداد، وتخلت تماما عن القبعة والقفاز، وكانت لا تخرج من بيتها إلا نادرا وفقط إلى الكنيسة أو إلى قبر زوجها، وعاشت فى بيتها كراهبة. وفقط بعد مرور ستة أشهر نزعَت أشرطة الحداد وأصبحت تفتح شيش النوافذ. وأحيانا كانوا يرونها صباحا وهى فى طريقها إلى السوق لشراء المؤونة وبصحبتها طاهيتها، ولكن لم يعد أحد يعرف كيف تعيش الآن وما الذى يجرى فى بيتها إلا تخمينا. كانوا يخمنون ذلك مثلا من رؤيتهم لها جالسة فى حديقته الصغيرة تشرب الشاي مع البيطرى بينما يقرأ لها الجريدة، ومن قولها لإحدى معارفها عندما التقت بها فى مكتب البريد:

- ليس لدينا فى المدينة رقابة بيطرية سليمة، ولهذا فالأمراض كثيرة. كثيرا ما نسمع أن الناس يمرضون من اللبن ويصابون بالعدوى من الخيول والأبقار. فى الحقيقة ينبغى أن نهتم بصحة الحيوانات الداجنة مثلما نهتم بصحة الناس.

كانت تردد أفكار البيطرى، وأصبح رأيها فى كل شىء الآن مثل رأيه. كان واضحاً أنها لا تستطيع أن تعيش ولو سنة واحدة دون ارتباط، وقد وجدت سعادتها الجديدة فى جناح بيتها. ولو كانت امرأة غيرها لأدانوها، ولكن لم يكن بوسع أحد أن يفكر بسوء فى أولنكا، وكان كل شىء فى حياتها مفهوماً تماماً. ولم تذكر لا هى ولا البيطرى لأحد شيئاً عن التغير الذى طرأ على علاقتهما، وحاولا إخفاءه ولكنهما أخفقا فى ذلك.. فليس من الممكن أن تكون لدى أولنكا أسرار. وعندما كان يزوره ضيوف، من زملائه فى الفوج كانت أولنكا، وهى تصب لهم الشاى أو تقدم العشاء، تشرع فى الحديث عن طاعون البقر وعن مرض اللؤلؤ، وعن مجازر المدينة، فكان يشعر بالحرَج الشديد، وبعد انصراف الضيوف يقبض على ذراعها ويفح بغضب:

- ألم أطلب منك ألا تتحدثى فيما لا تفهمينه! أرجوك ألا تتدخلى عندما نتحدث نحن البيطريين فيما بيننا هذا فى النهاية شىء ممل!

أما هى فكانت تنظر إليه بذهول وقلق وتساءله:

- فعم إذن أتحدث يا فولودتشكا؟

وتعانقه وعيناها مغرورتان، وتتوسل إليه ألا يغضب، ويظل كلاهما سعيدين.

إلا أن هذه السعادة لم تدم طويلاً. فقد رحل البيطرى مع فوجه، رحل نهائياً، إذ نقل الفوج إلى مكان بعيد جداً، ربما إلى سيبيريا. وأصبحت أولنكا وحيدة.

كانت الآن وحيدة تماماً. فقد توفي والدها منذ زمن بعيد، وأصبح مقعده مطوحاً فى المخزن العلوى يكسوه الغبار وقد فقدت إحدى قوائمه. وهزلت أولنكا وقبحت، ولم يعد من يقابلها فى الطريق ينظر إليها كما فى السابق أو يتسم لها. يبدو أن أفضل سنوات العمر قد ولت وأصبحت خلف ظهرها، وبدأت الآن حياة جديدة، مجهولة، يحسن ألا تفكر فيها. كانت أولنكا

تجلس فى أوقات المساء على الدرج، ويتناهى إلى سمعها عزف الموسيقى وانفجار الصواريخ النارية فى «التيفولى»، بيد أن ذلك لم يعد يثير لديها أية أفكار. وكانت تنظر بلا اكتراث إلى فنائها الخاوى دون أن تفكر أو ترغب فى شىء، وعندما يأتى الليل تذهب إلى فراشها وترى فى المنام فناءها الخاوى. وكانت تأكل وتشرب كأنما قسرا.

أما المهم، وأسوأ ما فى الأمر، أنه لم تعد لديها أية آراء. كانت ترى من حولها الأشياء، وتذكر كل ما يجرى حولها، لكنها لم تكن قادرة على تكوين رأى فى أى شىء ولا تعرف عم تتحدث. وما أقطع أن تكون بلا أى رأى! ترى مثلا زجاجة أمامك، أو المطر يسقط، أو فلاحا راكبا عربة، ولكن لأى غرض هذه الزجاجة، أو المطر، أو الفلاح، وما مغزى ذلك، هذا ما لا تستطيع أن تقوله، ولن تستطيع ولو دفعوا لك ألف روبل. عندما كانت أولنكا مع كوكين وبوستوفالوف، ثم بعد ذلك مع البيطرى، كان بوسعها أن تشرح كل شىء وتدللى برأيها فى أى شأن مهما كان، أما الآن فكان فى أفكارها وقلبها نفس الخواء الذى فى الفناء. وكان ذلك فظيعا ومريرا كأنما أكلت حنظلا حتى الشبع.

اتسعت المدينة شيئا فشيئا فى جميع الاتجاهات. وأصبحت محلة الغجر تسمى الآن شارعاً، وفى المكان الذى كانت تقوم فيه حديقة ملاهى «التيفولى» ومخازن الأخشاب، قامت المنازل وظهرت عدة حارات. ما أسرع مرور الزمن! ازداد منزل أولنكا قتامة، وصدئ سطحه، ومالت الحظيرة وغطى الحسك والأرقطيون الشائك أرض الفناء. أما أولنكا نفسها فهربت وقبحت. وفى الصيف تجلس على الدرج وتشعر فى نفسها كما فى السابق بالخواء، والضجر ومرارة الحنظل، وفى الشتاء تجلس إلى النافذة وتنظر إلى الثلج. وما إن تهب أنفاس الربيع، أو تحمل الريح رنين أجراس الكنائس حتى تنهال عليها فجأة ذكريات الماضى، وينقبض قلبها بلذة، وتنهمر من عينيها الدموع الغزيرة، ولكن ذلك لا يستمر غير دقيقة ومن بعدها الخواء، ولا تعود تدري لماذا تعيش.

وتتوحد إليها قطتها السوداء «بريسكا» وتهر بصوت ناعم، ولكن ملاطفة القطة هذه لا تحرك في نفس أولنكا شيئاً. فهل هذا هو ما تبغيه؟ إنها بحاجة إلى حب يملك كل كيائها، كل روحها وعقلها، حب يهبها الأفكار واتجاه الحياة، ويدفع دمها الهرم. فتنفض «بريسكا» السوداء عن حجرها وتقول لها بأسى:

- امشى، امشى... ابتعدى عني!

وهكذا.. يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام، دون فرحة واحدة، دون أى رأى. وما تقوله الطاهية مافرا فهو حسن.

و ذات يوم حار من شهر يوليو، قبيل المساء عندما ساقوا قطع ماشية المدينة فى الشارع فامتلاً الفناء بالغبار طرق أحدهم البوابة فجأة. وذهبت أولنكا لتفتح بنفسها، وما إن نظرت حتى ذهلت: فخلف البوابة وقف البيطرى سيميرنين، وقد أصبح أشيب، وفى بدلة مدنية. تذكرت فجأة كل شىء، فلم تتمالك نفسها وأجهشت بالبكاء ووضعت رأسها على صدره دون أن تقول كلمة واحدة، ولم تلاحظ فى قمة انفعالها كيف دخلا البيت معاً، وكيف جلسا ليشربا الشاي.

وأخذت تدمدم وهى ترتعش من الفرحة:

- يا عزيزى الغالى! يا فلاديمير بلاتونيتش! من أين بعثك الله؟

- أريد أن أستقر هنا بصفة دائمة. مضى يحدثها. قدمت استقالتى وجئت أجرب حظى فى حياة الحرية، لكى أعيش حياة استقرار. كما أن الوقت حان لإدخال ابنى المدرسة. لقد كبر. أتدرين، لقد تصالحت مع زوجتى.

فسألته أولنكا:

- وأين هى؟

- إنها مع ابنى فى الفندق، وها أنا ذا أبحث عن شقة.

- يا إلهى، ماذا تقول، خذوا بيتى! ألا يصلح لكم كشقة؟ يا إلهى، لن آخذ منكم شيئاً. وهاجت مشاعر أولنكا فبكت من جديد. أية فرحة، يا إلهى!

فى اليوم التالى كانوا يطلون سطح البيت ويبيضون الجدران، بينما كانت أولنكا تروح وتجىء فى الفناء، ويدها فى خصرها، وتصدر التعليمات. وتهلل وجهها بابتسامته السابقة، أما هى فدبت فيها الحياة وانتعشت، وكأنما استيقظت من نوم طويل. وجاءت زوجة البيطرى، سيدة نحيفة قبيحة، بشعر قصير وتعبير نزق، ومعها الصبى ساشا، وكان يبدو أصغر من سنة (كان فى عامه العاشر)، ممتلئاً، بعينين زرقاوين صافيتين وغمازتين فى خديه. وما إن دخل الفناء حتى ركض وراء القطة، وعلى الفور ترددت ضحكاته المرححة الفرحة.

وسأل أولنكا:

- يا عمه، هل هذه قطتك؟ عندما تلد أهدينا من فضلك قطا. ماما تخاف جدا من الفئران.

وتحدثت أولنكا معه، وسقته شايا، وأصبح قلبها دافئا فجأة وانقبض بلذة، وكأنما كان هذا الصبى ابنها الحبيب. وعندما جلس مساء فى غرفة الطعام تراجع دروسه، نظرت إليه بتأثر وهمست بإشفاق:

- يا عزيزى الغالى، ما أجملك.. يا سلام يا ولدى، كيف خلقتك المولى بهذا الذكاء وهذا البياض.

وقرأ الصبى:

- الجزيرة هى ذلك الجزء من اليابسة الذى تحيطه المياه من جميع الجهات.

- الجزيرة هى ذلك الجزء من اليابسة... رددت هى - وكان ذلك أول رأى تدلى به بثقة بعد هذه السنوات الطويلة من الصمت وخواء الأفكار.

وأصبحت لها آراؤها، وكانت تتحدث أثناء العشاء مع والدى ساشا عن مدى صعوبة الدراسة الآن فى المدارس الثانوية بالنسبة للأطفال، وعن أن التعليم الكلاسيكى أفضل من التعليم العملى، لأن الطريق من المدرسة

الكلاسيكية مفتوح إلى كل مكان: فإذا شئت فلتصبح طبيبا وإذا شئت فلتصبح مهندسا.

وبدا ساشا يتردد على المدرسة. وسافرت أمه إلى أختها في مدينة خاركوف ولم تعد بعد، وكان أبوه يرحل كل يوم إلى جهة ما ليتفقد القطعان، فيتغيب عن البيت أحيانا ثلاثة أيام، فخبيل لأولنكا أن ساشا أصبح مهجورا تماما، لا حاجة لأحد به، وأنه يهلك جوعا. فأخذته إليها في الجناح وأنزلته هناك في غرفة صغيرة.

وها قد مر نصف عام منذ أن استقر ساشا عندها في الجناح. وكل صباح تدخل أولنكا غرفته فتجده يغط في نوم عميق، وقد وضع يده تحت خده. وتشعر بالإشفاق من إيقاظه.

وتقول بحزن:

- ساشنكا، انهض يا عزيزى! حان موعد المدرسة. فينهض، ويرتدى ملابسه، ويصلى، ثم يجلس لتناول الشاي. ويشرب ثلاثة أكواب ويأكل سميطتين كبيرتين ونصف رغيف إفرنجى بالزبد. ومزاجه معتل لأنه لم يستيقظ بعد تماما.

- إنك يا ساشنكا لم تحفظ الخرافة جيدا. تقول أولنكا وهي تنظر إليه كأنها تودعه في سفر طويل - كم أنا قلقة عليك. اجتهد يا عزيزى في المدرسة... أطلع المدرسين.

فيقول ساشا:

- أوه، كفى أرجوك!

وبعد ذلك يسير في الشارع قاصدا المدرسة، صغيرا ولكن في عمرة كبيرة، والحقيقية المدرسية على ظهره. ومن خلفه تسير أولنكا بخطوات خفيفة.

وتناديه:

- يا ساشنكا!

فيلتفت، فتدس في يده بلحه أو حبة كراملة. وعندما ينعطفان إلى الحارة التي تقع فيها المدرسة، يشعر بالخجل من أن امرأه طويلة عريضة تسير خلفه. فيلتفت ويقول لها:

- عودي يا عمة إلى البيت، وسأصل الآن بنفسى.

فتتوقف وتنظر في أثره دون أن تطرف إلى أن يختفى خلف باب المدرسة. أوه، كم تحبه! لم تكن أى من عواطفها السابقة بمثل هذا العمق، ولم تدعن روحها من قبل أبداً بمثل هذا التفانى والتجرد والبهجة كما أذعنت الآن عندما تأججت فيها أكثر فأكثر مشاعر الأمومة. فمن أجل هذا الصبي الغريب عنها، من أجل غمازتى خديه، من أجل عمرته، كانت على استعداد لأن تقدم كل حياتها، تقدمها في سرور ودموع التأثير في عينيها. لماذا؟ ومن ذا يعلم لماذا؟

وبعد أن توصل ساشا إلى المدرسة تعود إلى البيت في هدوء وهى راضية، قريرة، فياضة الحب. ويتسم وجهها الذى عاد إليه الشباب فى نصف السنة الأخير ويشع. ويشعر المارة وهم ينظرون بالرضى ويقولون لها:

- مرحباً أولجا سيميونفنا الحبوبة! كيف حالك يا حبوبة؟

وتقول وهى فى السوق:

- أصبحت الدراسة فى المدارس صعبة الآن، بالأمس مثلاً أعطوا للتلاميذ فى الصف الأول واجباً: أن يحفظوا خرافة، وترجموا من اللاتينية، ويحلوا مسألة... فهل يقوى الطفل على ذلك؟..

وتشرع فى الحديث عن المدرسين، وعن الدروس، وعن الكتب المدرسية، فتردد ما يقوله ساشا عن ذلك.

وفى الساعة الثالثة يتناولان الغداء، وفى المساء يحضران الدروس معا ويكيان. وعندما تضعه فى السرير توسم طويلاً علامة الصليب وتهمس

بالصلوات، ثم تأوى إلى النوم فتحلم بالمستقبل، المستقبل البعيد الغامض،
عندما يتخرج ساشا فيصبح طبيباً أو مهندساً، ويقتنى منزلاً كبيراً وخيولاً وعربة،
ويتزوج ويولد له أولاد... وتنعمس وهى تفكر فى ذلك، وتسيل الدموع على
خديها من عينيها المغمضتين. وترقد القطة السوداء بجوارها وتهر:

- هرر.. هرر.. هرر.. هرر..

وفجأة يدوى طرق شديد على باب الفناء. وتستيقظ أولنكا محتبسة الأنفاس
من الخوف. ويدق قلبها بعنف. ويمر نصف دقيقة وتردد الطرق ثانية.

«إنها برقية من خاركوف.. تفكر ويدأ بدنها كله يرتجف.. أم ساشا تستدعيه
إليها فى خاركوف.. يا إلهى!».

ويتملكها اليأس. وتتلجج رأسها وساقاها ويذاها، ويبدو لها أنه لا يوجد
من هو أتعس منها فى الدنيا كلها. ولكن ها هى ذى دقيقة أخرى تمر، وتسمع
أصواتاً: إنه البيطرى قد عاد من النادى.

فتقول لنفسها: «الحمد لله».

وشيئاً فشيئاً يخف الثقل عن قلبها، وتشعر مرة أخرى بالراحة. وترقد
وتفكر فى ساشا الذى يغط فى نوم عميق فى الغرفة المجاورة، ويردد أحياناً
فى نومه:

- مهلا سأريك! امش من هنا! لا تتشاجر!

اللعوب

١

شهد زفاف أولجا إيفانوفنا كل أصدقائها ومعارفها الطيبين.

- انظروا إليه، أليس صحيحا أن فيه شيئا ما؟- قالت لأصدقائها وهى تومئ إلى زوجها وكأنما تريد أن توضح لهم لماذا تزوجت هذا الرجل البسيط والعادى للغاية والذي ليس فيه أى شىء مميز.

وكان زوجها أوسيب ستياننش ضيموف طبيبا يحمل لقب المستشار الاعترارى^(١). وكان يعمل فى مستشفىين، فى إحداهما طبيبا ممارسا متدبا، وفى الآخر طبيب مشرحة. وكان يستقبل المرضى ويعمل فى العنبر يوما من التاسعة صباحا حتى منتصف النهار، وبعد الظهر يتوجه بالعربة إلى المستشفى الآخر حيث يشرح من يتوفى من المرضى. وكان دخله من الممارسة الخاصة ضئيلا، لا يتعدى خمسمائة روبل فى العام. وهذا كل ما هنالك. فما الذى يمكن أن نضيفه عنه؟ بينما كانت أولجا إيفانوفنا وأصدقائها ومعارفها الطيبون أناسا غير عاديين أبدا. كان كل منهم يتميز بشىء ما، ومعروفا قليلا، وله اسمه وشهرته، أو إذا لم يكن بعد مشهورا فقد كان يبشر بآمال رائعة. كان هناك ممثل من مسرح الدراما، موهبة كبيرة، معترف بها منذ زمن ورجل رشيق، ذكى ومتواضع وأستاذ ممتاز فى الإلقاء كان يعلم أولجا إيفانوفنا فن الإلقاء. ومعنى أوبرا... رجل بدين

(١) المستشار الاعترارى من الرتب المدنية الدنيا فى روسيا القيصرية. (المعرب).

طيب، كان يؤكد لأولجا إيفانوفنا متنها أنها تقضى على نفسها، فلو لم تركن إلى الكسل، وحزمت أمرها لأصبحت مغنية رائعة. وكان هناك أيضا عدد من المصورين وعلى رأسهم ريبافوسكى مصور المواضيع والحيوانات والمناظر.. شاب أشقر، جميل جدا فى حوالى الخامسة والعشرين من عمره، حقق نجاحا فى المعارض وباع لوحته الأخيرة بخمسمائة روبل. كان يصحح لأولجا إيفانوفنا رسوماتها ويقول إنها ربما بلغت شيئا ما. وكان هناك أيضا عازف الفيلونسلو الذى كانت آلته تتحب، والذى اعترف صراحة بأنه من بين جميع من يعرفهن من النساء لا توجد من تستطيع مصاحبته فى العزف سوى أولجا إيفانوفنا وكان هناك أديب، شاب ولكنه معروف، يكتب الروايات والمسرحيات والقصص القصيرة. ثم من أيضا؟ نعم، كان هناك فاسيليتش، السيد الإقطاعى، المصور الهاوى والمزخرف، والذى كان يجيد تذوق الأسلوب الروسى القديم والروايات الشعبية والملاحم. وكان يصنع المعجزات على الورق والخزف والأطباق المدخنة. ووسط هذه الجماعة الأرستقراطية الحرة التى دللها القدر، وإن كانت مهذبة ومتواضعة، هذه الجماعة التى لم تكن تتذكر وجود أطباء ما إلا ساعة المرض، والتى كان اسم ضيموف لا يثير اهتمامها تماما كأسماء مثل سيدروف أو ساراتوف.. وسط هذه الجماعة كان ضيموف يبدو غريبا ونشازا وصغيرا، رغم أنه كان طويل القامة عريض المنكبين. وبدا كأنه يرتدى حلة ليست له، وأن له لحية خولى. وعموما فلو أنه كان كاتباً أو مصورا لقالوا إن لحيته تذكر بالأديب زولا.

وكان الممثل يقول لأولجا إيفانوفنا إنها بشعرها الكتانى وفى ثوب الزفاف تشبه إلى حد كبير شجرة كرز رشيقة عندما تغطيها الأزهار البيضاء الرقيقة تماما فى الربيع.

وقالت له أولجا إيفانوفنا وهى تقبض على يده:

- كلا، بل اسمع! كيف أمكن أن يحدث ذلك فجأة؟ اسمع، اسمع.. ينبغي

أن أقول لك إن أبى كان يعمل مع ضيموف فى مستشفى واحد. وعندما مرض أبى المسكين ظل ضيموف مرابطا إلى جوار سريريه ليل نهار. أوه، يا اللتفانى! أسمع يا ربابوفسكى.. وأنت يا حضرة الأديب أسمع، فهذا طريف جدا. اقترب منا. يا اللتفانى والمشاركة المخلصة! أنا أيضا لم أنم الليالى جالسة بجوار أبى، وفجأة.. أهلا، انتصرت على الفارس الشجاع! غرق ضيموف فى حى حتى أذنيه. حقا ما أغرب تصاريق القدر. حسنا، بعد وفاة والدى كان يزورنى أحيانا ويلقانى فى الشارع، وذات مساء رائع، هوب! طلب يدى.. وكان لذلك وقع الصاعقة على.. قضيت الليل كله فى النحيب ووجدت نفسى أحبه بجنون. وها قد أصبحت كما ترون زوجة. أليس صحيحا أن فيه شيئا ما قويا، هائلا، شيئا من الدببة؟ إن وجهه الآن لا يبدو لنا من هنا كاملا، والإضاءة ضعيفة، ولكن عندما يلتفت انظروا إلى جبينه. ماذا تقول فى هذا الجبين يا ربابوفسكى؟- وصاحت بزوجها- يا ضيموف، إننا نتحدث عنك! تعال هنا. مد يدك الشريفة إلى ربابوفسكى.. نعم هكذا. فلتكونا صديقين.

ومد ضيموف يده إلى ربابوفسكى وهو ينسم ببشاشة وسذاجة وقال:

- سعيد جدا. لقد تخرج معى شخص يدعى ربابوفسكى، أليس قريبك؟

٢

كانت أولجا إيفانوفنا فى الثانية والعشرين من عمرها بينما كان ضيموف فى الحادية والثلاثين. وعاشا بعد الزفاف حياة رائعة. وغطت أولجا إيفانوفنا جدران غرفة الجلوس كلها برسوماتها ورسومات الآخرين، فى أطر وبدون أطر، وصنعت بجوار البيانو والأثاث ازدحاما جميلا من المظلات الصينية والحوامل والخرق الملونة والخناجر والتمائيل النصفية والصور.. وغطت جدران

غرفة الطعام برسومات «اللوب» وعلقت على الجدران أحذية «اللابتي»^(١) والمناجل، ووضعت فى أحد الأركان محصدة ومجرفة، فأصبحت غرفة طعام على الطراز الروسى. أما غرفة النوم فأرادت أن تجعلها تشبه الكهف فكست السقف والجدران بقماش داكن، وعلقت فوق الأسرة مصباحا من طراز مصابيح البندقية ووضعت بجوار الباب تمثالا يحمل رمحا برأس بلطة. وقال الجميع إن لدى الزوجين الشابين ركنًا لطيفا.

وعندما تنهض أولجا إيفانوفنا من الفراش كل صباح فى الساعة الحادية عشرة تلعب على البيانو، أو إذا كان النهار مشمسًا، ترسم شيئًا ما بألوان الزيت. ثم ترحل بعد الثانية عشرة إلى خياطتها. ولما كانت نقودها هى وضيوف قليلة وتكفى بالكاد فقد لجأت هى وخياطتها إلى الحيلة لكى تبدو كثيرًا فى أزياء جديدة وتبهر الناس بفساتينها. وكثيرًا جدًا ما كان يخرج من الفستان القديم المعاد صبغه ومن قطع الدانتلا والقטיפه والحريز التى لا قيمة لها معجزات حقيقية، شىء ما خلاّب، ليس فستانًا بل حلمًا. ومن الخياطة كانت أولجا إيفانوفنا توجه عادة إلى إحدى معارفها من الممثلات لتعرف أخبار المسرح وبالمناسبة تدبر أمر بطاقة لأول عرض لمسرحية جديدة أو بنفيس. ومن الممثلة كان عليها أن تذهب إلى مرسم مصور أو إلى معرض صور، ثم إلى أحد المشهورين لتدعوه لزيارتهم أو لترد الزيارة أو لمجرد الثثرة. وفى كل مكان كانوا يستقبلونها بمرح ومودة ويؤكدون لها أنها جميلة ورقيقة ونادرة.. وأولئك الذين كانت تسميهم بالمشهورين أو العظام كانوا يستقبلونها كواحدة منهم، على قدم المساواة، ويتنبأون لها فى صوت واحد بأنها بمواهبها وذوقها وذكاؤها يمكن أن تصبح ذات شأن كبير إذا لم تبثر قواها. لقد كانت تغنى وتعزف على البيانو وترسم بالألوان وتشكل الصلصال وتشترك فى تمثيليات الهواة، ولكنها لم تكن تفعل ذلك كيفما كان، بل بموهبة. وسواء أكانت تصنع

(١) صور «اللوب» هى لون من التصوير الشعبى بالألوان على ألواح خشبية، وأحذية «اللابتي» أحذية فلاحية قديمة كانت تصنع من لحاء الشجر. (المعرب).

المصاييح للزينات، أم تتزين، أم تعقد ربطة العنق لشخص ما.. فقد كان كل شيء يخرج من بين يديها بفن ورشاقة ولطف لا مثيل له. ولكن موهبتها لم تتجل في أى شيء بمثل هذا السطوع كما تجلت في قدرتها على التعارف بسرعة والتقرب من مشاهير الناس. فما إن يشتهر شخص ما ولو قليلا، وما إن يجعل الناس تتحدث عنه حتى تتعرف به على الفور وتتصادق معه في نفس اليوم وتدعوه لزيارتها. وكان كل تعارف جديد عيدا حقيقيا بالنسبة لها. كانت تعبد المشاهير وتفخر بهم وتراهم كل ليلة في الحلم. كانت متعطشة إليهم ولم تستطع أبدا أن تروى ظمأها. كان القدامى يرحلون أو يطويهم النسيان، ويأتى محلهم آخرون جدد، ولكنها كانت تعتاد عليهم بسرعة أو يخيب أملها فيهم فتبدأ في البحث بنهم عن الجديد والجديد من المشاهير فتجدهم، ثم تعود تبحث ثانية. لأى شيء؟

وبعد الرابعة كانت تتغدى في البيت مع زوجها. كانت بساطته وتفكيره الراجح وطيبة قلبه تثير تأثرها وإعجابها. فكانت من حين لآخر تهب واقفة وتعانق رأسه بتأثر وتغمره بالقبلات.

كانت تقول له:

- أنت يا ضيموف إنسان ذكى، نبيل. ولكن فيك عيبا واحدا خطيرا جدا. أنت لا تهتم أبدا بالفن. أنت تنكر الموسيقى والتصوير.

فيقول باستكائة:

- أنا لا أفهمهما. لقد اشتغلت طوال حياتى بالعلوم الطبيعية والطب ولم يكن لدى وقت للاهتمام بالفنون.
- ولكن هذا فظيع يا ضيموف!

- لماذا؟ إن معارفك لا يعرفون العلوم الطبيعية والطب، ولكنك لا تعين عليهم ذلك. لكل شخص ما يخصه. أنا لا أفهم المناظر أو الأوبرات، ولكنى

أفكر هكذا: إذا كان بعض الناس الأذكياء يكرسون لها حياتهم كلها، وبعض الناس الأذكياء الآخرين يدفعون مقابلها مبالغ ضخمة، إذن فهي ضرورية. إنني لا أفهمها ولكن عدم الفهم لا يعنى الإنكار.

- دعنى أشد على يدك الشريفة!

وبعد الغداء كانت أولجا إيفانوفنا تذهب إلى معارفها، ثم إلى المسرح أو إلى حفلة موسيقية، وتعود إلى البيت بعد منتصف الليل. هكذا كل يوم.

وفى أيام الأربعاء كانت تقيم حفلات. وفى هذه الحفلات لم تكن ربة البيت أو الضيوف يلعبون الورق أو يرقصون، بل يسرون عن أنفسهم بشتى الألوان الفنية. فكان فنان مسرح الدراما يلقي، والمغنى يغنى، والمصورون يرسمون فى الألبومات التى كانت أولجا إيفانوفنا تحتفظ بعدد ضخم منها، وعازف الفيولنسلو يعزف، أما ربة الدار فكانت أيضا ترسم وتشكل الصلصال وتغنى وتصاحب العازفين والمغنين.

وفى فترات الراحة ما بين الإلقاء والعزف والغناء كانوا يتحدثون ويتناقشون فى الأدب والمسرح والتصوير. ولم تكن هناك نساء، لأن أولجا إيفانوفنا كانت تعتبر جميع النساء، ما عدا الممثلات وخياطتها مملات ومبذلات. ولم تكن حفلة تمر دون أن تنتفض ربة الدار لدى كل قرع لجرس الباب، ودون أن تقول بتعبير انتصار على وجهها: «هذا هو!» وهى تعنى بـ «هو» شخصية شهيرة جديدة دعته إلى الحفلة. لم يكن ضيموف يبقى فى غرفة الاستقبال، ولم يكن أحد يتذكر غيابه. ولكن فى الحادية عشرة والنصف تماما كان الباب المفضى إلى غرفة الطعام يفتح، ويظهر ضيموف بابتسامته البشوش المستكينة ويقول وهو يفرك راحتيه:

- تفضلوا إلى المائدة يا سادة.

فيسير الجميع إلى غرفة الطعام ويرون فى كل مرة نفس الأشياء على

المائدة: طبق «أم الخلول»، وقطعة من الخنزير أو العجل، وسردين وجبن وكافيار وفطر وفودكا ودورقان من النيذ.

وتقول أولجا إيفانوفنا وهي تشيح بيديها من الإعجاب:

- آه يا متردوتيلي العزيز! أنت ساحر! انظروا يا سادة إلى جبينه! ضيموف، استدر إلينا بجانب وجهك. انظروا يا سادة: وجه نمر بنغالي، بينما التعبير طيب ورقيق كأنه لغزال. أوه يا حبيبي!

ويأكل الضيوف وهم يتطلعون إلى ضيموف ويفكرون: «بالفعل، إنه شاب رائع»، ولكنهم سرعان ما ينسونه، ويواصلون الحديث عن المسرح والموسيقى والتصوير.

كان الزوجان الشابان سعيدين، وسارت حياتهما على أروع ما يكون. ولكن الأسبوع الثالث من شهر العسل لم يمض في سعادة تامة، بل مضى في حزن، فقد مرض ضيموف بعدوى الحمرة ولزم الفراش ستة أيام، واضطر أن يحلق تماما شعره الأسود الجميل. وجلست أولجا إيفانوفنا إلى جواره وبكت بحرقة، ولكن عندما تحسنت حالته قليلا، وضعت على رأسه الحليق منديلا أبيض، وراحت ترسم عنه صورة بدوي. وشعر كلاهما بالمرح. وبعد ثلاثة أيام من شفائه وتردده ثانية على المستشفى وقع له حادث جديد.

- إنني سيئ الحظ يا ماما. قال ذات مرة على الغداء - كان لدى أربع عمليات تشريح اليوم فجرحت أصبعين دفعة واحدة. ولم ألحظ ذلك إلا في المنزل.

وخافت أولجا إيفانوفنا. فابتسم وقال إن هذا شيء تافه وإنه كثيرا ما يجرح أصابعه أثناء التشريح.

إنني أنهمك في التشريح يا ماما فأصبح شاردا.

وراحت أولجا إيفانوفنا تتوقع عدوى الجثة بقلق وتصلى لله في الليل،

ولكن كل شيء مر على ما يرام. ومن جديد سارت حياتهما هادئة سعيدة بلا أحزان أو هموم.. كان الحاضر رائعا، واقترب الربيع ليحل محله وهو يتسم من بعيد ويشر بألف فرحة. ولن تكون للسعادة نهاية! سينقضى أبريل ومايو ويونيو في البيت الريفي البعيد عن المدينة، وفي التريض والرسم وصيد السمك وسماع غناء البلابل، وبعد ذلك، ومن يوليو حتى الخريف ستكون رحلة للمصورين في نهر الفولجا. وفي هذه الرحلة سوف تشارك أولجا إيفانوفنا باعتبارها عضوا أساسيا في الـ «سوسيتي»^(١). وقد أعدت لنفسها بالفعل ثوبى سفر من الخيش، وابتاعت ألوانا وفرشا وقماش رسم ولوحة ألوان جديدة. وأصبح ريبوفسكى يتردد عليها كل يوم تقريبا لكي يرى مدى التقدم الذى أحرزته فى التصوير. وعندما كانت تعرض عليه رسومها، كان يدفع يديه عميقا فى جيبي سرواله، ويزم شفثيه بقوة ويشن بأنفه ثم يقول:

- هكذا.. هذه السحابة عندك تصرخ.. ليست مضاء بضوء الغروب. المنظر الأمامى ممضوغ قليلا، وليس بالشكل المطلوب يعنى.. أما المنزل فقد ضغط عليه شيء ما وهو لذلك يعول متوجعا.. هذا الركن ينبغي رسمه بصورة أدكن قليلا. وعموما فلا بأس.. أثنى عليك.

وكلما ازدادت كلماته غموضا، سهل على أولجا إيفانوفنا أن تفهمه.

٣

فى اليوم التالى لعيد العنصرة بعد الغداء اشترى ضيموف مزارات وحلوى ورحل إلى زوجته فى البيت الريفي. لم يكن قد رآها منذ أسبوعين واشتاق إليها كثيرا. وعندما كان جالسا فى عربة القطار، وبعد ذلك عندما كان يبحث عن داره فى الغيضة الكبيرة، كان يشعر دائما بالجوع والتعب ويحلم بالعشاء

(١) الجماعة (بالفرنسية فى الأصل).

مع زوجته فى حرية ثم بالخلود إلى النوم. وأحسن بالمرح وهو ينظر إلى اللفة التى يحملها وبها الكافيار والجبن والسبك الأبيض.

وعندما وجد دارة وتعرف عليها كانت الشمس تميل نحو المغيب. وقالت الخادم العجوز إن السيدة ليست فى الدار ومن المفروض أن تعود قريبا. لم يكن منظر الدار جذابا أبدا. كان بها ثلاث غرف فقط، وأسقفها منخفضة ومغطاة بورق أبيض وأرضيتها مشققة وغير مستوية. وكان فى إحدى الغرف سرير، وفى الثانية تراكت الغرش وقماش الرسم والأوراق المشحمة والمعاطف والقبعات الرجالية على الكراسى. وفى الغرفة الثالثة وجد ضيوف ثلاثة رجال لا يعرفهم. كان اثنان منهم أسودى الشعر ويلبى صغيرة، أما الثالث فكان حليقا تماما وبدينا، ويبدو أنه ممثل. وعلى المائدة كان السماور يغلى.

وسأل الممثل ضيموف بصوت غليظ وهو يتفحصه بنظرة غير ودود.

- ماذا تريد؟ هل تريد أولجا إيفانوفنا؟ انتظر، سوف تأتى قريبا.

وجلس ضيموف وراح ينتظر. وتطلع إليه أحد الرجلين الأسودى الشعر بكسل وتراخ وسأله وهو يصب لنفسه شايًا:

- ربما تريد شايًا؟

كان ضيموف يريد أن يشرب وأن يأكل، ولكنه امتنع عن تناول الشاي لكيلا يفسد شهيته. وسرعان ما تردد وقع خطوات وتناهى الضحك المألوف. واصطفق الباب واندفعت أولجا إيفانوفنا إلى داخل الغرفة وهى ترتدى قبعة عريضة الحواف وتحمل فى يدها صندوقا، ودخل وراءها ريبوفسكى مرحا، أحمر الوجه يحمل مظلة كبيرة وكرسيا مطويا.

وصاحت أولجا إيفانوفنا وتضرجت من الفرحة:

- ضيموف! ضيموف!- رددت وهى تضع يديها ورأسها على صدره - أهو أنت! لماذا لم تأت طوال هذه المدة؟ لماذا؟ لماذا؟.

- متى أستطيع يا ماما؟ إننى مشغول دائما، وعندما أفرغ قليلا أجد مواعيد القطارات غير مناسبة دائما.

- أوه كم أنا مسرورة برؤياك! حلمت بك طوال الليل، وخفت أن تمرض. أه لو تعرف كم أنت غال وكم جئت فى الوقت المناسب! ستكون مخلصى. أنت الوحيد الذى يستطيع أن ينقذنى!- ومضت تقول وهى تضحك وتربط لزوجها ربطة العنق - ستقام هنا حفلة زفاف طريفة للغاية. سيتزوج عامل البرق فى المحطة، المدعو تشيكيلديف. وهو شاب جميل، ليس غيبا، وفى وجهه، أتدرى.. شىء ما قوى، شىء من الدبية.. يمكن أن ترسم منه شابا من النورماندين. ونحن المصطفافين جميعا نشاركه الفرحه وأعطيناه كلمة شرف أن نشهد العرس.. إنه شخص غير ثرى ووحيد وخجول، وحرام بالطبع ألا نشاركه فرحته. تصور، الزفاف بعد الصلاة مباشرة، ثم سيتوجه الجميع من الكنيسة سيرا على الأقدام إلى شقة العروس.. أتفهم.. الغيضة، وصدح الطيور، وبقع الشمس على العشب، ونحن جميعا نسير كالبقع الملونة على خلفية خضراء زاهية.. شىء طريف للغاية، حسب ذوق الانطباعيين الفرنسيين - ثم سألت وأكسبت وجهها تعبيراً باكياً - ولكن يا ضيموف ماذا أرتدى للكنيسة؟ ليس لدى شىء هنا، ليس لدى شىء إطلاقاً! لا فساتين ولا أزهار، ولا قفازات.. عليك أن تنقذنى. إذا كنت قد جئت فإن القدر قد أرسلك لتنقذنى. خذ يا عزيزى المفتاح وارحل إلى المنزل وخذ من الصوان فستانى الوردى. أنت تذكره، إنه أول فستان على المشجب.. وفى غرفة المخزن سترى إلى اليمين على الأرض علبتين من الكرتون. تفتح العلبة العليا فتجدها مليئة بالدانتلا وقطع القماش المختلفة، وتحتها الأزهار. أخرج الأزهار كلها بحذر، وحاول يا روحى ألا تجعدها، وسوف أختار منها.. واشتر قفازا.

فقال ضيموف:

- حسنا، سأرحل غدا وأرسلها لك.

فتساءلت أولجا إيفانوفنا وهي تنظر إليه بدهشة:

- متى غدا؟ متى تلحق غدا؟ غدا يمضى أول قطار فى التاسعة، والزفاف فى الحادية عشرة. كلا يا عزيزى، بل اليوم، لا بد اليوم! إذا لم يكن فى وسعك أن تأتى غدا أرسلها مع رسول. حسنا، أذهب إذن.. سيأتى القطار الآن. لا تتأخر يا روى.

- حسنا.

فقالت أولجا إيفانوفنا والدموع تترقرق فى عينيها:

- آه، كم يحزننى أن ترحل! يا لى من حمقاء! لماذا وعدت عامل البرق؟

وشرب ضيموف كوبا من الشاي بسرعة، وأخذ سميطة، وابتسم باستكانة، ثم اتجه إلى المحطة. أما الكافيار والجبن والسمك الأبيض فقد أكله صاحبا الشعر الأسود والممثل.

٤

فى ليلة هادئة مقمرة من ليالى يوليو وقفت أولجا إيفانوفنا على ظهر مركب من مراكب الفولجا ومضت تنظر تارة إلى المياه وتارة إلى الشواطئ الجميلة. ووقف ريبافوسكى إلى جوارها وهو يقول لها إن الظلال السوداء فى الماء ليست ظلالا، بل حلما، وإنه عند رؤية هذه المياه الساحرة ذات البريق الخيالى، وعند رؤية السماء اللانهائية والشواطئ الحزينة المتأمللة التى تتحدث عن باطل حياتنا وعن وجود شيء ما سام وخالد، ومقدس، يجدر بالمرء أن يندثر، أن يموت، أن يصبح ذكرى. فالماضى مبتذل وليس طريفا، والمستقبل نافه، أما هذه الليلة الرائعة، الليلة الوحيدة فى العمر كله فسرعان ما تنتهى وتتحد بالخلود - فلماذا العيش؟

وكانت أولجا إيفانوفنا تصغى تارة لحديث ريبوفسكى وتارة لسكون الليل
وهى تفكر فى أنها خالدة ولن تموت أبدا. وحدثها لون المياه الفيروزى، الذى
لم تره من قبل أبدا، والسماء، والشيطان والظلال السوداء والفرحة الغامرة
التي ملأت روحها بأنها ستصبح مصورة عظيمة، وأنه هناك فى مكان ما،
وراء الأفق، وخلف الليلة المقمرة، فى الفضاء اللامتناهى، ينتظرها النجاح
والشهرة وحب الشعب.. وعندما حدثت طويلا فى الأفق وهى لا تطرف خيل
إليها أنها ترى جموع الشعب والأضواء وأنغام الموسيقى المهيبة، وصيحات
الإعجاب، وكانت هى نفسها فى رداء أبيض، بينما انهالت عليها الأزهار من
جميع الجهات. وجال بخاطرها أيضا أنه يقف إلى جوارها مرتكزا على الحاجز
إنسان عظيم حقيقة، عبقرى، من الذين اختارهم الله.. كل ما أبدعه حتى الآن
رائع وجديد وغير عادى، وكل ما سوف يبدعه فى المستقبل، عندما يشند عوده
وترسخ موهبته الفريدة، سيكون باهرا وساميا إلى ما لا نهاية، وهذا واضح من
وجهه وطريقة تعبيره ومن نظراته إلى الطبيعة. فهو يتحدث عن الظلال، وألوان
المساء وبريق القمر بطريقة خاصة، وبكلماته هو، بحيث تشعر لا إراديا بسحر
سلطانه على الطبيعة. أما هو نفسه فجميل جدا، وفريد، وحياته حرة، مستقلة،
بعيدة عن أمور المعيشة وتشبه حياة طائر.

وقالت أولجا إيفانوفنا:

- الجو مال إلى البرودة.

وانتفضت.

ودثرها ريبوفسكى بردائه وقال بحزن:

- إننى أشعر أننى تحت سيطرتك. إننى عبد. لِمَ أنت باهرة هكذا
اليوم؟

كان يحدق فيها طوال الوقت دون أن يحول عنها عينيه. وكانت عيناه
مرعبتين فخافت أن تتطلع فيهما.

وهمس وهو يزفر أنفاسه على خدها:

- إننى أحبك بجنون.. قولى لى كلمة واحدة فأنهى حياتى، أهجر الفن... دمدم فى اضطراب شديد - أحبينى، أحبينى..

فقال أولجا إيفانوفنا وهى تغمض عينيها:

- لا تتكلم هكذا.. هذا رهيب. وضموف؟

- ماذا ضموف؟ لماذا ضموف؟ وما شأنى بضموف؟ هنا الفولجا، والقمر، والجمال، وحبى، وإعجابى، وليس هنا أى ضموف.. آه، أنا لا أعرف شيئاً.. لا أريد الماضى.. أعطينى لحظة واحدة.. برهة واحدة.

وخفق قلب أولجا إيفانوفنا. أرادت أن تفكر فى زوجها لكن ماضيها كله، بحفل الزفاف، وضموف، والحفلات بدا لها صغيراً، تافهاً، كايها، لا داعى له، وبعيداً بعيداً.. وبالفعل، ماذا ضموف؟ ولماذا ضموف، وما شأنها بضموف؟ وهل هو موجود على قيد الحياة أم هو مجرد حلم؟

وقالت لنفسها وهى تغطى وجهها: «بالنسبة لرجل بسيط وعادى مثله، يكفيه ما حصل عليه من سعادة. فليستذكروا هناك، وليلعنوني، أما أنا فكيدا فيهم سأقتل نفسى.. نعم، أقتل نفسى. ينبغى أن يجرب المرء كل شىء فى الحياة. يا إلهى، ما أفظع هذا وما أطيئه!».

ودمدم المصور وهو يحضنها ويقبل بنهم يديها اللتين كانت تحاول بهما أن تدفعه عنها بوهن:

- حسناً، ماذا؟ ماذا؟ هل تحبيننى؟ نعم؟ نعم؟ أوه يا لها من ليلة! ليلة رائعة!

- نعم، يا لها من ليلة! همست وهى تتطلع إلى عينيها البراقنتين بالدموع، ثم تلفت بسرعة، وعانقته، وقبلته فى شفتيه بقوة.

- نقترب من كينشما! - قال شخص ما من الطرف الآخر لسطح المركب.

وسمع وقع خطوات ثقيلة. كان ذلك عامل البوفيه.

فقالت له أولجا إيفانوفنا وهي تضحك وتبكي من فرط السعادة:

- اسمع.. أحضر لنا نبيذا.

وجلس المصور على الأريكة، شاحبا من شدة الانفعال ونظر إلى أولجا إيفانوفنا بعينين والهتين شاكرتين، ثم أغمض عينيه وقال وهو يتسم ساهما:

- إننى متعب.

وأسند رأسه إلى حاجز المركب.

٥

كان الثانى من سبتمبر يوما دافئا هادئا ولكنه مكفهر. وفى الصباح الباكر انتشر ضبابا خفيفاً على الفولجا، وبعد التاسعة تساقط المطر رذاذا. ولم يكن هناك أى أمل فى أن تصفو السماء. وأثناء تناول الشاي قال ريبوفسكى لأولجا إيفانوفنا إن التصوير هو أشد الفنون مللا وانحطاطا، وإنه ليس فنانا، وإن الحمقى وحدهم هم الذين يعتقدون أنه موهوب. وفجأة، ودون مقدمات، التفت سكىنا وخدش به أفضل رسومه. وبعد الشاي جلس إلى النافذة عابسا وراح يتطلع إلى الفولجا. ولم يعد الفولجا براقا، بل كاييا، مغبشا ويبدو باردا. وكان كل شىء يذكر بقرب مجيء الخريف الكثيب المكفهر وبدا أن الأبسطة الخضراء الفخمة على الشطآن، وانعكاسات الأشعة الماسية والآفاق الزرقاء الشفافة، وكل ما هو أنيق واحتفالى قد نزعته الطبيعة عن الفولجا ووضعت فى الصناديق حتى الربيع القادم، بينما حلقت الغربان بجوار الفولجا وهى تستفزه بصياحها: «عريان! عريان!». وأصغى ريبوفسكى إلى نعيها وهو يفكر فى أنه قد انتهى وفقد موهبته، وأن كل شىء فى هذا العالم

زائل ونسبى وأحمق، وما كان ينبغي أن يربط نفسه بهذه المرأة... وباختصار كان متضايقا ومكتئبا.

وكانت أولجا إيفانوفنا جالسة على السرير خلف الحاجز وهى تقلب بأصابعها شعرها الكتانى الرائع، وتخليل نفسها تارة فى غرفة الجلوس، وتارة فى غرفة النوم، وتارة فى غرفة مكتب زوجها. وحملها الخيال إلى المسرح، وإلى خياطتها، وإلى أصدقائها المشهورين. ترى ماذا يفعلون الآن؟ هل يتذكرونها؟ لقد بدأ الموسم، وآن الأوان للتفكير فى الحفلات. وضميوف؟ ضيوف العزيز! كم يرجوها باستكانة وشكاية طفل فى رسائل أن تعود بسرعة! وكان يرسل إليها كل شهر ٧٥ روبلا، وعندما كتبت إليه تقول إنها مدينة للمصورين بمائة روبل أرسل إليها هذه المائة أيضا. يا له من إنسان طيب، سمح! لقد أرهقت الرحلة أولجا إيفانوفنا، وشعرت بالملل، وأحست بالرغبة فى أن تترك بسرعة هؤلاء الرجال ورائحة الرطوبة النهرية، وأن تتطهر من إحساسها بالقذارة الجسدية، هذا الإحساس الذى تملكها وهى تعيش طوال الوقت فى بيوت الفلاحين وتنتقل من قرية إلى قرية. ولولا أن ريبوفسكى وعد المصورين بشرفة أن يبقى معهم حتى العشرين من سبتمبر لكان من الممكن أن ترحل اليوم. وكم كان ذلك جميلا!

وأن ريبوفسكى:

- يا إلهى! متى ستشرق الشمس؟ لا أستطيع أن أكمل منظرا مشمساً بدون الشمس!

فقالت أولجا إيفانوفنا خارجة من وراء الحاجز:

- لديك مشهد بسماء غائمة. أتذكر، فى الجانب الأيمن غابة وفى الأيسر قطع بقر وأوز. تستطيع الآن أن تكمله.

فامتعض المصور وقال:

- إيه! أكمله! أحقا تظنين أنني من الغباء بحيث لا أعرف ما الذى ينبغي
على عمله!

فزفرت أولجا إيفانوفنا قائلة:

- كم تبدل شعورك نحوى!

- فليكن، رائع.

وارتعش وجه أولجا إيفانوفنا، فاتجهت نحو الفرن وأجهشت بالبكاء.

- لم يكن ينقصنا سوى الدموع. كفاك! إن لدى ألف سبب للبكاء ولكننى
لا أبكى.

فقالت أولجا إيفانوفنا وهى تجهش:

- ألف سبب! أهم سبب أنك بدأت تضيق بى.

نعم! - قالت ثم انفجرت بالنحيب - إذا شئت الحقيقة فأنت تخجل من حبنا.
أنت تحاول دائما ألا يلاحظ المصورون، رغم أن ذلك لا يمكن إخفاؤه، وهم
يعرفون كل شىء من زمان.

فقال المصور بضراعة وهو يضع يده على قلبه:

- أولجا، أرجو منك شيئا واحدا... شيئا واحدا: لا تعذبينى! أنا لا أريد منك
أكثر من ذلك!

- أقسم إنك ما زلت تحبىنى!

فقال المصور من بين أسنانه وهو يقفز:

- يا للعذاب! سيتهى الأمر بأن ألقى بنفسى فى الفولجا أو أفقد عقلى!
دعبنى!

- اقتلنى، اقتلنى! اقتل!

وعادت إلى العويل ثانية ومضت خلف الحاجز. ونقر المطر على سقف المنزل الريفى القش. وأمسك ريبوفسكى برأسه وسار من ركن إلى ركن، ثم اكتسى وجهه ملامح الحزم وكأنه يريد أن يثبت شيئاً ما لأحد ما، وارتنى القبعة ووضع بندقية الصيد على كتفه وخرج من المنزل.

وبعد خروجه ظلت أولجا إيفانوفنا مستلقية على السرير طويلاً وهى تبكى. وفى البداية فكرت فى أنه من المستحسن أن تتناول سما لكى يعود ريبوفسكى فيجدها ميتة، ثم حملها الخيال إلى غرفة الجلوس، وغرفة مكتب زوجها، وتصورت نفسها جالسة إلى جوار ضيوف دون حراك، وهى تستمتع بالسكينة والنظافة الجسدية، وفى المساء جالسة فى المسرح تصفى إلى مازينى. وعصر قلبها الشوق إلى التحضر وصخب المدينة والشخصيات الشهيرة. ودلفت فلاحاً إلى المنزل وراحت تشعل الفرن على مهل لتجهز الغداء. وانتشرت رائحة الحريق وأصبح الهواء أزرق من الدخان. وجاء المصورون يتتعلون أحذية طويلة قدرة ووجوههم مبللة بالمطر، وشاهدوا الرسوم وقالوا عزاء لأنفسهم إن للفلولجا سحره حتى فى الجو السيئ. أما ساعة الحائط الرخيصة فمضت تك تك.. تك.. وتجمع الذباب المقرور فى الركن الأمامى بجوار الأيقونات وهو يثز، وتناهى صوت الصراخ وهو تعبث فى المحافظ السمكية تحت الأرائك.

عاد ريبوفسكى إلى البيت عند الغروب. وألقى قبعة على الطاولة ونهالك على الأريكة شاحباً، منهكاً وفى حذاء قدّر، وأغمض عينيه.

- أنا متعب.. قال وهو يحرك حاجبيه محاولاً أن يفتح جفنيه -

ولكى تتقرب أولجا إيفانوفنا إليه وتبدى له أنها ليست غاضبة منه، اقتربت وقبلته فى صمت، ومرت بالمشط فى شعره الأشقر. فقد أرادت أن تمشطه.

فانتفض ريبوفسكى وكأن شيئاً بارداً قد مسه، وسأل وهو يفتح عينيه:

- ما هذا! ما هذا؟ دعيني لحالي، أرجوك.

وأبعدها عنه بيديه، وتنحى قليلا، وخيل إليها أن تعابير وجهه تنم عن التفزز والأسى. وفى تلك اللحظة دخلت الفلاحة حاملة فى يديها طبقا من حساء الكرنب، ورأت أولجا إيفانوفنا أصابع الفلاحة الكبيرة وهى مغموسة فى الحساء. وبدت لها هذه المرأة القذرة المحزومة البطن، والحساء الذى أخذ ربابوفسكى يلتهمه بشراهة، والبيت، وكل هذه الحياة التى أحببتها كثيرا فى البداية لبساطتها وفوضاها الفنية، بدت لها الآن فظيعة. وفجأة أحست بالإهانة فقالت ببرود:

- ينبغى أن تفترق لبعض الوقت، وإلا فقد نتشاجر جديا بسبب الملل. لقد سئمت كل هذا. سأرحل اليوم.

- وكيف؟ هل ستمطين صهوة عصا؟

- اليوم خميس، إذن فسيأتى المركب فى التاسعة والنصف.

- هه؟ نعم، نعم.. حسنا، سافرى.. قال ربابوفسكى بنعومة وهو يمسح فمه بالقوطة بدلا من المنديل - أنت هنا نسأمين ولا عمل لديك، وينبغى أن أكون أنايا كبيرا حتى أمتنعك من الرحيل. سافرى، وبعد يوم عشرين ستقابل.

وحزمت أولجا إيفانوفنا أمتعتها بمرح، بل إن خديها تضرجا من السرور. وسألت نفسها: أحقا سوف ترسم فى غرفة الاستقبال وتنام فى غرفة النوم وتتغدى على طاولة بمفرش؟ وانزاح الأسى عن قلبها ولم تعد غاضبة على المصور.

وقالت:

- سأترك لك الألوان والفرش يا ربابوشا^(١). وما يبقى منها أحضره معك.. إياك أن تتكاسل وتكتب هنا بدونى، بل اعمل. أنت شاطر يا ربابوشا.

(١) «ربابوشا» - تدليل من «ربابوفسكى». (المغرب).

فى التاسعة قبلها ربابوفسكى قبله الوداع لكى لا يقبلها، كما اعتقدت،
أمام المصورين على ظهر المركب، وودعها حتى المرفأ. وسرعان ما وصل
المركب وحملها.

ووصلت إلى البيت بعد يومين ونصف. ودون أن تنزع القبعة ومعطف
المطر، مضت إلى غرفة الاستقبال وأنفاسها تتلاحق من الانفعال، ثم دلفت
من هناك إلى غرفة الطعام. كان ضيموف جالسا إلى المائدة بدون سترة، فى
صديرى مفتوح الأزرار، وهو يسن السكين بالشوكة، وأمامه فى الطبق ديك
برى. وعندما دخلت أولجا إيفانوفنا الشقة كانت موقنة بأنها لا بد أن تخفى
عن زوجها كل ما حدث، وأن لديها من المهارة والقدرة ما يمكنها من ذلك.
بيد أنها الآن، عندما رأت هذه الابتسامة العريضة المستكينة السعيدة، والعينين
البراقتين الفرحتين أحست أن إخفاء الأمر عن هذا الإنسان شىء وضع مقرر
ومستحيل، لا تقوى عليه تماما مثل الافتراء والسرقة أو القتل، فقررت فى
لحظة أن تروى له كل شىء وبعد أن تركته يقبلها ويعانقها، جثت أمامه على
ركبتيها وغطت وجهها بيديها.

فسأل ضيموف برقة:

- ماذا؟ ماذا يا ماما؟ اشتقت إلىّ؟

ورفعت إليه وجهها مضرجا بحمرة الخجل، ونظرت إليه نظرة مذنبه
وضارعة، ولكن الخوف والخجل منعها من أن تقول الحقيقة.

وقالت:

- لا شىء.. هكذا..

فأنهضها ضيموف وأجلسها قائلا:

- فلنجلس. نعم هكذا. كلى الديك. لقد جعت يا مسكينة!

واستنشقت بنهم الهواء المألوف وأخذت تأكل الديك البري بينما أخذ يتطلع إليها بحب ويضحك بسعادة.

٦

يبدو أن ضيموف بدأ فى منتصف الشتاء يخمن أنها تخونه وكأنما كان ضميره هو الذى يعذبه، إذ لم بعد يستطيع أن ينظر مباشرة فى عيني زوجته، ولم يعد يتسم بفرح عند رؤياها، ولكى يقلل من فترة بقاءه معها على انفراد كان كثيرا ما يدعو إلى الغداء زميله كوروستليوف، وهو رجل قصير حليق الشعر ذو وجه مكرمش. وعندما كان يتحدث مع أولجا إيفانوفنا يفك جميع أزرار سترته ويزررها ثانية من الخجل ثم يروح يرم شاربه الأيسر بيده اليمنى. وأثناء الغداء كان الطيبان يتحدثان فى أن ارتفاع الحجاب الحاجز يؤدى أحيانا إلى اضطراب ضربات القلب، أو فى ازدياد الحالات العصية فى الفترة الأخيرة، أو فى أن ضيموف عندما شرح أمس جثة بتشخيص «أنيميا خبيثة» اكتشف سرطانا فى البنكرياس. وبدا وكأنهما يخوضان فى أحاديث طيبة فقط لكى يعطبا أولجا إيفانوفنا فرصة لأن تصمت، أى لكيلا تكذب. وبعد الغداء كان كوروستليوف يجلس إلى المعزف، بينما يتنهد ضيموف ويقول:

- إيه يا أخى! فليكن! اعزف لنا شيئا حزينا.

ويرفع كوروستليوف كتفيه عاليا ويسط أصابعه ويعزف بعض النغمات ويبدأ فى الغناء بصوت «تينور» «دلى على دار لا يثن فيها الفلاح الروسى»^(١)، ويتنهد ضيموف ثانية ويعتمد برأسه على قبضته ويستغرق فى التفكير.

وفى الآونة الأخيرة كانت أولجا إيفانوفنا تتصرف بصورة غير حذرة

(١) أغنية مشهورة فى أوساط الثوريين الديمقراطيين الروس فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عن قصيدة للشاعر نكراسوف بعنوان «تأملات عند المدخل الرئيسى». (المعرب).

للغاية. كانت تستيقظ كل صباح فى أشد حالات الكدر وبفكرة أنها لم تعد تحب ربابوفسكى وأن كل شىء قد انتهى والحمد لله. ولكن بعد أن تشرب القهوة تدرك أن ربابوفسكى سلبها زوجها، وأنها الآن أصبحت بلا زوج وبلا ربابوفسكى. وبعد ذلك تتذكر أحاديث معارفها عن أن ربابوفسكى يعد للمعرض شيئا صاعقا، خليطا من المنظر والموضوع، حسب ذوق بولينوف، شيئا يثير إعجاب كل من يزور مرسومه. وفكرت أولجا إيفانوفنا فى سرها أن هذا قد أبدعه تحت تأثيرها، وعموما فبفضل تأثيرها عليه تغير بشدة نحو الأفضل. إن تأثيرها عليه مفيد وحاسم بحيث لو تركته فربما انتهى. وتذكرت أيضا أنه زارها فى المرة الأخيرة فى ستره رمادية براقه وفى ربطة عنق جديدة وسألها بنظرة ساهمة: «هل أنا جميل؟». وبالفعل كان بخصلاته الطويلة وعينه الزرقاوين وأناقته جميلا جدا (أو ربما خيل إليها هكذا) وكان رقيقا معها.

وبعد أن تتذكر أولجا إيفانوفنا الكثير وتقلبه فى رأسها ترتدى ثيابها فى حالة من الاضطراب الشديد وتتنجى إلى مرسوم ربابوفسكى. وتجده مرحا ومعبجا بلوحته الرائعة بالفعل. كان يقفز ويتشاقى ويرد بالنكات على الأسئلة الجادة. وغارت أولجا إيفانوفنا على ربابوفسكى من اللوحة ومقتنهما، ولكنها بدافع المجاملة كانت تقف أمامها صامتة حوالى خمس دقائق، وتتنهد كما يتنهد المرء أمام شىء مقدس، وتقول بصوت منخفض:

- نعم، لم ترسم أبدا شيئا مثل هذا. أتدرى؟ إنها تثير الرهبة.

ثم تروح تتوسل إليه أن يحبها، وألا يهجرها، وأن يشفق عليها المسكينة البائسة. كانت تبكى وتقبل يديه وتلح عليه أن يقسم لها بأنه يحبها، وتثبت له أنه بدون تأثيرها الطيب سيفضل الطريق ويهلك. وبعد أن تفسد عليه مزاجه الراقى وتحس بنفسها مهانة، ترحل إلى الخياطة أو إلى إحدى معارفها الممثلات لتدبر أمر بطاقة.

فإذا لم تجده فى المرسوم تترك له رسالة تقسم فيها إنها سوف تنتحر بالسم حتما إذا لم يأت إليها اليوم. ويخاف ربابوفسكى فيأتى ويبقى لتناول الغداء. ولم

يكن يخجل من وجود زوجها فيخاطبها بتبجح، وترد عليه بنفس الصورة. كان كلاهما يحس بأنه يكبل الآخر وبأنهما طاغيتان وعدوان فيزدادان غلا، ويعميها الغل عن ملاحظة سلوكهما الفاضح وعن أنه حتى كوروستليوف الحليق يدرك كل شيء. وبعد الغداء كان ريبوفسكى يسرع بالدواع والانصراف.

فتسأله أولجا إيفانوفنا فى المدخل وهى تنظر إليه بكراهية:

- إلى أين أنت ذاهب؟

فيمتعض ويزر عينيه، ويذكر اسم إحدى النساء من معارفهما المشتركين، وكان واضحا أنه يسخر من غيرتها ويريد أن ينغص عليها.

فكانت تمضى إلى غرفة نومها وتستلقى فى الفراش. وبسبب الغيرة والأسى والإحساس بالمهانة والخزى كانت تعض الوسادة وتعول بصوت عال. فيتترك ضيموف كوروستليوف فى غرفة الجلوس، ويذهب إلى غرفة النوم ويقول لها بصوت خافت وهو محرج ومرتبك:

- لا تبكى بصوت عال يا ماما.. لماذا؟ عليك أن تسكتى على هذا.. عليك ألا تبدى ما بك.. أتدريين أن ما وقع لا يمكن إصلاحه؟

ودون أن تدري أولجا إيفانوفنا كيف تكبت فى نفسها غيرتها الممضة التى كان صدغاها يكادان يتكسران بسببها، وإذ تعتقد أنه ما زال من الممكن إصلاح الأمور، تنهض فتغتسل وترش البودرة على وجهها الباكى، وتطير قاصدة السيدة معرفتها. وعندما لا تجد ريبوفسكى عندها، تذهب إلى سيدة أخرى، ثم إلى ثالثة.. وفى البداية كانت تخجل من هذا الطواف، ولكنها تعودت على ذلك فيما بعد، وكان يحدث أن تطوف فى مساء واحد بجميع معارفها من النساء بحثا عن ريبوفسكى، وكان الجميع يدركون ذلك.

وذات مرة قالت لريبوفسكى عن زوجها:

- هذا الرجل يرهقنى بسماحته!

وأعجبته هذه الجملة لدرجة أنها عندما كانت تلتقى بالمصورين الذين كانوا يعرفون قصة غرامها مع ريبوفسكى، كانت تقول فى كل مرة وهى تحرك يدها حركة حادة:

- هذا الرجل يرهقنى بسماحته!

وظل نظام حياتها كما كان فى العام الماضى. فالحفلات تقام فى أيام الأربعاء. ويلقى الممثل، ويرسم المصورون، ويعزف عازف الفيولنسلو، ويغنى المطرب، وفى تمام الساعة الحادية عشرة والنصف يفتح الباب المؤدى إلى غرفة الطعام، ويقول ضيموف وهو يتنسم:

- تفضلوا إلى المائدة يا سادة.

وظلت أولجا إيفانوفنا كما فى السابق تبحث عن الأشخاص العظام، وتجدهم ولا تكتفى فتبحث من جديد. وكما فى السابق كانت تعود كل يوم فى ساعة متأخرة من الليل، ولكنها لا تجد ضيموف نائما كما فى العام السابق، بل جالسا إلى مكتبه يعمل. وكان يأوى إلى الفراش فى حوالى الثالثة ويستيقظ فى الثامنة.

وذات مساء، عندما كانت واقفة أمام المرأة لتستعد للذهاب إلى المسرح، دخل ضيموف مرتديا حلة سهرة وربطة عنق بيضاء. كان يتنسم بوداعة، ونظر فى عيني زوجته مباشرة بفرح كما فى السابق. كان وجهه متهللا.

وقال وهو يجلس ويمسد ركبتيه:

- لقد ناقشت الآن رسالة الدكتوراه.

فسألته أولجا إيفانوفنا:

- ونجحت المناقشة؟

- أبوه!- وضحك ومد رقبته لكى يرى فى المرأة وجه زوجته التى ظلت مولية ظهرها له وتصلح تسريحتها، وردد- أبوه! أتدريين، من المحتمل

جدا أن يعرضوا على «بريفات - دوستتورا»^(١) في الباثولوجى العام. يبدو كذلك.

كان واضحا على وجهه السعيد المتهلل أنه لو شاركته أولجا إيفانوفنا فرحته وانتصاره، لغفر لها كل شيء، فى الحاضر والمستقبل ولنسى كل شيء، ولكنها لم تكن تفهم معنى بريفات - دوستتورا والباثولوجى العام، وعلاوة على ذلك كانت تخشى أن تتأخر عن المسرح، فلم تقل شيئا.

فجلس ضيموف دقيقتين ثم ابتسم ابتسامة مذبذبة، وخرج.

٧

كان ذلك يوما مزعجا.

فى الصباح أحس ضيموف بصداع شديد. ولم يتناول الشاى فى الصباح، ولم يذهب إلى المستشفى، وظل طوال الوقت راقدا على الكنبه التركية فى غرفة مكتبه. وكالعادة توجهت أولجا إيفانوفنا فى الثانية عشرة إلى ربابوفسكى لتريه مشهد «ناتور - مور» رسمته وتسألته لِمَ لم يحضر أمس؟ وكان الرسم يبدو لها تافها، ولم ترسمه إلا لتجد ذريعة أخرى لزيارة المصور.

دخلت دون جرس، وبينما كانت تخلع خفها فى المدخل خيل إليها أنها سمعت صوت هرولة خفيفة فى المرسم وحفيف ثوب نسائي، وعندما أسرع لتلقى نظرة على المرسم لم تر الا جانبا من جونلة بنية ظهر لحظة واختفى وراء لوحة كبيرة مغطاة هى والحامل بغطاء أسود منسدل حتى الأرض. لم يكن ثمة مجال للشك.. لقد كانت تختفى هنا امرأة. وكم مرة اختفت

(١) بريفات - دوستنت - اللقب العلمى للمدرس الجامعى من خارج هيئة التدريس. (المرب).

أولجا إيفانوفنا نفسها وراء هذه اللوحة! ويبدو أن ريبوفسكى كان مرتبكا للغاية فتظاهر بإبداء دهشة لمجيئها، ومد نحوها كلتا ذراعيه وقال وهو يعتصر ابتسامة:

- آ.. آ.. آ! سعيد جدا برؤياك. ماذا لديك من أنباء طيبة؟

اغرورقت عينا أولجا إيفانوفنا بالدموع. كانت تشعر بالخجل والمرارة، ولم تكن لتوافق، ولو دفعوا لها مليوناً، على الكلام فى حضرة امرأة غريبة، غريمة ومخادعة، تقف الآن خلف اللوحة وربما تضحك بتشف.

- جئت إليك بمشهد..- قالت بوجل وبصوت رفيع، وارتعشت شفتاها -
ناتور- مور.

- آه.. مشهد؟

وأخذ المصور المشهد فى يديه وراح يتفحصه وهو يسير إلى الغرفة الأخرى كأنما بصورة آلية.

وتبعته أولجا إيفانوفنا بإذعان.

ودمدم وهو يتتقى كلمات مسجوعة:

- ناتور- مور- أحسن دور.. بور... حور.. سور..

وتناهى من الرسم وقع خطوات حثيثة وحفيف فستان. إذن فقد خرجت تلك. وودت أولجا إيفانوفنا لو صرخت بصوت عال وضربت المصور بشيء ثقیل على رأسه وانصرفت. ولكنها لم تر شيئاً خلال الدموع، وكانت مقهورة من الخجل، وأحست فى نفسها بأنها ليست أولجا إيفانوفنا وليست مصورة بل حشرة صغيرة.

- أنا متعب..- قال المصور ساهما وهو يتطلع إلى المشهد ويهز رأسه ليتردد عنه النعاس- هذا طبعاً جميل، ولكن اليوم مشهد، وفى العام الماضى مشهد،

وبعد شهر سيكون مشهد.. كيف لا تملين ذلك؟ لو كنت مكانك لتركت التصوير وأنكبت جديا على الموسيقى أو أى شيء آخر. إنك لست مصورة، بل موسيقارة. ولكن أتعلمين كم أنا متعب. سأطلب لك شايًا، هه؟

وخرج من الغرفة وسمعته أولجا إيفانوفنا وهو يأمر خادمه بشيء ما. ولكى لا تودعه، وتتصارع معه، والأهم من ذلك لكى لا تنتحب، هرولت بسرعة إلى المدخل قبل أن يعود ريبوفسكى، وارتدت خفها وخرجت إلى الشارع. وهناك تنفست الصعداء وأحست بنفسها حرة إلى الأبد من ريبوفسكى ومن التصوير، ومن الخجل الممض الذى أطبق على قلبها فى المرسوم. انتهى كل شيء!

وتوجهت إلى الخياطة، ثم إلى برناي^(١) الذى وصل بالأمس فقط، ومنه إلى متجر للنوت الموسيقية، وظلت طول الوقت تفكر فى الرسالة التى سكتبتها لريبوفسكى، رسالة باردة، قاسية، مفعمة بالعزة، وفى أنها ستسافر مع ضيموف فى الربيع أو الصيف إلى القرم، لتتخلص هناك تماما من الماضى وتبدأ حياة جديدة.

وعندما عادت إلى البيت فى ساعة متأخرة من المساء، لم تبدل ثيابها وجلست فى غرفة الجلوس تدبج الرسالة. لقد قال لها ريبوفسكى إنها ليست مصورة، وسوف تكتب الآن، انتقاما منه، إنه يرسم كل عام نفس الشيء، ويقول كل يوم نفس الشيء، وإنه قد ركذ ولن يبلغ شيئا أكثر مما بلغ. وأرادت أن تكتب أيضا إنه مدين لها بتأثيرها الطيب عليه، وإذا كان يسلك سلوكا مشينا فذلك فقط راجع إلى أن تأثيرها تشله شتى السيدات المربيات، كتلك التى اختبأت اليوم وراء اللوحة.

- ماما! - نادى ضيموف من غرفة المكتب دون أن يفتح الباب - ماما!

(١) مثل ألماني. (المغرب).

- ماذا تريد؟

- ماما، لا تدخل على عليّ، بل اقتربي فقط من الباب. اسمعي.. منذ ثلاثة أيام انتقلت إلى المستشفى عدوى الدفترية، والآن.. حالتى سيئة. أرسلنى بسرعة فى طلب كوروستليوف.

كانت أولجا إيفانوفنا تدعو زوجها، ككل معارفها الرجال، باسم عائلته لا باسمه، فلم يكن اسم زوجها يعجبها لأنه كان يذكرها بشخصية أوسيب عند جوجول^(١)، أما الآن فقد صاحت:

- أوسيب، هذا لا يمكن!

- أرسلنى فى طلبه! حالتى سيئة.. قال ضيموف خلف الباب، وسمع وقع خطواته وهو يتجه إلى الكنبه ويستلقى عليها، وجاء صوته مكتوما - أرسلنى! وفكرت أولجا إيفانوفنا والرعب يجمد أطرافها: «ما هذا؟ إنه شيء خطر!».

ودونما داع تناولت شمعة ومضت إلى غرفتها، وهنا أدركت ما الذى ينبغى عليها أن تفعله، ونظرت عرضا إلى صورتها فى المرآة. وبدت لنفسها مخيفة ودميمة بوجهها الشاحب المذعور، وبسترتها ذات الأكمام العالية والشرائط الصفراء على الصدر، والخطوط ذات الاتجاهات غير العادية فى الجونلة. وفجأة أحست لدرجة الألم بالأسف على ضيموف، وعلى حبه اللا محدود لها، وعلى حياته الشابة، بل حتى على فراشه هذا البيتيم الذى لم يعد يرقد فيه من زمن طويل، وتذكرت ابتسامته المألوفة الوادعة المذعنة. وبكت بحرقة وكتبت لكوروستليوف رسالة ضارعة. وكانت الساعة قد بلغت الثانية صباحا.

(١) هو اسم خادام خليستاكوف فى مسرحية جوجول «المفتش العام». (المعرب).

عندما خرجت أولجا إيفانوفنا من غرفة النوم فى الثامنة صباحا، بصداع فى الرأس بسبب السهاد، وغير مصففة الشعر وقبيحة وبتعبير مذنب على وجهها، مرجوارها شخص ما أسود اللحية، يبدو أنه طبيب. وانتشرت رائحة الأدوية. وبجوار باب غرفة المكتب وقف كوروستليوف وهو يرم شاربه الأيسر بيده اليمنى.

وقال لأولجا إيفانوفنا متجهما:

- عفوا، لن أسمح لك بالدخول إليه. قد يعديك وعموما فلا حاجة لدخولك فى الواقع. إنه على أية حال يهذى.

فسألت أولجا إيفانوفنا بهمس:

- هل عنده دفترى حقيقة؟

فقدمم كوروستليوف دون أن يجيب على سؤال أولجا إيفانوفنا:

- أولئك الذين يندفعون بتهور ينبغى محاكمتهم فى الواقع. أتعلمين كيف أنتقلت إليه العدوى؟ فى يوم الثلاثاء شفت بالأنبوبة أغشية الدفترى من طفل مريض. فما الداعى؟ حماقة.. هكذا، بلا تفكير..

فسألت أولجا إيفانوفنا:

- هل هذا خطير؟ جدا؟

- نعم، يقولون إن الحالة صعبة، فى الواقع ينبغى أن نستدعى شريك.

وجاء رجل صغير، أحمر الشعر، طويل الأنف، ويتحدث بلكنة يهودية. ثم رجل طويل، مقوس، مشعث الشعر يشبه رئيس الشمامسة. وبعده جاء شاب، بدين جدا، أحمر الوجه، يضع نظارة. كانوا أطباء جاءوا ليسهروا بجوار زميلهم. ولم يكن كوروستليوف ينصرف إلى داره بعد أن يقضى نوبة سهره،

بل يبقى وهو يطوف بالغرف كلها كالظل. وكانت الخادم تقدم الشاي للأطباء المناوبين وتذهب كثيرا إلى الصيدلية، ولم يكن هناك من ينظف الغرف. وساد جو من الهدوء والوحشة.

وجلس أولجا إيفانوفنا في غرفة النوم وأخذت تفكر في أن هذا عقاب من الله لها على خداعها لزوجها. كان هناك مخلوق صموت، مطيع، غير مفهوم، فقد شخصيته بسبب وداعته، مخلوق بلا إرادة، وضعيف بسبب طبيته الزائدة، يتعذب هناك على الكنب في غرفته دون أن يشكو. ولو أنه اشتكى، حتى في الهذيان، لعلم الأطباء المناوبون أن الدفترية ليست المذنبة وحدها، وليسألوا كوروستليوف فهو يعرف كل شيء، ولذلك فهو ينظر إلى زوجة صديقه نظرات وكأنها هي الشريرة الأولى الحقيقية، وما الدفترية الا شريكها. ولم تعد تذكر الأمسية المقمرة على الفولجا ولا الاعتراف بالحب، ولا الحياة الشاعرية في البيت الفلاحى بل كانت تذكر فقط أنها بدافع النزوة الفارغة واللهو قد تلطخت كلها، بيديها ورجليها، بشيء قذر، لزج، لن يزيله أبدا أى غسيل...

«آه، كم كذبت بفضاعة!!- فكرت أولجا إيفانوفنا وتذكرت حبها القلق لريابوفسكى - اللعنة على كل ذلك!..»

فى الساعة الرابعة تناولت الغداء مع كوروستليوف. ولم يذق شيئا، بل شرب فقط النبيذ الأحمر، وتجهم. ولم تذق هى أيضا أى شيء. وكانت تارة تصلى فى سريرتها وتقسم لله بأنها، إذا ما شفى ضيموف فسوف تحبه ثانية وتبقى زوجة وفيه له. وتارة تنسى لحظة فتتظر إلى كوروستليوف وتفكر: «أليس من الممل حقا أن يكون المرء بسيطا، لا يتميز بشيء، إنسانا مجهولا، وفوق ذلك يكون له وجه مكرمش كهذا، وتصرفات غير مهذبة؟». وتارة يخيّل إليها أن الله سيقضى عليها فى التو واللحظة لأنها، خوفا من العدوى، لم تدخل غرفة مكتب زوجها بعد ولا مرة. وعموما فقد كانت تحس بالتبلد والوحشة وبفناعة بأن الحياة قد فسدت ولن يمكن إصلاحها..

حل الغسق بعد الغداء. وعندما خرجت أولجا إيفانوفنا إلى غرفة

الجلوس كان كوروستليوف نائما على الأريكة، وقد وضع تحت رأسه وسادة حريرية مطرزة بخيوط مذهبة. وكان شخيرة يتصاعد «كخى.. بوا.. كخى.. بوا..»

وحتى الأطباء الذين يجيئون للمناوبة، وينصرفون لم يلاحظوا هذه الفوضى. فوجود شخص غريب نائم فى غرفة الجلوس ويشخر والمشاهد المعلقة على الجدران. والوضع الغريب فى البيت، وربة الدار غير المصففة الشعر والمهملة الثياب. كل ذلك لم يعد يثير الآن أدنى اهتمام. وضحك أحد الأطباء عرضا، فتردد هذا الضحك غريبا وخجلا، بل وأثار الرهبة.

وعندما خرجت أولجا إيفانوفنا إلى غرفة الجلوس مرة أخرى، لم يكن كوروستليوف نائما بل جالسا يدخن. وقال لها فى شبه همس:

- لديه دفترى التجويف الأنفى. أصبح القلب يعمل بشكل مضطرب. الأحوال سيئة فى الواقع.

فقالت أولجا إيفانوفنا:

- أستدع شريك؟

- كان هنا بالفعل. وهو الذى لاحظ أن الدفترى انتقلت إلى الأنف. إيه.. وماذا يفعل شريك، فى الواقع شريك لا شىء. إنه شريك وأنا كوروستليوف.. ولا شىء أكثر.

مضى الوقت ببطء رهيب. كانت أولجا إيفانوفنا مستلقية بتيابها فى الفراش الذى لم يرتب منذ الصباح وهى تغفو. وتراءى لها أن الشقة كلها ملأى من السقف حتى الأرض بقطعة ضخمة من الحديد، وأنه ما إن يلقي بهذا الحديد إلى الخارج حتى يشعر الجميع بالخفة والمرح. وعندما استيقظت تذكرت أن ذلك ليس حديدا بل هو مرض ضيموف.

وفكرت وهى تغفو من جديد: «ناتور.. مور.. بور.. حور.. وكيف شريك؟

شريك، بريك، فريك، كريك، وأين الآن أصدقائي؟ هل يعلمون بمحتتنا؟ يا إلهي الرحمة، النجاة.. شريك، بريك..».

ويعود الحديد ثانية.. والوقت يمضي ببطء والساعة في الطابق الأسفل تدق كثيرا. ومن حين لآخر يدق جرس الباب ويدخل الأطباء.. ودخلت الخادم تحمل كوبا فارغا على صينية وسألت:

- سيدتي، هل تأمرين بإعداد الفراش؟

وخرجت دون أن تتلقى جوابا. ودقت الساعة في الأسفل، ورأت أولجا إيفانوفنا في الحلم المطر يسقط على الفولجا، ومرة أخرى دخل غرفة النوم شخص ما، يبدو أنه غريب، فقفزت أولجا إيفانوفنا وعرفت فيه كوروستليوف.

فسألت:

- كم الساعة؟

- حوالي الثالثة.

- ماذا هناك؟

- وماذا هناك! جئت أقول إنه يحتضر..

وأجهش بالبكاء، وجلس على السرير بجوارها، ومسح دموعه بكفه. ولم تدرك ما قاله على الفور، ولكن البرودة شملت جسدها كله، أخذت ترسم علامة الصليب ببطء.

وردد كوروستليوف بصوت رفيع:

- يحتضر.... وأجهش ثانية- إنه يموت لأنه ضحى بنفسه... وقال بمرارة- يا لها من خسارة للعلم! لقد كان بالمقارنة بنا جميعا إنسانا عظيما، إنسانا غير عادي! أية مواهب! أية آمال كنا نعلقها عليه!- ومضى يقول وهو يعصر يديه

- يا ربى، كان من الممكن أن يصبح عالما لا مثيل له الآن. أوسكا ضيموف،
أوسكا ضيموف، ما الذى فعلته! آه يا إلهى!

وغطى كوروستليوف وجهه بكتلات يديه من اليأس وهز رأسه.

ومضى يقول وهو يزداد حقدا على شخص ما:

- وأية قوة أخلاقية! روح طيبة، طاهرة، محبة - لم يكن إنسانا، بل
بلورا! عاش فى خدمة العلم ومات بسبب العلم. كان يعمل كالبغل، ليل
نهار، ولم يرحمه أحد، وكان عليه وهو العالم الشاب والأستاذ المقبل أن
يبحث عن زبائن، وأن يعمل فى الترجمة ليلا لكى يدفع ثمن هذه ال... الخرق
الحقيرة!

وتطلع كوروستليوف بمقت إلى أولجا إيفانوفنا، وأمسك الملاءة بكتلات
يديه وشدها بغضب، وكأنها هى المذنبه.

- لم يرحم نفسه، ولم يرحمه الآخرون. آوه، ماذا أقول، فى الواقع!

وقال شخص ما فى غرفة الجلوس بصوت غليظ:

- نعم، كان إنسانا نادرا.

وتذكرت أولجا إيفانوفنا كل حياتها معه، من البداية حتى النهاية بكل
تفاصيلها، وأدركت فجأة أنه كان بالفعل إنسانا غير عادى ونادرا بالمقارنة
مع من كانت تعرفهم. وعندما تذكرت كيف كان يعامله المرحوم أبوها وكل
زملاؤه الأطباء، أدركت أنهم جميعا كانوا يرون فيه رجلا عظيما فى المستقبل.
وغمرت لها الجدران والسقف والمصباح والبساط بتهكم وكأنها تريد أن تقول
لها: «يا غافلة، يا غافلة!» فانطلقت من غرفة النوم وهى تبكى، وعبرت غرفة
الجلوس مارة بشخص غريب، واندفعت إلى غرفة مكتب زوجها. كان ممدا
بلا حراك على الكنبه التركية، مغطى إلى نصفه ببطانيه. ضمر وجهه وهزل
بشدة وأصبح لونه رماديا أصفر بصورة لا تبدو بها أبدا وجوه الأحياء، وكان

لا يمكن معرفة أن هذا هو ضيموف إلا من جبينه وحاجبيه الأسودين وابتسامته المعهودة. وتحسست أولجا إيفانوفنا صدره وجبينه ويديه بسرعة. كان صدره لا يزال دافئاً، لكن جبينه ويديه كانت باردة بصورة منفرة. وكانت عيناه شبه المفتوحتين لا تنظران إلى أولجا إيفانوفنا، بل إلى البطانية.

ونادته بصوت عال:

- ضيموف! ضيموف!

كانت تريد أن تشرح له أن ذلك كان خطأ، وأنه لم يضع كل شيء بعد، وأن الحياة يمكن أن تكون رائعة وهنيئة، وأنه أنسان نادر، غير عادي، وعظيم، وأنها سوف تظل تقدسه طول العمر وتصلي له وتضمّر الخوف المقدس...

- ضيموف! ضيموف! يا ضيموف!- دعتة وهي تهزه من كتفه دون أن تصدق أنه لن يستيقظ أبداً.

وفي غرفة الجلوس كان كوروستليوف يقول للخادم:

- وفيم السؤال؟ اذهبي إلى خفير الكنيسة واسألي أين تقطن عجائز الملجأ.. سيفسلن الجسد ويهندمنه، ويقمن بكل المطلوب.

السيدة صاحبة الكلب

١

قيل إن زوجها جديدا ظهر على الكورنيش، سيدة تصحب كلبا. أخذ ديميتري دميتريتش جوروف الذى وصل إلى يالطا منذ أسبوعين وألف المكان، يهتم بالوجوه الجديدة هو الآخر. ورأى وهو جالس في جناح «فيرنيه» كيف مرت على الكورنيش سيدة شابة، شقراء، متوسطة القامة، تضع على رأسها «بيريه». ووراءها ركض كلب أبيض صغير.

ثم قابلها بعد ذلك في حديقة المدينة وفي المتنزه عدة مرات فى اليوم. كانت تنزه وحدها، فى نفس البيريه وبصحبة الكلب الأبيض. ولم يعرف أحد من هى، فسموها ببساطة: السيدة صاحبة الكلب.

وفكر جوروف: «إذا كانت هنا بدون زوجها وبدون معارف، فلا بأس من التعرف بها».

لم يكن قد بلغ الأربعين بعد، ولكنه كان أبا لبنت فى الثانية عشرة وولدين فى المدرسة. لقد زوجه مبكرا، وهو بعد طالب فى الصف الثانى، وبدت زوجته الآن أكبر منه سنا بمرّة ونصف. كانت امرأة طويلة، بحاجبين داكنين، صريحة، متكبرة، رزينة، وكما كانت تسمى نفسها: مفكرة. وكانت تقرأ كثيرا، ولا تكتب فى رسائلها حرف «b»^(١) - وتدعو زوجها لا ديميتري بل ديميتري،

(١) كان هذا الحرف يكتب سابقا فى آخر الكلمات الروسية المنتهية بحرف ساكن. (المعرب).

بينما كان يعدّها في سره امرأة غير ذكية محدودة الأفق، غير لبقّة وكان يخشاه ولا يحب البقاء في البيت. وقد بدأ يخونها منذ زمن بعيد، وكان يخونها كثيرا، وربما لذلك كان رأيه في النساء سيئا دائما. وعندما يدور الحديث عنهن في حضوره كان يسميهن هكذا:

- جنس منحط!

كان يظن أن تجربته المرة قد علمته بما يكفي لكي يسميهن كما يشاء، ومع ذلك فبدون «الجنس المنحط» لم يكن يستطيع أن يعيش يومين اثنين. كان يشعر بين الرجال بالملل والضيق، وكان معهم قليل الكلام، باردا، ولكنه عندما يصبح وسط النساء يحس بالحرية ويعرف عم يتحدث معهن وكيف يتصرف، وحتى الصمت كان سهلا عليه. كان في مظهره وخلقه، وفي طبيعته كلها شيء ما جذاب خفي، يستميل إليه النساء ويستهو بهن. وكان يعرف ذلك، وهو أيضا، كانت قوة ما تشده إليهن.

وقد علمته التجارب العديدة، والمريرة حقاً، منذ زمن بعيد، أن كل تقارب، إذ يجعل الحياة في البداية أكثر تنوعاً وبهجة ويمثل مغامرة لطيفة خفيفة، لا بد أن يتحول لدى الأشخاص القويمي السلوك وخاصة أهالي موسكو، البطيئ الحركة، المترددین، إلى مسألة كبيرة معقدة للغاية، ويصبح الوضع في النهاية مرهقا. ومع ذلك فلدى كل لقاء جديد بامرأة جذابة كانت هذه التجارب تغيب بصورة ما عن ذاكرته، وتراوده الرغبة في الحياة ويبدو كل شيء بسيطا ومسليا.

وذات مرة، قبيل المساء، كان يتغدى في الحديقة، واقتربت السيدة ذات البيريه على مهل لكي تشغل الطاولة المجاورة. وأنبأه تعبير وجهها، ومشيها، وفستانها، وتسريحتها، أنها من وسط محترم، متزوجة. وفي الـطا لأول مرة وبمفردها وأنها تشعر بالملل هنا... كان في الأقاصيص التي تروى عن فساد الأخلاق المحلية الكثير من الكذب، وكان يحتقرها ويعلم أن مثل هذه

القصص، فى أغلبها، يؤلفها أشخاص لو كان بمقدورهم لارتكبوا الآثام عن طيب خاطر. ولكن عندما جلست السيدة إلى الطاولة المجاورة، على بعد ثلاث خطوات منه، تذكر تلك القصص عن الانتصارات السهلة والرحلات إلى الجبال، وسيطرت عليه فجأة فكرة مغرية عن علاقة قريبة عابرة، عن قصة غرام مع امرأة مجهولة لا يعرف اسمها.

ودعا الكلب إليه بلطف، وعندما اقترب منه رفع أصبعه مهددا، فنبع الكلب مغضبا. وهدده جوروف ثانية.

ونظرت إليه السيدة وخفضت بصرها على الفور.

وقالت:

- إنه لا يعرض.

وتضرجت وجنتاها.

- هل يمكن أن أعطيه عظمة؟- وعندما هزت رأسها موافقة سألتها ببساطة - هل وصلت إلى الطا منذ مدة طويلة؟

- منذ خمسة أيام.

- أما أنا فأجرجر الأسبوع الثانى هنا.

وصمتا قليلا. ثم قالت دون أن تنظر إليه:

- الوقت يمضى بسرعة، ومع ذلك فما أشد الملل هنا!

- إنها مجرد عادة أن يقال إن المكان هنا ممل. ولكن الواحد من هؤلاء يعيش فى بيته، فى مكان ما فى بليوف أو جيزدر، دون أن يشعر بالملل، وما إن يأتى إلى هنا حتى يقول: «آه يا للملل! يا للتراب!» حتى لتظن أنه جاء من غرناطة.

وضحكت. ثم واصلت الأكل فى صمت كشخصين لا يعرفان بعضهما،

ولكن بعد الغداء سارا متجاورين، وبدأ بينهما حديث مازح خفيف، حديث أناس أحرار، راضين، سيان لديهم إلى أين يمضون وعم يتحدثون، ومضيا ينتزهان ويتحدثان عن غرابة إضاءة البحر، فقد كان لون المياه بنفسجيا، ناعما ودافئا، وامتد عبرها من القمر شريط ذهبي. وتحدثنا عن الجو الخانق بعد يوم حار. وأخبرها جوروف أنه من موسكو، وأنه خريج كلية الآداب ولكنه يعمل فى بنك، وكان فى وقت ما يستعد للغناء فى أوبرا خاصة، ولكنه ترك ذلك، ويملك فى موسكو منزلين.. وعرف منها أنها نشأت فى بطرسبورج ولكنها تزوجت فى مدينة (س)، حيث تعيش منذ عامين، وأنها ستقضى فى بالطا حوالى شهر، وربما يأتى فى أثرها زوجها الذى يريد أيضا أن يستريح. ولم تستطع أبدا أن توضح أين يعمل زوجها: فى إدارة المحافظة أم فى إدارة الإقليم وضحكت هى نفسها من ذلك. وعرف جوروف أيضا أن اسمها آنا سرجييفا.

وبعد ذلك فكر فيها وهو فى غرفته بالفندق، وفى أنها ربما تقابله غدا. هكذا ينبغى أن يكون.. وعندما أوى إلى الفراش تذكر أنها منذ فترة قريبة كانت طالبة، كانت تدرس كما تدرس ابنته الآن، وتذكر كم كان فى ضحكها وحديثها مع رجل غريب من تهيب وارتباك. لا بد أنها المرة الأولى فى حياتها التى تبقى فيها وحدها وفى وضع كهذا، عندما يغازلونها، ويتطلعون إليها ويتحدثون معها بهدف خفى واحد، لا يمكن ألا أن تحدثه. وتذكر عنقها الرقيق الضعيف، وعينيها الرماديتين الجميلتين.

وفكر جوروف وهو يستسلم للنوم: «هناك شىء ما فيها يثير الشفقة مع ذلك».

٢

مر أسبوع منذ تعارفهما. وكان يوم عيد. كان الجو فى الغرف خانقا، وفى الشوارع ثارت دوامات الغبار، وطيرت الريح القبعات. واستبد بهما الظمأ

طول النهار، فكان جوروف يدخل الجناح كثيرا ويعرض على أنا سرجيفنا شراب عصير الفواكه تارة، والآيس كريم تارة أخرى. ولم يكن ثمة مكان يُلجأ إليه.

وفي المساء، عندما هدأ الجو قليلا، ذهبا إلى حاجز الأمواج لمشاهدة مجيء السفينة. وكان في الميناء كثير من المتنزهين، وقد جاءوا لمقابلة أشخاص ما، وحملوا في أيديهم الزهور. وهنا تبدت بوضوح خصيصتان تميزان جمهور بالطا المتأثق: فقد كانت النساء الكبيرات السن متزينات كالشابات، وكان هناك جنرالات كثيرون.

وبسبب اضطراب البحر وصلت السفينة متأخرة، بعد غروب الشمس، ودارت مدة طويلة قبل أن ترسو على الحاجز. وتطلعت أنا سرجيفنا عبر العوينات إلى السفينة والركاب وكأنها تبحث عن معارف، وعندما كانت تخاطب جوروف تلمع عيناها. تكلمت كثيرا، وكانت أسئلتها مقتضبة وكانت تنسى على الفور عم سألت. ثم فقدت عويناتها في الزحام.

وتفرق الجمهور المتأثق، ولم تعد الوجوه تبين، وهدأت الرياح تماما، بينما ظل جوروف وأنا سرجيفنا واقفين وكأنما ينتظران أن يهبط أحد آخر من السفينة. كانت أنا سرجيفنا الآن صامته، تشم الزهور دون أن تتطلع إلى جوروف.

وقال جوروف:

- الجو في المساء صار أفضل. إلى أين سنذهب الآن؟ هلا رحلنا إلى مكان ما؟

ولم ترد بشيء.

عندئذ نظر إليها مليا واحتضنها فجأة، وقبلها في شفتيها، فهبت عليه رائحة الزهور ورطوبتها، وعلى الفور تلفت نحوه بخوف: ألم يرهما أحد؟

ودمدم بصوت خافت:

- فلنذهب إليك..

وانصرفا بسرعة.

كان الجو في غرفتها خائفا، وتضوعت فيه رائحة العطر الذى ابتاعته فى المتجر اليابانى. وفكر جوروف وهو ينظر إليها الآن: «ما أكثر ما يحدث فى الحياة من لقاءات!». لقد بقيت لديه من الماضى ذكرى نساء خاليات البال، طيبات، مرحات من الحب، ممتنات له على السعادة التى منحها أياهن وإن تكن قصيرة. ونساء - مثل زوجته - أحبين بلا صدق وبثرثرة كثيرة وحركات مفتعلة وهستيريا، وتعبير على الوجه، كأنما لم يكن ذلك حبا أو شهوة، بل شيئا أهم بكثير.. وامرأتان أو ثلاث، بارعات الجمال، باردات، كان يطوف بوجوههن فجأة تعبير جشع ورغبة عنيدة فى أن يأخذن، ويختطفن من الحياة أكثر مما تستطيع أن تعطى، وكن نساء مضى شبابهن، نزقات، غير مفكرات، متسلطات، غير ذكيات، وعندما كان جوروف يشعر بالبرود نحوهن كان جمالهن يثير فيه الكراهية، وتبدو له الدانتلا على ملابسهن الداخلية أشبه بقشر السمك.

أما هنا فتلك الهبة والارتباك لشباب غير محنك، والشعور بالخجل، وساد انطباع بالحرع كأنما طرق أحدهم الباب فجأة، ونظرت أنا سرجيفنا، هذه «السيدة صاحبة الكلب»، إلى ما حدث نظرة خاصة، ويجدية شديدة، وكأنما كان فى ذلك سقوطها. هكذا خيل لجوروف، فبدا له ذلك غريبا وغير مناسب. تهدلت قسماتها وذبلت، وتدلّت على صفحتى وجهها خصلات شعرها الطويل بصورة حزينة، واستغرقت أنا سرجيفنا فى التفكير بكآبة، فبدت فى ذلك الوضع كالخاطئة فى لوحة قديمة.

وقالت:

- هذا ليس حسنا. إنك الآن أول من لا يحترمنى.

وكان على المائدة فى الغرفة بطيخة، فشق جوروف قطعة وراح يأكلها على مهل. ومر ما لا يقل عن نصف ساعة وهما صامتان.

كانت أنا سرجيفنا مؤثرة، وانبعث منها طهارة المرأة القويمة، الساذجة التى لم تخبر الحياة بعد. وكانت الشمعة الوحيدة المشتعلة على الطاولة لا تكاد تضىء وجهها، بيد أنه كان واضحا أنها تعاني عذابا داخليا.

وسألها جوروف:

- ولماذا أكف عن احترامك؟ أنت لا تدرين ما تقولين.

فقالت وعيناها تمتلئان بالدموع:

- فليغفر لى الله. هذا فظيع.

- كأنما تبحثين عن تبرير.

- وكيف أبرر ذلك؟ اننى امرأة سيئة، منحطة، إننى أحتقر نفسى ولا أفكر فى المبررات. أنا لم أخدع زوجى بل خدعت نفسى. وليس الآن فحسب، بل منذ زمن بعيد وأنا أخدعها. ربما كان زوجى رجلا شريفا، طيبا، ولكنه خادم. أنا لا أعرف ماذا يفعل ولا كيف يخدم، ولكن أعرف فقط أنه خادم. كنت فى العشرين من عمري عندما تزوجته، وكان الفضول يؤرقنى وكنت أتوق إلى شيء ما أفضل. كنت أقول لنفسى: هناك حياة أخرى حقا. كنت أريد أن أعيش وأعيش وأعيش.. كان الفضول يلهمنى.. إنك لا تدرك ذلك، ولكنى أقسم لك، لم أعد أستطيع السيطرة على نفسى، كان هناك شيء ما يحدث لى، ولم يعد من الممكن لقوة أن تبقينى، فقلت لزوجى إننى مريضة وسافرت إلى هنا.. وها أنا ذا قد أصبحت امرأة مبتذلة، ساقطة، بوسع أى شخص أن يحتقرها.

كان جوروف قد ملّ السماع، وأحنقته هذه النبرة الساذجة، وهذا الندم

المفاجئ وغير المناسب. ولولا الدموع فى عينيها لظن أنها تمزح أو تؤدى دورا.

وقال بصوت خافت:

- أنا لا أفهم، ماذا تريدان؟

ودفعت وجهها فى صدره والتصقت به. وقالت:

- صدقنى، صدقنى أتوسل إليك.. إننى أحب الحياة الشريفة، الطاهرة، أما الخطيئة فكرهية على، أنا نفسى لا أدرى ما الذى أفعله. البسطاء يقولون: الشيطان أضلنا، وبوسعى الآن أن أقول عن نفسى: لقد أضلنى الشيطان.

فدمدم جوروف:

- كفى، كفى..

وتطلع إلى عينيها الجامدتين المفزوعتين، وقبلها، وراح يتحدث بصوت خافت وبرقة فهدأت شيئا فشيئا، وعاد إليها المرح. أخذا كلاهما يضحكان.

وعندما خرجا إلى الكورنيش فيما بعد، لم يكن هناك أحد، وبدت المدينة بأشجار السرو ميتة تماما، لكن البحر ظل يصخب ويضرب الشاطئ، وتراقص على الأمواج زورق وحيد وعليه مصباح يومض ناعسا.

ووجدا حوذا ورحلا إلى أورياندا.

وقال جوروف:

- لقد عرفت اسم عائلتك عندما كنا فى المدخل، كان مكتوبا على اللوحة: فون ديدريتنس. هل زوجك ألماني؟

- كلا، جده كان ألمانياً على ما أظن، أما هو فروسى أرثوذكسى.

وفى أورياندا جلسا على أريكة، غير بعيد عن الكنيسة، وتطلعا إلى البحر فى الأسفل وهما صامتان. كانت يالطا تلوح بالكاد من خلال ضباب الصباح، وعلى قمم الجبال استقرت السحب البيضاء بلا حراك. وسكنت أوراق الشجر وأزت زيزان الحصاد، أما صخب البحر الرتيب المكتوم المتناهى من أسفل فكان يتحدث عن السكينة والكرى الخالد الذى ينتظرنا. هكذا كان البحر يصخب فى الأسفل عندما لم تكن هناك يالطا وأورياندا، وهكذا يصخب الآن، وسوف يصخب فى المستقبل بنفس اللامبالاة والصوت المكتوم عندما لا نعود على قيد الحياة. وفى هذه الاستمرارية، فى هذه اللامبالاة التامة حيال حياة كل منا وموته، ربما يكمن ضمان خلاصنا الأبدى، ضمان حركة الحياة المستمرة على الأرض، والرقى المستمر. وفكر جوروف وهو جالس بجوار امرأة شابة، بدت فى الفجر على هذه الصورة من الجمال، مستكن النفس، مفتونا بهذا الجو الأسطوري: البحر والجبال والسحاب والسماء الرحبة... فكر فى أن كل شيء رائع فى هذا العالم حقا لو أمعنا التفكير، كل شيء ما عدا ما نفكر فيه ونفعله عندما ننسى أسمى أغراض الوجود، وكرامتنا الإنسانية.

ومر بجوارهما شخص ما، يبدو أنه حارس، وتطلع إليهما ثم انصرف. وهذه الحركة بدت أيضا غامضة وجميلة ولاحت السفينة القادمة من فيودوسيا مطفأة الأنوار وقد أضاءها نور الفجر.

وقالت أنا سرجييفنا بعد صمت:

- الندى على العشب.

- نعم، فلنعد.

وعادا إلى المدينة.

وبعد ذلك كانا يلتقيان كل ظهر على الكورنيش، ويفطران معا، ويتغديان ويتنزهان ويعجبان بالبحر. واشتكت له من أنها تنام نوما سيئا، وأن قلبها يدق

بقلق، وكانت توجه إليه نفس الأسئلة وهى مضطربة من الغيرة تارة وتارة أخرى من خشية أنه لا يحترمها بما فيه الكفاية. وكثيرا ما كان يحدث وهما فى المتزهد أو الحديقة، وعندما لا يكون بقربهما أحد، أن يجذبها إليه فجأة ويقبلها بشهوة. وهذا الفراغ المطلق، وهذه القبلات فى وضوح النهار مع التلفت والخوف من أن يكون أحد قد رآه، والحر، ورائحة البحر والحركة الدائبة أمام عينيه لأناس غير مشغولين، متأنقين، شباع، كأنما أعادت خلقه من جديد، فكان يقول لأنا سرجييفنا كم هى جميلة، وكم هى مغرية، وكان متلهفا عليها ولم يفارقها خطوة واحدة، بينما كانت هى تستغرق فى التفكير كثيرا، وترجوه طوال الوقت أن يعترف بأنه لا يحترمها ولا يحبها أبدا بل لا يرى فيها سوى امرأة مبتذلة. وكانا كل مساء تقريبا يرحلان فى وقت متأخر إلى مكان خارج المدينة، إلى أورياندا أو الشلال. وكانت نزهاتهما موفقة، وفى كل مرة كانت الانطباعات دائما رائعة، ومهيبه.

وانتظرا أن يصل زوجها، ولكنها تلقت منه رسالة يخبرها فيها أنه مريض بعينه، وتوسل إليها أن تعود بسرعة. وعجلت أنا سرجييفنا بالرحيل وهى تقول لجوروف:

- حسن أننى أسافر. هذه مشيئة الأقدار.

ورحلت فى عربة ورحل معها إلى المحطة ليودعها. وقطعا النهار كله فى السفر. وعندما استقلت عربة القطار السريع ودق ناقوس المحطة للمرة الثانية قالت:

- دعنى أطلع إليك ثانية... مرة أخرى. هكذا.

لم تبك، ولكنها كانت حزينة، وبدت كأنها مريضة، وكان وجهها يرتعش.

وقالت:

- سأفكر فيك... وأتذكرك. ابق في رعاية الله. لا تذكرني بسوء. إننا نفرق إلى الأبد. هذا ضروري، لأنه ما كان ينبغي أن نلتقي. حسنا، يرعاك الله.

ورحل القطار بسرعة، وسرعان ما غابت أنواره، وبعد دقيقة لم يعد ضجيج مسموعا، كأنما تأمر كل شيء عن عمد لإنهاء هذه الغيوبة العذبة، وهذا الجنون بسرعة. وعندما أصبح جوروف وحده على الرصيف وهو يتطلع إلى الأفق المظلم، أخذ يصغى إلى صرير الجنادب وأزيز أسلاك البرق بإحساس من استيقظ لتوه. وفكر في أنه ها هي ذي مغامرة قد مرت في حياته وانتهت، ولم يبق منها سوى الذكرى... كان متأثرا وحزينا، وأحس بقليل من الندم. فهذه المرأة الشابة التي لن يراها أبدا لم تكن سعيدة معه. كان لطيفا وودودا معها، ومع ذلك فقد كان في معاملته لها وفي لهجته وملاطفاته ظل من السخرية الخفيفة، وشيء من الاستعلاء اللفظ لرجل سعيد، هو فوق ذلك أكبر منها مرتين. كانت تقول له طوال الوقت إنه طيب وغير عادي، وسام. لقد بدا لها، فيما يظهر، على غير حقيقته في الواقع، وإذن فقد خدعها عن غير قصد...

وانشرت في المحطة رائحة الخريف، وكان المساء باردا.

وفكر جوروف وهو يغادر الرصيف: «وأنا أيضا أن لى أن أرحل إلى الشمال. حان الوقت».

٣

عندما عاد إلى بيته في موسكو كان كل شيء يسير كما في الشتاء، وأوقدت الأفران، وفي الصباح، عندما يتهيا الأطفال للمدرسة ويتناولون الشاي يكون الجو مظلمًا فتشعل المربية الضوء بعض الوقت. وبدأت بواد الصقيع. وعندما يهطل الثلج لأول مرة، وفي أول أيام استخدام الزحافات، تشعر بالسرور وأنت ترى الأرض البيضاء والأسقف البيضاء، ويصبح الهواء

أنقى وأروع، وفي هذه الأوقات تتذكر سنوات الصبا. وتكتسب أشجار الزيزفون
والبتولا المعجوز، البيضاء من الثلج، تعبيراً بشوشاً، فهي أقرب إلى القلب من
السرو والنخيل، ولا تراودك الرغبة بالقرب منها في التفكير في الجبال والبحر.
كان جوروف موسكوفيا، وقد عاد إلى موسكو في يوم بارد صحو، وعندما
ارتدى معطف الفراء والقفاز الثقيل وتمشى في شارع بترفوكا، وعندما سمع
مساء السبت رنين أجراس الكنائس، فقدت رحلته القريبة إلى الأماكن التي
كان فيها كل سحرها بالنسبة له. وغاص شيئا فشيئا في حياة موسكو، وأصبح
يقرأ بنهم ثلاث صحف يوميا ويقول إنه لا يقرأ صحف موسكو عن مبدأ.
واجتذبت المطاعم والأندية ودعوات الغداء والحفلات اليوبيلية، وأصبح
يشعر بالفخر لزيارة مشاهير المحامين والممثلين له، ولأنه يلعب الورق مع
بروفيسور في نادى الأطباء. وأصبح بوسعه أن يأكل طبقا كاملا من «السلانكا»
المحمّرة...

وخيل إليه أنه لن يمر شهر حتى يغلف الضباب أنا سرجيفنا في ذاكرته،
ولن تخطر له إلا نادرا بابتسامتها المؤثرة كما خطرت من قبل أخريات. ولكن
مر أكثر من شهر، وأوغل الشتاء، بيد أن كل شيء ظل واضحا في ذاكرته وكأنما
لم يفارق أنا سرجيفنا إلا بالأمس. وهاجت الذكريات أقوى وأشد. فما إن
تناهى إليه في مكتبه في هدوء المساء أصوات أطفاله وهم يحضرون الدروس،
أو يصغى إلى أغنية عاطفية أو إلى عزف الأورغن في مطعم، أو تعول الريح
في مدخنة المدفأة، حتى ينبعث كل شيء حيا في الذاكرة: ما كان عند حاجز
الأمواج، والصباح الباكر المضرب في الجبال، والسفينة القادمة من فيودوسيا،
والقبلات. وكان يروح ويجيء طويلا في الغرفة، ويتذكر ويشتم. ثم تحولت
الذكريات إلى أحلام، واختلط في خياله ما حدث بما سوف يكون. لم تعد أنا
سرجيفنا تخطر له، بل كانت تتبعه في كل مكان كالظل وتراقبه وعندما يغمض
عينيه يراها أمامه حية، وبدت له أجمل وأصبى وأرق مما كانت. وهو أيضا بدا
لنفسه أفضل مما كان آنذاك في الطا. وكانت تتطلع إليه في المساء من خزانة

الكتب ومن المدفأة، ومن ركن الغرفة، وكان يسمع أنفاسها وحفيف ثيابها الرقيق. وكان يتابع النساء فى الشارع بعينه بحثا عن تشبهها...

وأمضته رغبة شديدة فى أن يفضى لأحد ما بذكرياته بيد أنه لم يكن من الممكن أن يتحدث عن حبه فى البيت، أما خارج البيت فليس هناك من يتحدث إليه. فليس من المعقول أن يتحدث مع السكان أو فى البنك. ثم عم يتحدث؟ هل هو أحبها آنذاك؟ وهل كان هناك شيء ما جميل وشاعرى أو ذو عبرة، أو حتى شيق فى علاقته بآنا سرجيفنا؟ واضطر أن يقول كلاما عاما عن الحب، وعن النساء فلم يفطن أحد إلى الأمر. زوجته فقط لعبت حاجبيها الداكنين وقالت:

- أنت يا ديميتري لا تليق فى دور الغندور.

وذات ليلة، وكان خارجا من نادى الأطباء مع موظف شاركه اللعب، لم يتمالك نفسه فقال:

- لو تدرى بأية امرأة ساحرة تعرفت فى يالطا!

وجلس الموظف فى الزحافة فمضت به، لكنه التفت فجأة وصاح:

- يا ديميتري. ديميتريفيتش!

- ماذا؟

- لقد كنت على حق بالأمس، فالسمك عفن!

أثارت هذه الكلمات، العادية تماما، حتى جوروف فجأة لسبب ما، وبدت له مهينة ملوثة. بالأخلاق الهمجية، يال هذه السمحات! وما هذه الليالى التى بلا معنى، وأية أيام مملة باهتة! اللعب المحموم، والأكل حتى التخممة، والسُّكر، والأحاديث المكرورة عن نفس الشيء. الأعمال التى لا ضرورة لها والأحاديث المكرورة تستولى على أفضل ساعات العمر، وعلى أفضل

القوى، ولا يبقى فى النهاية سوى حياة مبتورة، مقصورة الجناحين، لا يبقى سوى هراء، ولا تستطيع أن تهرب منه أو تفر، كأنما وضعت فى مستشفى المجانين أو فى السجن!

لم ينم جوروف طوال الليل وهو ساخط، ثم عانى طوال اليوم التالى من الصداع. وفى الليالى التالية نام نوما سيئا، وكان يجلس فى الفراش ويفكر أو يروح ويحىء من ركن لركن. وملّ الأطفال، وملّ البنك ولم يكن يرغب فى الذهاب إلى أى مكان أو الحديث عن أى شىء.

وفى أعياد ديسمبر استعد للسفر، وقال لزوجته إنه راحل إلى بطرسبرج للتوسط لأحد الشبان، وسافر إلى (س). لماذا؟ هو نفسه لم يكن يعرف جيدا. لقد أراد أن يرى أنا سرجيفنا ويتحدث إليها ويدبر موعدا معها إذا أمكن.

وصل إلى (س) صباحا وحجز فى الفندق أفضل غرفة، وكانت أرضيتها مغطاة كلها بجوخ عسكرى رمادى، وعلى الطاولة محبرة، رمادية من الغبار، تحمل فارسا على جواد، وقد رفع يده بالقبعة بينما كان رأسه مبتورا. وأعطاه الفراش المعلومات اللازمة: فون ديدريتش يسكن فى شارع ستارو - جونتشارنايا فى منزله الخاص، غير بعيد عن الفندق، وهو يحيا حياة طيبة، فى بحبوحة، ويملك خيوله الخاصة ويعرفه الجميع فى المدينة. ولفظ الفراش اسمه هكذا: ضريضيرتس.

ومضى جوروف على مهل إلى شارع ستارو - جونتشارنايا وعثر على المنزل. وفى مواجهة المنزل مباشرة امتد سور رمادى طويل بمسامير.

وفكر جوروف وهو ينظر تارة إلى النوافذ وتارة إلى السور: «من هذا السور لا بد أن تهرب».

وفكر: اليوم عطلة، وزوجها على الأرجح فى البيت. وعلى أى حال فليس من اللائق أن يدخل البيت ويحرجها. وإذا أرسل لها رسالة فستقع فى الغالب

فى يد زوجها، وعندئذ سيفسد كل شىء. أفضل شىء الاعتماد على الصدفة. وراح يتمشى فى الشارع بجوار السور ويتنظر هذه الصدفة. ورأى شحاذاً يدلف إلى البوابة فتهاجمه الكلاب، ثم سمع بعد ساعة عزفا على البيانو، وتناهد إليه الأنغام ضعيفة غير واضحة. لا بد أنها أنا سرجييفنا التى تعزف. وفجأة فتح باب المدخل الرئيسى، وخرجت منه امرأة عجوز، وركض خلفها الكلب الأبيض المعروف. وأراد جوروف أن ينادى الكلب، ولكن قلبه دق فجأة بعنف، ولم يستطع من الاضطراب أن يتذكر اسم الكلب.

وأخذ يتمشى وهو يزداد كراهية للسور الرمادى، وبدأ يفكر بعصية فى أن أنا سرجييفنا قد نسيت وربما ترح الآن مع رجل غيره، فهذا شىء طبيعى بالنسبة لامرأة شابة، مضطرة أن ترى من الصباح إلى المساء هذا السور اللعين. وعاد إلى غرفته فى الفندق، وظل جالسا على الكنب فترة طويلة وهو لا يدري ماذا يفعل، ثم تغدى، ونام طويلا.

«ما أغبى كل هذا وأسخفه - فكر بعد أن استيقظ وهو ينظر إلى النوافذ المظلمة، فقد كان المساء قد حل - ها أنا ذا قد شبت نوما، فلماذا؟ وماذا أفعل ليلا إذن؟»

جلس على الفراش المغطى ببطانية رمادية رخيصة مثل بطانيات المستشفى، أخذ يكت نفسه بأسى:

«تلك هى السيدة صاحبة الكلب.. تلك هى المغامرة.. فلتجلس الآن هنا».

وقبل ذلك فى الصباح كان قد لفت نظره فى المحطة إعلان بأحرف كبيرة عن عرض أوبرا «فتاة الجيش» لأول مرة. وتذكر ذلك الآن فتوجه إلى المسرح. وفكر: «من الجائز جدا أنها تحضر العروض الأولى».

كان المسرح مكتظا. وهنا أيضا، مثلما فى جميع مسارح الأقاليم كان

الضباب متجمعا أعلى النجفة، وارتفع اللفظ فى أعلى المسرح. وفى الصفوف الأولى، قبيل بدء العرض، وقف المتأنقون المحليون، عاقدين أيديهم خلف ظهورهم. وفى مقصورة المحافظ جلست فى الصف الأول ابنته فى لفاف من الفرو، أما المحافظ نفسه فكان مختبئا بتواضع خلف ستار باب المقصورة فلم تظهر سوى يديه. واهتزت ستارة المسرح وظل الأوركسترا يضبط آلاته طويلا وكان جوروف يفتش بعينه فى نهم طوال فترة دخول النظارة وشغلهم للمقاعد.

ودخلت أنا سرجييفنا. جلست فى الصف الثالث، وعندما تطلع جوروف إليها حقق قلبه بعنف، وأدرك بوضوح أنه لم يعد لديه فى الدنيا كلها إنسان أقرب وأعز وأهم منها. هذه المرأة الصغيرة، الضائعة فى هذا الحشد الرفي، والتي لا تتميز بشيء، هذه المرأة ذات المنظار المبتذل فى يديها، أصبحت الآن تشغل حياته كلها، أصبحت حزنه وفرحته والسعادة الوحيدة التى يرجوها الآن لنفسه. وعلى أنغام الأوركسترا السيئ وآلات الكمان السوقية أخذ جوروف يفكر كم هى جميلة. كان يفكر ويحلم.

ودخل مع أنا سرجييفنا وجلس إلى جوارها رجل شاب بسالفين صغيرين، طويل جدا، محنى القامة. وكان رأسه يهتز مع كل خطوة، فبدأ كأنه ينحنى محيا باستمرار. يبدو أنه زوجها الذى قالت عنه فى بالطا فى صورة إحساس مريب، إنه خادم. وبالفعل فقد كان فى قامته الطويلة، وفى سالفه، وفى الصلعة الصغيرة شىء من تواضع الخدم، وكان يبتسم ابتسامة عسلية، ولمعت فى عروة سترته شارة علمية كأنها شارة الخدم.

وفى الاستراحة الأولى انصرف الزوج ليدخن وبقيت هى فى مقعدها. واقترب منها جوروف، الذى كان يجلس هو أيضا فى الصالة وقال بصوت متهدج وهو يغتصب ابتسامة:

- مرحبا.

وتطلعت إليه وامتقت، ثم تطلعت مرة أخرى برعب وهي لا تصدق عينيها، وأطبقت يدها بقوة على المروحة والمنظار معا وهي تجاهد فيما يبدو لكي لا تسقط مغشيا عليها. وكان كلاهما صامتا. كانت جالسة وهو واقف وقد أفرعه ارتباكها، دون أن يجرؤ على الجلوس بجوارها. وصدحت آلات الكمان والناي التي كان العازفون يضبطونها، وتملكهما الرعب فجأة، وخيل إليهما أن الأنظار تتطلع إليهما من جميع المقصورات. ولكن هاهي ذى قد نهضت واتجهت بسرعة نحو باب الخروج، فتبعها. وسارا معا يتخبطان في الطرقات والسلالم صاعدين هابطين، ومرق أمام عيونهما أناس ما في سترات قضاة ومعلمين وموظفين، ومرقت نساء، ومعاطف فرو على المشاجب، ولفحهما تيار هواء حاملا رائحة أعقاب السجائر. وفكر جوروف وقلبه يخفق بعنف: «آوه يا إلهي. لِمَ هؤلاء الناس، وهذا الأوركسترا؟».

وفي تلك اللحظة تذكر فجأة ذلك المساء في محطة القطار، عندما ودع أنا سرجيفنا وقال لنفسه إن كل شيء قد انتهى ولن يلتقيا بعد ذلك أبدا. ولكن كم كانت النهاية بعيدة!

وعلى سلم ضيق مظلم كتب عليه «مدخل أعلى المسرح» توقفت.

- كم أفرغتني! - قالت وهي تتنفس بصعوبة ولا تزال شاحبة مأخوذة - آوه، كم أفرغتني! أنا حية بالكاد. لماذا جئت؟ لماذا؟

فقال جوروف بصوت خافت على عجل:

- افهميني يا أنا، افهميني.. أتوسل إليك، افهميني..

كانت تتطلع إليه بخوف، وتوسل، وحب، بنظرة ثابتة لكي تطيع ملامحه في ذاكرتها طويلا.

ومضت تقول دون أن تصغي إليه:

- كم أتعذب! كنت طوال الوقت أفكر فيك وحدك، وكنت أعيش بفكرى معك. وأردت أن أنسى، أنسى، فلماذا جئت، لماذا؟

على بسطة السلم العليا كان يقف طالبان، يدخنان ويتطلعان إلى أسفل، ولكن جوروف لم يعد يلقي بالالشيء، فجذب أنا سرجيفنا نحوه، وأخذ يقبل وجهها وخديها ويديها.

فقالت برعب وهي تدفعه عنها:

- ما الذى تفعله، ما الذى تفعله! لقد أصابنا الجنون. ارحل اليوم، ارحل الآن.. أستحلفك بكل القديسين، أتوسل إليك.. إنهم قادمون إلى هنا! كان هناك شخص يصعد الدرج.

ومضت أنا سرجيفنا تقول همسا:

- ينبغي أن ترحل، أسمعنى يا ديمتري ديمتريتش؟ سأجىء إليك فى موسكو. أنا لم أكن أبدا سعيدة، والآن أصبحت تعيسة، ولن أكون أبدا سعيدة، أبدا! لا تجعلنى إذن أتعذب أكثر! أقسم لك إننى سأتى إلى موسكو. والآن لنفترق! يا عزيزى، يا حبيبى الطيب، لنفترق!

وصافحته ومضت تهبط الدرج بسرعة وهي تلتفت نحوه كثيرا، وكان واضحا فى عينيها أنها لم تكن سعيدة بالفعل.. ولبث جوروف فى مكانه قليلا وهو يرهف السمع، وعندما هدا كل شيء بحث عن معطفه وغادر المسرح.

٤

وأصبحت أنا سرجيفنا تأتى إليه فى موسكو. كانت تغادر (س) مرة كل شهرين أو ثلاثة وتقول لزوجها إنها ذاهبة لاستشارة بروفيسور بخصوص مرض نسائى، فكان زوجها يصدقها ولا يصدقها. وعندما تصل إلى موسكو كانت تنزل

فى «سلافيانسكى بازار» وترسل إلى جوروف على الفور رسولا على رأسه قبة حمراء وكان جوروف يذهب إليها ولا يعلم أحد فى موسكو بذلك.

وذات مرة كان ذاهبا إليها فى صباح شتائى (جاءه الرسول قبلها فى المساء فلم يجده). وكانت بصحبته ابنته التى أراد أن يوصلها إلى المدرسة فى طريقه. وتساقط ثلج مبلل كبير الندف.

وقال جوروف لابنته:

- درجة الحرارة الآن ثلاثة فوق الصفر ومع ذلك يسقط الثلج. ولكن الجو دافئ فوق سطح الأرض فقط، أما فى طبقات الجو العليا فالحرارة مختلفة تماما.

- بابا، ولماذا لا يرعد الرعد فى الشتاء؟

فشرح لها ذلك أيضا. كان يفكر وهو يتكلم فى أنه ذاهب الآن إلى موعد، ولا يعلم بذلك أى إنسان، وربما لن يعلم. كان يعيش حياتين: حياة ظاهرة، يعرفها ويراهها كل من ينبغى أن يعرفها ويراهها، حياة مليئة بالصدق النسبى والخداع النسبى، وتشبه تماما حياة معارفه وأصدقائه، وحياة أخرى تمضى سرا. وحسب اتساق غريب للظروف، ربما كان عرضا، جرى كل ما كان بالنسبة له مهما، وطريفا، وضروريا، كل ما كان فيه مخلصا وصادقا مع نفسه، كل ما كان يشكل نواة حياته، جرى فى سرية عن الآخرين. أما ما كان كذبا، وقشرة يختبئ خلفها ليخفى الحقيقة، كعمله فى البنك مثلا، ومناقشاته فى النادى، و«جنسه المنحط»، وتردده مع زوجته على الحفلات - كل ذلك كان ظاهرا. وحسب حاله كان يحكم على الآخرين ولا يصدق ما يراه ويعتقد دائما أن لكل إنسان حياته الحقيقية، الشيقة التى تمضى تحت ستار السرية مثلما تحت جناح الليل وكل مخلوق فرد يقوم وجوده على الأسرار، وربما لذلك يسعى الإنسان المثقف بقلق من أجل أن تحترم الأسرار الشخصية.

وبعد أن أوصَلَ جوروف ابنته إلى المدرسة اتجه إلى «سلافيانسكى بازار». وخلع معطفه فى الأسفل وصعد ودق الباب بخفة. كانت أنا سرجييفنا فى فستانها الرمادى المحبب إليه تنتظره منذ مساء الأمس وقد أزهقها السفر والانتظار. كانت شاحبة وتطلعت إليه دون أن تبسم، وما إن دخل حتى ارتمت على صدره. وكانت قبلتها طويلة، ممتدة، كأنما لم يلتقيا منذ عامين.

وسألها جوروف:

- كيف حالك؟ ماذا هناك من جديد؟

- مهلا، سأخبرك الآن.. لا أستطيع.

لم تستطع أن تتكلم، فقد كانت تبكى. واستدارت عنه وضغطت على عينيها بالمنديل.

وقال جوروف لنفسه: «فلتبك قليلا ولأجلس أنا» وجلس فى المقعد.

ثم دق الجرس وطلب شايا. وبعد ذلك، وبينما كان يشرب الشاي، ظلت هى واقفة ووجهها إلى النافذة.. كانت تبكى من الاضطراب، ومن إدراكها الحزين بأن حياتهما تمضى على هذا النحو البائس إذ لا يلتقيان إلا سرا، ويختبئان من الناس كاللصوص! أليست حياتهما محطمة؟

وقال جوروف:

- هيا، كفأك بكاء.

كان من الواضح له أن جبهما هذا لن ينتهى قريبا، وليس معروفا متى ينتهى. وتعلقت به أنا سرجييفنا أكثر فأكثر، وكانت متيمة به، ولم يكن من المعقول أن يقول لها إن كل ذلك لا بد أن تكون له فى وقت ما نهاية. وما كانت لتصدق ذلك.

واقترب منها وأمسك بكتفها لكى يلاطفها ويداعبها، وفى تلك اللحظة رأى صورته فى المرأة.

كان رأسه قد بدأ يشيب. وبدا له غريباً أنه هرم وتدهور إلى هذه الدرجة في الآونة الأخيرة. وكانت الكتفان اللتان وضع عليهما يديه دافئتين ترتعشان. وأحس بالعطف على هذه الحياة، التي كانت لا تزال دافئة جميلة، ولكنها ربما تقترب من الذبول والانطفاء كحياته هو. ترى لماذا تحبه هكذا؟ لقد كان يبدو للنساء دائماً على غير حقيقته، ولم يكن يحببته هو نفسه، بل يحبب فيه الرجل الذي صنعه خيالهن والذي كنَّ يبحثن عنه في حياتهن بنهم. وبعد ذلك، عندما يدركن خطأهن، كنَّ مع ذلك يحببته. ولم تكن أى منهن سعيدة معه. وكان الزمن يمضى وهو يتعرف ويصادق ويفارق، ولكنه لم يعرف الحب مرة واحدة. كان ذلك أى شىء سوى أن يكون حبا.

والآن فقط، عندما شاب رأسه، أحب كما ينبغي، حبا حقيقا. لأول مرة في حياته.

أحبا هو وأنا سر جيفنا بعضهما البعض كشخصين قرييين جدا، كأهل، كزوج وزوجة، كصديقين رقيقين، وبدا لهما أن القدر نفسه قد هياهما أحدهما للآخر، ولم يكن مفهوما لماذا هو متزوج وهى متزوجة. وكأنما كانا طائرين مهاجرين، ذكرا وأنثى، أمسكوا بهما وأجبروهما على العيش في قفصين منفردين. لقد غفرا لبعضهما البعض كل ما كانا يخجلان منه في ماضيهما، وغفرا كل ما فى حاضرهما، وأحسا أن حبهما هذا قد غيرهما كليهما.

وكان فى لحظات الحزن سابقا يطمئن نفسه بشتى الأفكار التى كانت ترد إلى ذهنه، أما الآن فكان فى شاغل عن الأفكار. كان يشعر بشفقة عميقة وبرغبة فى أن يكون صادقا ورقيقا..

وقال لها:

- كفى بكاء يا حبيبتي، هذا يكفى.. تعالى نتحدث وسوف نصل إلى حل.

وظلا يتشاوران طويلا ويتحدثان في كيفية التخلص من التخفى والخداع

والمعيشة في مدينتين مختلفتين والفراق الطويل، وكيف يتحرران من هذه الأغلال التي لا نطاق.

- كيف؟ كيف؟ - تساءل وهو يمسك برأسه - كيف؟

وبدا له أنه لم يبق إلا قليل ويعثر على الحل، وعندها تبدأ حياة جديدة رائعة. وكان من الواضح لهما معا أن النهاية لا تزال بعيدة بعيدة، وأن أعقد شيء وأصعبه يبدأ لتوه.

العروس

١

كانت الساعة العاشرة مساءً، والبدر المكتمل يسطع فوق الحديقة. وفي منزل آل شومين انتهت لتوها صلاة الليل التي أقيمت بطلب من الجدة مارفا ميخايلوفنا، وأصبحت نادية - التي خرجت إلى الحديقة لدقيقة - ترى كيف يعدون المائدة في القاعة، وكيف كانت الجدة تروح وتجيء في فستانها الحريري المتنفخ. أما الأب أندريه، راعى الكاتدرائية، فكان يتحدث عن شيء ما مع نينا إيفانوفنا والدة نادية، وأصبحت أمها الآن في ضوء المساء تبدو خلال النافذة لسبب ما شابة جدًا. ويجوارهما وقف أندريه أندريتش ابن الأب أندريه، مصغيًا بانتباه.

كان الجو في الحديقة هادئًا، باردًا، وامتدت على الأرض ظلال داكنة ساكنة. وتناهى من مكان بعيد، بعيد جدًا، ربما وراء المدينة، نقيق الضفادع. وانتشرت في الجوارثحة مايو، مايو الحبيب! وتسرب الهواء عميقًا في الصدر، واستبدت بنادية الرغبة في التفكير بأنه في مكان ما غير هذا المكان، تحت السماء، وفوق الأشجار، بعيدًا وراء المدينة، في الحقول والغابات انطلقت الآن حياة الربيع الخاصة، الغامضة، الرائعة، الخصبة والمقدسة، البعيدة عن إدراك الإنسان الضعيف المذنب. وأرادت أن تبكي لسبب ما.

كانت نادية في الثالثة والعشرين. ومنذ أن بلغت السادسة عشرة وهي تحلم

بالزواج بشغف، وها هي ذى أخيراً قد أصبحت عروس أندريه أندريتش، ذلك الذى يقف وراء النافذة. كان يروق لها، وقد تحدد يوم الزفاف فى السابع من يوليو، ومع ذلك لم تشعر بالفرحة، وكانت تنام نومًا سيئًا، وهجرها المرح.. ومن القبو الذى كان المطبخ فيه، تناهى عبر النافذة المفتوحة صوت الحركة المستعجلة ورنين السكاكين وصفق الباب، وانبعثت روائح الديك الرومى المحمر والكرز المخمل. ولسبب ما خيل إليها أن ذلك سوف يظل هكذا طوال الحياة، دون تغيير!

ها هو ذا شخص يخرج من المنزل ويقف على السلامك. إنه ألكسندر تيموفتش، أو ببساطة ساشا، الضيف الذى جاء من موسكو منذ عشرة أيام. منذ زمن بعيد كانت تتردد على الجدة طلباً للصدقة لإحدى قريباتها من بعيد، وتدعى ماريا بتروفنا. وكانت أرملة من النبلاء المفلسين، صغيرة، نحيلة، مريضة. وكان لديها ابن، هو ساشا. ولسبب ما قيل إنه مصور بارع، ولما ماتت أمه، أرسلته الجدة، زكاة عن نفسها، إلى موسكو، إلى معهد كوميساروفسكويه. وبعد حوالى ستين انتقل إلى معهد التصوير، وقضى فيه زهاء خمسة عشر عامًا. وتخرج كيفما كان من قسم العمارة، ومع ذلك لم يمارس العمارة، بل عمل فى إحدى ورش التشكيل بموسكو. وكان يأتى كل صيف تقريباً إلى الجدة، وهو مريض عادة، لكى يستريح ويشفى.

كان يرتدى الآن سترة مزررة وسروالاً قديماً من القماش السميك، مجعداً فى الأسفل. ولم يكن قميصه مكويًا، وكانت هيئاته كلها تبدو ذابلة. كان نحيلًا للغاية، بعينين واسعتين، وأصابع طويلة دقيقة، ولحية، وكان أسمر، جميلًا رغم ذلك. وقد ألفت آل شومين كأهله، وكان يحس وسطهم كأنه فى بيته. والغرفة التى كان ينزل فيها هنا كانت تسمى منذ زمن بعيد غرفة ساشا.

ورأى نادية وهو واقف على السلامك فاتجه نحوها.

وقال:

- ما أجمل المكان عندكم هنا.

- طبعًا جميل. ابق هنا حتى الخريف.

- نعم، يبدو أنني سأفعل، سأبقى لديكم على الأرجح حتى سبتمبر.

وضحك دون سبب وجلس بقربها.

وقالت نادية:

- إنني أجلس هنا وأنظر إلى أمي. إنها تبدو من هنا شابة للغاية! - وأضافت

بعد صمت قصير - بالطبع لدى أمي بعض الجوانب الغريبة، ولكنها رغم ذلك امرأة رائعة.

فقال ساشا مؤمنًا:

- نعم، طيبة.. إن أمك امرأة طيبة ورقيقة جدًا، بالطبع على طريقتها الخاصة، ولكن.. كيف أوضح لك؟ لقد دخلت مطبخكم اليوم في الصباح الباكر، فرأيت هناك أربع خادومات ينمن على الأرض مباشرة، وليس هناك أسرة، وبدلاً من الفراش أسمال بالية، وروائح كريهة، وبق وصراصير.. نفس الوضع الذي كان منذ عشرين عامًا، دون أي تغيير. حسنًا، بالنسبة للجددة واضح، ليغفر لها الله، ولكن ماما، أظن أنها تتحدث الفرنسية وتشارك في العروض المسرحية. من المفروض أن تدرك.

عندما كان ساشا يتكلم، كان يسطر أمام المستمع أصبعين طويلتين نحيفتين.

ومضى يقول:

- كل شيء هنا يبدو لي غريبًا غير مألوف. الشيطان يعلم ما هذا. إن أحدًا لا يريد أن يعمل. أمك تقضي النهار في التنزه وكأنها إحدى الدوقات، والجددة أيضًا لا تفعل شيئًا، وأنت أيضًا. وعريسك أندريه أندريتش أيضًا لا يفعل شيئًا.

سمعت نادبة هذا فى العام الماضى أيضًا، وبدو فى العام الأسبق كذلك، وكانت تعلم أن ساشا لا يمكن أن يفكر بصورة أخرى، وكان ذلك يضحكها فى السابق، لكنها لسبب ما أحست الآن بالأسى.

وقالت وهى تنهض:

- كل هذا قديم وملته من زمان. عليك أن تخترع شيئًا أكثر جدة.

فضحك ونهض هو الآخر، وسارا نحو المنزل. وبدأت بطولها وجمالها ورشاقتها بجواره صحيحة جدًا وأنيقة. وأحست هى بذلك فشعرت بالثناء له وبالخرج لسبب ما.

وقالت له:

- ثم إنك تقول كلامًا كثيرًا زائدًا. ها قد تحدثت لتوك عن أندريه خطيبى، مع أنك لا تعرفه.

- أندريه خطيبى.. دعينا منه أندريه خطيبك! ولكنى أرئى لشبابك.

عندما دخلا القاعة كان الحاضرون قد جلسوا إلى المائدة. وكانت الجدة، البدينة، الدميمة، بحاجبيها الغزيرين وشاربها الدقيق، تتحدث بصوت عال، وبدأ من صوتها وطريقة كلامها أنها ربة المنزل. كانت تملك حوانيت فى السوق وبيتًا قديمًا بأعمدة وحديقة، ولكنها كانت تصلى لله كل صباح ليحميها من الإفلاس وتبكى فى أثناء ذلك. وكانت هنا زوجة ابنها نينا أيفانوفنا، والدة نادبة، الشقراء المشدودة بالكورسيه بقوة، والتى تضع عوينات وخاتمًا ماسيًا فى كل أصبع، وكان هنا أيضًا الأب أندريه، وهو عجوز نحيف، بلا أسنان، وعلى وجهه تعبير من ينوى أن يروى شيئًا مضحكًا للغاية، وابنه أندريه أندريتش، خطيب نادبة، وهو رجل ممتلئ وجميل، بشعر مجعد الخصلات، ويشبه ممثلًا أو مصورًا. وكانوا ثلاثتهم يتحدثون عن التنويم المغنطيسى.

وقالت الجدة مخاطبة ساشا:

ستسرد عافيتك عندى فى أسبوع. فقط كل أكثر - وتنهدت وقالت - انظر ماذا تشبه! لقد أصبحت مرعباً! يالك من ابن ضال حقاً.

وقال الأب أندريه ببطء والابتسامة تشع من عينيه:

- وبعد أن بدد ميراث أبيه، هام الملعون على وجهه مع البهائم..

فقال أندريه أندريتش وهو يضع يده على كتف أبيه:

- كم أحب والدى. إنه عجوز رائع. عجوز طيب.

وصمت الجميع. وفجأة ضحك ساشا وغطى فمه بالمنشفة.

وسأل الأب أندريه نينا إيفانوفنا:

- إذن فأنت تؤمنين بالتنويم المغنطيسى؟

فأجابت وهى تضحى على وجهها تعبيراً جاداً للغاية بل وصارماً:

- أنا لا أستطيع أن أؤكد أننى أؤمن، ولكن ينبغى أن أعترف أن هناك الكثير من الأشياء الغامضة وغير المفهومه فى الطبيعة.

- أنا متفق معك تمامًا، وإن كنت أجد لزاماً على أن أضيف بأن الإيمان يضيق لنا إلى حد كبير مجال الأشياء الغامضة.

وحمل الخدم ديكاً رومياً كبيراً وسميناً جداً. وواصلت نينا إيفانوفنا والأب أندريه حوارهما. كانت الخواتم الماسية تلمع فى أصابع نينا إيفانوفنا، ثم لمعت الدموع فى عينها إذ كانت مضطربة. وقالت:

- رغم أنى لا أجرؤ على مجادلتك، ولكن أرجو أن توافقنى على أن الحياة مليئة بالألغاز التى لم تحل!

- ولا لغز واحد، أستطيع أن أؤكد لك.

وبعد العشاء عزف أندريه أندريتش على الكمان وصاحبه نينا إيفانوفنا على

المعزف. كان قد تخرج منذ عشر سنوات من كلية الآداب بالجامعة، ولكنه لم يلتحق بالخدمة ولم يكن يزاول عملاً محدداً، وكان نادراً ما يشارك في الحفلات الموسيقية للأغراض الخيرية. وسموه في المدينة بالفنان.

كان أندريه أندريتش يعزف، والجميع يصغون في صمت. وعلى المائدة كان السماور يغلى بهدوء، ولم يشرب الشاي أحد سوى ساشا. وعندما دقت الساعة الثانية عشرة انقطع فجأة وتر في الكمان فضحك الجميع، وساد بعض الهرج، ثم أخذوا يودعون.

وبعد أن ودعت نادبة خطيها صعدت إلى غرفتها بالطابق الثاني حيث كانت تعيش مع أمها (كان الطابق الأسفل للجدّة). وفي الأسفل أخذوا يطفئون الأنوار في القاعة بينما ظل ساشا جالساً يشرب الشاي. كان دائماً يستغرق وقتاً طويلاً في شرب الشاي، على الطريقة الموسكوفية، فيشرب حوالي سبعة أكواب في المرة الواحدة. وظلت نادبة تسمع طويلاً، بعد أن خلعت ثيابها وأوت إلى الفراش، أصوات الخدم وهم يجمعون الأواني، والجدّة وهي تصيح غاضبة. ثم هدأ أخيراً كل شيء، ولم يعد مسموعاً سوى سعال متقطع صادر عن غرفة ساشا في الأسفل.

٢

يبدو أن الساعة كانت حوالي الثانية عندما استيقظت نادبة، فقد بدأ الفجر يلوح. وفي مكان ما دق الحارس منبهاً. لم تكن راغبة في النوم وكان مرقدها ليناً جداً، غير مريح. وكما في كل ليالي مايو السابقة جلست في السرير وراحت تفكر. وكانت أفكارها هي نفس أفكار الليلة السابقة، أفكاراً رتيبة، لا ضرورة لها، أفكاراً ملحة حول أندريه أندريتش وكيف أخذ يتودد إليها وعرض عليها الزواج فقبلت، ثم استطاعت شيئاً فشيئاً أن تقدر هذا الشخص الطيب الذكي.

لكنها لا تعرف لماذا أصبحت الآن، ولم يبق على العرس أكثر من شهر، تحس بالخوف والقلق، كأنما ينتظرها شيء غير واضح وصعب.

ودق الحارس بكسل: «تك.. تك، تك.. تك..»

عبر النافذة الكبيرة القديمة تراءى البستان، ومن بعده خمائل البنفسج المزهرة الكثيفة، الناعسة والذابلة من البرد.

ويقرب الضباب الأبيض الكثيف من البنفسج ببطء ويريد أن يغطيه. وعلى الأشجار البعيدة تصبح الغربان الناعسة.

- يا إلهي، لماذا أشعر بهذا الضيق!

ربما هذا هو ما تحسه كل فتاة قبيل العرس، من يدري! أم إن هذا من تأثير ساشا؟ ولكن ساشا يقول نفس الكلام منذ عدة سنوات متتالية، وكأنه يقرأ من كتاب، وعندما يتكلم يبدو ساذجًا وغريبًا. ولكن لماذا لا يخرج ساشا من رأسي؟ لماذا؟

كف الحارس منذ وقت طويل عن الدق، وصاحت الطيور تحت النافذة في البستان، وانقشع الضباب عن البستان وشع كل شيء بنور ربيعي وكأنه يتسم، وسرعان ما استيقظ البستان كله وقد أدفأته الشمس وداعبته، ولمعت قطرات الندى كالماسات على الأوراق. وفي هذا الصباح بدا البستان العجوز، المهمل منذ أمد بعيد، فتياً وأنيقاً.

واستيقظت الجدة. وسعل ساشا بصوت غليظ أجش.

وتناهت من أسفل أصوات الخدم وهم يضعون السماور ويزحزون المقاعد.

الساعات تمضي ببطء. لقد استيقظت نادية منذ زمن طويل، وتزهت في البستان منذ زمن طويل، ومع ذلك لا يزال الصباح ممتداً.

وها هي ذى نينا إيفانوفنا، دامعة العينين، تمسك بكوب مياه معدنية. لقد

كانت تمارس تحضير الأرواح، والعلاج بالأعشاب، وتقرأ كثيراً، وتهوى الحديث عن الشكوك التى تتابها، وبدا كل ذلك لنادية مشتتلاً على مغزى غامض عميق. وها هى ذى نادية تقبل أمها وتمضى إلى جوارها.
وسألته:

- ما الذى أبكاك يا ماما؟

- ليلة أمس أخذت أقرأ رواية تتحدث عن رجل عجوز وابنته. والعجوز يعمل فى مكان ما، لا أذكر، وأحب رئيسه ابنة العجوز. لم أكمل الرواية، ولكن فيها موضعاً لم أستطع أن أمنع فيه دموعى - قالت نينا إيفانوفنا وجرعت من الكوب جرعة - لقد تذكرت ذلك الموضع اليوم فبكيت أيضاً.
وقالت نادية بعد صمت:

- أما أنا فأشعر بالنعاسة فى هذه الأيام. لماذا لا أنام الليل؟

- لست أدري يا عزيزتى. أما أنا فعندما يجافيني النوم، أغمض عيني بقوة، هكذا، وأتخيل أنا كارينينا^(١)، وكيف تسير وتتحدث، أو أتخيل شيئاً تاريخياً من العالم القديم..

وأحست نادية أن أمها لا تفهمها ولا تستطيع أن تفهمها. أحست بذلك لأول مرة فى حياتها، حتى لقد أصابها الجزع، وراودتها رغبة فى الاختفاء، فصعدت إلى غرفتها.

وفى الثانية جلسوا إلى مائدة الغداء. كان اليوم أربعاء، يوم صيام، ولذلك قدموا للجدة حساء «البورش» بدون سمن، وسمكة الإبريس بالعصيدة.

ولكى يثير الجدة أكل ساشا حساء الدسم وحساء «البورش» بدون السمن. وكان يمزح طوال فترة الغداء، ولكن نكاته كانت ثقيلة، ودائماً ذات موعظة

(١) بطله رواية ليف تولستوى التى تحمل الرواية اسمها. (المغرب).

خلقية فلم تثر الضحك أبداً عندما كان يرفع أصابعه الطويلة جداً، النحيلة وكأنها ميتة، قبل أن يمزح. وعندما يطوف بالذهن أنه مريض وربما لن يعمر كثيراً في هذه الدنيا، يزداد الرثاء له إلى درجة البكاء.

وانصرفت الجدة بعد الغداء إلى غرفتها لتستريح. وعزفت نينا إيفانوفنا قليلاً على المعزف ثم انصرفت هي الأخرى.

وبداً ساشا حديثه المعهود بعد الغداء:

- آه يا نادية العزيزة لو سمعت كلامي! لو!

كانت غائصة في مقعد عتيق، وقد أغمضت عينيها، بينما كان هو يجوس في الغرفة ذهاباً وإياباً، ويقول:

- لو أنك رحلت للدراسة! الأشخاص المتورون والقديسون هم وحدهم الشيقون، هم وحدهم الضروريون، فكلما ازداد أمثال هؤلاء، اقترب موعد قيام ملكوت الله في الأرض. وعندئذ لا يبقى من مدينتكم بالتدريج حجر واحد.. كل شيء سينقلب رأساً على عقب، كل شيء سيتغير وكأنما مسه سحر. وستكون هنا عندئذ بيوت ضخمة عظيمة، وبساتين ساحرة، ونافورات مذهشة، وأناس رائعون.. ولكن ليس هذا هو المهم. المهم أن الغوغاء، كما نفهمهم نحن الآن، هذا الشر لن يعود موجوداً، لأن كل إنسان سيكون مؤمناً وسيعرف لماذا يعيش، ولن يبحث أحد عن ركيزة في الغوغاء. يا عزيزتي، سافري! أظهرى للجميع أن هذه الحياة الراكدة الرمادية الآثمة قد أضجرتك. أظهرى هذا ولو لنفسك!

- لا يصح يا ساشا، إننى سأتزوج.

- أوه، كفاك! من بحاجة إلى ذلك؟

وخرج إلى البستان وتمشياً قليلاً.

ومضى ساشا يقول:

- أيا كان الأمر يا عزيزتى ينبغى عليك أن تفكرى، أن تدركى كم هى ملوثة ولا أخلاقية حياتكم الفارغة هذه. ألا تفهمين أنه مثلاً، إذا كنت أنت وأملك وجدتك لا تفعلن شيئاً، فهذا يعنى أن أحداً ما يعمل بدلاً منكن، وإذن فأنتن تلتهمن حياة الآخرين، فهل هذا من الشرف، أليست وضاعة؟

أرادت نادبة أن تقول: «نعم، هذا صحيح»، وأرادت أن تقول إنها تدرك ذلك، ولكن الدموع تفرقت فى عينيها فسكنت فجأة وانكمشت وتفوقعت وذهبت إلى غرفتها.

قبيل المساء جاء أندريه أندريتش، وكالعادة عزف طويلاً على الكمان. وعموماً فقد كان قليل الكلام ويحب الكمان، ربما لأنه من الممكن أن يصمت أثناء العزف.

وفى الحادية عشرة، وهو خارج بعد أن ارتدى المعطف، ضم نادبة إليه وراح يقبل وجهها وكتفيها وذراعيها بنهم، وهو يدمدم:

- يا عزيزتى، يا رائعتى.. أوه كم أنا سعيد، إننى أجن إعجاباً!

وخيل إليها أنها سمعت ذلك منذ أمد بعيد، بعيد جداً، أو قرأته فى كتاب ما.. فى رواية قديمة، ممزقة، مهجورة من زمان.

فى القاعة كان ساشا جالساً إلى المائدة يشرب الشاي وقد وضع طبق الفنجان على أصابعه الخمس الطويلة. وكانت الجدة تفرش أوراق اللعب، ونينا إيفانوفنا تقرأ. وطقطق اللهب فى قنديل الأيقونة، وبدأ أن الهدوء والتوفيق يلفان كل شىء. وودعتهم نادبة وصعدت إلى أعلى ورقدت وسرعان ما نامت. ولكن كما فى الليلة السابقة، استيقظت ما إن انبجح الضوء. جفاها النوم، وأحست بالقلق والضيق. وجلست واضعة رأسها على ركبتيها وأخذت تفكر فى خطيبتها وفى الزفاف.. ولسبب ما تذكرت أن أمها لم تكن تحب المرحوم زوجها، ولم يعد لديها الآن شىء، وتعيش فى تبعية كاملة لحمايتها، للجدة. ولم تستطع

نادية بأى حال أن تفهم لماذا كانت ترى فى أمها حتى هذه اللحظة شيئاً خاصاً، غير عادى، ولماذا لم تلاحظ أنها امرأة عادية، بسيطة، نعيسة.

ولم يكن ساشا أيضاً نائماً فى الأسفل، فقد تناهى سعاله من هناك. وفكرت نادية بأنه شخص غريب ساذج. وفى جميع أحلامه، فى جميع بساينه الساحرة ونافوراته المدهشة تحس بشيء أخرق. ولكن لم يبدو فى سذاجته وحتى فى هذا الخرق قدر كبير من الروعة، لدرجة أنها ما إن فكرت فى الرحيل للدراسة مجرد تفكير حتى غاص قلبها وامتلاً بالفرحة والإعجاب؟

وهمست لنفسها:

- ولكن من الأفضل ألا أفكر.. من الأفضل ألا أفكر. لا يجب أن أفكر فى هذا.

وفى مكان بعيد دق الحارس: «توك.. توك.. توك.. توك.. توك.. توك..»

٣

فى منتصف يونيو أحس ساشا بالوحشة فجأة ومضى يستعد للرحيل. وقال عابساً:

- لا أستطيع أن أعيش فى هذه المدينة، لا مياه شرب ولا مجارى! إننى أنقرز من تناول الغداء، والمطبخ قدر بصورة لا تطاق..

وقالت الجدة تقنعه بصوت هامس لسبب ما:

- انتظر أيها الابن الضال! العرس فى السابع من يوليو!

- لا أريد.

- كنت تريد أن تبقى عندنا حتى سبتمبر!

- لكنى الآن لا أريد. ينبغى أن أعمل!

كان الصيف رطباً بارداً، والأشجار مبللة، وبدا كل شيء فى البستان متجهماً مهموماً، وبالفعل كان هناك تشوق للعمل. وفى غرف الطابقين الأعلى والأسفل ترددت أصوات نسائية غريبة، وطققت ماكينة الخياطة لدى الجدة: كانوا يعجلون بإعداد جهاز العروس. خصصوا لنادية من معاطف الفراء وحدها ستة، وأرخصها، حسب كلام الجدة، يساوى ثلاثمائة روبل! وأثار الهرج والمرج ساشا، فجلس فى غرفته محنقاً. ومع ذلك أقنعوه بالبقاء ووعد بالأسفار قبل أول يوليو.

مضى الوقت بسرعة. وفى عيد القديس بيوتر تمشى أندريه أندرييتش مع نادية بعد الغداء فى شارع موسكوفسكايا، لكى يتفقدوا مرة أخرى المنزل الذى استأجروه وجهازه منذ فترة طويلة لاستقبال العريس. كان منزلاً من طابقين، ولكن لم يكن مجهزاً بعد سوى الطابق الثانى. وكانت أرضية القاعة مطلية ببلون يشبه الباركيه وبها كراسى خيزران، ومعزف، وحامل نوتات للكمان. وفاحت رائحة الطلاء، وعلقت على الجدار لوحة كبيرة مؤطرة مرسومة بالألوان عارية بجوارها مزهريّة ليليكية بمقبض مكسور.

وقال أندريه أندرييتش وهو يتنهد احتراماً:

- لوحة رائعة، من رسم المصور شيشماتشيفسكى.

وبعد القاعة كانت غرفة جلوس بطاولة وكنبة ومقاعد مكسوة بقماش أزرق فاقع. وفوق الكنبه صورة فوتوغرافية كبيرة لوالد أندريه فى قلنسوة فخريّة وأوسمة. ثم دلفا إلى غرفة الطعام ذات البوفيه، ثم إلى غرفة النوم. كانت شبه مظلمة، تضم سريرين متجاورين، وبدا أنهم عندما فرشوا هذه الغرفة وضعوا فى اعتبارهم أن الحال سيكون هنا ممتازاً دائماً، ولا يمكن أن يكون على غير هذه الصورة. وطاف أندريه أندرييتش بنادية على الغرف وهو ممسك بخصرها طوال الوقت. أما هى فقد أحست بنفسها ضعيفة، مذنبه، وامتلات كراهية لهذه

الغرف والأسرة والمقاعد، وأحسست بالغثيان من منظر المرأة العارية. لقد أصبح من الواضح لها أنها لم تعد تحب أندريه أندرييتش، أو ربما لم تحبه أبداً. ولكن كيف تقول ذلك، ولمن تقوله، ولأى غرض، لم تكن تفهم ولا تستطيع أن تفهم، رغم أنها كانت تفكر فى ذلك طوال الأيام والليالي.. كان ممسكا بخصرها ويتحدث برقة وتواضع، وكان سعيدا جدا وهو يجول فى شقته هذه. أما هى فلم ترفى كل هذا سوى الابتذال، الابتذال الأحمق الساذج غير المحتمل، وبدت لها ذراعه التى تطوق خصرها قاسية باردة كالطوق، وكانت على استعداد فى كل لحظة لأن تولى هاربة، أو تتحب وتلقى بنفسها من النافذة. وقادها أندريه أندرييتش إلى الحمام ولمس صنبورا مركبا فى الحائط فسالت المياه فجأة.

فقال وهو يضحك:

- ماذا تقولين؟ لقد أمرت بصنع خزان فى السقف سعته مائة دلو، وسيصبح لدينا الآن مياه فى المنزل.

وسارا فى الفناء ثم خرجا إلى الشارع فاستقلا عربة. كان الغبار يثور سحببات كثيفة، وبدا أن المطر على وشك السقوط.

وسألها أندريه أندرييتش وهو يزر عينيه من الغبار:

- هل تشعرين بالبرد؟

فلزمت الصمت.

وقال هو بعد فترة صمت:

- أتذكرين بالأمس عندما لامنى ساشا لأنى لا أفعل شيئا. حسنا، إنه على حق! على حق مائة فى المائة! أنا لا أفعل شيئا ولا أستطيع أن أفعل. ما السبب فى ذلك يا عزيزتى؟ لماذا أشعر بالقرف من مجرد فكرة أن أضع عمرة على رأسى فى وقت ما وألتحق بوظيفة؟ لماذا أشعر بالضيق عندما أرى محاميا، أو مدرس اللغة اللاتينية أو عضو مجلس المدينة؟ أوه أمانا روسيا! يا أمانا روسيا،

كم ما زلت تحمّلين على ظهرك من أناس فارغين لا فائدة منهم! كم فيك من أشخاص مثلي أيتها المعذبة!

وجعل من عدم قيامه بشيء وضعاً عاماً ورأى فيه دلالة العصر. واستطرد يقول:

- عندما نتزوج سنذهب معا إلى القرية يا عزيزتى ونعمل هناك! سنشتري قطعة أرض صغيرة ببستان ونهر، وسوف نكدح ونتأمل الحياة... أوه ما أطيب ذلك!

ونزع قبعة فتطاير شعره فى الريح، أما هى فكانت تصغى إليه وتفكر: «يا إلهى، أريد أن أعود إلى المنزل، يا إلهى!». وقرب المنزل لحقاً بالأب أندريه.

فقال أندريه أندريتش سعيداً وهو يلوح بقبعة:

- ها هو ذا أبى هناك! كم أحب والدى حقاً - قال وهو يحاسب الحوذى - عجوز رائع، عجوز طيب.

دخلت نادية المنزل غاضبة، مريضة، وهى تفكر بأن المساء كله سيكون مشغولاً بالضيوف، وأن عليها أن تسليهم، وتبتسم، وتصغى إلى الكمان وتسمع أى هراء، ولا تتحدث إلا عن الزفاف. وكانت الجدة جالسة بجوار السماور، وتبدو هامة، متنفخة فى فستانها الحريري، ومتعالية كما كانت تتظاهر دائماً فى حضرة الضيوف. ودخل الأب أندريه بابتسامته الماكرة.

وقال للجدة محيياً:

- يسعدنى ويطيب لى أن أراك فى كامل عافيتك.

وكان من الصعب أن تفهم هل يمزح أم يقول جدّاً.

قرعت الريح النوافذ والسقف وتردد صغير، وغنى عفريت البيت فى مدخنة المدفأة أغنيته باسترحام وجهامة. كانت الساعة الأولى بعد منتصف الليل. وأوى الجميع فى المنزل إلى أسرتهـم ولكن أحد لم ينم، وتراءى لنادية أن الكمان لا يزال يعزف فى الأسفل. وسمعت طرقة حادة، لا بد أن مصراع الشيش قد انكسر. وبعد دقيقة دخلت نينا إيفانوفنا فى قميص النوم ويدها شمعة. وسألت:

- ما هذا الذى طرق يا نادية؟

وبدت أمها فى هذه الليلة العاصفة، بشعرها المجدول صغيرة واحدة، وبابتسامتها الوجلة، أكبر سنا وأكثر دمامة وأقصر قامة. وتذكرت نادية كيف كانت تعد أمها منذ فترة قريبة امرأة غير عادية وكانت تصغى بفخر إلى ما تقوله من كلمات. أما الآن فلم تستطع أبدا أن تتذكر تلك الكلمات، وكل ما خطر ببالها كان باهتا، لا لزوم له.

وتردد فى المدفأة غناء عدة أصوات غليظة، بل سمعت حتى كلمة: «آه، يا إلهى!» وجلست نادية فى الفراش وفجأة شدت شعرها بقوة وانفجرت بالنعيب.

ودمدمت:

- ماما، ماما، يا حبيبتى، لو تعلمين ما أعانى! أرجوك، أتوسل إليك، دعينى أسافر! أتوسل إليك!

فسألت نينا إيفانوفنا دون أن تفهم:

- إلى أين؟ إلى أين تسافرين؟

وجلست فى الفراش.

وبكت نادىة طويلاً دون أن تستطيع أن تنطق بكلمة وأخيراً قالت:

- دعينى أرحل من المدينة! لا ينبغى أن يتم الزفاف، ولن يتم؟.. افهينى، أنا لا أحب هذا الشخص.. ولا أستطيع أن أتحدث عنه.

فقالَت نينا إيفانوفنا بسرعة وقد خافت بشدة:

- كلا، يا حبيبتى، كلا.. اهذى، هذا بسبب المزاج المعتل. سيزول. هذا يحدث أحياناً. ربما اختلفت مع أندريه، ولكن شجار المحبين لهو.

فقالَت نادىة متتجة:

- حسناً، اذهبى يا ماما، اذهبى!

وصمتت نينا إيفانوفنا ثم قالت:

- نعم، منذ فترة قريبة كانت طفلة، صبية، والآن أصبحت عروساً. فى الطبيعة يحدث دائماً تمثيل غذائى. ولن تلاحظى إلا وقد أصبحت أما وعجوزاً، وستكون لديك ابنة متمردة مثلما لدى.

فقالَت نادىة:

- يا حبيبتى الطيبة، إنك ذكية، إنك تعيسة، أنت تعيسة جداً، فلماذا تقولين أشياء وضيعة؟ لماذا، أستحلفك بالله؟

وأرادت نينا إيفانوفنا أن تقول شيئاً، ولكنها لم تستطيع أن تنبس بكلمة فأجهشت وانصرفت. وعادت الأصوات الغليظة تتر فى المدفأة، وشعرت نادىة بالخوف فجأة، فقفزت من السرير وأسرعت إلى أمها. كانت نينا إيفانوفنا راقدة فى الفراش، دامعة العينين، مغطاة ببطانية زرقاء وممسكة فى يديها بكتاب.

وقالت نادية:

- أصغى إلى يا ماما! أتوسل إليك أن تتمعنى وتفهمى! انظرى كم هى ضحلة ومهينة حياتنا. لقد فتحت عينى وأرى الآن كل شىء. وما هو أندريه أندريتش هذا؟ إنه غير ذكى يا ماما! يا إلهى، يا ربى! افهمى يا ماما، إنه غبى!

فجلست نينا إيفانوفنا بحدة، وقالت وهى تجهش:

- أنت وجدتك تعذباننى! أنا أريد أن أعيش! أن أعيش! - رددت وضربت على صدرها بقبضتها مرتين - أعطونى حريتى! أنا ما زلت شابة، وأريد أن أعيش! أما أنتم فجعلتم منى عجوزا!..

وبكت بحرقة ورقدت وتكورت تحت البطانية، فبدت جد صغيرة وبائسة وغبية. ومضت نادية إلى غرفتها فارتدت ملابسها وجلست إلى النافذة تنتظر الصباح. ظلت طول الليل جالسة تفكر بينما كان أحد ما يطرق الشيش طوال الوقت ويصفر.

وفى الصباح اشتكت الجدة من أن الريح فى الليل أسقطت كل التفاح فى البستان وكسرت شجرة برقوق عجوز. وكان الجو رماديا، كاياء، مقبضا يتطلب إشعال الضوء. واشتكى الجميع من البرد، وقرع المطر النوافذ وبعد تناول الشاي مضت نادية إلى ساشا، ودون أن تتفوه بكلمة ركعت على ركبتيها فى الركن بجوار المقعد وغطت وجهها بيديها.

فسألها ساشا:

- ماذا حدث؟

فدمدمت:

- لا أستطيع.. كيف احتملت العيشة هنا من قبل، لا أفهم، لا أتصور! إننى أحتقر خطيئى، أحتقر نفسى، أحتقر كل هذه الحياة الفارغة، العديمة المعنى..

قدمدم ساشا وهو لا يفهم بعد ماذا حدث:

- حسنا، حسنا، لا بأس، هذا حسن.

فمضت نادية تقول:

- مللت هذه الحياة. لن أتحمل هنا يوما واحدا. سأسافر غدا. خذني معك،
أستحلفك بالله!

ظل ساشا يحدق فيها بدهشة حوالى دقيقة، وأخيرا فهم ففرح كطفل. ولوح
بذراعيه وبدأ يدق بحذائه وكأنه يرقص من الفرح.

وقال وهو يفرك يديه:

- هذا رائع، يا إلهى ما أروع ذلك!

أما هي فحدقت فيه كالمسحورة، دون أن تطرف، بعينين واسعتين عاشقتين
متوقعة أن يقول لها الآن شيئا ذا قيمة، لا حدود لأهميته. ولم يكن قد قال شيئا
بعد لكنه خيل إليها أن شيئا ما جديدا عريضا لم تعرفه من قبل يتكشف أمامها،
فراحت تنظر إلى ساشا وكلها انتظار، ومستعدة لكل شيء حتى ولو للموت.

وقال بعد لحظة تفكير:

- غدا سأسافر، ولتذهبي إلى المحطة لوداعى.. سأخذ أمتعتك فى حقيتى
وأشترى لك تذكرة. وعندما يدق الجرس الثالث ادخلى العربة، ونرحل معا.
ستوصليننى إلى موسكو ثم تواصلين سفرك إلى بطرسبرج. هل لديك بطاقة
شخصية؟

- نعم.

وقال ساشا بحماس:

- أقسم لك إنك لن تندمى ولن تأسفى. وستسافرين وتلتحقين بالدراسة،

وليتو لك القدر. عندما تقلبين حياتك ستغير كل شيء. المهم أن تقلبي الحياة، وكل ما عدا ذلك غير مهم. حسنا، إذن سنسافر غدا؟
- نعم. أستحلفك بالله!

وخيل لنادية أنها مضطربة جدا، وأن قلبها منقبض كما لم ينقبض من قبل، وأن عليها من الآن وحتى الرحيل أن تعاني وتفكر بعذاب. ولكن ما إن صعدت إلى غرفتها وتمددت على السرير حتى غابت في سبات عميق حتى المساء، بوجه باك عليه ابتسامة.

٥

أرسلوا يستدعون عربة. وكانت نادبة قد ارتدت المعطف والقبعة، وصعدت إلى أعلى لتلقى نظرة أخرى على أمها وعلى كل ما لها. ووقفت في غرفتها بجوار الفراش الذي كان لا يزال دافئا، ونظرت حولها، ثم ذهبت بهدوء إلى غرفة أمها. كانت نينا إيفانوفنا نائمة، وساد الهدوء الغرفة. وقبلت نادبة أمها وسوت لها شعرها، وقفت حوالى دقيقتين.. ثم عادت إلى أسفل على مهل.

كان المطر شديدا في الخارج. ووقف الحوذي بعربته المغطاة بجوار الباب وملابسه كلها مبللة.

وقالت الجدة عندما بدأ الخدم يرتبون الحقائق في العربة:

- لن تسع لكما يا نادبة. ما حاجتك إلى التوديع في هذا الجو! هلا بقيت في البيت. يا للمطر!

وأرادت نادبة أن تقول شيئا ولكنها لم تستطع. وها هو ذا ساشا يجلس نادبة ويغطي ساقها بمنزرة. وها هو ذا نفسه يجلس بجوارها.

وصاحت الجدة من السلامك:

- طريق السلامة! فى رعاية الله! اكتب لنا يا ساشا من موسكو!

- حسنا، الوداع يا جدتى!

- فلترعك السماوات!

ودمدم ساشا:

- ياله من جو!

الآن فقط بكت نادية. أصبح واضحاً لها الآن أنها راحلة حتماً، الأمر الذى لم تكن واثقة منه عندما ودعت الجدة وعندما كانت تتطلع إلى أمها. وداعاً يا مدينة! وفجأة تذكرت كل شيء: أندريه، وأباه، والشقة الجديدة، والمرأة العادية مع المزهريّة، ولم تشعر بالخوف من كل ذلك ولم تحس له وطأة، وبدأ ساذجاً وتافها وتراجع إلى الوراء، إلى الوراء. وعندما استقلا العربية وتحرك القطار، انكشف كل هذا الماضى الكبير والخطير قبضة صغيرة، وتكشف مستقبل ضخم عريض لم يكن واضحاً قبل الآن، وقرع المطر زجاج العربية، ولم يظهر سوى حقل أخضر، ومرقت أعمدة البرق والطيور الجالسة على أسلاكها، وفجأة بهرتها السعادة، وتذكرت أنها ذاهبة إلى الحرية، ولتعلم، وهو نفس الأمر الذى كان يسمى فى الماضى البعيد الذهاب إلى القوزاق. لقد كانت تضحك وتبكي وتصلى.

وكان ساشا يردد مبتسماً:

- لا بأس، لا بأس!

مر الخريف، ومر من بعده الشتاء. وأصبحت نادية تعانى وحشة شديدة وتذكر كل يوم أمها وجدتها وتفكر فى ساشا. وكانت تتلقى من المنزل رسائل هادئة، طيبة، وبدا أن كل شيء قد غُفر ونُسى. وبعد الامتحانات، فى شهر مايو سافرت إلى البيت وهى ممتلئة صحة ومرحًا، وتوقفت أثناء الطريق فى موسكو لترى ساشا. وجدته مثلما كان فى الصيف الماضى: بلحية، منفوش الشعر، وفى نفس السترة والسروال الخشن، وبنفس العينين الواسعتين الرائعتين. ولكنه بدا مريضًا، مرهقًا، وهرم وهزل ولم يفارقه السعال. ولسبب ما بدا لنادية رماديا، ريفيا.

وقال وهو يضحك بمرح:

- يا إلهى، نادية جاءت! يا عزيزتى الوديدة!

وجلسا فى الورشة التى كانت معبأة بالدخان وفاحت فيها إلى درجة خائفة رائحة الجواش والأصباغ. ثم توجهتا إلى غرفته، وكانت معبأة بالدخان وأرضيتها مغطاة بالبصاق. وبجوار السماور البارد على الطاولة كان طبق مكسور وورقة سوداء، وكان على الطاولة وعلى الأرض عدد كبير من الذباب الميت. وبدا واضحا من كل شيء أن حياة ساشا الخاصة قد رتبت بإهمال، وكيفما اتفق، باحتقار تام للوازم الراحة، ولو أن أحدا تحدث معه عن سعادته الخاصة وحياته الخاصة وعن الحب الذى يكنه له لما فقه شيئا ولضحك.

وحدثته نادية بعجلة:

- لا بأس، كل شيء سار على ما يرام. زارتنى ماما فى بطرسبرج فى الخريف، وقالت إن جدتى غير غاضبة وإن كانت تتردد على غرفتى كثيرا وترسم علامة الصليب على الجدران.

وكان ساشا مرحًا، ولكنه كان يسعل ويتحدث بصوت مشروخ، وحدثت فيه نادية وهى لا تفهم أهو مريض مرضًا خطيرًا بالفعل أم أن ذلك يخيل إليها.
وقالت:

- ساشا، يا عزيزى، ولكنك مريض!
- كلا، لا بأس. إننى مريض ولكن ليس بشدة..
فاضطربت نادية وقالت:

- آه، يا إلهى، لماذا لا تعالج، لماذا لا تحافظ على صحتك؟ ساشا يا عزيزى الغالى - قالت وطفرت الدموع من عينيها - ولسبب ما تجلى فى خيالها إندرية إندريتش، والمرأة العارية والمزهرية، وكل ماضيها، الذى بدا لها الآن جد بعيد كالطفولة. وبكت لأن ساشا لم يعد يبدو لها جديدًا، مثقفًا، وممتعًا كما كان فى العام الماضى - ساشا يا عزيزى، أنت مريض جدًا جدًا. لا أدري ما الذى أستطيع أن أفعله لكى لا تكون شاحبًا ونحيلًا هكذا. كم أنا مدينة لك! أنت لا تستطيع حتى أن تتصور مدى ما فعلت من أجلى يا ساشا الغالى! أنت بالنسبة لى فى الواقع أقرب وأعز إنسان.

جلسا وتحدثا. وأحست نادية الآن، بعد أن قضت الشتاء فى بطرسبرج، أنه قد انبعثت من ساشا، ومن كلماته، ومن ابتسامته، ومن هيئته كلها روائح شيء عتيق، مضى وانتهى، بل ربما طواه القبر.
وقال ساشا:

- سأسافر بعد غد إلى الفولجا، ثم إلى المراعى طلبًا للبن الخيول. أريد أن أشرب لبن الخيول. وسيسافر معى أحد الأصدقاء مع زوجته. إنها إنسان رائع. ألح عليها لكى تدرس. أريدها أن تقلب حياتها.
وبعد أن تحدثا ذهبا إلى المحطة، وضييفا ساشا شايا وتفاحا. وعندما

تحرك القطار ولوح لها ساشا بالمندبل وهو يتشم، بدا حتى من ساقه أنه مريض جدًا، ولن يعيش طويلاً على الأرجح.

وصلت نادبة إلى مدينتها في منتصف النهار، وعندما توجهت من المحطة إلى البيت بدت لها الشوارع عريضة جدًا والبيوت صغيرة مسطحة. لم يكن هناك بشر فلم تقابل سوى ضابط المعازف الألماني في معطف أصفر. وكأنما كانت البيوت كلها مغطاة بالغبار. أما الجدة، التي هرمت تمامًا، وإن بقيت ممثلة ودميمة كما كانت، فقد أحاطت نادبة بذراعيها وبكت طويلاً ملصقة وجهها بكتف نادبة وهي لا تستطيع أن تنزعه. وشاخت نينا إيفانوفنا بشدة هي الأخرى وازدادت قبحًا، وضمرت كلها، وإن ظلت كما كانت مشدودة بالكورسيه ولمعت الماسات على أصابعها.

وقالت وجسدها كله يرتعش:

- يا حبيبتي، يا حبيبتي!

ثم جلسن وبكين في صمت. وكان واضحا أن الجدة والأم أحستا أن الماضي ضاع إلى الأبد وبلا رجعة: لم يعد ثمة مكانة في المجتمع ولا الشرف السابق، ولا الحق في دعوة الناس إليهم. هكذا الحال عندما يحدث وسط الحياة السهلة الخالية من الهموم أن تأتي الشرطة ليلا فجأة فتجري تفتيشا، ويتضح أن رب الدار بدد أموالا أو زور أوراقا، وعندئذ فوداعًا إلى الأبد أيتها الحياة السهلة، الخالية من الهموم!

وصعدت نادبة إلى أعلى فرأت نفس الفراش، ونفس النوافذ بستائرهما البيضاء الساذجة، ورأت من النافذة نفس البستان الغارق في الشمس، المرح، الصاخب. ولمست طاولتها، وجلست، وفكرت قليلا. وتغدت جيدا، وشربت الشاي بلبن دسم لذيد، ولكنها أحست بشيء ناقص، أحست بخواء في الغرف، وكانت الأسقف منخفضة. وفي المساء أوت إلى الفراش، ولسبب ما أحست أنه من المضحك النوم في هذا الفراش الدافئ الناعم جدا.

وجاءت نينا إيفانوفنا للحظة، وجلست كما يجلس المذنبون، بوجل وحذر.
وسألت بعد صمت:

- حسنا يا نادية، كيف الحال؟ هل أنت راضية؟ راضية جدا؟

- راضية يا ماما.

ونفضت نينا إيفانوفنا ورسمت علامة الصليب على نادية وعلى النوافذ.
وقالت:

- أما أنا فقد أصبحت متدينة كما ترين. أتعلمين، أننى أدرس الفلسفة الآن
وأفكر كثيرا... واتضح لى الآن أشياء كثيرة كالنهار. قبل كل شيء ينبغى أن
تمضى الحياة كلها مثلما من خلال بؤرة العدسة.

- خبرينى يا ماما، كيف صحة جدتى؟

- لا بأس فيما يبدو. عندما سافرت مع ساشا وتسلمنا منك برقية وقرأتها
الجددة سقطت على الفور. ووقدت ثلاثة أيام بلا حراك. وبعد ذلك ظلت.
تصلى وتبكي.. أما الآن فلا بأس.

ونفضت وسارت فى الغرفة.

ودق الحارس: «توك.. توك.. توك.. توك.. توك.. توك..».

وقالت:

- قبل كل شيء ينبغى أن تمضى الحياة كلها مثلما من خلال بؤرة العدسة،
أى بعبارة أخرى، ينبغى أن تنقسم الحياة فى وعينا إلى عناصرها الأولية، مثل
الألوان السبعة الأساسية، وينبغى دراسة كل عنصر على حدة.

لم تسمع نادية ما قالته أمها بعد ذلك ولم تعرف متى انصرفت، لأنها
سرعان ما نامت.

ومضى مايو وحل يونيو. وألفت نادية البيت. وكانت الجددة تعنى بالسماور

وتنهض بعمق، وتحدث نينا إيفانوفنا فى ساعات المساء عن فلسفتها. وكانت تعيش فى البيت، كما فى السابق، عالة، ومضطرة إلى سؤال الجدة فى كل ملهم تريده. وكان فى المنزل ذباب كثير، وبدا كأن الأسقف فى الغرف أصبحت أكثر انخفاضا. ولم تكن الجدة ونينا إيفانوفنا تخرجان إلى الشارع خشية أن تلتقيا بالأب أندريه أو أندريه أندريتش. أما نادية فكانت تتجول فى البستان وتسير فى الشارع وتتطلع إلى البيوت والاسوار الرمادية، وخيل إليها أن كل ما فى المدينة قد شاخ منذ زمن بعيد وانتهى، وأن كل شيء ينتظر إما النهاية، وإما بداية شيء ما فتى وطازج. أوه لو تأتى سريعا هذه الحياة الجديدة الصافية، عندما يصبح بالإمكان أن تحرق فى عيني قدرك مباشرة وبجراحة، وتحس بنفسك على حق، وتصبح مرحا وحرًا! نعم، سوف تأتى هذه الحياة عاجلا أم آجلا! سيأتى وقت لن يبقى فيه أثر لبيت الجدة، الذى تمضى فيه الأمور بحيث لا تستطيع أربع خادومات أن تعيش إلا فى غرفة واحدة، فى القبو، فى القذارة. سيأتى الوقت الذى لن يبقى فيه لهذا البيت من أثر، وسينسونه ولن يذكره أحد. ولم يسل نادية إلا صبيان المنزل المجاور، فعندما تنزه فى البستان، كانوا يدقون على السور ويغيظونها ضاحكين وهم يصيحون:

- العروس! العروس!

وجاءت رسالة من ساشا من مدينة سراتوف. كتب بخطة المرح الراقص أن رحلته إلى الفولجا نجحت تماما، ولكنه مرض قليلا فى سراتوف وفقد صوته، ويرقد فى المستشفى منذ أسبوعين. وأدركت نادية ما معنى ذلك. وتملكها هاجس يشبه اليقين. وكرهت من نفسها أنها لم تقلق كما فى الماضى بسبب هذا الهاجس والتفكير فى ساشا. استبدت بها رغبة عارمة فى الحياة، وفى العودة إلى بطرسبرج، وأصبحت معرفتها بساشا تبدو ماضيا رقيقا، ولكنه بعيد، بعيد! ولم تنم طول الليل، وفى الصباح جلست إلى النافذة وهى تصفى. وبالفعل سمعت أصواتا فى الأسفل. كانت الجدة قلقة وتساءل عن شيء ما بسرعة، ثم

بكى شخص ما... وعندما هبطت نادية رأت الجدة واقفة فى الركن تصلى،
بوجه باك. وكانت هناك بريقة على الطاولة.

وتمشت نادية طويلا فى الغرفة وهى تصغى إلى بكاء الجدة، ثم تناولت
البرقية وقرأتها. جاء فيها: إنه فى صباح أمس مات فى سراتوف بالسل
الكسندر تيموفيتش، أوبيساطة، ساشا.

وتوجهت الجدة ونينا أيفانوفنا إلى الكنيسة لطلب قداس، أما نادية فظلت
تتمشى طويلا فى الغرف وتفكر. وأدركت بوضوح أن حياتها قد قلبت كما أراد
ساشا، وأنها هنا وحيدة، غريبة، غير ضرورية، وكل ما هنا غير ضرورى لها،
وكل ما كان فى السابق قد اقتطع منها، واختفى كأنما احترق وتبعثر رماده فى
الريح. ودخلت غرفة ساشا ووقفت فى مكانها.

«وداعا يا عزيزتى ساشا!» فكرت، وارتسمت أمامها حياة جديدة، عريضة،
رحبة، حياة غير واضحة بعد، مليئة بالأسرار، كانت تجذبها وتشدها إليها.

وصعدت إلى غرفتها لترتب متاعها، وفى صباح اليوم التالى ودعت أهلها
وغادرت المدينة فى حيوية ومرح، غادرتها كما كانت تعتقد إلى الأبد.



أنطون تشيخوف (١٨٦٠ - ١٩٠٤) بالنسبة للكثيرين من المهتمين بالأدب في كل أنحاء العالم هو أعظم كُتّاب القصة القصيرة ورائدها الأهم. كما لا يقل أهمية عن ذلك ككاتب مسرحي وروائي استطاع عبر أعماله العديدة أن يحفر اسمه في ذاكرة الإنسانية وأن يرسخ قيماً فنية تحولت إلى مدارس ومذاهب في الكتابة، مازالت فاعلة ومؤثرة حتى الآن..

هنا نقرأ أعمال تشيخوف بترجمة "أبو بكر يوسف" والتي تصدر في ٤ أجزاء (الأعمال القصصية - الروايات القصيرة - الروايات - المسرحيات)، وهي الترجمة التي يحرص الكثيرون على اقتنائها كترجمة متكاملة نقلت النص بحب فخرج على درجة عالية من الحساسية اللغوية الأضادة.

هذا هو المجلد الثاني.. يضم الروايات القصيرة لتشيخوف ومنها (الراهب الأسود، الفلاحون، القبلة، الرجل المعذب، السيدة صاحبة الكلب).

